

القسم الثالث

في قارة أوروبا

الفصل الأول

في الكلام على هذه القارة وما يتعلق بها

ان قارة أوروبا اصغر القارات ومساحتها ربع مساحة اسيا تقريباً وثالث مساحة افريقية ولكنها مع ذلك هي اعظم واشهر من باعتبار الغنى والقوة والمدن ولا سيما في المائر وامتيازات الصنائع والعلوم وهي قسم من نصف الكرة الشرقي يفصلها عن اسيا جبال اورال وعن افريقية ببحر الروم والمتوسط لتوسطه بين الفارتين وبوغاز جبل طارق الذي يفصل أوروبا عن افريقية بواحد وعشرين ميلاً وهي محدودة غرباً بالاقيانوس الاطلانتى وشمالاً ببحر الثلج الشمالي

اما عدد سكانها فيبلغ ٢٠٠ مليون تقريباً وتنقسم شعوبها الى اربعة اقسام اصلية الاول الشعوب الجرمانية وهم سكان جرمانيا وبريتانيا واسوج ونروج ودنيارك وهولاندا وبلجيوم. الثاني الشعوب السكيتية وهم اكثر سكان روسيا وبعض سكان النمسا. الثالث الشعوب النثرية وهم الاتراك واهل شمالي روسيا.

الرابع الشعوب الذين هم من ذرية الرومانيين القدماء الذين اختلطوا بالقبائل الشمالية التي تغلبت على المملكة الرومانية القديمة وانتشرت في اقاليمها واستوطنتها وهم اهل ايطاليا وفرنسا واسبانيا وبرتغال . وفيها ايضا اجيال اخر كالروم والارمن واليهود من لا يمكن وضعهم في مصاف الرتب المذكورة لانهم اصليون غير متسلسلين من قبائل اجنبية ولغاتهم باقية الى الآن كما هي بلا تغيير

وتنقسم اوربا الى قسمين كبيرين شمالي وجنوبي اما الشمالي فهو شديد التساوة في البرد ويتضمن بلاد المسكوب واسوج ونروج والبلاد الجرمانية ودينبارك وهولاندا وبلجيوم وسويسرا وفرنسا وبريتانيا واما القسم الجنوبي فهو معتدل الهواء يتضمن البرتغال واسبانيا وايطاليا وبلاد اليونان وتركيا وسوف ياتي الكلام على كل دولة منها بالتفصيل والذين الغالب في هذه القارة هو النصرانية

ولا ينبغي ان اهل هذه القارة هم من نسل جومر بن يافث بن نوح الذي هاجر الى شواطئ البحر الاسود وتوطن في تلك النواحي ومن هناك تفرق نسله غربا كما تقدم القول في بداية الكتاب عند ذكر تفرق بني نوح . والمظنون ان بلاد اليونان هي اول قسم سكنته الناس في اوربا من نسل ياوان بن نوح اذ يوجد بعض دلائل تشير الى كثرة عددهم في زمن موسى عند اخراجه بني اسرائيل من مصر وهم من اقدم شعوب الدنيا واول شعب برع وتقدم بالمعرفة والفنون ثم خلف اليونان في اثنان المهن والصنائع الرومان الذين نغني شهرتهم عن وصفهم ثم برابرة الشمال الذين منهم اكثر الممالك الاوربية الحالية

ومع ان قارة اوربا لم يدخلها الناس الا بعد تشعب اسيا وافريقية وكان ينبغي ان يكون اهلها متاخرين عن باقي القارات سواء كان في الفنى والمعارف ام في الهيئة الاجتماعية فتراهم بعكس ذلك قد فاقوا وامتازوا عليهم في كل نوع

من انواع التقدم وليس ذلك الا من اجتهادهم وفرط انصبابهم على مطالعة الاخبار والسبر لاكتساب التمدن والمعرفة بواسطة التمرن والاقدام على عظام الامور في الاكتشافات والاختراعات المادية والعلمية التي من شأنها ان ترقى الانسان ثروة وفيها وترفعه الى حالة سامية . ولا يمكن التسليم بان وسائط الاوربيين التي اوصلتهم الى هذه الدرجة الرفيعة كانت اكثر من الوسائط الموجودة في قارتي اسيا وافريقية بل بعكس ذلك نجد عند المقابلة ان الوسائط في هاتين القارتين ولا سيما في اسيا هي اكثر جدًّا مما يوجد في تلك الرقعة الصغيرة فان اراضيها اوسع واخصب جدًّا وفيها انتشرت المعرفة والنور وعلى الخصوص معرفة الاله الخالق التي هي اساس كل نور وفيها جال رجال الله منذرين واعظين وفيها نشأت اعظم ممالك العالم كملكة اشور ومصر وغيرها ومنها انتشرت الصنائع والعلوم الى الديار الاوربية وغير ذلك مما كان يجب ان يجعلها افضل من اوربا في الفنى والمعرفة والتدب وحسن الحال . واغرب من ذلك ان تقدم اوربا لم يتبدئ قليلاً الا في القرن الثاني عشر والثالث عشر وقبل ذلك لا يشتمل تاريخها الا على اخبار غزوات وانفسامات وحروب لم تأت بها داني فائدة . والارريون انفسهم يفرون ان تجارهم لم تتعش واحوالهم الداخلية لم تحسن نوعاً الا بعد رجوع الصليبيين من الشرق حيث اكتسبوا عوائد وفنوناً آلت جدًّا لتقدم بلادهم ولا سيما في الزراعة والتجـر الذي قبل ذلك الوقت كان ميتاً فيما بينهم . واما تقدم اوربا الحقيقي فلم يتبدئ الا في القرن الخامس عشر اذ منه ابتدأت الاكتشافات والاختراعات المفيدة والاصلاحات المجيدة كصناعة الطبع وصب الاحرف واختراع الابرة المغنطيسية التي سهلت اسفار البحر وبواسطتها اكتشف اماكن غير معروفة ثم اختراع البارود والاسلحة النارية ثم اكتشاف راس الرجا الصالح والسلوك فيه الى الهند ثم اكتشاف فارة اميركا واقتتاح بلدانها ثم اصلاح حالة حكومة الممالك بواسطة فرض حكومة الالتزامات الامر الذي جعل للدول

الكبيرة استقلالاً ونظاماً جيداً . ثم الإصلاح الديني الذي قلب هيئة العالم وسياسة الى غير ذلك من الامور الكبيرة التي ثبتت سيادة الشعوب الاوربية فان كانت اوربا قد حصلت على هذا الفوز والتقدم في برهة ٤٠٠ سنة فقط فلا تيأس اسيا وافريقية من امل الوصول الى تلك الحالة اذا جدت في التشبه بها



الفصل الثاني

في تاريخ سلطنة آل عثمان

الباب الاول

في جغرافية هذه البلاد ووصفها الحالي

هذه المملكة قسم واسع جداً من سطح الكرة الارضية واملاها ممتدة في ثلاثة اقسام من الكرة قسم في قارة اوربا وقسم في اسيا والثالث في افريقية وكل قسم من هذه الاقسام يحوي على اراضٍ مخصبة واسعة واقاليم عامرة شاسعة وانهر ومجبرات وجبال شاهقة وودية وهضاب وبطاح واكثر اقاليمها جيدة الهواء كثيرة النباتات والمعادن والحيوانات المختلفة وعدد اهليها نحو ثلاثة واربعين مليوناً كما في الجدول الاتي . والديانة الغالبة فيها الاسلامية ولكن يوجد فيها ايضاً كثير من النصارى من تبعة الدولة

عدد سكان السلطنة

عدد

في اوربا

عدد

في املاكها الخاصة ٤٤٩٠٠٠٠

رومي الشرقية وهي ايانة تحت حكم اداري محلي ٨١٥٩٤٦

بشناق وهرسك { الحال فيهم النمساويون ١١٥٨٤٤٠

سنجق بني باذار ١٦٨٠٠٠

بلغاريا وهي امرية تدفع مالا معلوماً ١٩٩٨٩٨٣ ٨٦٣١٤٠٠

في اسيا

عدد

املاكها الخاصة ١٦١٢٣٩٠٠

ساموس وهي امرية تدفع الجزية للسلطنة ٤٠٠٨٩ ١٦١٧٣٠٠٠

في افريقية

عدد

ولاية طرابلس الغرب ١٠١٠٠٠٠

مصر تحت سيادة الدولة بما فيه البلاد السودانية ١٧٥٧٧٠٠٠ ١٨٥٨٧٠٠٠

٤٢٢٩١٠٠٠

بيان ذلك

عدد الاهالي في املاكها الخاصة ٢١٦٣٣٠٠٠

عدد الاهالي في الامريات التي تحت حمايتها ٢١٧٥٨٠٠٠

٤٢٢٩١٠٠٠

اما القسم الاول فيجدهُ شمالاً روسيا واسنريا وجنوباً بلاد اليونان وشرقاً البحر الاسود وبحر مرمر وبوغاز الدردنيل وبوغاز القسطنطينية وغرباً البحر المتوسط واسنريا وبلاد البندقية . وهذا القسم يقسم الى اربعة اقسام كبرى . الاول القسطنطينية وما يتبعها من الساجق والاقضية الثاني الرومي الشرقية وهي تحت حكم اداري خصوصي الثالث اميرية بلغاريا وهي تحت حماية الدولة تدفع مالاً معلوماً سنوياً لها والرابع بلاد الهرسك والبشناق مع سنجق يفي بازار الذي دخلته العساكر النمساوية حسب قرار معاهدة برلين سنة ١٨٢٨ وهي الآن تحت حكم الدولة النمساوية مؤقتاً . واما سربيا اي بلاد السرب ورومانيا اي الفلاخ والبقدان فقد صارتا مملكتان مستقلتان كل واحدة منها يملك عليها مالك مخصوص تحت قوانين ونظامات خاصة بها وقررت استقلاليتها في مؤتمر برلين الذي التأم سنة ١٨٧٨ وعدد سكان السرب بحسب عد سنة ١٨٨٢ الف الف وثمان مئة وعشرة الاف نفس وعاصمتها مدينة بلغراد واكثر اهلها روم كاثوليك . واما عدد سكان رومانيا فخمسة ملايين وثلاث مئة وستة وسبعون الفا منهم اربعة ملايين ونصف مليون روم ارتوذوكس تابعين الكنيسة الشرقية والباقيون من اديان متنوعة اكثرهم اسراييليون

واما القسم الثاني اي املاكها في اسيا فيجدهُ شمالاً البحر الاسود وبحر مرمر وجزء من بلاد كرجستان وجنوباً بحر الروم وخليج العجم وبادية الشام وبلاد العرب وشرقاً بلاد اللجم وغرباً بحر مرمر وبحر الروم ايضاً وبوغاز الدردنيل والقسطنطينية . وقد يقسم ايضاً هذا القسم الى ستة اقسام كبرى . الاول اسيا الصغرى المعروف ايضاً ببر الاناضول . الثاني ارمينية . الثالث كردستان الرابع الجزيرة الواقعة بين نهري الفرات ودجلة . الخامس العراق العربي . السادس سورية وفلسطين ويقال لها ايضاً بر الشام

واما القسم الثالث من املاكها في افريقية فهو ولايات مصر وطرابلس الغرب وقد مر ذكرها في محله واما تونس فقد صارت تابعة لفرنسا . وكل من

هذه الاقسام المذكورة يتضمن ولايات ومدائن عديدة . وعاصمة هذه السلطنة مدينة القسطنطينية وتعرف الآن باسلامبول وهي من احسن مدن الدنيا موقعاً واجملها مركزاً مبنية على سبع نلال من اطراف اوربا وعدد سكانها نحو ٧٠٠ الف وكانت قديماً تعرف باسم بيزنتية نسبة الى بانها الاول بيزنس ولما حل فيها الملك قسطنطين الكبير الذي نولى على سلطنة الرومانيين الشرقية جدد بناءها وانشأ فيها القصور الفاخرة وجعلها تخت امبراطوريتيه فسميت من ذلك اليوم باسمه . والثاني تنقسم باعتبار وضعها الى اربعة اقسام الاول المدينة الكبيرة القديمة . والثاني الفلطة . والثالث البوغاز . والرابع اسكودار . اما القسم الاول فهو اجل واجم الجميع لكثرة ما فيه من الابنية الجميع والقصور الفاخرة المزخرفة العظيمة والجموع الكبيرة ذوات المنارات الشاهقة . وفي هذه المدينة نحو ٢٥٠ جامعاً اكثرها من الرخام واعظمها واجملها جامع اجيا صوفيا الذي بناه الامبراطور بوسنينيانوس كنيسة للنصارى طوله ٢٧٠ قدماً وعرضه ٢٤٠ قدماً وهو من احسن واظرف الابنية القديمة التي بقيت من اثار هذه المدينة ثم ان المالك العثمانية تنقسم الى ولايات يتراسها ولاة والولايات تنقسم الى سناجق يتراسها متصرفون والسناجق الى قضية يتولاها قائمقامون والاقضية الى نواح يسوسها مديرون وكما نود ان نذكر اسماء الولايات والسناجق بالتفصيل لكن راينا ان ذلك لا يوافق حالة المستقبل نظراً للتغيرات التي قد يمكن للباب العالي ان يدخلها فيها بحسب ظروف الوقت واحواله اما حكم الدولة العثمانية فمن النوع الملكي المطلق غير ان الاحكام الآن تجري بواسطة المجالس لاجل نظام امور السلطنة وسياسة الرعايا واعضاء هذه المجالس من افراد الوزراء الموصوفين بالذكاء وحسن الراي والتدبير . ومع ان اراضي هذه السلطنة واسعة ومخصبة وفيها وسائط الثروة لا يكثرث اهلها كما ينبغي في اتقان الزراعة ولا يلتفتون الى تقدم الصنائع والتتوف والعلوم فيجتاحون الى جلب اغلب لوازمهم من البلاد الاجبية ولذلك لا يتقدمون

في الثروة كما انهم يتقنرون في المدن غير ان ذلك التهامل قد ابتداءً الآن يزول وبدأ النور بسطو على الظلمة . اولاً بواسطة انتباه الاهالي وثانياً بواسطة المشروعات الخيرية والمطابع والمدارس التي تأسست في هذه الايام في العاصمة وباقي انحاء السلطنة العثمانية لافادة الرعايا من جميع الطوائف . فهذه الوسائط من اقوى اسباب التهذيب والنجاح والمأمول انه بهمة الدولة العلية وعنايتها سترقي البلاد الى درجات سامية من التقدم والفلاح اذ تعادل البلاد الاوربية التي لم تصل الى ما وصلت اليه من الحالة الزاهرة الآن الا بعد ان حذت في السبيل الذي نورها عنه آفاقاً

اما قوة هذه الدولة العسكرية فتعد من الطبقة الاولى ويمكنها ان تخرج الى ميدان القتال عند الحاجة ما يزيد عن ٦٠٠ الف جندي مع الف وخمس مئة مدفع ورجالها يعدون من الابطال الصناديد وقد اشتهروا في البسالة واقتحام المخاطر واحتمال مشقات الحرب ولكن عمارتها البحرية ضعيفة بالنسبة الى الدول الكبيرة نظيرها

هذا ولما كان الوقوف على اخبار هذه الدولة العظيمة الشأن وسلاطينها العظام من الامور التي تستحق ان تحل في بطون التاريخ مدى الازمان راينا ان نذكر شيئاً من نوادر اخبارهم وما لهم من الفتوحات المشهورة وذلك على وجه الاختصار فنقول وبالله التوفيق

الباب الثاني

في اصل تاسيس الدولة العثمانية وذلك من سنة ١٢٠٠ ب م

الى وفاة السلطان مراد الثاني سنة ١٤٥١ ب م

ان اصل سلاطين آل عثمان من التركان الرحل من طائفة التتر

الاغوزية وينتهي نسيم الى ياقث بن نوح وكان مبدأ ظهورهم انهم جاءوا من
نواحي خوارزم سنة ١٢٢١ للميلاد ونزلوا بجبال طوروس والتفتوا بسلاطين
قونية السلجوقيين الذين كانوا يوثقون مستولين على اسيا الصغرى وارمينيا وبلاد
كرجستان فدخل بعض رؤسائهم في خدمة علاء الدين السلجوقي سلطان
قونية ومن حملهم سليمان شاه وكان اميراً على نيرة وهي مدينة قريبة من بحر الخزر
وبعد موته نزل ولده الامير ارطغرل مدينة سرغونة ومعه من التركمان عدة
عشائر وكان اميراً عليها مدة اثنتين وخمسين سنة وكان خاضعاً للسلاطين
قونية وبعد موته خلفه عليها ولده الامير عثمان سنة ١٢٩٦ للميلاد وهو الذي
اقام دعائم الدولة الغانية واسسها في بر الاناضول سنة ١٢٠٠ مسجية على ما
بقي من اثار الدولة السلجوقية التي اندرست سنة ٢٩٤ للميلاد . وبعد اندراس
تلك الدولة ودمار سلاطينها استقل من كان تحت نسلها من الامراء وتناصبوا
الممالك فيما بينهم فكان نصيب الامير عثمان منها جزءاً من مملكة بورصة وبعض
بلاد بر الاناضول فتولى احكام البلاد المذكورة وقرر لها قواعد وتنظيمات .
وفتح هذا السلطان فتوحات كثيرة واستولى على اقاليم شهيرة ولقب بالغازي
لشجاعته وكثرة فتوحاته ومغاريه . ولما استقل امره وتمكن من السلطنة نقل
كرسيه الى مدينة يفي شهر واقام بها وكان مع شجاعته كريماً حتى كان لا يمسك
شيئاً ولم يترك عند موته من جميع الاموال والتحف النفيسة التي استغور عليها
في حروبه ومغاريه سوى بعض ملبوسات وامتعة لا تذكر من جانبها سبعة كان
يحملها دائماً يقال انها لم تنزل موجودة في بيت التحف في القسطنطينية . وكانت
مدة ولايته سبعاً وعشرين سنة

وتولى بعده ولده اورخان سنة ١٢٢٦ فسلط مسلط ايده في الحروب
والغزوات ووسع نطاق الملك بفتوحات جديدة ففتح مدينة بورصة وانشأ فيها
ابنية جميلة ونقل اليها كرسي ملكه . وكانت جيوش ايده مؤلفة من فرسان
التركمان ولم يكن لهم معرفة بالضبط والربط العسكري ولا انتظام حال في

القتال فاستصوب السلطان اورخان ترتيب عساكر جهادية لاجل تأييد سلطته والاستعانة بها عند الحاجة فحدث وفاق الانكشارية . ثم وسع دائرة هذا الوراق ابنه السلطان مراد الاول ثم اكمل نظامه وحسن ترتيبه السلطان مراد الثاني ابن السلطان محمد الاول وما زال الانكشارية في التقدم والازدياد حتى امتازوا عن جميع الوراقات العسكرية بالشجاعة ونفوذ الكلمة فخافت السلاطين اخيراً سطونهم اذ اصبحوا ارباب الحل والربط في دولة آل عثمان يتصرفون كيفما شاءوا في الاحكام ويساكون مسلك الرياسة والعنفوان ويعزلون من ارادوا من السلاطين والوزراء واستمروا على هذه الحال الى زمن السلطان محمود الثاني حينما قرضهم بالكلية ودمر وفاقهم واقام مكانهم العساكر النظامية كما ستقف عليه في محله ان شاء الله تعالى

ولما نقل السلطان اورخان كرسي الملك الى مدينة بورصة اخذ في الاهتمام والاستعداد لافتتاح مدن جديدة فجهز الجيوش وجند الجنود وهاجم بلاد اليونان فافتتح اكثر بلدانها وعامل اهلها بالشفقة والرحمة حتى ان كثيراً من النساء الروميات اللواتي فقدن اولادهن ورجلهن في تلك الحروب كن يستغثن به ويقعن على قدميه ويطلبن منه المساعدة فكان يلاظهن بالكلام وينعم عليهن بما يسر خواطرهن فالت اليه قلوب الناس وما زال يتقدم ويمتد في فتوحاته حتى اشرف على خليج القسطنطينية وبوغار غليبولي

وكانت بومثريه الامبراطورية الرومية في حالة الانحطاط الكلي واركانها مترعزعة ولا سيما بسبب الحروب الداخلية التي حدثت فيها بين سنة ١٢٤١ و ١٢٤١ في زمن وكالة يوحنا كيناكوزين الذي كان نائباً للامبراطور يوحنا باليولوغوس مدة حياته فكان ذلك داعياً لدخول الدولة العثمانية الى بلاد اوربا . وذلك ان النائب المذكور لما رأى نفسه مبعوضاً ومرفوضاً من طوائف الروم استعان عليهم بال عثمان فامدوه واتصروا له عند دخولهم اوربا وبهذه الوسيلة استولوا على جملة حصون وبلدان في تلك الجهات . ثم في سنة ١٢٥٩

بم اجناز الامير سليمان ابن السلطان اورخان بوغاز شتى قلعة وفتح مدينة
 غلبولي التي هي مفتاح القسطنطينية ثم توفي في عنفوان شبابه سنة ١٢٦٠ فخرن
 عليه ابوه السلطان اورخان حزناً عظيماً ومن فرط حزنه استولت عليه الغموم
 والامراض ولم يمكث بعده الا زمناً يسيراً وتوفي تلك السنة نفسها
 وبعد وفاة السلطان اورخان خلفه ولده السلطان مراد الاول سنة
 ١٢٦٠ وكان من شجاعتين الرجال مجاهداً في انتشار دين الاسلام وكان عند
 جلوسه على كرسي الملك انه فتح مدينة ادرنة ثم اقليمي السرب والبلغار سنة
 ١٢٦٥. وفي نحو سنة ١٢٨١ مسيحية كان في بر الاناضول جملة امراء من
 الانراك لم يزلوا باقين في حالة الاستتال فحاربهم واخضعهم. وكان قد خطب
 لابنه بايزيد ابنه امير كرميان رغبة في اكتساب محبة ولاية اميا الصغرى والاتحاد
 معهم فزوجه بها وبهذه الوساطة استولى على مقاطعة كرميان وغيرها من
 الولايات ثم على مدينة كوتاهيا التي وهبها امير كرميان الى ابنته عند زفافها.
 سنة ١٢٨٦ اخضع لسلطنته معظم مقاطعتي مكدونيا وبلاد الارناوط. ثم في
 سنة ١٢٨٨ نهض اهل السرب والفلاخ واهل دلماطيا والمجر والبلغار ونحزبوا
 جميعاً عليه قاصدين بذلك تعطيل فتوحاته وتوقيفه عن التقدم فحاربهم هذا
 السلطان وشتت شملهم وفرق جموعهم غير انه في اثناء جولائه في ساحة القتال
 وثب عليه عسكري بلغاري كان مستتراً بين القلبي وطعنه بنحجر في احشائه فقتله
 وخلفه ابنه السلطان بايزيد الاول سنة ١٢٨٨ وكان على جانب عظيم
 من الشجاعة وقد تعود مقاساة الخطوب ومشقات الحروب فتبع خطوات ابيه
 في الغزو والجهاد. وكان اول امر شرع فيه افتتاح الممالك التركية الصغيرة
 التي كانت مستقلة في جهات الاناضول. ثم افتتح ايلات الرومي ومكدونيا
 والبلغار. وبعد هذه الانتصارات صم على افتتاح مدينة القسطنطينية واخضاع
 الممالك الافرنجية فزحف بجيش عظيم الى نواحي اوربا واستولى على مدينة
 سالونيك ثم شن الغارة على بلاد المجر واتصر على جيش الافرنج في وقعة عظيمة

حدثت في ٢٨ من شهر ايلول سنة ١٢٦٦ ثم حول وجهه نحو القسطنطينية وشرع في حصارها . وكان امبراطورها يومئذ مانوئيل باليولوجوس فاضطرب وبعث الى من جاوره من الملوك يطلب اليهم المساعدة والامداد على حرب المسلمين وكان بايزيد قد خاف من اتحاد ملوك النصارى وتحزيم عليه فعقد مع الروم صلحاً على عشرينين بشرط ان يدفعوا له كل سنة ثلاثين الف ريال وان يجعل في القسطنطينية قاضياً من قضاة الاسلام وان يبني بها مسجداً للمسلمين . غير انه لم يمكك الا قليلاً حتى خرق شروط تلك الهدنة وعاد الى حصار القسطنطينية ثانية وضيّق عليها حتى كاد يفتحها . ولكن لما بلغه قدوم تيمورلنك بعساكر التتر على ملكه وافتتاحه كثيراً من بلدانها اضطرب وعظم الامر عليه فالتزم ان يرفع الحصار عنها وقفل راجعاً بياقي جيشه ليدافع عن بلاده فالتقى تيمورلنك في سهلٍ بقرب مدينة انقره في ٢٠ من شهر تموز سنة ١٤٠٢ فاشتبك بينهما القتال من الصباح الى الغروب وكان يوماً هائلاً كثُر فيه القتلى من الطرفين حتى صارت الارض كلون الارجوان من دماء الفرسان وكانت النصرة لتيمورلنك فهزم جيوش الاتراك وقبض على السلطان بايزيد وسجنه في قفصٍ من حديد وما زال في حبسه الى ان توفي في ٩ من شهر اذار سنة ١٤٠٣

وكان تيمورلنك قد صمَّ على افتتاح القسطنطينية والاستيلاء على الممالك الرومية ولكنه لما تعسر عليه عبور البوغاز نظراً لعدم وجود السفن ترك تلك البلاد ورجع الى بلاده بعد ان افتتح الديار الشامية واكثر الممالك الشرقية . وبعد وفاة السلطان بايزيد وقع الخلاف والشقاق بين اولاده ودامت بينهم المنازعة نحو احدى عشرة سنة وكان ولده الامير عيسى قد وضع يده على جميع البلاد الواقعة بالقرب من انقره وسينوب والبحر الاسود فوثب عليه اخوه الامير محمد فقتله واستولى على تلك الاقاليم واما اخوها سليمان الاول فاختره آل عثمان ان يكون سلطاناً عليهم في اوربا فبايعوه بالخلافة مكان ابيه بايزيد

وكان فاترا لهبة ضعيف الرأي منهمكا بالملهي والذات وكان اخوه الامير موسى يترقب فرصة لكي يفتك به فانقض عليه ذات يوم وهو راقد في فراشه وطمعته تجنجر في صدره فقتله وكان ذلك سنة ١٤١٠ الميلاذ ثم اقتسم السلطنة مع اخيه السلطان محمد الاول . وسنة ١٤١٢ وقع بينه وبين اخيه محمد المذكور خصام ونفور افضى بهما الى القتال فتحاربا وكانت الدائرة على الامير موسى فولى هاربا فتبعه فارس من فرسان اخيه السلطان محمد وقبض عليه وقتله وجاء براسه الى اخيه . وبعد ذلك انفرد السلطان محمد الاول بالسلطنة وصنعت له الايام وانت اليه رسل ملوك الافرنج والروم مقدمين له النهائي بالنيابة عن ملوكهم فاحترمهم واكرمهم ثم شرع في تهديد الامور وعقد الصلح مع الدول الاجنبية وقوى معهم روابط المحبة والاتحاد ورد الى الامبراطور مانوئيل جميع ما كان اخذه منه اسلافه من الحصون والولايات . وبالجمة كان سعيد الطالع عادلا كريما شفوفا على الرعية وهو اول من شرع في ترتيب العساكر البحرية وفتح مدينة ازمير ونقل كرسي السلطنة الى ادرنة (لدرينوبل) واعاد رونق السلطنة وسع نطاقها ونظم امورها وجعلها على امن اساس بعد ذلك الخراب الذي اصابها من وقائع تيمورلنك ملك التتر واستمر عزيزا جليلا الى ان ادركنه الوفاة

وقام بالملك بعده ولده السلطان مراد الثاني سنة ١٤٢١ فقام بتدبير السلطنة اتم قيام وكان محبا للغزو والفتوحات لكي يوسع سلطنته واول امر وجه فكره اليه فتح القسطنطينية فقام بمئتي الف مقاتل وحاصرها حصارا شديدا مقاومة اهلها اشد مقاومة ولما يس من فتحها رفع عنها الحصار وارتد راجعا الى املاكه في اسيا لتسكين نيران الفتن التي اضرها الروم في تلك النواحي وبعد موت الامبراطور مانوئيل اذن السلطان لخليفته يوحنا باليولوغوس ان يستولي على القسطنطينية وفرض عليه جزية معلومة بدفعها لخزنته في كل سنة وشرط عليه ان يتنازل له عن جميع البلاد خلا القسطنطينية وضواحيها .

فبذلك استولى السلطان مراد على جميع القلاع والحصون الباقية تحت تصرف الروم على سواطي البحر الاسود وسواحل الرومي وملكني مكدونيا وثيساليا واستخلص ايضاً جميع المدن والبلاد التي داخل برزخ كورنثوس وما زال يتقدم في فتوحاته حتى داخل بلاد المورة . فلما ذاع في اوربا خبر فتوحات الاتراك ارتعدت فرائص الممالك الافرنجية خوفاً من ضياع النسططينية وتقدمهم على باقي الممالك النصرانية فنهض البابا اوجينيوس وشرع في عقد تحالف بين الدول الافرنجية لاجل مقاومة المسلمين فتصدى لذلك لادسلاس ملك المجر وبولونيا وتقدم بعساكره تحت قيادة رئيسهم يوحنا هونيادس المشهور وانضم اليهم جمهور من المجاهدين الفرنسيين والجرمانيين وصدمو الاتراك في معركتين عظيمتين واستظهروا عليهم حتى اضطر السلطان مراد ان يعتد معهم صلحاً وينسحب . وكان ذلك في سنة ١٤٤٢ . فلما سكنت تلك الفتنة والفتاقل تنازل هذا السلطان عن كرسي السلطنة الى ولده محمد الثاني الملقب بالفاتح وانقطع في داره منفرداً عن الناس وانعكف على العبادة فانهز الملك لادسلاس تلك الفرصة لتسخ الهدنة المذكورة وتقدم ثانية لمحاربة الاتراك بعد ان حرّض ملك القرماني على مقاتلتهم

ولما رأى السلطان مراد هذه الاحوال خاف من عواقب الامور واضطّر ان يعود الى الملك ثانية فجهز جيشاً عرمرماً وسار لمصادمة الافرنج فتلاقى الفريقان في ١٠ من شهر تشرين الثاني سنة ١٤٤٤ تجاه مدينة فارنا على سواحل البحر الاسود فشبت بينهما نيران القتال وثبتت جيوش النصارى امام صفوف المسلمين في تلك المعركة الهائلة وقاومت الجيوش العثمانية اشد مقاومة مع انهم كانوا اقل عدداً منهم بسبب انتحاب معاضديهم الفرنسيين والجرمانيين الذين كانوا قد رجعوا الى بلادهم بعد الانتصار الاول . ولكن حية لادسلاس ملك بولونيا وشجاعة الخالة من البصر حملته على اقتحام مواكب الاعداء فقتل في ساحة المعركة وموته انهزمت جنوده وتفرّق شملهم فاخذ هونيادس قائدهم

جميع شتيت العساكر وبحرضهم على الرجوع والثبيت فلم ينجح لان الرعب كان قد استولى عليهم وكان عدد قتلاهم عشرة الاف نفس
ثم ان السلطان مراد الثاني بعد هذه النصره تنازل عن الملك ثانية الى ابنه السلطان محمد الثاني وعاد الى انفراد كالاول . واذ لم ترض الانكشارية (١) بذلك اضطر ان يعود الى السلطنة وعاد ايضا الى ما كان عليه من حب الغزوات وقام بمجيوشه وتقدم نحو بلاد الارناؤط . وكان رجل يدعى يوحنا كاتريو حاكما بالارث على قسم صغير من تلك البلاد فلما رأى قدوم السلطان بالعساكر الجمره لمحاربتو خاف سوء العواقب وعند معه صلحا وعاهده على دفع الجزية وانه يتقاد لجميع اوامره بشرط ان يبقه في ولايته وان يكون من جملة عماله فاجابه السلطان الى ذلك بعد ان اخذ اولاده الاربعة رهينة عنده فاخطط ثلاثة منهم بما اليك السلطان حتى صاروا لا يمتازون عنهم في العوائد والملابس . واما الرابع وهو اصغرهم المسمى جورج فارتقى في باب السلطان الى درجة سامية بسبب ذكائه وشجاعته ثم اسلم بعد ذلك ولقب باسكندر بك وصرف معظم ايامه في الحروب في خدمة الدولة العثمانية ولكنه ندم اخيرا على ما فرط منه في محاربة الطوائف المسيحية فارتد الى مذهبه الاصلي ومن ذلك الوقت صار من اكبر الاضداد والمقاومين للدولة العثمانية فهيج اهالي البلاد وحرضهم على محاربتها . وكان السلطان مراد قد ركب على قسطنطين امير المورة وباقي الاقاليم المجاورة تلك البلاد فاخضعهم ورتب عليهم الخراج وجرت على اثار ذلك حروب كثيرة بينه وبين الارناؤط والمجر الى ان توفي بداء النقطه

(١) ان لفظة انكشارية مستعملة بحسب الدارج ولكن لا معنى لها والكلمة الاصلية

هي بكجري ومعناها عسكر جديد

الباب الثالث

في قيام السلطان محمد الثاني وفتح القسطنطينية وفيما جرى
بعد ذلك من الحوادث من سنة ١٤٥١ الى وفاة السلطان
سليم الاول سنة ١٥٢٠

وقام باعباء السلطنة بعد موت السلطان مراد الثاني ابنه السلطان محمد
الثاني الملقب بالفاتح سنة ١٤٥١ م وكان هذا السلطان من اشهر سلاطين
آل عثمان موصوفاً بالشجاعة وقوة الجنان وعلو الهمة وقد قال فيه بعض
واصفيه

ناج الملوك محمد من دوخت هام الملوك من العدا سطوانه
فخر السلاطين العظام وبابه شرف الانام رفيعة درجائه
مجلوسه طاب الزمان وقد صفت اوفائه واستسعدت ساعته
وكان ابوه السلطان مراد قد اوصاه قبل وفاته ان يوجه معظم افكاره نحو
افتتاح القسطنطينية فكانت اماله متعلقة بالحروب والغزوات وتوسيع دائرة
السلطنة . وكان اول اسر وجه فكره اليه افتتاح القسطنطينية والاستيلاء على
الاقطار الرومية حسب وصية ابيه فاخذ يتجهز لحصارها . وكان يومئذ على
القسطنطينية الامبراطور قسطنطين دراغاسيس ابن الامبراطور عمانوئيل فلما
بلغه هذا الخبر انزعج ونثر وارسل اليه بلاطفه بالكلام فطرد رسله وجعل يبني
حصوناً وابراجاً على جهات بوغاز القسطنطينية ثم بعث اليه سفارة ثانية يقول
له ان بناء هذه القلاع والحصون ما وراءها الا الخصام وجيوش الشر والحرب
فان لم تحملك اليهود والموائيق على عقد الصلح بيننا فذاك اليك وقد فوضت
امري الى الله تعالى فان هداك وعطف قلبك كان ذلك غاية المراد وان
كان قد قضى لك بشغ القسطنطينية فلا مرد لقضاء احكامه والا فلا ازال

ادافع عنها بكل طاقتي وجهدي الى اخر نعمة من حياتي
 فلم يلتفت السلطان محمد الى ذلك المقاتل بل استمر على ما كان عليه من
 الاستعداد واخذ الالهة للحرب في تجهيز العساكر والاستعدادات بخلاف
 الامبراطور قسطنطين فانه كان يطلب المعونة والامداد من الدول الافرنجية
 ويعدهم كاسلافه بضم الكنيسة الرومية الشرقية الى الكنيسة الرومانية الغربية.
 فسراً البابا هذا الخبر لانه كان يثناه وارسل له نجدة من عساكر ملوك الافرنج
 فلم يجد ذلك نفعا اذ لم يكن للروم اهتمام بهذه الحرب وذلك لكرههم ضم
 الكنيستين معاً ومن جرى ذلك وقعت البغضة في قلوبهم لملكهم قسطنطين
 وتخلوا عنه وكانوا يزعمون ان الله سوف يخذلهم ويسمح بخراب المدينة وسقوط
 الامبراطورية ودمارها لسبب مشروعه في ضم الكنيستين الى كنيسة واحدة وان
 المدافعة والمحاربة في هذا الامر ليستا بمعهودتين وقد وافقهم على هذه الافكار
 احد وزراء الدولة العظام وهو الدوك نوناراس فانه قال باعلى صوته احب
 اليّ ان ارى في القسطنطينية تاج السلطان محمد من ان ارى فيها اكليل البابا
 وهكذا زاد فتورهم وتخلي اكثرهم عن حماية المدينة حتى لم يبقَ بينهم من يدافع
 ويحامي عنها الا نحو عشرة الاف رجل ما بين روم ولانينيون انحصر فيهم
 رجاء العاصمة

هذا وبينما كانت هذه الامور تجري في القسطنطينية واذا بالسلطان محمد
 الفاتح اقبل عليهم بجيش جرار يبلغ ٢٦٠ الفاً في شهر نيسان من سنة ١٤٥٢
 وكان مصحوباً بعارة بحرية مؤلفة من ٢٠٠ سفينة فارتل بجيشه حول المدينة
 وحصرها من كل الجهات وبعث الى الامبراطور قسطنطين يطلب اليه ان
 يسلم المدينة تحت شروط ثقيلة مذلّة فابي وصم على الجهاد الى النهاية . فشدد
 السلطان الحصار وعين اليوم ٢٩ من شهر ايار للهجوم على المدينة وفي عشية
 ذلك اليوم جمع الامبراطور قسطنطين اعيان الامراء والقواد ومن بلوذه من
 اكابر الروم الذين علمهم الاعتماد واخذ يحرضهم على القتال والثبات لعلم

بفوزون وبعد خطابٍ مستطيل اخذوا بالبكاء والعيول وعانق بعضهم بعضاً بقصد الوداع ثم قصدوا الاسوار ونحسوا فيها ولما كان ذلك اليوم المهول هجمت عساكر آل عثمان على الاسوار وكان قسطنطين قائماً في وسط المعركة قائداً للجيش يشجعهم ويقاتل كاحد الجنود فاستمر على ذلك مدة طويلة ولما ايس من الظفر وايقن بالهلاك تجرد من اسلحه الذهبية والقي نفسه بين صفوف الاعداء فقتلوه ولم يعرفوه وموته انتهى القتال. فدخلت جيوش الاتراك المدينة ونهبوها واسروا اهلها واحرقوا بعض ابنتها ومكاتبها

ولما عزم السلطان محمد الفاتح على ان يجعل القسطنطينية مقر سلطنته رخص لكل من اراد الرجوع اليها من الروم ان يبقى على دينه رغبة في عمارها لكن لما كان ذلك غير كافٍ لزميها وتحسينها امر بجمع نحو عشرة الاف عائلة من ولايات مختلفة ايانوا اليها ويسكنوها وولى على الاروام بطريقاً واعطاه عصا البطريركية وخانها حسبما جرت به عادة القياصرة في الازمنة السالفة وقسم باقي المدينة من كنائس ومعابد بين النصارى والمسلمين وجعل لكلٍ من الفريقين حدوداً لا يتعداها الاخر واستمر الحال على ذلك سبعين سنة حتى قام السلطان سليم الاول ففسخها وابطلها

وكان السلطان محمد بعد استفتاح القسطنطينية بثلاث سنين قد وجه همة الى افتتاح جزيرة رودس فتهدد اهلها وطلب منهم الخراج فاجابه رئيسهم يوحنا دولستيك ان فرسان هذه الجزيرة لم يملكوها الا بشجاعتهم واعانة الله تعالى لا بعناية احد من الملوك وها انا مستعد للمدافعة عنها الى النهاية الا انه عرض للسلطان ما شغله عن محاربتها وذلك ان البابا كالكستوس الثالث اخذ يبحث ملوك الطوائف المسيحية ويحرضهم على محاربة الدولة العثمانية . فلما بلغ السلطان محمداً هذا الخبر نهض بمئة وخمسين الف مقاتل وحاصر مدينة بلغراد سنة ١٤٥٦ وضيق عليها براً وبحراً حتى كاد يفتقها. فاخذت اجدرهبان القديس فرنسيس غيرة شديدة وصار يبحث المسيحيين ويحرضهم على المدافعة

عن تلك المدينة فاستمال نحو اربعين الفا من العساكر النساوية وقادهم
بنفسه الى يوحنا هونيادس قائد جيش الجر فاضرباً بالسفن العثمانية بواسطة
هذه النجدة وفقد اكثرها . واستمر السلطان محمد نحو اربعين يوماً وهو يكرر
الهجمات على المدينة المذكورة بلا فائدة ثم ارسل عنها بعد ان قُتل من جيشه
عددٌ عظيمٌ . واما هونيادس المذكور فخرج جرحاً بليغاً مات به . وكان
هذا السلطان بعد هذه الغزوة قد زحف على ولاية اثينا سنة ١٤٥٦ للميلاد
فتفتحها سنة ١٤٥٨ فتح اقليم السرب الذي كان قد رده السلطان مراد
الثاني الى امراء هذا الاقليم سنة ١٤٤٤

وفي اثناء ذلك وقع الخصام والنزاع بين الملك توما والملك دينربوس
بالبولوغوس وهو اخو امبراطور الروم لجهة ملكة المورة التي كانت تحت
حكمها وكانا يدفعان الخراج عنها للسلطان فخارب توما شريكه دينربوس
وهزما فطلب دينربوس المساعدة من السلطان على خصمه توما وزوجه ابنة
ليستيلة اليه فابي دعوته وانجده على توما المذكور فولى هارباً من تلك البلاد
اما السلطان فحمله الطمع بعد ذلك على استخلاص الملكة من ايدي دينربوس
فضأه الى بعض الاديرة واستولى على المورة ما عدا بعض حصون كان توما
قد سلمها قبل فراره للبابا واهالي البندقية

وسنة ١٤٦١ استولت الدولة على طرابزون وهي الملكة الوحيدة التي
كانت باقية من اثار السلطنة الشرقية وفتحت ولاية سينوب واتي بصاحبها
داود كومو بن اسيراً الى القسطنطينية فقتله السلطان محمد حيث اتهمه بمراسلات
خفية مع ملك العجم وكان ذا ثمانية اولاد فامر بقتلهم ايضاً . وسنة ١٤٦٢ تملك
على اقليم بوسنيا وشن الغارة على ولايات التلاخ والغدان والصقالبة . وسنة
١٤٧٠ فتح جزيرة اغريوز من اعمال البندقية بعد ان اوقع باهلها وقتل اكثرهم .
ثم استولى على بلاد الارناوط باسرها . سنة ١٤٨٠ صم على افتتاح جزيرة
رودس فارسل لها عمارة بحرية مشحونة بمئة الف مقاتل تحت قيادة ميشطس

باشا الذي هو من العائلة الباليولوجية الامبراطورية وكان قد اعتنق الديانة الاسلامية بعد فتح السلطان محمد الثاني مدينة القسطنطينية فحاصر الجزيرة المذكورة ثلاثة اشهر بدون نتيجة ثم ارتحل عنها . وكان هذا السلطان العظيم لا تكل همة ولا تقدر عن الفتوحات وشن الغارات فجهز سنة ١٤٨١ جيشين عظيمين احدهما لمحاربة جزيرة قبرص تحت قيادة احد وزرائه وقاد الثاني بنفسه لقتال العجم وبينما هو في اثناء الطريق ادركته الوفاة فمات بمدينة ازنميد في تلك السنة بنفسها وكانت مدة ملكه احدى وثلاثين سنة

وقد أعقب ولد بن بايزيد وجم فقام بالسلطنة بعده البكر منها وهو بايزيد الثاني سنة ١٤٨١ وكان شاعراً اديباً محباً ومواظباً للدرس وكان قد اغار على الديار المصرية لاستخلاصها من ايدي المماليك المجرسية ولكنه بعد حرب شديدة وقعت بينه وبين قايتباي سلطان مصر عند جبل امان في قرمان قتل راجعاً الى بلاده بدون فائدة . ثم قصد بلاد اوروبا سنة ١٤٨٦ واستولى على جانب من بلاد البغدان وغيرها من اقاليم تلك الاطراف . وسنة ١٤٩٢ زحف على بلاد بولونيا فوقع بها واستولى على جانب عظيم منها . ولم تخل السلطنة في ايامه من المشاجرات واشتت الداخلية وذلك لانه كان له خمسة اولاد خرج اثنان منها عن طاعته واقلنا راحته وراحة البلاد فالنزم الى قتلها . وكان ولي عهده الامير احمد فاتر الهمة ضعيف الراي يحب الانفراد والوحدة فلذا كانت الانكشارية تكرمه وتبيل الى اخيه الامير سليم فعاهدوه بالملك ودعوه الى السلطنة فاجتاز بوزار القسطنطينية سنة ١٥١١ مسيحية بعشرين الف مقاتل لاستخلاص المملكة من يد ابيه فحاربه ابوه وهزمه ولما خابت مساعيه قصد بلاد القرم فاقام بها برهة ثم قصد القسطنطينية ثانياً بمجموع وافرة وجرى بينه وبين ابيه عدة وقائع ولما اشتد الحال على السلطان بايزيد خلع نفسه عن السلطنة وعهد بها اليه وطلب منه ان ياذن له في الذهاب الى مدينة ادرنة ليفيم بها باقي ايامه

فلما قبض السلطان سليم الاول على زمام الملك سنة ١٥١٢ امر بقتل اخويه الباقيين وكان لاختيه احمد ولدان فالتجما احدهما الى بلاد العجم والاخر الى سلطان مصر فطلبهما عمهما من ملكي تلك البلاد فايما تسليهما فكان ذلك داعياً لافتتاح باب الحرب فتجهز السلطان سليم الاول عند ذلك لحرب العجم وزحف اليهم سنة ١٥١٤ بجيش جرار فالتقى الفريقان تحت اسوار مدينة طوروس فاقتتلا قتالاً شديداً ودامت المعركة ساعات طويلة وكانت الدائرة فيها على الاعجام فولوا الادبار واركبوا الى الفرار بعد ان قُتل منهم عددٌ عظيمٌ وقتل من آل عثمان اربعون الفا حتى عدوا ذلك اليوم الذي انتصروا فيه من الايام المشومة ثم ارتدوا على الاعقاب وكان السلطان سليم قد صمَّ على ان يشن الغارة على بلاد العجم ثانياً فمعه الانكشارية عن ذلك

وسنة ١٥١٦ اغار السلطان سليم على ممالك مصر بجيش عدده ١٥٠ الف مقاتل فخرج الغوري سلطان مصر لمحاربتوه فالتقى به في مهل مدينة حلب واشتبك بينهما القتال فانهمز الغوري واستولى السلطان سليم على حلب ودمشق سنة ١٥١٧. ثم حدثت معركة ثانية بالقرب من مدينة غزة انهزمت فيها جيوش المماليك ثم تجمعوا على بعد ستة اميال من القاهرة تحت قيادة سلطانهم طومان باي الذي تولى بعد الغوري الذي مات بثناء معركة حلب فوافاهم السلطان سليم الى هناك وقائهم وفرَّق جموعهم وقبض على طومان باي المذكور وشنَّه واستولى على الديار المصرية وبعد ما اصلح حالها اقام بها نائباً ورجع الى القسطنطينية واخذ في تكثير المهات والاسلحاد لحروب وغزوات جديدة وفي اثناء ذلك ادركته الوفاة وكانت مدة ملكه نحو ثمان سنين

الباب الرابع

في الكلام علي حكم سليمان الاول وفتح جزيرة رودس وما حدث
بعد ذلك من سنة ١٥٢٠ الى وفاة محمد الثالث

سنة ١٦٠٢

انه في نفس السنة التي منع فيها شارلكان (وهو كارلوس الخامس)
امبراطوراً جلس السلطان سليمان علي كرسي السلطنة سنة ١٥٢٠ والافرنج
بسمونه سليمان الثاني حاسين سليمان ابن السلطان بايزيد الاول سليمان الاول.
وبما ان هذا السلطان من اشهر سلاطين آل عثمان نظراً لفتوحاته وعلو همة
وطول مدة حكمه رأينا ان نتوسع قليلاً في اخباره فنقول انه كان سلطاناً رفيع
التدبر موصوفاً بالحكمة والحزم وقد انشأ قوانين جديدة بها ضبط سلطته
واحسن سياستها وقسم مملكته الى عدة ولايات واقام في كل ايالة فرقة من
العساكر للمحافظة ورّب مع غاية الاتقان جميع ما يلزم لضبط العساكر ونظم
ايضاً منوالاً جديداً لدخل الدولة وخرجها واقام فيها جملة ابنة فاخرة فازدادت
شوكة الدولة في ايامه وتحسنت احوالها جداً

ولم يكن السلطان سليمان دون الملوك العظميين معاصريه في العظمة
والبطش فانه كان بارعاً كشارلكان في السياسة والمعرفة ومعادلاً لفرنسيس
الاول ملك فرنسا في القوة والشجاعة. ولما صفاه الوقت وراق وكانت فرنسا
واسبانيا والمانيا وإيطاليا جميعاً مهطبة بالمنازعات من حثية ولاية ميلان
وظهور لوثيموس وغير ذلك من الخصومات والانشقاقات اغتم السلطان
سليمان فرصة هذه الامور وزحف بعسكر جرار سنة ١٥٢١ على بلاد المجر واقام
الحصار على مدينة بلغراد وكانت من اعظم ثغورهم الحصينة فاستولى عليها ومع

ان هذه النصرة فتحت له الباب للتقدم في اوروبا اثني راجعاً وصم على افتتاح جزيرة رودس فارسل اليها ٢٠٠ الف مقاتل مع عمارة بحرية مؤلفة من ٤٠٠ سفينة فحمت قيادة صهره ويرري باشا فاقاموا عليها الحصار ولم يكن فيها يومئذ من العساكر الا ستة الاف وست مئة من الفرسان وجاق شغاليربة ماري يوحنا المدعوين انصار بيت المقدس وكان قائدهم اذ ذاك يسي شفاليردي ليل آدم وكان من شجعان ابناء زمانه موصوفاً بالذكاء والحزم فعظم عليه الامر وارسل من يومه يستعين بالامبراطور شركان وفرنسيس الاول السالف ذكره ويطلب اليهما المساعدة والامداد فلم يجيباه الى هذا الطلب بسبب المنازعة الواقعة بينهما. وكان البابا اديان السادس قد حثها على المدافعة والمحاماة عن تلك الجزيرة فلم يلتفتا الى كلامه. فاستمر الحصار عليها نحو ستة اشهر واظهر رئيسها ليل آدم المذكور في اثناء هذه المحاصرة من البسالة واللبات ما لا مزيد عليه حتي كلفت هذه الانكسارية وبينما كانوا قد عولوا على الانتحاب اتاهم السلطان سليمان بنفسه وشد الحصار وانقض عزائم الجملش بالوعد والوعيد وضايق المحاصرين من كل جهة غير مبال بخسران الرجال فاضطر اخيراً رئيس تلك الجزيرة ان يسلم بعد ان امست الجزيرة خراباً فتعجب السلطان سليمان من شجاعة هذا الرجل وثباته فاخرمه ومدحه على شهامته وسلاة على مصيبتيه واجابة الى الشروط التي كان قد عرضها عليه وهي ان تبقى الكنائس على حالها وان يكون للنصارى الصيانة والحرية في دينهم وان لا يتكلفوا الى دفع شيء مدة خمس سنين ثم انسحب ليل آدم من الجزيرة وتبعه ٤٠٠٠ من اهل رودس فاعطاهم البابا مدينة وتيرة فاقاموا فيها الى ان نزلهم الامبراطور شركان سنة ١٥٢٠ الى جزيرة مالطة فنسبوا اليها وصارت من ذلك العهد دار اقامتهم الى ان استخلصها منهم يونانبارت وهو آت الى مصر سنة ١٧٩٨

وبعد ما فرغ السلطان سليمان من هذه الحرب رجع الى القسطنطينية سنة ١٥٢٧ وجهز جيشاً يبلغ عدده ٢٠٠ الف مقاتل وزحف به على بلاد الجزائر

فالتقاء ملكها لويس الثاني بثلاثين ألف مقاتل فقط ولعدم معرفته بإدارة الحروب قلد بولس طوموري أحد اساقفة بلاده قيادة الجيش وسار معه لمصادمة الاتراك فالتقيا بهم بآزاء مدينة موهاكر واشتبك القتال بين الفريقين فكانت واقعة عظيمة قُتل فيها الملك لويس وهلك أكثر من عشرين ألفاً من جنوده وانهمز الباقون واستولى السلطان سليمان على الحصون والقلاع الواقعة على الجهة الجنوبية من تلك المملكة ثم قفل راجعاً الى القسطنطينية مخوفاً بالظفر والغنائم. وبعد موت الملك لويس المذكور وقع النزاع بين قائد جيوشه المسي يوحنا زابولي وبين الارشيدوك فرديند ملك بوهيميا من جهة ولاية مملكة المجر فتحزب السلطان سليمان الى زابولي وانجده على بلوغ مرامه وضرب عليه مالاً معلوماً يدفعه في كل سنة للدولة العثمانية واعانه على استخلاص عدة مدائن من فرديند

وسنة ١٥٢٩ خرج السلطان سليمان من القسطنطينية بمئة وعشرين ألف مقاتل واربع مئة مدفع لحرب النمسا وعند وصوله الى مدينة فيينا عاصمة المملكة نصب خيامه بالقرب منها واقام عليها الحصار ولم يكن عند النمساويين سوى عشرين ألف مقاتل واثنين وسبعين مدفعاً فقاتلوا اشد قتال كن كان في يأس. فمهدت قوة الانكشارية بعد هجمات متعددة ولما رأى السلطان ذلك تحوّل عن المدينة. وسنة ١٥٢٢ خرج السلطان بمائتي ألف مقاتل لمحاربة بلاد السرب فافتتح في طريقه اربع عشرة قلعة واستولى على اكثر حدود بلاد النمسا ثم رجع الى القسطنطينية. وسنة ١٥٢٣ عند صلح بين ملوك اوروبا ثم وجهه عساكره لمحاربة العجم وافتتاح مدينة بغداد تحت قيادة ابراهيم باشا الصدر الاعظم فافتتح تبريز وبغداد. وسنة ١٥٢٤ اخرج السلطان بنفسه بالعساكر تابعا اثر الصدر الاعظم حتى انتهى الى تبريز ومنها سار الى بغداد ثم انشى راجعاً الى القسطنطينية وهماك وشواله على وزيره ابراهيم باشا المذكور فامر بقتله. وانعم على خير الدين باشا المشهور عند الافرنج باسم بربروس اي ذي

الحمية الحمراء برياسة العارة الجربية وارسله لافتتاح ولاية تونس فافتتحها بعد حصار شديد غير ان هذا الفتوح لم يطل امره الا زمانا يسيرا لان الملاحسن صاحب تونس كان قد التجا الى الامبراطور شرككان واستعان به على استخلاص بلاده فاجابه الى ذلك وارسل جيشا الى تونس وضربها واسترجعها له ثم خرجت من يده ايضا وقد ذكر ذلك باكثر بيان في تاريخ الغرب فراجعته هناك . وسنة ١٥٢٨ دخلت العارة الجربية تحت قيادة بربروس المذكور في الارخبيل الرومي واستولت على عدة جزائر لجمهورية البنادقة بعد ان شتمت عمارتهم . ثم في نحو الوقت ذاته بعث السلطان سليمان فرقة من الجنود الى شواطئ بلاد العرب لمنع فتوحات البرنوغال فاستولت على اراضي عدن وبعض البن وفي اثناء ذلك حدث مصيبتان عظيمتان في القسطنطينية شغلنا بال السلطان جدا وهما مرض الطاعون وحرقة كلية احرقت نحو نصف القسطنطينية فتعطلت اشغاله الحربية لاهتمامه في جبر النكبات التي نتجت عنها .

ومع ما كان عليه السلطان سليمان من علو الهمة والافاضة الحميدة فرط منه امر مذموم في التاريخ وهو اغنصاء تاج مملكة الجرب بطريقة غير مناسبة من ابن يوحنا زابولي . وبيان ذلك ان فرديند ملك بوهيميا كان قد صم على استرجاع ولايته من زابولي ملك الجرب واستعد لمحاربتة فخاف زابولي من عواقب هذا الامر ووقع في حيرة اذ رأى نفسه مضطرا الى الاستعانة بالسلطان سليمان فانفق سرا مع خصمه فرديند على انه يكفيه شهرا وان يستولي على المملكة بعد موته وكان قصده بذلك ان يريح نفسه من الفلاقل والحروب المراكمة لانه كان شجنا مسنا ولم يكن له ولد فاجابه فرديند الى ذلك ولكن لما بلغ اعيان مملكة الجرب هذا الخبر ساءهم جدا واجمعوا على منع وقوع ملكتهم تحت يد ملك غريب وحملوا ملكهم زابولي على التزوج بالاميرة ايزالمة بنت ملك بولونيا فأعقب منها ولدا رجلا ولي عهد ولم يلتفت الى الاتفاق الواقع بينه وبين

الملك فرديند ثم مات بعد ان اناط بكفالة ابنه ونيابة الملكة زوجته واستف
قارادين . فغضب فرديند من هذه الحادثة وارسل يطلب من الملكة ايزابله
تسليم الملكة وعرض عليها اقليم ترانسلفانيا وهو الاردل لتتكت به هي وابنها
فرفضت هذا الطلب فازداد غيظهُ وارسل عسكرياً لحربها واستخلاص الملكة
ولمارات ايزابله انها غير قادرة على مقاومته ارسلت رسولا الى السلطان سليمان
تلتبس منه المساعدة والامداد على عدوها فاجاب طلبتها وبعث جيشاً الى بلاد
الجر ثم صار هو بنفسه في جيش اخر وعند وصوله الى هناك كانت الفرقة الاولى
قد فتكت في الاعداء واتصرت عليهم . فاغتر السلطان سليمان باستخلاص
الملكة لنفسه واستسهل الامر اذ كانت بيد طفل تحت وصاية امراء واستف
قد عا ذات يوم الملكة ايزابله مع ابنتها القاصر وسائر اشراف الملكة لوليمة اعدّها
لم في معسكره وعند حضورهم اليه هجمت فرقة من جنوده على مدينة بودين
تحت الملكة واستولوا عليها بدون معارض ثم قبض على الطفل وامه وافرز لها
اقليم الاردل وبعض المقاطعات واستولى هو على باقي بلاد الجر وولى وزيراً
من طرفه على تلك البلاد .

وسنة ١٥٤٥ اغتد مع فرديند هدنة اجلها خمس سنوات بشرط ان هذا الامير
يدفع له جزية سنوية قدرها ثلاثون الف دوقه . وسنة ١٥٤٧ رحف هذا
السلطان الى بلاد العجم واستولى على بلاد شروان وباقي بلاد كردستان بعد ان
دامت الحرب سنتين . وسنة ١٥٦٥ ارسل عمارة مصرية لافتتاح جزيرة مالطة
تحت قيادة مصطفى باشا وبعد حصار شديد وهجمات متعددة ارتد هذا الوزير
راجعاً من غير طائل بعد ان فقد من جيشه نحو عشرين الفا . ومات السلطان
سليمان في اثنا حروبه مع الجر سنة ١٥٦٦ وله من العمر ٧٦ سنة . وكانت مدة
سلطنته ٤٦ سنة فحزن عليه الناس حزناً شديداً ورثاه الشعراء بكل لسان فمن
ذلك مرثية المتنبي ابي السعود التي يقول في مطلعها

أصوت صاعقة ام نفخة الصور فالارض قد ملئت من نفرنا قور

ومنها

ام ذاك نبي سليمان الزمان ومن قضت اوامره في كل مامور
ومن ومن ملأ الدنيا مهابة وتخرت كل جبار ونهور
وبالجملة نقول ان السلطان سليمان كان سلطاناً عظيماً لم يقم بين سلاطين
آل عثمان اعظم منه حتى ان جميع اهل الارض كانت ترعد فرائضهم عند استماع
اسمه وكان مع ذلك قد وقع منه خطأ كانت نتائجه غير حسنة على الدولة
العثمانية لانه منذ تاسيسها كان الامراء الذين هم من فخذ السلطان يفودون
العساكر ويحكمون الاقاليم التي كانت اقطاعاتهم فامر السلطان سليمان بابطال
هذه العادة فاتي ذلك الدولة فيما بعد بالضعف والخسرات فان اولاد
السلاطين اذ اخذوا ينشأون في ظل القصور والرفاهية بعيدين عن حركات
الجيوش ودمدمه اصوات المدافع وقرقعة السلاح زالت عنهم عوائد اسلافهم
الحرية وبعد ان كانت دولة آل عثمان مؤسسة على الفتوحات اخذت في
الانحطاط والتهقرى

وقام باعباء السلطنة بعد السلطان سليمان ولده السلطان سليم الثاني سنة
١٥٦٦ ولم يكن كايه بل كان محباً للأذات والملاهي . وفي ايامه استغلصت بعض
مدن بلاد اليمن وجزيرة قبرص وغيرها من الولايات . وكانت مشيخة البندقية
قد اتحدت مع البابا وملك اسبانيا على حرب الدولة العثمانية وبعد عدة وقائع
بحرية مهولة انتصرت العساكر الافرنجية انتصاراً عظيماً فكانت عند الافرنج
افراح عظيمة وصنعوا تذكاراتاً لتلك الغلبة عيداً يعيدونه في اليوم السابع
والعشرين من شهر تشرين الاول ولما بلغ السلطان ذلك اخبر امر تجهيز
عمارة لحاربة القوم وفي غضون ذلك ارسلت مشيخة البندقية تعتذر اليه وتطلب
منه الصلح على وجه آئل الى شرف السلطنة فاجابها الى ذلك ولوقف الحرب
ثم مات بعد ذلك وكانت مدة ملكه ثمان سنين . اما الفتوحات التي تمت في
ايامه فكانت بتدبير كبير وزرائه الذي كان متخففاً باخلاق السلطان سليمان

وبعد موت السلطان سليم دخل ولده الأمير مراد الثالث القسطنطينية وقام مكان أبيه سنة ١٥٢٤ وليس لهذا السلطان من المناقب التي تستحق الذكر كسلافه وكانت مدة ولايته ٢١ سنة ولم يجر فيها سوى بعض حروب مع العجم ويقال انه كان مغرمًا بمطالعة التاريخ والشعر وكانت وفاته سنة ١٥٩٥

وصعد بعد موته علي سرير السلطنة ولده السلطان محمد الثالث وكان له ١٩ اخًا فلما تبوأ السلطنة امر بقتلهم جميعًا وكان لايه عشر نساء حبلى فامر باغراضهن في البحر. وفي تلك الاثناء حدث في القسطنطينية مجاعة فامر بطرد الروم منها. وفي غضون ذلك خرج الأمير ميخائيل صاحب الفلاخ عن طاعة الدولة العثمانية واجتمع معه ملك النمسا وبلاد الاردل فبعث السلطان محمد بجيش تحت قيادة فرهاد باشا الصدر الاعظم فكسره الافرنج كسرة هائلة وفقد من جيشه خلق كثير فقتل السلطان فرهاد باشا وولى مكانه سنان باشا وكان شيخًا مسنًا وبعث به لمحاربة المتحربين فجاهد سنان باشا بما عنده فلم ينج بل كسره القوم كسرة هائلة عند نهر الدانوب وقتلوا من جيشه خلقًا كثيرًا فارسل له السلطان نجدة اخرى فصادت ما صادفها الجيشان السابقان فعزل السلطان اذ ذاك سنان باشا ونفاه ثم بعد قليل امر برجوعه من النفي واعاده الى الصدارة فاشار على السلطان ان يخرج بنفسه للحرب فخرج السلطان من القسطنطينة سنة ١٥٦٦ محشي غنه قاصدًا لادالده محاصر مدينة ادل ففتحها وكان ملك المجر قد بعث الى ملك النمسا وحكومة الاردل وصاحب الفلاخ والبغدان يطلب منهم المساعدة والامداد فانضموا اليه بجيوش كثيرة وبينما كان السلطان محمد قاصدًا بعسكره قلعة ثانية دهمه المتحالفون بجيوشهم واحاطوا به من كل جانب وشبت بينهم نيران الحرب ودامت النهار بطوله الى ان دخل الليل فانصلوا واصبحوا اليوم الثاني متحارين ايضا فاتصر جيش الافرنج وهجموا على خيام السلطان ونهبوها بعد ان كان انتقل الى خيمة الوزير

ابن جنال في الجانب الآخر. ولما رأى هذا الوزير ما حل بجيش المسلمين من
 الشلل نهض واخذ يشجع العساكر وهم بهم وخرق صفوف الاعداء واعمل فيهم
 السيف فانكسرت جموع الافرنج كسرة هائلة وفقد منهم خلق كثير ثم عاد
 السلطان الى القسطنطينية. سنة ١٦٠٢ ورد للسلطان من محافظ نخجوان كتاب
 ماله ان شاه العجم نفذ عهود الصلح واسر محافظ تبريز فجهز السلطان جيشاً
 كبيراً وارسله تحت قيادة نصوح باشا وفي اثناء ذلك توفي وسباني خبر هذه
 التجربة في الباب الآتي. وقد احب السلطان محمد الثالث العلوم والصنائع
 ورغب في ترقية اسبابها ورواج سوقها وكان عادلاً مستقيماً غير ان الدولة
 ضعفت في ايامه نظراً لتمرّد العساكر وعدم انقيادها

الباب الخامس

في الكلام على حكم السلطان احمد الاول وما وقع له ولخلفائه من
 الحوادث من سنة ١٦٠٢ الى وفاة السلطان مصطفى الثاني

سنة ١٧٠٢ ب.م

انه بعد وفاة محمد الثالث تولى كرسي الخلافة ابنه السلطان احمد الاول
 ولم يكن له من العمر سوى ١٥ سنة. ولم يتسلط قبل ذلك في مثل هذا السن
 احد من سلفائه. وكان له اخ يسمى مصطفى فلم يشا ان يتقلد كما جرت عادة
 بعض اسلافه. وبعد ارتفائه مسند الخلافة ببضعة اشهر توفي وزيره الاول فلم
 يتم عوضاً عنه من الوزراء المنسبين بدار الخلافة بل بعث الى مراد باشا
 بكربليك المنقيم بمصر وكان شيخاً مسناً ذا دراية وحذق وامانة خارقة العادة
 فحضر واستلم زمام منصبه الرفيع وبعد ان استقر السلطان على كرسي الخلافة
 اخذ في اتمام ما كان قد شرع فيه والده من حرب الاعجام واصدر الاوامر في

التجهيزات اللازمة وارسل جيشاً عظيماً تحت قيادة محمد باشا فانتصر على العجم في اول الامر ولكنه تواني اخيراً وعاد من غير طائل فغضب السلطان عليه واراد قتله ثم عفا عنه بواسطة ام الوزير . وكان قد ارسل تحت قيادة علي باشا جيشاً لمحاربة الجرفات في اثناء الطريق فعين مكانه محمد باشا المذكور . وكان السبب في فتح هذه الحرب لا طائل تحته . ثم سعى مراد باشا بين السلطان والجر في الصلح على مدة عشرين سنة وترك الحرب بين الدولة والامبراطور رودولف سلطان المانيا تحت شرط ابطال دفع الغرامة التي كانت دولة النمسا تدفعها سنوياً للدولة وانه من ذلك اليوم فصاعداً تكون التجار التي ترسل من السلطان الى الامبراطور المذكور حاوية على شعائر الوداد والاعتبار المتبادل ككتابة الاخ لاختيه وان يقام سفراء من الطرفين في عاصمة كل من الدولتين وجرى العادة على ذلك من ذلك اليوم ثم عقدت مثل هذه المهود مع دولة فرانسوا وكان ذلك سنة ١٦٠٦ م

ثم سعى السلطان احمد في قطع دابر البغاة الذين عصوا على الدولة في ايام والده وابامه ايضاً منهم حسين باشا الذي كان والياً على الحبشة وقره سعيد وجان بولاد حاكم الاكراد والامير فخر الدين الذي كان حاكماً على جبل لبنان وغيرهم من الخوارج فبعث مراد باشا مع جيش عظيم فبدد شملهم وقبض على بعضهم وقتلهم واسترجع منهم ما كانوا استمكوه من البلدان بطريق التعدي والطغيان . وفي بداية سنة ١٦١١ امر السلطان مراد باشا ان يقود الجيوش لمحاربة الاعجام فامثل امر سيده كرهاً واخذ نصوح باشا اول معاون حرب معه وكان مراد باشا لا يؤمل بعظيم فائدة من هذه الحرب ولذلك سار مسيراً بطيئاً فبعث نصوح باشا برسالة سرية الى السلطان احمد بها يقول له ان مراد باشا نظراً لشيوخه لم يعد يصلح لركوب الاخطار ومشقات الحروب وبها لم للسلطان انه هو يكون اصلياً لمثل ذلك اما السلطان فاذا كان يجب مراد باشا لاماته ونشاطه بعث اليه برسالة لطيفة العبارة وضمنها رسالة نصوح باشا وفوض

اليه ان يفعل به ما يشاء ولما وقف مراد على الرسالة المشار اليها استخضر نصوح باشا واطلعه عليها وعلى رسالة مولاها فارنعدت فرائض نصوح باشا عند ذلك على ان مراد باشا عامله معاملة الاب لولده وقال له انني قد طعنت في السن ولا عدت اصلح حسب زعمك لركوب الاخطار وما انني قد تنازلت لك عن مناصبي السياسي والحربي معاً وولجته قيادة الجيش وكتب الى السلطان بذلك وانحسب الى بلاد ديار بكر حيث قضى باقي ايامي ومات هناك بعد هذه الحادثة ببضعة اشهر وله من العمر ٧٩ سنة . اما نصوح باشا فتقدم لمحاربة الانجم واستظهر عليهم وقهرهم واستولى على تبريز فهرب الشاه عباس والنجا ببعض الجبال وارسل يطلب الصلح فاجابه نصوح باشا الى ذلك بعد ان اشترط عليه ان يصير ذكر اسم السلطان في خطبة جوامع بلاد العجم وان الدولة الفارسية تدفع مصاريف الحرب وتقوم بترجييع الخسارة التي احدثتها في بلاد السلطنة العثمانية . فعلى هذا الوجه تمت المصالحة وانسحبت العساكر الشاهانية من تلك البلاد غير انه في سنة ١٦١٦ نكث شاه العجم تلك العهد ولم يفر بالشروط ففتحت الحرب ثانية بين الدولتين واستولت الجيوش العثمانية على بعض القلاع بعد حصار شديد ثم تاخرت من كثرة القلوج والبرد وهلك منهم جانب عظيم وبالحيلة كانت هذه التجريده مشومة على الدولة

واعثنى السلطان احمد كثيراً بامر الحرمين واصلح مآثر كثيرة بككة والمدينة وارسل هدية افقر النبي فضين من الماس قيمتهما على ما قيل ثمانين الف دينار فوضعا فوق الكوكب الدرّي وهو مسمار من الفضة تجاه وجه النبي في الجدار . وكان لا يقدّر عن عمارة المساجد وفعل الخيرات ومن اثاره في القسطنطينية الجامع المعروف باسمه له ست منارات حسنة الوضع . ولما حضرته الوفاة وكان عمره ٣٠ سنة جمع اليه كبار دولته وشيوخها واوصى بالملك من بعده لاختيه مصطفى لان ولده عثمان كان قاصراً فاقام القوم بحق الوصية وبايعوا اخاه المذكور فكان قاصر العقل فانتزاهمة لا يصلح لان يفقد زمام دولة عظيمة

الشان كدولة آل عثمان اذ كان قد تربى في ظلال القصور بين الترفه والتنعيم فلما رأى اركان الدولة عدم اهليته وكفائه حجزوا عليه واقاموا مكانه ابن اخيه عثمان الثاني فكانت مدة خلافة مصطفى المذكور ثلاثة اشهر وبضعة ايام فاستبشر الناس عندما تبوأ كرسى الملك السلطان عثمان المذكور ولم يكن له من العمر اذ ذاك سوى ١٢ سنة لكنه كانت تلوح على وجهه علامات الفراسة والشجاعة وحسن الطالع . وكان الصدر الاعظم محمد باشا قد خرج بجيش جرار لمحاربة العجم في خلافة عمه مصطفى فرجع بطلب من ارباب الدولة عندما قصدوا خلع مصطفى وتولية عثمان وبعد ان استقر الحال للسلطان عثمان قاد الوزير المشار اليه الجيش ثانية سنة ١٦١٩ لمحاربة العجم ونجح في هذه التجربة كل النجاح واستخلص من الاعجام كل الاملاك التي كانوا قد اختلسوها . وكان السلطان عثمان يظن انه ما من امر يكسب المرء والدول فخراً سوى الحروب والمغازي . وقد فتحت له التقادير نافذة لاتمام مراميه وذلك ان صاحب بلاد الاردل احب ان يوسع نطاق املاكه بافتكاك بعض الاقاليم من التمسا فعرض على السلطان عثمان افكاره من هذا القبيل وحسن له الامر واعداً اياه بفتح بلاد اوستريا ودخوله منصوراً الى وسط فيينا فاغتر السلطان وقصد محاربة بولونيا اولاً تمهيداً للمار به فاصدر الاوامر بتهييز الجيوش والمهمات وقبل ان يخرج من القسطنطينية امر باحضار اخيه محمد اليه وخفوه امامه لانه كان يخشى من ان يجلس الملك مدة غيابه . وكان لما حضر الامير محمد بين يدي اخيه وعرف باطن الامر انه قال له بالله عليك يا اخي لا تدخل في دمي ولا تجعلني خصمك يوم القيامة وانا اقنع منك برغيف في كل يوم وشربة ماء فا كان الجواب الا الامر بحتفه فحنق بين يديه ففار الدم من مخزيه الى ان وصل الى عمارة السلطان ويقال ان اخر كلام قائلة لاهيه سلط الله عليك من لا يرحمك ولا يخشاك فكان الامر كذلك

ثم خرج عثمان بثلاث مئة الف مقاتل واما البولونيون فلم يكن عندهم

سوى مئة ألف يفودهم اولاد يسلاص ابن ملك بولونيا فالتقى العسكران عند حدود الملكتين المتحاربتين وشبت بينهما نيران الحرب فقاتل البولونيون قتال الاسود وصدموا جيوش آل عثمان صدمات قوية فكسروهم كسرة مهولة ثم حدث بين الفريقين معركة اخرى فاز فيها البولونيون ايضا فاضطر السلطان عثمان الى عقد صلح غير مرض ثم قفل راجعا الى القسطنطينية سنة ١٦٦١. وفي تلك السنة جلد البحر الفاصل بين القسطنطينية واسكودار من شدة البرد وكان الناس يرون من اسكودار الى القسطنطينية فوق الجبل

وكان قد شاع ان السلطان عثمان عزم على السفر الى الشام بنية الحج وكان ايضا يرغب في تدمير وفاق الانكشارية لان تلك الزمرة كانت قد طغمت وتنجرت واصبحت صاحبة الحل والعقد فهاجت المساكر ووقعت الفتنة من جراء ذلك واخرج المفتي فتوى ان السلاطين لا يتكفون للحج ويعتوا الى السلطان ببعض الشيوخ ليعلموه بالمركر العسر الذي باث فيه فلم يلتفت الى مقالهم بل طردهم منه دأباهم وقائلا بغضب شديد انني سامعني هولاء المردة العتاة وادمر وجاقهم وذلك بعد ان استحكم اثمهم. فرجع هولاء واخبروا الانكشارية بما كان فهاجوا وماجوا وهجموا دفعة واحدة على صرح السلطان حيث كان قد التجأ اليه الصدر الاعظم وباقي المشيرين وطلبوا الحاجة ان يعطى لهم الصدر الاعظم وبعض المشيرين واذا لم يجب طلبهم اخذوا يطلقون المدافع على القصر الملكي ويزيدون هيمانا فخرج الصدر الاعظم الى قدامهم املا ان يرد غيظهم ولكن لما رآه خطفه واماتوه حالا ثم طفقوا ينادون باسم مصطفى الاول الذي كانوا قد نزلوه وهجموا على بيت سجنه واخذوه ومضوا به الى الجامع وبايعوه. ولما درى السلطان عثمان بذلك خرج من قصره واتى الى مكان المبايعة فلما رآه الانكشارية صرخوا باعلى صوتهم ليتزل عثمان عن الملك ويسجن مكان عيه فضلوا به الى السجن وبعد ايام قليلة خنت الصدر الاعظم المجدي فاث كما امات اخاه قبل ذلك باربع سنين. قال الشاعر

وما من يد إلا يد الله فوقها وما ظالم إلا سبيل باظلم
ولما بلغ العجم قتل عثمان وإعادة مصطفى للخلافة ثانية وضعوا ايديهم ثانية على
أكر البلاد والأملاك التي فتحها السلطان سليم كبغداد والبصرة وغيرها وقام
نواب الدولة في الأناضول وسوريا ومصر وجاهروا بالعصيان بحجة طلب ثار
السلطان عثمان فلما رأى أرباب الدولة والعساكر سوء عاقبة فعلهم المعلوم ندموا
على ما فعلوا وصموا على خلع مصطفى ثانية ولما علم بذلك خلع نفسه بعد حكم
سنة وأربعة شهور فاعيد الى سجنه سنة ١٦٢٢

فبايعوا بالخلافة مكانه السلطان مراد الرابع ابن السلطان أحمد الأول
وكان عمره اذ ذاك ١٥ سنة ومع ذلك كان ذا عقل ثاقب تلوح عليه علامات
الشجاعة وقوة الجنان والقلب وحسن المستقبل وكانت الدولة يومئذ باحتياج
عظيم الى رجل فيه اللياقة والكفاءة لإدارة مهامها اذ باتت في خطر عظيم من
سوء إدارة سلفيه وتمرد الانكشارية والعصيان في الداخل وفي الخارج وكانت
الخزينة في عسر وضيق وكان ملك العجم قد انتهر فرصة هذه الارتباكات فعاد
ووضع يده على الأملاك التي كانت الدولة قد فتحها من بلادها وأخذ خانات
التتر أيضاً في نواحي القرم وأزوف يتعدون على حدود الدولة ويوقعون فيها
السلب والنهب وبالجملة نقول ان السلطان مراد عندما تبوأ مسند الخلافة
كان في مركز صعب جداً لاسيما وهو صغير السن فاخذ يسعى في سد الاختلال
الواقع من كل الجهات فابتداً أولاً في استئصال دابر العصاة الذين كانوا سبباً
لقتل أخيه عثمان وبردع تعديات التتر وعصيان وكلاء الدولة في اسيا واقام
حرباً شديدة مهولة مع دولة العجم سنة ١٦٢٤ كانت عاقبتها مشومة فامر السلطان
بقتل قائد جيش هذه التجريدة وفي اثناء سنة ١٦٢٥ عرضت دولة العجم الصلح
على الدولة فارتضت بذلك ولو على وجه غير مرض لها لكي تنفرغ لسد باقي
الاختلالات. وسنة ١٦٢٧ مات الشاه عباس ملك العجم وتولى مكانه ولده الشاه
مرزا وكان حديث السن غير اهل لمنصب مهم كهذا فاغتم السلطان مراد

هذه الفرصة وبعث سنة ١٦٢٨ بجيش عظيم تحت قيادة الصدر الاعظم
لحرب الاعجام واسترجاع الاملاك التي خسرهما الدولة فلم يجده ذلك نفعا
وخابت مساعي الوزير وتاخرت الاعلام العثمانية وفقد من جيشها خلق كثير ولما
كان الوزير الاعظم قد طعن في السن وتعب من مشقات الحرب ولم يعد له
استطاعة على تحملها صرف قصارى جهده في اقناع سيده بعقد الصلح مع الاعجام
فقبل السلطان بذلك وعقدت شروطه ومآلها التسليم بكل الفتوحات التي
افتتحها دولة العجم. وكان الامير فخر الدين المعني حاكم جبل لبنان قد اظهر
التمرد والعصاة على الدولة فارسل السلطان جيوشا لحاربته فقاومها اشد مقاومة
واذ وجد ان لامناص له منها طلب الامان واتى بنفسه الى القسطنطينية يطلب
العفو من السلطان فحصل عليه لانه كان رجلا مهابا وعلى جانب عظيم من
الحذق والدراية واخذ السلطان ولده ووضعته في المدرسة السلطانية في بورصة.
ولكن بعد قليل انتفاد السلطان الى وسوس ارباب ديوانه فامر بجنتي الامير
فخر الدين سنة ١٦٢٢. وسنة ١٦٢٤ زحف السلطان لحاربة العجم وبعد معارك
ومحاصرات افتتح مدينة روان وارسل وفدا الى العاصمة ليجل خبر انتصاره
ولما عاد الى القسطنطينية وجد ان اعلامه كانت قد نكست في اوربا وان
خان التتر نهض بفرقة من الكوزاك واستولى على مدينة ازوف بالقرب من
البحر الاسود. ثم عاد الاعجام واستولوا من جديد على مدينة روان التي فتحها
فارسل السلطان الصدر الاعظم محمد باشا لحاربهم واسترجاع المدينة سنة
١٦٢٦ واخفى غيظه لجهة خان التتر واذ لم ينجح محمد باشا استدعاه السلطان الى
العاصمة وختمه سنة ١٦٢٧ وسنة ١٦٢٨ ذهب بنفسه لحاربة الاعجام بثلاث مئة
الف مقاتل وحاصر مدينة بغداد اياما طويلة وافتتحها عنوة بعد ان هلك نحو
٢٠ الفا من جيش العجم ونحو ثلث جيشه وعاد الى القسطنطينية تاركا كبير
وزرائه للخبايا بشأن الصلح. وسنة ١٦٢٩ تقرر شروطه تحت ارجاع مدينة
روان لدولة العجم وابقاء بغداد لدولة آل عثمان واقیم فيها وزير وقد اكثرت

الناس من نظم الاشعار في فتحها فن ذلك قول بعضهم
 خليفة الله مراد غزا قلعة بغداد فارداهما
 وعندما حاصرها جيشه اندك للأسفل اعلاها
 هذا ما جرى في ايام هذا السلطان من الفتوحات والحروب واما ما وقع
 من الحوادث فيها تعطيلة النفقات ومنعه شرب التبغ والافيون وقتله اصحاب
 المفساد من القواد والجيوش واصلاحه حال المالية حتى امست الدولة في ايامه
 في يسر وانتظام لا مزيد عليهما هذا وبينما كانت الدولة في تقدم وتطور وزهو
 كانت صحة السلطان مراد تناخر يوماً فيوماً لافراطه بشرب الخمر ولم تطل
 ايامه حتى توفي في الاول من شهر اذار سنة ١٦٤٠ بعد ان ملك ١٧ سنة وله
 من العمر ٢١ سنة

ولم يبق يومئذ من سلالة آل عثمان سوى الامير ابراهيم اخي السلطان
 مراد فخلعه سنة ١٦٤٠ وله من العمر ١٠ سنة على انه كان بون عظيم بينه وبين
 اخيه مراد فكان ضعيف الرأي والعزم فلما يلتفت الى سياسة المملكة وكان عنده
 من السراري على ما قيل الف وخمس مئة وكان ينقسم بينهم مداخل الولايات
 وكان زمام الدولة ونصيبها في يدي امه ومصطفى باشا كبير الوزراء فاخذ
 يسعى هذا الوزير في اشهار سلطنة سيده بفتوحات جديدة فارسل جيشاً لمحاربة
 خان التتر واسترجاع مدينة ازوف وبعد ان هلك خاق كثير استولت الدولة
 على المدينة المذكورة ١٦٤٣ وبعد ذلك بثلاث سنين استولت ايضاً على بعض
 جزيرة كريت ولكن لما كانت اجراءات هذا السلطان غير مرضية واعماله
 مكروهة نفر منه اركان ديوانه ثم اجتمع رايهم فخلعوه وفي ثالث يوم من خلعه
 خنقوه مع وزيره محمد باشا

وكان قد اعتقب ولداً واحداً ولم يكن له اذ ذاك من العمر الا سبع سنين
 غير كاملة فبويع مكان ابيه تحت اسم محمد الرابع. وكانت الدولة يومئذ في
 ارباك عظيم مزعزعة الاركان وحسادها واعداؤها كثيرين وكانت المالية من

جهة في عسر وضيق ومن جهة أخرى كانت العساكر غير متفاداة لاولياء
امورها واصبح وكلاء الدولة في الولايات غير مباينين في تنفيذ اوامرها فمن جرى
هذه الاحوال نبغت الفتن وكثر الفساد وتقوى الضعفاء على الوزراء والاكابر
فكان الوزير يتولى اياماً ثم يُعزل او ينفي او يُقتل وهكذا من سنة ١٦٤٨ الى
١٦٥٧ كانت ايام دولته في تعكير . ومع ان السلطان محمد كان لم يزل صغير
السن لم يفتر عن البحث هو وامه على رجل فيه البياقة والاهلية لان يتبوا مسند
الصدارة فعند اخيراً بما كان يتمناه باخذه كويرلي محمد باشا وكان رجلاً مسناً
حاذقاً ذا اخبار لان طول الايام كان قد علمه ما لم يعلمه غيره وحالما استلم
عنان ماموريته شرع في سد الخلل الذي كان قد اوقع الدولة في الانحطاط
وصرف فصارى جهده في استئصال عروق المصرة وفي برهة قصيرة نظم مهام
السلطنة وضبط الاحكام على احسن نظام وعادت الى سطوتها ورونتها الاولين
واراد هذا الوزير ان يجعل حكم سيده ذا شهرة واعتبار فاخرجه من عالم
ظلال القصور الى عالم الشهرة وجهر جيشاً واثار على السلطان ان ياخذ
قيادته ويذهب به الى دلماتيا لمخاربة اهل البندقية . فذهب السلطان الى مدينة
ادرنة ليستلم قيادة الجيش سنة ١٦٥٨ واقام محمد باشا بتنصيبه في العاصمة . وبعد
وصول السلطان ببضعة شهور الى ادرنة حدثت ثورة عظيمة في نواحي حلب
والموصل بدسيسة ابراهيم باشا واليها وذلك ان رجلاً ادعى انه ابن مراد الرابع
وسمى نفسه بايزيد زاعماً انه نجى من القتل عندما أمر بقتله وعضده جمهور غفير
فبعث محمد باشا بجيش صغير لمخاربة ذلك المدعي زوراً ولاطفاء نار الثورة
فانكسر الجيش ولم يثبت فاضطر الى اعادة الجيش الذي ذهب به السلطان
الى ادرنة وارسال كل قوة الدولة لاختداد نار العصاة فانهمزم المدعي المذكور
وتفرق جمعه وتفرق ثم قبض عليه في الاسكندرية مع ابراهيم باشا الذي كان
السبب في ذلك وقتلا وعادت الراحة الى الدولة وذلك سنة ١٦٦٠ . وكانت
جمهورية البندقية والشجاع راكوتزكي صاحب ترانسلفانيا من اشد اخصام الدولة

تلك بجرًا وهذا برًا فاخذ محمد باشا بناهب للخروج بالجيوش لمحاربة راکوتزكي المذكور فدهنته الوفاة في مدينة ادرنة سنة ١٦٦١ وحزن السلطان جدًا لفقدته فاقام مكانه ابنه احمد فاضل باشا وكان كايه في الذكاء والمحقق فسلك مسلكه في تحسين امور الدولة ونجاحها ونجحت العساكر العثمانية في مبدا الامر في ترانسلفانيا والجر وما جاورها من البلدان ولكن اخيرا انتصر عليهم القائد النمساوي العام موتيكوكولوي سنة ١٦٦٤ فاجمعوا جميعا على عقد الصلح وقبل الامبراطور ليوبولد ذلك بمزيد الفرج سنة ١٦٦٥

وكان السلطان محمد الرابع قد جعل دار اقامته من سنة ١٦٥٨ مدينة ادرنة كما كان قد اشار عليه وزيره السابق فتدمر اهل العاصمة من غيايه منها واطهروا دم الرضا فانار عليه وزيره احمد بالرجوع اليها فعاد ولم يلبث الا اياما قلائل حتى عاد الى مكانه بحجة طلب الصيد والقتص لانه اسى بجنس غدر المنسدين كما غدروا قبلا بسلفائه. وسنة ١٦٦٨ ذهب احمد باشا الصدر الاعظم الى كريت لانجاز امر الحرب هناك واقتناح ما كان باقيا في ايدي مشيخة البندقية فارسلت المشيخة المذكورة تسعين بدول الافرنج فانجدهم الفرنسيون والبابا وسائر دول ايطاليا وفرنسا فلم يات كل ذلك بادنى فائدة بل فتح العثمانيون الجزيرة بعد حرب شديدة وبعد ان اقام الصدر الاعظم فيها المحافظين وبني ما كان قد تهدم من حصونها وابراجها قتل راجعا بياقي الجيش الى العاصمة سنة ١٦٧٠

وسنة ١٦٧٢ ففتحت الحرب ثانية في المانيا وبولونيا ودامت الى سنة ١٦٧٥ وكانت نارة لم وطورا عليهم وفي السنة نفسها توفي الوزير احمد فاضل واه من العمر ٤٧ سنة بعد ان حكم ١٥ سنة الامر الذي لم يجر قبل ذلك العهد في الدولة العثمانية فحزن السلطان لفقدته لانه كان من افضل الوزراء الذين قاموا في دولة آل عثمان الى ذلك العصر ولو طالبت بعد حيوة هذا الوزير لتحسن حال الدولة جدا فخلعت قره مصطفى باشا ولم يكن في السطوة دون سلفه على انه

كان بينه وبين ذاك بون عظيم في الحندق والدراية فوقع بينه وبين كوزاك
اوكرينية نور افصى الى حل السلاح فطلب هؤلاء الاعانة من دولة روسيا فلبت
دعوتهم ووقعت الحرب سنة ١٦٧٨ ففاز الكوزاك والروسيون على آل عثمان
ولما بلغ السلطان محمد ذلك خرج بنفسه الى ساحة القتال فلم يات ذلك
بالمغوب ولما راي وزيره تلك الحال خامره الخوف والوجل وكان القيصر
الروسي قد عرض عليه الصلح فقبل به حالاً

وبعد هذه الخسارة اخذ الصدر الاعظم في استعدادات كنية لمحاربة
امبراطور المانيا ولما كانت سنة ١٦٨٢ خرج السلطان مع مصطفى باشا من
القسطنطينية الى ادرنة ليجتمعا هناك بالجيش ومن هناك قاد مصطفى باشا
العساكر وتقدم دفعة واحدة واقام الحصار على مدينة فينا قبل ان يهد الطريق
بفتح الحصون التي قبلها. ولما وصل هذا الخبر الى الامبراطور ليوبولد اضطرب
كثيراً وارسل من بومو يسال البابا ان يطلب الى سويساسكي ملك بولونيا ان
يتعد معه على عدوهم العام ولما راي البابا اينوسانت الحادي عشر الخطر الذي
كان محققاً باكثر الدول النصرانية من سطوة آل عثمان حَسَّ سويساسكي
المذكور وغيره من امراء المانيا ان ينضموا يداً واحدة لدفع البلاء فاجاب الجميع
استدعاء البابا واخذوا مجتمعون جميعاً للدفاع. وكان الصدر الاعظم مصطفى
باشا يشدد الحصار ويرمي المدينة بالفتايل والنار المهلكة وكان اهلها لا يعرفون
النوم ولا الراحة فكانوا يصرفون النهار بالحرب والدفاع وفي الليل يرمون
ما قد تهدم من الاسوار فاستمر الحال على هذا المآل الى اليوم اثاني عشر
من شهر ايلول سنة ٦٨٢ : اذ اقبلت طلائع سويساسكي وقد انضم اليه جماهير
غفيرة من اقطار المانيا كبافاريا وسكسونيا وغيرها وهجموا دفعة واحدة على
صفوف العساكر العثمانية واشتبك بينهم قتال مهول دام من الصباح الى المساء
حتى تمخضت الارض بالدماء ونفطى كبد السماء من الدخان وقد فعل
سويساسكي وجوعه فعلاً تكل عنها صناديد الرجال وقاومت العساكر العثمانية

مقاومة الاسود ولكن اضطر اخيراً مصطفى باشا ان يطلب الفرار وتشتت جيشه في تلك البراري والوهاد بعد ان هلك منه خلق كثير. ولما عاد مصطفى باشا الى بلغراد اخذ الناس وفواد العساكر يذمرون عليه ويطلبون قتله اذ كان هو السبب في ذلك الانهزام فامر السلطان بقتله واقام مكانه قره ابراهيم باشا وسنة ١٦٨٤ اشهرت ميثقة البندقية ودولة النمسا الحرب على الدولة ودامت الحرب بينهم الى سنة ١٦٨٦ وكان النصر فيها دائماً للافرنج فتذكر ارباب الدولة جثاً من ذلك. واذ كان السلطان محمد مغرمًا بالصيد صارقاً اكثر اوقاته فيه غير ملتفت الى صالح الدولة وتدير مهامها بمقتضى الشعب والعساكر واجمعوا على عزله فاخرجوا فنوى وخاموه عن الملك ووضعوه تحت الرسم واقاموا مكانه اخاه السلطان سليمان الثاني سنة ١٦٨٧ فكان مبدا حكمه مشوشاً من داخل ومن خارج وكانت الاعلام العثمانية منكسة دائماً في البندقية والنمسا ولما رأى السلطان تلك الحال والاضطراب المحدث بالدولة بعث الى حكومتي النمسا والبندقية يطلب اليهما الصلح فلم يجيباه الى طلبه فاضطر الى دفع القوة بالوة وعزم ان يقود الجيش بنفسه ولما وصل الى بلغراد خاف ان يتقدم اكثر من ذلك لجهله فن الحرب فولج فازاراً خلافة سنة ١٦٨٩ فكسره الافرنج وشنتوا جيشه

وتولى الصدارة يومئذ مصطفى باشا كيوبرلي المشهور وكان قد ورث من جده وايه اجراءاتها الحربية والسياسية فاخذ قيادة الجيش وانتصر على النمسا سنة ١٦٩٠ وسنة ١٦٩١ واستخلص منها بلغراد وغير اماكن كانت قد ربحتها على الدولة قبل ذلك ومن جهة اخرى كانت الاعلام العثمانية فائزة ايضاً في البندقية وفي اثناء ذلك توفي السلطان سليمان بعد ان حكم ثلاث سنين ونسعة اشهر

وخلفه اخوه السلطان احمد الثاني سنة ١٦٩١ وفي نفس هذه السنة صار مصطفى باشا بالجيش للحرب مع النمسا فقتل في المعركة وانهزم الجيش وتشتت

بعد ان هلك منه ٢٨ ألفاً . وسنة ١٦٩٢ حدثت حريقه هائلة في القسطنطينية
احترقت ربع المدينة . وسنة ١٦٩٢ ارسلت الدولة جيشاً لمحاربة النمسا فلما بلغ
ذلك قائد جيش النمسا رفع الحصار عن مدينة بلغراد ورجع عنها على انه لم
يَعُدْ صلح بينهما وبقي جيش الدولة محافظاً هناك وفي السنة التي بعدها مرض
السلطان ومات وكانت مدة سلطته اربع سنين .

وتخلف مكانه السلطان مصطفى الثاني بن السلطان محمد الرابع سنة ١٦٩٥
وكان محباً للعلوم والمعارف وعلى جانب عظيم من الرقة والحنق وكان اول امر
باشرة في نفس تلك السنة افتتاحه جزيرة ساقس من البندقية وبعد هذه الغلبة
سار بجيشه قليل لمحاربة النمسا على انه لم يحسن ادنى ثمة في هذه الحملة بل عادت
عليه بالخسارة وهكذا كان الحال ايضاً في السنة التي بعدها في محاربة المسكوب
ففاز الروسيون واخذوا مدينة ازوف . وكانت دولة فرانس مع باقي الدول
المتحابة ساعية في غضون ذلك في تهديد طريق الصلح فسعى سفير اكثر
وهولندا لدى الباب العالي في ترقية اسبابه فلم تصادف مساعيها قبولاً في
اول الامر بل اصر السلطان على الحرب والانتقام من دولة النمسا ولكنه بعد
واقعة سنة ١٦٩٧ وعدم نجاح العساكر العثمانية على النمسا قبل بالصلح فانعقدت
شروطه في مدينة كرلوفينز بين الدولتين عن يد معتمدي الدول الاجنبية
وحصل فيها هدنة متاركة السلاح بينها على مدة ٢٥ سنة . واما القيصر الروسي
فلم يقبل الا بهدنة سنتين فقط وتم ذلك في ٢٦ كانون الثاني سنة ١٦٩٨ وبعد
انعقاد الصلح المذكور هاجت العساكر والناس بسببه وقاموا على السلطان
وخلعوه عن السلطنة وقتلوا المفتي الكبير وكانت مدة سلطته نحو ثمان سنين
ومات في السنة التي بعدها سنة ١٧٠٣

الباب السادس

في ما جرى من الامور والحوادث منذ خلافة السلطان احمد

الثالث سنة ١٧٠٢ الى سنة ١٨٨٤

انه عندما تولى السلطان احمد الثالث مسند الخلافة سنة ١٧٠٢ كان السلام منتشراً في كل اطراف السلطنة الامر الذي ندر وقوعه منذ تاسيس الدولة العثمانية وكانت بومئذ الحرب قائمة على ساق وقدّم بين القيصر الروسي وكارلوس الثاني عشر ملك السويد واسترسلت الى سنة ١٧٠٩ حين انكسر اخيراً كارلوس المذكور في معركة بليتوفا وفاز عليه بطرس الاكبر فانهمز ودخل حدود الدولة العلية ونزل في بندر. فامر السلطان وقتئذ ان يكرم غاية الاكرام وان تكون مصاريفه ومصاريف كل تبعته من خزينة الدولة. اما كارلوس فاخذ يطلب من السلطان نجدة لقتال القيصر الروسي فلم يجبه الى ذلك نظراً للعاهدة التي كانت بين الدولتين فمكث ست سنوات في بلاد الدولة مداوماً الالحاج عليها لمحاربة روسيا واذ كان له في بلاط السلطان شهرة عظيمة وكانت ام السلطان تميل اليه وتلقبه بالاسد اعتمدت الدولة اخيراً على اجابة طلبه واشهرت الحرب على روسيا سنة ١٧١١ وارسلت جيشاً عظيماً تحت قيادة محمد باشا البلطجي فاشتبك القتال بين الطرفين عند نهر بروت وبعد كفاح شديد تفقر جيش القيصر وامسى الامبراطور في خطر مبین ولو لم تدارك الامر زوجته كاترينا بمجدقها ودرايتها لاصبح زوجها اسيراً فعدت الصلح مع الوزير الاعظم تحت شرط ترجيع مجرا زوف الى الدولة وهدم الحصون التي على سواحل هذا البحر وعدم مداخله روسيا فيما يخص الكوزاك وان تعهد الملك كارلوس بحرية الرجوع الى بلاده وبعد المصادقة على هذه العهود من الطرفين ارسل الوزير يعلم السلطان بالنتيجة فغضب وامر بعزله

وسنة ١٧١٤ فتحت الحرب على البندقية وإذ كانت هذه المشيخة في ضعفٍ من كثرة الحروب لم تستطع منازعة الدولة زماناً طويلاً فاستولت العساكر العثمانية دفعةً واحدةً على ولاية المورة سنة ١٧١٥. وكانت المشيخة المذكورة قد استغاثت بشارل السادس امبراطور المانيا فبلى دعوتها وبعث الى الدولة العلية يطلب منها ان ترسل معتمداً من طرفها الى حدود بلاد المجر لاجل المخاطبة معه لجهة جمهورية البندقية وان ابست عن ذلك فانه مستعد ان يشهر الحرب عليها. فلم تجب الدولة هذا الطلب بل ارسلت على الفور الصدر الاعظم بمئة وخمسين الف مقاتل لمحاربة المانيا فوافقهم ثمانون الفا من عساكر الالمان تحت قيادة الامير اوجين والتقى الجيشان عند كارلوفيتز حيث كان عقد بين الدولتين التمحاربتين معاهدة الصلح منذ ١١ سنة والتم القتال بين الفريقين فكانت الدائرة على عساكر آل عثمان وقتل الوزير الاعظم وكل القواد الاولين وفتح الالمان مدينة تيمسوار بعد حصار شهرين ودخلت الفلاح تحت تسلطهم. وكانت الدولة قد ارسلت عارنها بجراً لمحاربة البندقية وفتح جزيرة كورفو فخسرت ايضاً ولكن مع كل هذه الخسائر جددت الحرب سنة ١٧١٧ فكانت ايضاً نعيصة عليها اذ خسرت فيها مدينة بلغراد. ولما بلغت هذه الاخبار دبوان السلطان ففتح الخبايا بشأن الصلح سنة ١٧١٨ وكان يطع في عقد الصلح مع كل من دولة المانيا وجمهورية البندقية على حدته فاجاب الامير اوجين بان الامبراطور شارل لا يفتح الخبايا الا تحت شرط عند الصلحين سوية تحت نظره واراد ان هذا الطالب بان يعطى له ما عدا مصاريف الحرب ومدينتي بلغراد وتيمسوار اقليما بوسنيا والسرب الواقعان في الجهة اليمنى من نهر اللانوب والفلاح من حدود بغداد الى نهر دنيستر وان ترجع المورة الى البندقية فعظمت هذه المطالب على السلطان احمد وفضل فقد التاج على التسليم بشروط مجلبة العار. فتدخلت اخيراً دولتنا انكلترا وهولاندا في فض الخلاف وصار القرار على ان يبقى في يد كل من الدولتين الاملاك التي تكون في يدها عند امضاء

المعامدة وان تبقى اياالة المورة للدولة

وسنة ١٧٢١ حدث حريقه مهولة في القسطنطينية احرقت نحو ربعها .
وسنة ١٧٢٦ توفي الشاه حسين ملك العجم مفتولاً وحدث ثورة عظيمة في بلاده
فاغتنمها الدولة ودخل جيشها بلاد العجم واستولت على بعض املاكها . وفي
تلك الاثناء اتهم الشاه طهماسب على اعداء ابيه وغيب جلوسه على سرير الملك
ارسل يطلب من السلطان ترجيع الاملاك التي كان استولى عليها واذا لم يلتفت
الى ذلك الطلب غار الاعجام على تبريز واستولوا عليها . فلما رأى الناس
والانكشارية عدم مبالاة السلطان بامور الدولة تزدوا واجتمع قوم من العصاة
وقتلوا الوزير وخلصوا السلطان عن كرسيه وقام بعده باعلاء السلطنة السلطان
محمود خان الاول بن السلطان مصطفى الثاني سنة ١٧٣٠ ففرق في الرعايا
واقضى اثار اجداده بالغزو والجهاد خارب الاعجام في جملة مواضع واكن بدون
فائدة عظيمة وحارب ايضاً روسيا والمانيا عدة سنوات وبعد وقائع كثيرة اجرى
معها صلحاً مع هدنة اجلها ٢٧ سنة اما شروط الصلح مع المانيا فهي ان ترجع
للدولة بلغراد مع اقليتي السرب والفلاخ وان يكون الحد الفاصل بين الدولتين
نهر الدانوب واما الشروط مع روسيا فهي ان لا يكون لها مراكب حربية
او تجارية في البحر الاسود وبحر ازوف بل تستخدم لتجارتها مراكب اجنبية وان
تهدم قلعتها في ازوف وان ترجع بعض البلاد التي استولت عليها في زمن الحرب .
وهكذا انتهى الحال وزال الشقاق والاختلال وعظم السلام في السلطنة الى ان
توفي السلطان محمود في ١٣ لسنة ١٧٥٤

وتسلطن بعده اخوه السلطان عثمان الثالث وكان يجب الانفراد لايبالي
في تدبير مهام الدولة واصلاح امور العباد ولم يكن لهذا السلطان شيء من
المناقب المحسنة وكانت مدة حكمه ثلاث سنين ونصفاً ثم توفي سنة ١٧٥٧ .
وخلفه السلطان مصطفى الثالث ابن السلطان احمد الثالث في السنة المذكورة
وكان سلطاناً عظيماً موصوفاً بالعدل والحلم فاخذ حالاً في تنظيم احوال

السلطنة وسلك احسن سلوك مع الوعايا وكان يعتمد على وزيره محمد راغب باشا الموصوف بحسن السياسة والتدبير وهو صاحب الجامع والمكتبة الوقفية الشهيرة المعروفة الان باسمه في مدينة النسطنطينية. ولكن لم نطل ايام هذا الشهم اذ توفي سنة ١٧٦٨ وبعد موته ثبت نيران الحرب بين الدولة وروسيا وخرج السلطان للحرب سنة ١٧٦٩ فكان طالعا مشوماً جداً عليه فخر شوكرم والبغدان وقسماً من الفلاح ولم تكن السنة التالية اقل شوماً من التي قبلها اذ احترقت عمارة الدولة بالقرب من جزيرة ساقس وانهمز خان القرم عند نهر بروت وانكسر الصدر الاعظم ايضاً عند شواطئ النهر المذكور وخسرت الدولة مدينة بندر وعدة جزائر في الارخبيل . وفي الوقت نفسه تحرك اليونان في المورة والارناوط ايضاً بدسيسة روسيا واخذوا يستعدون لخلع نير الطاعة للدولة . ونهض ايضاً علي بك من المالميك واخذ مصر واراد الاستقلال بها . وحكم ايضاً الشيخ ظاهر المعمر على جانب من سوريا مستقلاً فامست الدولة في مركز صعب جداً ومع ذلك لم تنترهه السلطان مصطفى واستمر يناضل قوة العدو وينازعه على الدانوب حتي عزم ان يفود الجيش بنفسه ولكنه شعر في تلك السنة بهبوط في قواه وكان يتزايد يوماً فيوماً حتي شعر بقرب حلول الاجل فاستدعى اليه اخاه عبد الحميد واوصاه بولده سليم (الذي حكم فيما بعد تحت اسم سليم الثالث) ثم توفي في ٢١ ك ٢ سنة ١٧٧٤ وله من العمر ٥٨ سنة

وجلس بعده اخوه السلطان عبد الحميد سنة ١٧٧٤ وكان محمود السيرة سليم السريرة بحب الصلح والسلامة وكان له اذ ذاك ٥٠ سنة من العمر قضى ٤٤ منها في عالم السجن فلم تكن فيه الاهلية لادارة مهام السلطنة لاسيما في تلك الحالة التي افضت اليها بعد كثرة الحروب والفلاقل من داخل ومن خارج وكان سلفه قد باشر التجهيزات لمحاربة الدولة الروسية فامر بانجازها وازديادها وبعث بالصدر الاعظم مع ٤٠٠ الف مقاتل فالتحم القتال بينهم وبين المجوش الروسية فلم يتصرفوا عليهم لقلة تدبيرهم وانحصروا في شومله ووقعوا في صعوبة كابية

ولم يعد لهم منها منفذٌ إلا بالصلح ففقدت شروطه سنة ١٧٧٤ وأخصها استقلال التتروفتح ابواب كل ابجر الدولة للسفن الروسية ومع ذلك كله لم تنفع دولة روسية بل كانت تعدى من حين الى حين على حدود الدولة حتى انها اغارت على القرم واستولت عليها وكان السلطان عبد الحميد بنجل تلك التعديات بمرارة عظيمة زماناً طويلاً وهو غير قادر ان ياتىها بالعلاج الشافي ولما رأى ان كل املاك دولته ما وراء الدانوب وقعت في قبضة الاجانب شرع في استعدادات جديدة للحرب وبينما كان مهتماً على القيام وافته المنية في ٧ نيسان سنة ١٧٨٩ تاركاً لابن اخيه السلطان سليم السلطنة في اسوأ حالٍ

فلما تولى السلطان سليم الثالث مسند الخلافة همّ حالاً لنشل الدولة من تلك الحالة السيئة التي افضت اليها من سوء ادارة سالفه وبعث بالعساكر المجهزة لمحاربة الجيوش الروسية والتساوية فاتى الفريقان في البغدان وصدما بعضهم بعضاً مدة شهرين فكانت الدائرة على جيوش الدولة وغنم الاجانب غنائم كبيرة واستولوا على قلعة بلغراد وايا التي الفلاح والسرب فتدخلت حينئذ بروسيا وانكذرا بين ليوبولد امبراطور جرمانيا والدولة في شان الصلح وقرّر الثرار فيه بان يصير ارجاع بلغراد وكل الاراضي التي فتحها النمسا خلا شوكريم لحد نهاية الحرب مع روسيا وتعينت ساقية كرارما حثاً فاصلاً بينهما وكان ذلك سنة ١٧٩١. اما روسيا فكانت لا تزال مقيمة الحرب على قدم وساق وقد حاصرت قلعة اسمعيل وهي من اهم حصون الدولة العلية وامنعها وبعد حصارٍ شديد فتحها فتدخلت ايضاً الانكليز وبروسيا وانهموا النزاع والحرب وحملوا روسيا ان ترجع للدولة كل الاماكن التي فتحها خلا اوكراكوف والاراضي الواقعة بين نهري بوغ ودينيسنر حيث اقامت الملكة كاترينا الثانية مدينة اودسا سنة ١٧٩٢ وبعد هذا الصلح حدث فرحٌ عظيم في القسطنطينية على ان الاخبار لم تكن سارة من جهة مصر وسوريا

ثم سعى السلطان سليم في ترقية اسباب تقدم بلاده وعمرانها وارسل يطلب

من فرنسا مهندسين ومعلمي صنائع وضباطاً الى غير ذلك فبعثت له بجانب عظيم على ان علاقاته الحبية معها تكدرت سنة ١٧٩٨ حين دخل الفرنسيون مصر عن غير علم الدولة واقاموا فيها الى سنة ١٨٠٠ فالتزمت حينئذ ان تشر ضدها السلاح واخرجتها من اراضيها المصرية بمعاوضة انكلترا وفي اول اذار سنة ١٧٩٩ فتحت عمارتا الدولة وروسيا السبع الجزر التي كانت لجمهورية البندقية وكانت فرنسا يومئذ مستوية عليها منذ سنة ١٧٩٧. وهذه هي المرة الاولى والاخيرة التي اتحد فيها هاتان الدولتان وفي ٢١ اذار من سنة ١٨٠٠ صار الاتفاق بين الدولتين المشار اليهما في صيرورة الجزر المذكورة حكومة مستقلة خاضعة للسلطنة العثمانية تحت اسم جمهورية السبع الجزر.

وبعد رجوع بوناپارت من مصر عند سنة ١٨٠٢ معاهدة صلح مع الدولة العلية ولما ارتقى الى منصب الامبراطورية بعث سفيراً الى الدولة لكي تعرفه امبراطوراً فتاخرت من جرى تمديدات روسيا وانكلترا ولكن لما بلغها صدى انتصاراته على النمسا وروسيا في اوسترايتز سنة ١٨٠٥ عرفته اخيراً سنة ١٨٠٦ ووجدت مع فرنسا علاقات الوداد وواقعتها على محاربة روسيا فكان ذلك داعياً لتعكيرها مع انكلترا التي كانت تسعى في ملاشاة شوكة نابوليون . ولكن لم تستطع انكلترا ان تمنع السلطان سليم عن محاربة المسكوب لان جيوش هذه الدولة كانوا قد تجاوزوا الحدود ودخلوا القلاخ والبغدان خلافاً للعهود فاضطر السلطان ان يحافظ على بلاده ويدافع عن حقوقه فجهز الجيوش وارسلها تحت قيادة الصدر مصطفى باشا شامي ومصطفى باشا اليرقندار الى الاقليين المذكورين فضربوا الروسيين ومنعوا تقدمهم على الاراضي العثمانية

وكان السلطان سليم يرغب ان يلاشي وجاه الانكشارية وينيم مكانه عسكرياً على الطريقة الانرجية لانهم كانوا قد زعزعوا اركان السلطنة بعصيانهم وعدم انقيادهم وكان قد نظم في العام الماضي بعض الفرق من النظام الجديد فهاج الانكشارية من جراء ذلك واثاروا في المدينة شغباً عظيماً وغلب ان

اعتصموا عصبة واحدة طفقوا يتعدون على الاهالي ويقتلون من وقعت ايديهم عليه واخيراً خلعوا السلطان سليم واقاموا مكانه السلطان مصطفى الرابع خفيد السلطان عبد الحميد في ٢٠ ايار سنة ١٨٠٧

فلما جلس السلطان مصطفى على كرسي الخلافة امر بالقبض على اخيه محمود وعلى السلطان سليم وحجزها في مكان واحد خوفاً من شرها. وحدث في نفس السنة التي تولى بها ان نابوليون الاول فاز على الامبراطور الروسي وعقد معه معاهدة تاسبت فيها خاتمه عقدت هدنة بين الدولة العلية وبين روسيا وانسحب العسكران كل الى بلاده. وعند رجوع الصدر الاعظم ومصطفى باشا اليرقندار الى القسطنطينية سعيًا في ارجاع السلطان سليم الى كرسيه لانها كانا من حزبه فاحس بذلك السلطان مصطفى وبعث اناساً خنقوا السلطان سليماً واثوه به عنقاً ثم ارسل من يفعل مثل ذلك باخيه محمود. فلما بلغ الخبر مصطفى باشا اليرقندار بعث من خلص محموداً بعد ان اوشك ان يقع في ايدي مطارديه واتى به الى بيته وهناهُ بسلامته فشكره محمود على جميل صنيعه وارسل في الحال جماعة قبضوا على اخيه مصطفى وهو في داره وحجزه في المكان الذي كان هو فيه ونبوا نخت الخلافة مكانه وذلك سنة ١٨٠٨ وهو السلطان محمود الثاني وجعل مصطفى باشا اليرقندار المذكور صدرًا اعظم

وكانت الدولة يومئذ في مركز صعب جداً لم تصل الى مثله منذ تاسيسها فسلم ادارة مهامها الى وزيره مصطفى باشا المشار اليه معتمداً عليه كل الاعتماد فقام بتدبيرها اتم قيام واخذ يسعى في استئصال اهل البغي والشر ووضع قوانين ونظامات جديدة توافق روح العصر فابغضه الانكشارية وكثيرون من الناس واضرموا له السوء الى ان هجموا ذات يوم عليه في بيته واضرموا فيه النار فهلك ذلك الرجل المعتبر المحب الاصلاح. ثم هجموا على دار السلطان وارادوا ان يفعلوا ما فعلوا بالوزير وان يزلوه عن السلطنة ويرجعوا السلطان مصطفى فلما رأى ديوان الشورى ان بقاء السلطان مصطفى في قيد الحياة يكون سبباً للفتن

والفلاقل خفوة عن غير رضى السلطان محمود وبادروا لاطفاء نار الفتنة التي
اخرمها الانكشارية فضايقوهم ثم طلبوا لهم العفو من السلطان فعفا عنهم
الى حين

وكانت يومئذ العساكر الروسية تتقدم الى جهة نهر الدانوب مسرعة
فبعث السلطان جيشاً عظيماً لمصادمتهم فلم يقدر ان يوقف مسيرهم فطالبت
فرانسا ان تتوسط امر الصلح بينها فرفض السلطان محمود مداخلتها لانه نائر
جداً من الشروط السرية التي عقدتها نابوليون مع اسكندر الروسي في تيلسيت
التي من شأنها اقتسام دول اوروبا فيما بينها من جلتها بلاد الدولة العلية
واستمر في مقاومة الروسيين ومحاربتهم ولكن من غير فائدة واستولى الروسيون
على مدينة شومله وعلى عدة مراكز حسنة وضايقوا العساكر العثمانية اشد مضايقة
وبينما كانت المصائب محيطة بالدولة من كل جهة اذا بطالع سعيد بزغ في افقها
وذلك ان نابوليون الاول كان قد اشهر الحرب على روسيا سنة ١٨١٢ وسار
اليها بجيشه الجرار فالزم ذلك روسيا ان تسحب اكثر جيوشها من حدود
الدولة وعقدت في ١٦ ايار سنة ١٨١٢ مع الباب العالي صلحاً موافقاً جداً
للدولة العثمانية

فاغتم السلطان فرصة هذا الصلح لتسكين الثورات في ولايتي بغداد
وابدين وغيرها ولائام مشروعاته الحسنة فصرف قصارى همته في ذلك الشأن
مدة الثمان السنين التي دام فيها الصلح. وسنة ١٨٢١ تحرك اليونان في المورة
وجاهروا بالعصيان على الدولة وكانوا يهجمون بمراكبهم على سواحل البحر فيقتلون
ويسلبون ويرمون القن في جميع الاطراف فشق ذلك على الدولة وارسلت
العساكر لردعهم وادخلهم في حيز الطاعة فثبت الحرب بينها وقامت على ساق
وقدم وبعث الباب العالي الى محمد علي باشا والي ولاية مصر بامر ان يرسل
جيشاً لمحاربتهم فارسل ولده ابراهيم باشا المشهور بخمسة وعشرين الف مقاتل مع
عارق بحرية ولما وصل الى المورة انضم بجيشه الى جيش الدولة وزادت نيران

الحرب شوباً ولما أبس الأروام من النجاة ونوال الاستقلالية استنجدوا بالدول الأوروبية فبادرت دولتا فرنسا وإنكلترا إلى توسط أمرهم لدى الدولة ولما لم يجب السلطان محمود سؤلها أرسلتا عمارتهما وانضمت إليهما العمارة الروسية وعند وصولها إلى ميناء ناعارين بعثوا جميعاً إلى إبراهيم باشا يطلبون إليه أن يوقف الحرب فأجاب أنه لا يقدر على ذلك إلا بأمر من السلطان فعند ذلك دخلوا ميناء ناعارين وأطلقوا النار على عمارتي الدولة ومحمد علي باشا فاحرقوها وكان ذلك في ٦ تموز سنة ١٨٢٧ ولما بلغ ذلك الخبر السلطان محموداً اضطر إلى اجابة سؤل الدول المتحدة وأمضى الشروط التي عرضت عليه بخصوص ابطال الحرب واستقلال الأروام

وفي وسط هرج هذه الحروب اصدر السلطان محمود أمراً بتدمير وفاق الانكشارية فهجمت عليهم العساكر المستجدة والاهليون في العاصمة وباقي الولايات وبادوهم عن آخرهم وأرتاح الناس من جورهم والدولة من انقالمهم . وفي تلك الاثناء غير السلطان محمود لبدته وتزع العامة والحجة وتزني بالزري العثماني الحالي وبالطربوش الصغير ولم يبالي بأقوال المعارضين

وسنة ١٨٢٩ زحفت العساكر الروسية لمحاربة الدولة عند شواطئ الدانوب وسار جيش إلى جهة اسيا فارسلت الدولة عسكراً لمصادمتهم فتغلبت عليهم الجنود الروسية وكسرت في سيلبستريا وشومله وامتولت عليهم ثم كسرت أيضاً كسرة أخرى عند كاليشوقا وقطعت مضيق البلكان واستولت على ادرنة وأخذت تهدد العاصمة وكانت جنود روسيا التي قصدت جهات اسيا قد استولت على القرص وبابريد وطراق قلعة وارزروم ولما بلغت كل هذه المصائب السلطان محموداً اضطرب جداً وهذه المرة الاولى التي فيها خامر قلبه الاضطراب والخوف على أنه اظهر الثبات وقوة الجنان والقلب في وسط تلك الاخطار المحدقة به وبدولته فتدخلت أيضاً الدولة الانكليزية في انتهاء تلك الشرور المملكة وسلم السلطان محمود بكل الشروط التي طلبت منه وفي الثاني من شهر

أيلول سنة ١٨٢٩ حررت معاهدة الصلح في مدينة أدرنة ومآلها التسليم باستقلالية الأروام الثامة والتنازل عن إقليم السرب لعائلة أوبرينوفيتش المستولية الى الآن وعن إقليمي الفلاخ والبغدان اللذين انضما سنة ١٨٦١ الى امرية واحدة تعرف بامرية رومانيا واستولى زمام احكامها البرنس شارل الاول من عائلة هوهنولرن الالمانية سنة ١٨٦٦ بحق توريثها لمن يعقبه وهي تدفع مالا معلوماً للدولة في كل سنة كبلاد مصر وعن بعض الجزائر الواقعة عند فم نهر الدانيوب والشاطي الايمن منه. اراض في اسيا مع غرامة حرب قدرها ١١٠ ملايين فرنك. واما عقيب مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ فرومانيا وسربيا صارتا ملكتان مستقلتان كما سبقت الاشارة عند وصف جغرافية هذه البلاد

وربما استغرب القاري كيف ان الدولة التي سادت على اغلب ممالك العالم واقت الرعب في قلوب جميع من لم تستمر في نموها وتقدمها حتى التزم سلاطينها ان يرضعوا الى شروط نظير هذه والحال اذا نظر الى هذا الامر بعين خالية من الغرض بحق الاستغراب من وجه آخر وهو كيف امكن هذه الدولة ان تحتل كل تلك الصدمات الشديدة والمقاومات المريعة من اعدائها في اوربا واسيا وافريقية مع عدم فتور الخلل في داخلها بسبب اصحاب البغي والتساد مع ما اوقعه وفاق الانكشارية من الخلل ولم تزعزع اركانها بل استمرت في سلك الثبات العجيب ولم تستطع قوة او سبب آخر ان يثنيها. فهذا اعظم برهان على عظمتها وقوتها

وسنة ١٨٢١ عندما كانت الدولة العلية خارجة من الحجب تلك الحروب الملكة جهز محمد علي باشا والي مصر ولده ابراهيم باشا بثلاثين الف مقاتل لافتتاح الاقطار الشامية انتقاماً من عبدالله باشا والي عكا فسار اليها واستولى عليها واستمرت احكامها في يده نحو تسع سنين وكانت مدة خلافة السلطان محمود ٢١ سنة وهو عادل وارحم من سلفه من سلاطين آل عثمان وجلس بعده على سرير السلطنة ولده السلطان عبد الحميد خان سنة ١٨٢٩

وكان عادلاً حليماً مطبوعاً على مكارم الاخلاق . فاول امرٍ باشره استخلاص الديار الشامية من ايدي الحكومة المصرية ثم اخذ بعد ذلك في اجراء ما كان قد شرع فيه جناب والده من الترتيبات والتنظيمات على مقتضى الشرع والقوانين السياسية لرفع المظالم وراحة البلاد وردع اصحاب البغي والفساد واصدر امراً شريعاً مبيناً به اصول التنظيمات التي فاضت بها مراحمه الشاهانية لنحو الرعية وامر بنشره في اقطار السلطنة العثمانية ليعيط الجميع به علماً وهو المعروف بالتنظيمات الخيرية . فانتعشت ارواح الرعايا مجلس هذا السلطان واستبشروا به وفي مدة حكمه انتشبت الحرب بين الدولة العلية والدولة المسكوية وهي المعروفة بحرب القرم وسببها انه كان قد وقع اختلاف بين طائفتي الروم واللاتين في القدس من عدة سنين بسبب كنيسة التيامة وبعض الاماكن المقدسة فكانت كل طائفة منهما تدعي لنفسها حق الرياسة والتقدم على الاخرى باستلام مفتاحها ثم اخذت هذه المسئلة تتعاضم بينهما وتمتد يوماً بعد يوم الى ان آل الامر الى النزاع والجدال في سنة ١٨٥١ فوقع الباب العالي في حيرة وارنباك من جهة نسكبتها واخذ نارها لان روسيا كانت تحامي عن حقوق الروم وفرنسا تنصر لللاتين فتدخل سفير انكلترا اللورد سترانثورد دي رد كليف في صرف هذا المشكل ورسم ترتيباً موافقاً لائتلاف الملتين المتخالفتين فقبلته فرنسا واما روسيا فلم تقبله لان مقصدها الوحيد لم يكن مقتصرًا على محاربة حقوق الكلدوس الروم بل كان لها غايات اخرى طالما كانت تجنهد على نوالها وتدرب الفرص لاستحصاها وهي ابعاد الدولة العثمانية من فارة اوروبا والاستيلاء على اقاليمها وولاياتها فانتهر الامبراطور نقولا تلك المنازعة فرصة مناسبة لنوال بغيته وبلوغ اريه فارسل الامير منشيكوف الى القسطنطينية سنة ١٨٥٢ لمقابلة السلطان عبد المجيد خان بعد ان كان بعث جيشاً يبلغ ١٤٤ الفاً الى نهر الدانيوب ليكون مستعداً لوقت اللزوم والحاجة . فلما وصل الامير منشيكوف الى القسطنطينية رفض مواجهة فواد باشا وزير الخارجية ودخل راساً على الحضرة الشاهانية وصحبته سفير روسيا

واعرض له طلب الامبراطور نقولا في المسئلة المتعلقة بالاماكن المقدسة ثم قال
 له ان الامبراطور يطلب ايضا ان جميع الروم الذين من تبعة الدولة العلية
 يكونون تحت ظل حمايته من الآن وصاعداً استناداً على احد بنود معاهدة سنة
 ١٧٧٤ المعقودة في كوجك فينرجي وان بطرك الروم القسطنطيني وباقي اساقفة
 الطائفة يكون اتخامهم وتغييرهم منوطاً به وان الشكاوي والدعاوي التي تنصدر
 عليهم من جهة تصرفاتهم وسلوكهم تعرض راساً اليه لينظر فيها . فاستعظم
 السلطان هذه التطلبات ورفضها لانها مخلة بناموس السلطنة ومغايرة للاصول
 وقوانين الدول فانثى الامير منشيكوف راجعاً من حيث اتى واعلم الامبراطور
 نقولا بواقعة الحال فاستشاط غضباً واصدر امراً الى العساكر التي ارسلها الى
 اطراف الدانوب ان تعبر نهر البروث ونستولي على تلك الاطراف فاجتازت
 النهر وشنت الغارة على امارات الفلاخ والبغدان واستولت عليها في اليوم
 الثالث من شهر حزيران . ولما تحقق الباب العالي قدوم ذلك الجيش الى
 اطراف بلاده علم ان مقاصد روسيا في تطلبتها لم تكن الا وسيلة لاشهار الحرب
 فجهز جيشاً وارسله الى تلك الحدود تحت قيادة عمر باشا المجري لردع الروسيين
 ولما تاكدت الدول الاوروبية بغية روسيا ومقاصدها بادرت انكثرا
 وبروسيا والنمسا الى عقد جمعية للنظر في اجراء الوفاق بين الدولتين وارسلت
 كل دولة منها مبعثراً من طرفها الى مدينة فيينا حيث وافاهم سفير من طرف
 روسيا واخر من طرف الدولة العلية وعقدوا هناك مجلساً في ٢١ نوز سنة ١٨٥٢
 لم يات بالمرغوب . فلما لم يعد سبيل للصلح اشهر الباب العالي الحرب اشهاراً
 نهائياً وصدى سليم باشا العساكر الروسية في اسيا وانتصر عليهم في عدة مواقع
 بينما كان عمر باشا يهاجمهم في اوروبا حيث كسرهم بالقرب من اولتينزا وفاز
 عليهم عند قلنفاط واماكن اخرى . واما العمارة الروسية التي كانت في البحر الاسود
 تحت قيادة الاميرال ناشيفوف فصدمت العارة العثمانية عند سينوب في
 ٢٧ ث ٢ واستظهرت عليها بعد حرب شديدة فانتزعتها وكانت مولقة من سبع

فركانات وباخرين وثلاثة مراكب حربية

اما انكلترا وفرنسا فاذ تيفتسا سوء نتائج هذه الحرب انتصرتا لمعونة السلطان واعلنتا الحرب على روسيا في ١١ اكتوبر سنة ١٨٥٣. ولما كانت اوائل سنة ١٨٥٤ ابتدأتا في نقل رجالهما ومهاتهما الى ساحة الحرب واشتبكتا في القتال واما باقي دول اوربا فكانت معافضة على الحيادة

وكانت الدولة الانكليزية قد ارسلت عمارة حربية الى بحر بلتيك تحت قيادة الاميرال نايار فاستولت على قلعة بومارستود لخمس عشرة بقية من شهر آب ثم على جزيرة الاد ولكنهما لم تقدر على استخلاص القلعة نظراً لخصاتها. واذ كانت سباسبول اعظم قوات روسيا التي يعوّل عليها في البحر الاسود وجهت انكلترا وفرنسا قواهما لافتتاحها والاستيلاء عليها فارسلتا في ١٢ ايلول فرقاً من عساكرها يبلغ عددهما ستين الفا وكان اكثرهم فرنساويون فتلوا في بويانوريا وفيما كانوا يتقدمون الى سباسبول صادتهم العساكر الروسية. وكان الفرنسيون تحت قيادة الماريشال سنت ارنو والانكليز تحت قيادة اللورد راكلاف فاقتل الفريقان اقتتالاً شديداً الى ان دارت الدائرة على الروسيين فانكسروا عند نهر الماء. واما العساكر الروسية فكانت اذ ذاك تحاصر مدينة سيلستريا ولم تقدر على اخذها فخرجت العساكر العثمانية من المدينة واقطعتهم فانتصرت عليهم وفرقتهم فذهبوا عن المدينة خائبين وانضموا الى الآخرين وقصدوا الترم لينة حصار قلعة سباسبول التي اليها هوجت روسيا كل قوتها من مهات وعساكر وذخائر. واما جيش الانكليز ففعلت قوارسهم فعل الاسود الضواري اذ صادموا جيشاً عرماً من الروسيين عند بالاكلافا وفازوا بهم فوزه خلدت لهم ذكراً جميلاً بعد ما فقد منهم خلق كثير ثم ان الروسيين المحاصرين في انكرمان وعددهم ستون الفا خرجوا من مكان حصارهم واقطعوا العساكر العثمانية والانكليزية والفرنساوية ودارت بينهم معركة شديدة الخسران على الفريقين انجلت بانهزام الروسيين ولزومهم حصن المدينة ولم يكن حينئذ في

طاقة الدول المتحدة استلام سباسبول مع انهم كانوا يزيدون قواتهم الحربية ويكثرون هجماتهم وقنايرهم ولم يقدرُوا على استخلاص تلك القلعة او ان يمنعوا المساعدات التي كانت تاتيها من داخل البلاد

ولقد قاست العساكر المتحدة ولا سيما الانكليز في شتاء سنة ١٨٥٤ وشتاء سنة ١٨٥٥ أهوالاً وشدائد بكل اللسان عن وصفها وتعدادها فان الامراض والوجاع قد اخذت في العساكر كل ماخذ واهلكت كثيرين هذا فضلاً عن الجوع والتعرض لبرد تلك البلاد والابجرة الممتدة التي كانت تصاعد من جثث القتلى والحيوانات

اما سردينيا فكانت يومئذٍ تحت حكم فيكتور عمانوئيل مطلقة الحرية وهي ايضاً هيأت جنودها للحرب وانضمت الى الجنود المتحدة فارسلت ١٥٠٠٠ مقاتل بعدما تعهدت لها انكثرا بدفع مبلغ مليون ليرة على سبيل الاعانة واشتهرت رجالها في تلك المعامع بالشجاعة والثبات

وفي خلال ذلك توفي الامبراطور نيقولا في ٢ اذار سنة ١٨٥٥ وجلس ولده اسكندر الثاني مكانه وفي اليوم الثامن من شهر ايلول من السنة المذكورة حدثت واقعة هائلة بين المسكوب والعساكر المتحدة كانت الدائرة فيها على الروسيين واستولت جيوش فرانس على قلعة ملاكوف ببسالة لا مزيد عليها واذ لم يعد للروسيين استطاعة على حفظ مراكزهم تركوا سباسبول في مساء ذلك النهار وعولوا على الهزيمة والفرار ودخلت العساكر المتحدة الى القلعة وامتلكها فانفتحت حينئذٍ مخازنات الصلح وعقدت جمعية في باريز في ٢٥ شباط سنة ١٨٥٦ حضرها اثنان من طرف كل دولة من الدول الست المتحابة وهي انكثرا وفرنسا وتركيا والنمسا وبروسيا وسردينيا وفي ٢٠ اذار امضيت شروط الصلح متضمنة ٢٤ بنداً مجلة لكل من الدول المشار اليها اخصها ان الدولة العلية يكون لها الامتيازات التي لباقي دول اوروبا من جهة القوانين والتنظيمات السياسية وانها تكون مستقلة في ما لكها كغيرها من الدول الافرنجية وان البحر

الاسود يكون معزلة عن جولان مراكب حرية فيه من اي جنس كان ما عدا روسيا وتركيا فان لها حقاً في ادخال عدد قليل من المراكب الصغيرة الحرية لاجل محافظة اساكلها وان لا يكون لتركيا ولا لروسيا ترسختات بحرية حرية على شواطئ البحر الاسود الى غير ذلك من الشروط وهكذا انسحبت العساكر الى موطنها وانتهت الحرب التي لم يكن لافتتاحها داع سوى المطامع والغايات

وفي نهاية مدة السلطان عبد المجيد خان حدثت الحرب اللبنانية في اوائل سنة ١٨٦٠ بين طائفتي النصارى والدروز كما مر في اخبار سورية . وفي شهر حزيران سنة ١٨٦١ توفي السلطان عبد المجيد وخلفه اخوه السلطان عبد العزيز خان فقام باعباء السلطنة على احسن منوال وسلك سلوك ابيه في الاصلاح وترقية اسباب التقدم والنجاح وسعى في تاسيس المعامل والمدارس والمطابع وانشاء الطرق الحديدية في البلاد العثمانية فحصلت الرعايا في ايامه على مزيد المنونية واصبحت السلطنة في امن ورفاهية خالية من الارتباكات والقلقل والحركات الى ان كانت سنة ١٨٦٧ فحدثت فتنة في جزيرة كريت استمرت نحو سنتين ولولا تعصب اليونان لاهل الجزيرة المذكورة وامدادهم اياهم بالذخائر والنفود لما استلزم الامر كل ذلك الوقت لاختصاصهم

ثم في سنة ١٨٧٥ ثارت نيران الفتن في اقاليم الدولة الغربية اي الهرسك والبشناق والجبل الاسود وبلغاريا وكان السبب في ذلك ظاهراً ظلم الحكام العثمانيين وعدم معاملتهم المسيحيين بالرفق والانصاف ولكن باطن الامر على ما يظن كان بسبب دسائس روسيا وعودها الاهلين بالمساعدة في تحصيل استقلاليتهم فالتزمت حينئذ الدولة ان ترسل عساكرها لاختضاع تلك البلدان الثائرة فلم نصب نجاحاً واخيراً تظاهرت روسيا علناً في مقاومتها واشهار الحرب عليها فجندت الجنود وزحفت بها على الاراضي العثمانية واصطلت نيران الحرب بين الفريقين نحواً من سنتين واظهرت الجنود الاسلامية من شدة الجنان ما لم

يخطر على بال انسان خاصة في حصار بلاقنا الذي كلف روسيا عددًا غديرًا من الجنود وروساء الجنود ولكن لما كانت الكثرة تغلب الشجاعة لم يبد ممكنًا لعثمان باشا وجنوده ان يداوموا الدفاع وهم محصورون في بلاقنا بدون مؤن وذخائر فالتزموا ان يسلموا للروس ومن ذلك الوقت انحل عزم باقي الجيش العثماني واخذ الروس يتقدمون شيئًا فشيئًا الى ان وصلوا الى مقربة من القسطنطينية فحينئذ تظاهرت انكسارًا لمقاومتهم وادخلت عمارتها الى ميناء المعاصنة ونوعدهم بالضرب ان لم يكفوا عن التقدم فتوقفوا عن ذلك وانعقد الصلح بين روسيا وتركيا واحيل الى الدول الكيرة النظر في نسوية الخلاف الواقع بين الدولتين المتحاربتين لجهة تحرير الاقاليم المار ذكرها فبعد مؤتمر في مدينة برلين سنة ١٨٧٨ حضره نواب الدول المار ذكرها تقرر فيه سلخ اهرسك والبشناق وبني بازار موقوفًا عن المملكة العثمانية ووضعهم تحت حكم دولة النمسا وان الجبل الاسود يكون مستقلًا وان روملي الشرقية تكون تحت حكومة ادارية محلية مستقلة بتولاها حاكمًا بنصبه الباب العالي وان القرص وباطوم في اسيا تكونان للروس الى غير ذلك من الشروط وهكذا انتهى النزاع بين الدولتين وصفت نوايا الامتين وعاد الثغاب وانتهى التفاضل

وفي اثناء تلك الثورات والحروب نهض بعض وزراء الدولة وخطوا السلطان عبد العزيز عن سرير ملكه وسعوا في قتاله في وسط قصره واقاموا مكانه اخاه السلطان مراد فلم يستقم امره في سدة الخلافة لانحراف صحته وبعد نحو ستة اشهر قام مكانه اخوه السلطان عبد الحميد وذلك في ٢١ آب سنة ١٨٧٦ فاخذ في الحال ان يسعى في تحسين ما كان قد تلف وتنظيم ما كان قد فسد وبعد توقيع الصلح مع روسيا شرع في تحقيق مثل السلطان عبد العزيز وجازى المذنبين بما استحقوا وهو الآن صارف قهاري جهده في ترقية اسباب تقدم الاهالي ونجاحهم ساعيًا في تحسين مالية الدولة وتشييد اركانها ولما كانت انكسارًا تخشى دخول الروسيين الى اسيا الصغرى اي برا الاناضول

خوفاً من امتداد سطوتها في اسيا وتهديدها الهند الشرقية عقدت مع الدولة العثمانية عهداً اشترطت فيه مدافعة الروسيين معها عند الاقتضاء وردعهم عن الدخول الى الاناضول وفي مقابلة هذا العهد تنازلت تركيا لانكترا عن جزيرة قبرس في اواسط سنة ١٨٧٨ ليس على سبيل التمليك بل ليكون مقرّاً لجنودها وذخائرها الحربية وقت الحاجة . وما ان الدولة العثمانية كانت تستغل من الجزيرة المذكورة ايراداً سنوياً بحاكمي المئة وثلاثين الف ليرا انكليزية تعهدت انكترا بدفع ذلك لخزينة الدولة كل سنة ما دامت مقيمة في الجزيرة

—x—

الفصل الثاني

في تاريخ اليونان

الباب الاول

في جغرافية هذه البلاد

انه كثيراً ما تشتهر بلاد وتاتي العالم بفوائد كثيرة مادية وادبية ولئن كانت في عين الناظرين اليها ضيقة الاملاك وقليلة الاعتبار . فان بلاد اليونان التي نحن في صددنا كانت بلاداً صغيرة قليلة المساحة ومع ذلك قد بلغت في الاعصار السالفة الى اعلى درجات الجهد والفخر ادياً ومادياً . فاشتملت على القسم الجنوبي من بلاد آل عثمان في اوروبا وبلاد الروم والمورة مع عدة جزائر مجاورة

للأراضي المذكورة . أما حدودها فكانت الى الشمال ايليريا المعروفة الآن
 بيوستيا اي الدوشناق وميسيا العليا وهي الآن بلاد السرب وشرقاً ثراقيا وهي الجزء
 الشرقي من الرومي والارخيل الرومي وجنوباً بحر الروم وغرباً خليج البندقية
 وقد انقسمت هذه البلاد طبيعياً الى اربعة اقسام كبرى وكل من هذه
 الاقسام انقسم ايضاً الى اقسام صغار قائمة على حدتها . القسم الاول الشمالي وهو
 يشمل اقلبي ابيروس ونساليا وما الان من املاك الترك باوروبا . الثاني
 مكدونية وهو الجزء الشمالي من بلاد الارناوط والجزء الغربي من بلاد الرومي
 ومن مدنها فيلي وتسالونيكى وقاعدتها بلأ وهي وطن اسكندر بن فيلبس
 المكدوني الشهير وهذه ايضاً من املاك الترك في اوروبا . الثالث بلاد اليونان
 الاصلية وقيل لها هلاس المسماة الآن بلاد الروم . الرابع بليونيسوس المسماة
 بشبه جزيرة المورة وكان تابعاً لها خلاف هذه الاقسام جزائر الارخيل الرومي
 التي كانت وقتئذ زاهية خضراء وليست قاحلة كالآن وجزائر البندقية وجزيرة
 كديا اي كريت وكان لليونانيين منازل في اسيا الصغرى وسيسيليا وابطاليا
 واماكن اخر

اما الآن فنحصر المملكة اليونانية بالقسم الثالث من الاقسام المار ذكرها
 ويحدها بلاد الترك شمالاً ومن باقي الجهات البحر المتوسط وعدد سكانها يبلغ
 نحو مليون ونصف وقصبتها مدينة اثينا التي لا تزال مشتلة على اثار تشهد على
 عظمتها القديمة وبراعة اهلها وحذاقتهم لاسيا في فني النش والتصوير واحسن
 جزرها جزيرة سيرا . اما هواؤها فحيد وارضها مخصبة . واهلها موصوفون
 بالنباهة والذكاء والشجاعة ولكنهم لم يصلوا بعد الى اعلى درجات التمدن . وقد
 انقسم تاريخ هذه البلاد قديماً الى قسمين احدهما يتضمن تاريخ الازمنة الجاهولة اي
 من اول نشأتها الى حين هاجمها الفرس في زمن تملك داريوس بن هستاسب
 سنة ٤٩٠ ق م وسميت ايضاً العصر الخرافية والثاني منذ مهاجمة الفرس الى
 فقدانها عنان الملك وخضوعها للرومان

الباب الثاني

في اخبار العصر الخرافية واولاً في اصل نشأتها وشعوبها
الاولين

ان بدء تاريخ اليونانيين كآثر التواريخ القديمة مغشى بظلمة كثيفة وممزوج
بامور كثيرة خرافية وقلما يوثق بما قيل في كتب المورخين في هذا الشأن .
قيل ان اصل اليونانيين من نسل ياولان بن يافث بن نوح وهذا يقرب كثيراً
ما نصه هيودونوس لجهة اصل اليونانيين . وكانوا قديماً متوحشين عدي
المدن برعون الماشي ويعلمون الارض ويسكنون الكهوف والاكواخ ويكتسبون
مجلود الغنم ويقتاتون بالبقول والجذور وقيل انه لما علمهم فلاسفوس اكل
البوط قدموا له اكراماً الهياً وجعلوه في مصاف الالهة

وفي تلك الاثناء وفي بلادهم قوم من فينيقية قيل لهم التبتانيون وكان
ذلك بقرب عصر ابرهيم فاخطلطوا بالالهالي الاصليين وعثم اخذ اليونانيون
جملة معارف فخرجوا عن حالهم المتبررة . ومن ثم تعلموا ايضاً عبادة الهة
الفينيقيين كاورانس وساتورنوس وهو زحل عند العرب وزفس او جوبيتير اي
المشتري واصل هؤلاء الالهة بشر قد اشتهروا في امر ما من الامور . وعما قليل
ادخل اليونانيون هؤلاء التبتانيين في مصاف الهتهم اذ كانوا يقدمون لمن اشتهر
منهم اكراماً عظيماً بعد موته وهذا اصل خرافات اليونانيين من جهة الالهة

اما التبتانيون فانشأوا جملة مدائن صارت فيما بعد ممالك صغيرة . من
اقدمها مدينة سيسيوم عند خليج ليباتو كان وضع اساساتها في عصر حران جد
ابرهيم الخليل اي نحو سنة ٢٠٨٩ ق م . ومدينة ارغوس ايضاً أسست سنة
١٨٥٦ ق م وذلك في اواخر ايام ابرهيم وقد ذكر اسم ملك من ملوكها اسمه
اوغييس عاش سنة ١٧٩٦ قبل الميلاد وكان التبتانيون كثيري الغزوات

والحروب فتلاشوا وانقضوا
وبعد انقراض هؤلاء التبتانيين رجع اليونانيون الى حالتهم القديمة وبقي



صورة زفس نحت فيدياس الشهير

على ذلك نحو ٢٠٠ سنة الى ان وافي بلادهم رجل مصري يدعى ككروبس
وبعته قوم من بلاده وذلك سنة ١٥٥٦ فاستولوا على اراضي اتيكا وانشأوا فيها

اثنتي عشرة مدينة فكان ذلك بداية ملكة اثينا. وتزوج ككروبس المذكور بابتنة ملك تلك البلاد ثم خلفه في الملك بعد موته وكان يومئذ سكان تلك المملكة لم يزالوا عاشرين متفرقين بعضهم عن بعض فجمعهم في اثنتي عشرة قبيلة او جمهوراً وعلمهم زراعة الكرم والحنطة والزيتون وسن شرائع للزيجة وطفوساً لاختلافات الدفن لاسيا محكمة او ديوان اربوس باغوس الذي اشتهر فيها بعد اشتهاراً كلياً. قيل وبعد موت ككروبس خلفه في الملك على اثينا رجل اسمه امفكتيون فحمل باقي الممالك الصغار الكائنة يومئذ ان يقيموا عهداً فيما بينهم لاجل منفعتهم العمومية فاجابوه الى ذلك وكانت المدن التي دخلت في هذه المعاهدة ترسل نواباً الى الديوان الذي كان يعقد مرتين في كل عام في مدينة ثرموبوليس ودعي ذلك الاجتماع بالمشورة الامفيكتيونية. ونحو سنة ١٥٥٩ اتى قسماً من بلاد اليونان يدعى بيوتيا رجل فينيقي يدعى كدموس وبني قلعة عظيمة سماها كادمه حيث بقي بعد حين حولها مدينة ثيبة اليونانية وهو الذي ادخل معه حروف الهجاء وفن الكتابة. وكان اليونانيون اولاً يكتبون سطرّاً من اليسار الى اليمين ثم سطرّاً من اليمين الى اليسار وهلمّ جرّاً فانتشرت هذه الفنون في بلاد اليونان ومنها الى سائر بلاد المغرب

وكان لليونانيين القدماء عقائد خرافية مضحكة كثيرة لا يسعنا ضيق المقام ايرادها الا اننا نذكر شيئاً من ذلك. فمنها انهم عدواً كثيراً من الالهة وقالوا انهم ذكور واناث يلدون ويولدون ونسبوا اليهم السلطان على الامور الارضية ووصفوهم بجميع الاوصاف والمزايا البشرية الا قبول الموت والفناء. وكان اذا اشتهر احد من الناس بصفات حميدة او ذميمة او باعمال غريبة من كل نوع قدموا له بعد موته احتراماً دينياً وسموه نصف اله وسموا بهذا الاسم ايضاً بعض فحول البشر الذين حسبوهم ولدوا من اله وبشر معاً. واقدم الالهة حسب زعم اليونانيين هو الذي نسي عندهم سيروس اي الفلك. قيل كان له ولدان احدهما اسمه سائورنوس فتزوج بشقيقته اوبيس ونسبت ايضاً

جدة لانها كانت ام اكثر الالهة والابن الثاني نيتان وهو البكر فاعطى الملك
 لاختيه ساتورنوس على شرط ان يأكل جميع اولاده المذكور لكي يرجع الملك
 بعد حين الى نسل نيتان ففعل كذلك حتى ولدت امراته جويتيراي المشتري
 واخته يونون واخاه نبتون فاخذهم ولم يأكلهم والدهم. ومن ثم تعاب جويتيراي على
 ابيه واخلس الملك من يده وطرده ثم قسم الملك بينه وبين اخويه فاخذ لنفسه
 القسم العلوي المعبر عنه عندهم بالسما واعطى سلطان المياه والابحار الى اخيه
 نبتون وسلطنة القسم السفلي ابي جهنم لاختيه بلوتون ثم دعا نفسه ملك اواله الالهة
 والبشر. وما عدا هؤلاء كان لهم الهة للجبال والسهول والحدود والزراعة والثمار
 للحرب وللصالح للرياح وللعواصف للصنائع وللعلوم والفنون للحمية وللغضة للزنا
 وللنكاح وللخمر وهلم جرا. واليونان خرافات كثيرة من هذا القبيل لو اردنا
 ذكرها جميعاً لطال بنا المجال

ومن جملة حوادث العصور الخرافية الاسرار الايلوسينية التي اخترعها
 ايركتيوس ملك انكا اكراماً للالهة سيريس التي اقيمت مرة واحدة في كل
 خمس سنين في مدينة ايلوسيس في شهري آب وايلول وكان لا يؤذن بدخول
 احد اليها الا بعد صلوات وذبايح عديدة للالهة وتطهير الجسد والتعهد بمحفظ
 الاسرار المزع ان يتسلمها. ومنها ايضا اختراع الملاعب الاولمبية التي اقيمت
 مرة واحدة في كل اربع سنوات في مدينة اولمبية في المورة اكراماً لجويتيراي.
 والملاعب البيثيكية التي اقيمت في مدينة نيبا في المورة كل سنتين اكراماً لهركول
 احد انصاف الالهة وذلك لقتله سبعة عظماء في الغياض بقرب المدينة المذكورة.
 ومنها ايضا الملاعب البرزخية التي اقيمت في برزخ كورثوس كل اربع سنين
 اكراماً لنبتون اله البحار. واعظم كل هذه الملاعب هي الاولمبية التي كان يجري
 فيها نوع من المغالبة والمصارعة والمسابقة. وكان الغالب في هذه المجاهدات
 بكلل باكليل من اغصان الزيتون الاخضر ويكرم اكراماً لامزيد عليه. وكان
 من اراد المجاهدة فيها يعد نفسه لها بامتناع عن الاطعمة الغليظة وانواع

المسكرات وعن كل ما يضعف الجسم وإلى هذا أشار الرسول بولس في
الاصحاح التاسع عدد ٢٤ و ٢٧ من رسالته الاولى الى اهل كورنثوس . وهم
الذين ابتدأوا بتقسيم الوقت الى اولميادات والاولمياد هو مدة اربع سنوات
وفي هذا العصر ايضاً بني الهيكل المشهور لابلون في المورة

الباب الثالث

في حرب طروادة ورجوع الهيراكليدية وحروبهم

ان هذه الحرب على ما جاء من اخبار اليونانيين هي من اشهر حروبهم
القديمة ومعظم حوادثها مأخوذة عن اشعار هوميروس الشاعر اليوناني المشهور
ولا ريب ان كثيراً منها حكايات لا يوثق بصحتها . واسباب هذه الحرب هي
انه كان لبعض ملوك سيارطه التابعة للملكة المورة ابنة بديعة الحسن والجمال
اسمها هيلانة وكانت اشهر نساء عصرها حسناً فزوجها ابوها مينيلاس ملك
لاكونيا وميسينيا فحدث بعد ذلك انه اتى سيارطه باريس (او اسكندر) بن
بريham وهو ملك قسم عظيم من اسيا الصغرى فاعادته مدينة طروادة الشهيرة
وذلك في القرن الثاني عشر قبل الميلاد فآكرمه مينيلاس اكراماً لا مزيد عليه
وبعد ان اقام في بلاطه مدة من الزمان كافاه على جميل صنيعه وضيافته بطغيمان
زوجته هيلانة فاخذها وفرّ هارباً بها بعد ان اخذها مالا جزيلاً واتى بها مدينة
والده طروادة . فلما علم مينيلاس بذلك شقّ عليه الامر جداً واخذهُ القلق والضرر
فبعث الى ملوك اليونانيين وكابريهم بدعومهم ان يسعفوه في الانتقام من باريس
فاجابوه الى ذلك وجهزوا جميعاً نجدة عظيمة لحاربة طروادة تحت امرة اغاممنون
اخي مينيلاس وملك ميسان وكورنثوس وسيسيون وجهزوا عمارة يبلغ عددها
١١٨٦ سفينة وركب فيها نحو ١٠٠ الف مقاتل وكان الجميع تحت قيادة
اغاممنون المار ذكره واخيه مينيلاس . ومن جملة الابطال الذين اشتهروا في هذه

الحرب اشبل وصاحبه باتروكل وديوميد ملك ارغوس واجاكوس والحكيم
متور ويلوس وعولس صاحب الحبل والتداير وغيرهم . واما اهل طروادة
فكانوا تحت قيادة هكتور الشجاع بن ابريام ملك طروادة وفي معاونته اخيه
باريس وسريدون وابنياس الفاضل . فنجح اليونانيون المتحالفون اولاً بنجاحاً
عظيماً الا انه وقع بعد حين بينهم شقاق فحسروا ما كانوا قد ربحوه ولكنهم اخيراً
فازوا بافتتاح طروادة بعد حصار دام عشر سنين فنهبوا المدينة وخربوها
واحرقوها وقتلوا بريام واولاده وسبوا عائلته وكان ذلك نحو سنة ١١٨٤ ق م
وهي تساوي عصر افتتاح احد قضاة بني اسرائيل وبعد ذلك بنحو ثمانين سنة اتى
بعض اليونانيين الى نواحي طروادة وشيدوا كولونية وما بقي من مملكة بريام انضم
الى مملكة ليديا

وبقرب هذا العصر اي نحو ٨٠ سنة بعد فتح طروادة شبت بين اليونان
حرب شديدة سميت حرب الهيراكليدية وسببها هو ان الهيراكليديين (من نسل
هركول) الذين كانوا قد طردوا من بلادهم في المورة من رجل اسمه اورستي
جاء اغاممنون وميلاس رجعا ومعهم احدى القبائل اليونانية التي انضمت
لنجدتهم وحاربوا اليونانيين اخصامهم واستولوا على مسيني ولاكونيا التي قاعدتها
سيارطه وطردوا الاخائيين الذين التجأوا الى بعض المناطعات التي بقي لغيرهم
عليها وهي اخائية . ومن ثم انقسم الهيراكليديون البلاد التي فتحوها الى ثلاثة اقسام
وهي ارغوايدة ومسيني ولاكونيا

وكان اهل لاكونيا يحسدون المسينيين نظراً لحسن موقع بلادهم وجودة
اراضيها وكانوا يتربصون وقوع سبب ما يتخذونه حجة لخارتهم والاستيلاء على
بلادهم الى ان وقع بعض الاسباب فيما بينهم فشبت بينهم حروب شديدة دامت
عشرين سنة وكثيراً ما كاد المسينيون يهدمون اركان دولة السيارطيين الى ان
فاز اخيراً هؤلاء باهل مسيني وفتحوا بلادهم وطردوهم منها فالتجأوا الى اركاديا
ومنها اقلعوا تحت رئاسة ابني رئيسهم اريستومون الى سيسيليا واستولوا على مدينة

زانكليا ودعوها مسين ولم يزل الاسم عليها الى الآن ثم جارب السيارطيون
مملكة اثينا فلم يتصرفوا عليها ومن ثم صار لسبارطه واثينا التقدم على ممالك بلاد
اليونان وسياتي الكلام على كتبهما في ما ياتي

الباب الرابع

في جمهوريتي سبارطه واثينا

ان مدينة سبارطه كانت قاعدة لأكونيا التي هي قسم من اقسام المورة
وموقعها في الجهة الجنوبية الشرقية من شبه جزيرة المورة ويلبها من جهة الشمال
مملكة ارغوس واركاдиа ومن جهة الغرب مسيني ومن الشرق والجنوب البحر
المتوسط . قيل ان بانيها الملك لكديمون وكان عائشاً في الجيل الخامس عشر
ق م وبعد رجوع الهيراكليدية واستيلائهم على لأكونيا وارغوس ومسيني كما تقدم
الكلام ملك على لأكونيا ابنا اريستوديم وكان اسم الاول اوريسين والثاني
بروكليس وبعد وفاتهما بقيت مملكتهم مقسومة الى قسمين واولاد كل منهما
يحكمون عليها ودام الحال على هذا المنوال نحو ٩٠٠ سنة وكان بين ملوك
القسمين انشقاقات ومخاصمات كثيرة في غضون تلك المدة

ونحو سنة ٨٨٤ ق م توفي بوليديكوس احد ملوك القسمين المار ذكرها
بلا عتب تاركاً زوجته حلي وكان له اخ اسمه ليكورغس شهير بين اليونانيين
فراودته امرأة اخيه طالبة ان يتزوج بها ويسند بالملك من بعد اخيه وانها
تهلك الجنين اذا قبل ان يفعل ذلك . اما ليكورغس فكره ان يرتكب هكذا
امراً فيجأ منكراً وعندما وضعت امرأة اخيه ذكراً اهتم بتربيته كل الاهتمام
ودعاه ملك سبارطه الشرعي وكان يدير مهام امور دولة ابن اخيه بالنيابة
ولكن اذ حصل نفور بينه وبين امرأة اخيه كره ان يبقى على تلك الحال فسافر
ليكورغس الى جزيرة كريت ومن ثم الى اسيا الصغرى والى مصر لكي يدرس

علوم تلك البلاد وشرائعها وفي مدة غيابه حدثت في سيارطه مخاصات وفتن كثيرة وجاهر كثيرون بالعصيان على الملك وشرائع الملكة . فبعث الشعب يطلبون من ليكورغس لمجاجة ان يوافيهم عاجلاً ويتفقد زمام الملك ويقي بلاده من الدمار فاجابهم الى ذلك وعاد راجعاً الى بلاده واخذ حالاً باصلاح البلاد واخذ الثورات والفتن واول امر فعله هو انه غير هيئة الحكومة من الملكية الى الجمهورية وعما قليل اقتدى به كثير من ممالك اليونانيين بحيث اصبح الحكم الجمهوري غالباً في اكثر البلاد .

ولما كان ليكورغس يرغب في ان يجعل تسوية بين وجاهة الملوك والاكابر والعامه رتب لذلك ديواناً مؤلفاً من ثمانية وعشرين شخصاً يتخيم الشعب من اكابر البلاد وجعل ملكي لاكونيا المتقدم ذكرها رئيسي الديوان وكان الديوان المشار اليه بسن الشرائع والقوانين ثم تعرض على جمعية العامة فان ثنها الشعب بالمصادقة عليها ثبتت والّا ألغيت . واذا اراد ليكورغس ان تكون مبادئه واجراءاته مبنية على اساسات وطيدة اخذ يربط الشعب بعضهم ببعض جاعلاً اياهم كاعضاء عائلة واحدة ولذلك قسم املاك الملكة فيما بينهم بالمساواة لكيلا يكون بينهم فقير وغني . وابطل المعاطاة بالذهب والفضة وجعل عوضها قطعاً من حديد

ومن جملة الوسائط التي استعملت بين اهالي سيارطه انهم نظروا الى جميع الاطفال المولودين حديثاً فسلموا الكاملي البنية منهم الى مرضعات من طرف الجمهورية حتى متى جاء عليهم سبع سنين ادخلوهم الى المدارس وعودوهم الشجاعة والتعب ومقاساة المشقات لكيلا يبالوا بعد حين في امر من الامور . وكان المعلمون يساوون بين سائر الاولاد في التعليم بلا تمييز وكذا النساء ايضاً اكتسبن فضائل الرجال واقتدرن بيسالة اولادهن وشجاعتهم واحبين ان يموتوا في خدمة وطنهن . وقد روي عن امرأة انها عند ذهاب ابنها الى الحرب ناولته ترسة فائلة عذماً به وأما عليه اي اغلب او مت كثيراً في القتال . وهكذا بواسطة شرائع

وقوانين مثل هذه تشيدت اركان جمهورية سبارطه وقويت جداً وتعاضمت
واوقعت الرعب في قلوب جميع ممالك اليونان التي امست تخاف سطوتها
وبقيت سبارطه على هذا المنوال نحو ٥٠٠ سنة

اما اثينا فكانت قاعدة مملكة اتيكا قديماً وكان حكمها اولاً من نوع الملكي
حتى زمان احد ملوكها المسمى قودروس الذي كان معاصراً لساؤل ملك بني
اسرائيل . وفي ايام هذا الملك رجع الهيراكليدية الى المورة كما تقدم وكانوا لما اتوا
لمخاربة اثينا استشاروا في هيكل ابولون الفال فانباهم انهم يفوزون بالغلبة على
الاثينيين ان لم يقتل ملكهم قودروس في الحرب واذ كانوا يرضخون لهذه الاوهام
اخرسوا جداً من قتله واما قودروس فلما علم ذلك تزى بلباس العامة وانسلَّ
بين صفوف الجنود الهيراكليدية وقتل في وسط المعمة حباً بانقاذ وطنه . ولما
علم الهيراكليدية ذلك وراوا جثة ملك اثينا مجدلة بين صفوفهم وكانوا
معتقدين كل الاعتقاد بصحة الفال يسسوا من الغلبة وانقلبوا راجعين وذلك
سنة ١٠٨٢

اما الاثينيون فبعد موت ملكهم الذي بذل نفسه حباً ببلاده لم يحبوا ان
يولوا بعده ملكاً عليهم فابطلوا الحكم الملكي واقاموا الحكم الجمهوري . فكانوا
يولون روساء يسمونهم اراكنة او اراخنة واول من تولى هذا المنصب ابن
قودروس وبنوه من بعده واستمر في الحكم يد ذريته نحو ٢١٢ سنة وكان
الاراخنة في اول الامر يولون مدة حياتهم ثم بعد حين الى عشر سنين ثم بعده الى
سنة واحدة فقط وزيد عددهم شيئاً فشيئاً الى تسعة وكانوا جميعاً يشتركون في
جميع مهام امور الدولة وكانت وقتئذ الشرائع غير مستوفية النظام والترتيب فقام
رئيس الاراكنة في ذلك الوقت وشرع في تنظيمها وتجديدها ووضع قوانين ثقيلة
صارمة جداً فجعل الموت عقاباً لكل ذنبٍ مها كان جرمه محتجماً في ذلك بان
ادنى ذنبٍ او تعذير يستوجب الموت ونظراً لصرامتها قيل انها كتبت بالدم
ولكنها اهلت بعد حين لصعوبتها

ثم انه بقرب سنة ٥٩٤ ق م قام رئيساً للاراكنة صولون الحكيم المشهور وكان من ذرية فودروس فوضع نظامات جديدة وشرائع وقوانين عادلة مناسبة لروح ذلك العصر واحوال البلاد وجعل السلطة الاجرائية في جمعيه من الشعب لا يدخلها الا من كان قد اتى عليه ٢٠ سنة واقام ديواناً عدد اعضائه ٤٠٠ شخص تزايد فيما بعد الى ٥٠٠ عضو وجدد ايضاً ديوان اريوس باغوس وقسم الشعب الى اربع رتب بحسب وجاهتهم وغناهم وانتخب ارباب الوظائف والاحكام من الثلث الرتب الاولى واما الرتبة الرابعة فاشتملت على عامة الشعب. ومن ثم اهتم صولون ايضاً بتوسيع دائرة التجار وترقية اسباب الصنائع والمعامل والفنون وتكثيرها والزم كل انسان ان يباشر عملاً ما من الاعمال لتحصل ضروريات المعيشة وحرص الناس على العفة وطهارة السيرة والاقلال عن استعمال الكلام الخلل في الآداب او غير اللائق ومن خالف ذلك عوقب اشد العقاب. ثم ان صولون بعد ان مهد الامور واشهر شرائعها واجراها طلب السياحة خارج بلاده فسافر واتى منازل اليونان في اسيا الصغرى ثم ليديا اثني كان ملكها كريسوس المشهور بالغنى

ولما عاد صولون الى بلاده وجد ان جميع ما كان نظمه ورتبه قد فقد نظامه ورأى عوضه فتناً قائمة لم يستطع ان ينجح نيرانها وذلك لان رجلاً يدعى بيسينراتوس كان قد اختلس الحكم من الاراكنة فبذل صولون قصارى جهده عبثاً لتخليص البلاد من يد المقتصب فلم ينجح. اما بيسينراتوس فنجح باسمالة الشعب اليه وبما ملته اهل اثينا باللطف والاحسان فرجع الاثينيون في ايام حكمه بالسعادة والراحة ورغد العيش. وكان يحيط بالملك اشهر حكماء ذلك العصر وكان بلاطه كمدسة للعلماء وهو اول من اعتنى بجمع اشعار هوميروس الشاعر المشهور وبعد موته خلفه ابنه هيارخوس وهيباس سنة ٥٢٨ ق م. قبل ان هيارخوس اهان احدى الخدرات الاثينيات فقام عليه اخوها مع رفيق له فقتلاه فقبض عليها وقتلها. اما هيباس فكان يثقل على اهل اثينا

ويظلمهم كثيراً فحقوا عليه واستغاثوا بأهالي سيارطه ان ينجدهم على طرد ملكهم فلما رأى هيبياس ذلك فرّ هارباً والتجأ الى داربوس ملك الفرس يطلب اليه المساعدة ليرجعه الى ملكه وذلك سنة ٥١٠

وبعد فرار هيبياس قام اثنان من الروساء وهما كليستينوس وايساغوراس وتنازعا الحكم فقوي كليستينوس على ايساغوراس وطرده واستبد وحده في امر ادارة الاحكام فجدد نظامات صولون نفسها واعاد الراحة في البلاد. اما سيارطه فاذ رغبت في ان يكون لها التقدم والسطوة على كل البلاد اليونانية جهزت جيشاً وارسلته تحت قيادة ملكها كليومينيس لتعارض ما احدثه كليستينوس من التغييرات ولكي تعيد ايساغوراس الى الولاية فلم تات مساعده بالمقصود وانتصر الاثينيون على اهل سيارطه ومن تحالف معهم وكسروهم وبددوا ثلهم ولما بلغ ايضاً الولايات المتحدة مع حكومة اثينا ان كليومينيس ملك سيارطه كان قد اتى بهبياس من اسيا الصغرى لكي يوليّه عنوة على اثينا غضبوا من جراء ذلك جداً واطهروا عدم رضاهم ومصادقته على هذا العمل فاضطر هيبياس ان يلجئ ثانية الى داربوس. وكان داربوس وقتئذ عازماً على محاربة بلاد اليونان واستفتاحها لحسب ما جرى على هيبياس علة مناسبة لفتح الحرب على اليونانيين فبعث يطلب الى الاثينيين ان يعيدوا هيبياس الى ملكه ولما لم يقبلوا جعل داربوس عدم قبولهم اياه سبباً لمهاجمته بلادهم

الباب الخامس

في ما جرى بين اليونان والفرس من سنة ٥٠٠ تقريباً الى

حين تولى فيليبس على ملكة مكدونية سنة ٢٦٠ ق م

اننا قبل ان نشرع في الكلام عن الحروب التي شبت نيرانها بين الفرس واليونانيين نذكر ايضاً الاسباب التي مهدت لها السيل وكانت مصدراً لها ثم

حوادثها بالاختصار فنقول

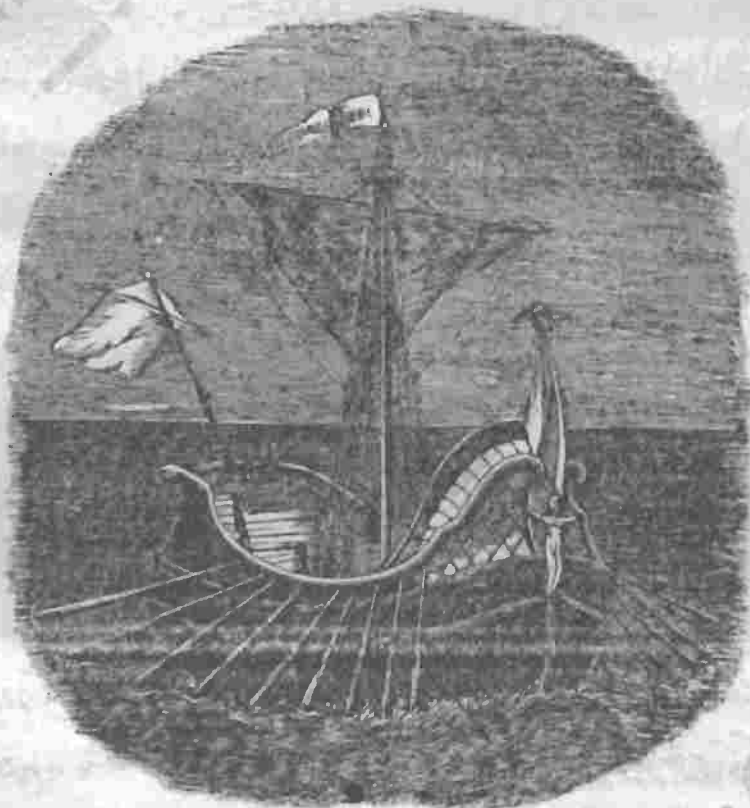
قد علمنا ما تقدم ان بعض قبائل اليونانيين كانوا قد صنعوا منازل في اسيا الصغرى وسكنوها فصارت مقاطعات يونانية منها كاريا وايونيا وابوليا وكان كريسوس ملك ليديا قد استفتح هذه الاقسام وضمها الى مملكته ولما انتصر كورش على كريسوس ملك ليديا وتغلب عليه انضمت جميع هذه الاقسام الى المملكة الفارسية . وفي عصر داريوس بن هستاسب صهر كورش نهض اهل ابونيا بقلب واحد وقصدوا ان يخلعوا نير الطاعة للفرس وان يخلصوا من عبوديتهم فبعثوا الى اثينا يطلبون الامداد والمعونة ومثله الى جزائر الارخبيل الرومي فاجابوهم الى ذلك وارسلوا اليهم خمسا وعشرين سفينة مع عدد من الجيوش وشرعوا اولاً بحاربة الاساكل البحرية التي كانت خاضعة للفرس وحاصروا براً مدينة سرديس قاعدة ولاية ليديا مقر الوالي المرسل من قبل ملك فارس واحرقوها فوافقتهم عساكر الفرس وطردتهم فارتد اليونانيون مدبرين الى بلادهم اما داريوس فلما رأى ما فعله اليونانيون شق عليه الامر جداً وعزم من ذلك الوقت على غزو بلادهم واستنجاحها . وكانت العادة في تلك الايام قبل اشهار الحرب ان يرسل الملك رسلاً الى البلاد المجاورة بالاعلان في طلب الطاعة والخضوع فارسل داريوس وفداً الى اثينا وسارطه في طلب تلامات الخضوع وهي ان يرسلوا تراباً وماء فشتهم اليونانيون ورموا بعضاً منهم في بحر وبعضاً في بالوعة فاثلين لم خذوا ما شئتم من كليهما . واذا تأمل الانسان بعظمة الدولة الفارسية وسطوتها في تلك الايام واتساع دائرة املاكها وضعف الدولة اليونانية وصغرها يتعجب كل العجب من تجاسر اليونان وجراتهم

اما داريوس فلما بلغه ما حل برسله في اثينا وسارطه وما كان من تجاسر اليونانيين اغناظ غيظاً لا مزيد عليه واعتمد على محاربتهم براً وبحراً فارسل عمارة بحرية مؤلفة من ثلاث مئة سفينة تحت قيادة مردونيوس صهره فهاج عليها نوا فتكسرت في البحر قبالة جبل اثوس واما الجيوش البرية فبعد ان اخضعوا

مكدونية واقدموا لمحاربة سپارطه واثينا هاجم البريجيون وكسروهم فارتدوا على الاعقاب

وسنة ٤٩٠ ق م ارسل ايضاً داربوس نجريدة جديدة تحت قيادة داتيس وارغون مع عمارة بحرية مؤلفة من ست مئة سفينة فهجموا على جزائر الارخيل وفتحوا عدة منها ونهبوا مدينة اريثريا واسروا اهلها وشبعوهم الى بلاد فارس ثم تقدموا الى شطوط انيكاً ونزل الجيش الى البر وعدده ١١٠٠٠٠ مقاتل وكان دليلهم هيباس المتقدم ذكره فارسلت في الحال اثينا الى سپارطه تطلب منها نجدة فوعدت بارسال جيش لكنه لاسباب لم يصل الا بعد انتهاء الحرب فتقدم هيباس بجيش الفرس الى ماراتون وهي بلدة صغيرة على شاطئ البحر تبعد عن اثينا نحو عشرة اميال فقط فوافاهم عشرة الاف مقاتل من اليونان تحت قيادة القائد ميلينياديس وكان رجلاً ذا دراية وشجاعة واقدم وبعد ان رتب جيشه القليل واقام الحواجز لتفقيه من هجمات فرسان الفرس وكان جناحه اليمين مستنداً الى جبل عسر المسالك هم اخيراً بجيشه على صفوف الفرس هجمة هائلة صارخين جميعهم الموت او الحرية فلاقاهم الفرس ايضاً واتشبث نيران القتال بين الفريقين في سهل ماراتون ولم يلبث طويلاً حتى انكسر الفرس ونشنت شلهم اي تشنت واندفعوا جميعاً يتهاقنون الى البحر والتجأوا الى المراكب طلباً للنجاة بعد ان تركوا من القتلى نحو ٧٠٠٠ قتيل ومن جملتهم هيباس اما خسارة اليونان فلم تكن سوى نحو ٢٠ رجل بين قتيل وجريح واما قواد الفرس فانزلوا جيشهم ثانية املاً بالاستيلاء على اثينا فدفعهم اليونان مرة اخرى وكسروهم اشركرة فبشوا من النصرة وعادوا راجعين الى بلادهم بالخيبة والشل اما ميلينياديس فاكتسب بهذه النصرة شهرة لا مزيد عليها. ثم جهزته ايضاً اثينا بعارة وجيش لكي يذهب لمحاربة الفرس في الجزائر التي كانوا قد استولوا عليها ويطردهم منها ففرض ونجح ايضاً نجاحاً كبيراً واستخلص جميع تلك الجزائر من الفرس الا جزيرة باروس فلم يقدر على اخذها ولما عاد الى اثينا اتهمه اهلها بانه

قد ارتشى من الفرس فغرموه غرامة عظيمة ثم مات بعد ذلك بقليل
 وكان يومئذ في اثينا رجلان معتبران احدهما اريسنديس الصديق وهو
 افضل الاتينيين في ذلك العصر وكان وقتئذ في المنفى والثاني ثيمستوكليس ولما
 راي هذا الاخير الخطر المحدق ببلاده من جرى هجمات الفرس وكان موقناً انه
 اذا استجذت حرب بين اثينا والفرس تكون على الاغلب بحرية اخذ يحرض
 قومه على تكثير سفنهم فامثلوا مشورته وانشأوا مقدار مئة سفينة
 وفي تلك الاثناء توفي داريوس المتقدم ذكره وخلفه ابنه زركسيس الاول



سفينة يونانية حربية قديمة

فغزم على الانتقام من اليونان وفقاً لمقاصد ابيه فاخذ في الاستعداد لذلك وصرف
 اربع سنين في الاستعدادات فجهز عمارة بحرية عدد سفنها ١٢٠٠ سفينة وجيشاً
 عزمماً بنوف عن المليون وتقدم لمخاربة اليونانيين فلم يصادف معارضاً الى ان

صار بالقرب من اثينا حيث عزم يونان اثينا وسبارطة مع بعض حلفائهم على مصادمة الفرس والثبات الى النهاية فتقدم ليونيداس ملك سبارطة بعدد قليل من الرجال منهم ثلث مئة رجل من اهالي سبارطة والتقى الفريقان في مضيق ثرموبيل وهو مضيق بين جبلين في ثساليا . وكان قبل شوب الحرب ان زركسيس لما رأى قلة عدد اليونان بعث الى ليونيداس يطلب اليه ان يسلم سلاحه مع انقاره الفلائل فاجاب ليونيداس : تعال وخذ : ثم ابتداء القتال ودام يومين وهلك من الفرس عدد كثير ولم يستطيعوا ان ينفذوا من ذلك الماضي وكان عددهم الهائل كالحدم اذ لم يقدر ان يجاربوا جميعاً بدأ واحدة ولولا الخيانة لفاز اليونانيون الى النهاية لان رجلاً يونانياً من ثساليا كان قد ارى الفرس طريقاً آخر بين الجبال انهموا على ليونيداس ورجاله من وراء ومن قدام وضايقهم جداً . ولما رأى ليونيداس عظم الخطر المهدق به ونفق الهلاك صرف جميع من كان معه من الرجال الا الثلاث مئة السبارطيين وسبع مئة آخرين احبوا ان يموتوا معه وثبت هولاء بدافعون وبجاربون حتى هلكوا جميعاً الا رجلين . وفي نفس ذلك الوقت انتشبت نيران الحرب ايضاً في البحر بين المراكب اليونانية والفارسية ففاز اليونان في اول الامر بعض الفوز ولكن لما بلغهم موت ليونيداس تاخروا واتوا شطوط اثينا بقرب جزيرة ساليينه وتقدم عسكر الفرس ناهباً البلاد ومفسداً ومخرباً حتى دخل اثينا فهرب الاهالي الى السفن فدخلها الفرس ونهبوها واحرقوها

وفي هذا الوقت طلب ثيمستكليس ترجيع اريستيديس الصديق الذي كان قد نفي فاخذ الاثنان قيادة السفن البحرية مع رجل آخر من سبارطة وحدث وقعة عظيمة بين سفنهم وسفن الفرس وكان عدد الاولى ٢٠٠ والثانية ١٢٠٠ فدارت الدائرة على الفرس وانكسرت مراكبهم . وكان زركسيس جالساً على البر في مكان عال مشرف على ساحة القتال فلما رأى انكسار سفنه خاف جداً وكان قد بلغه ان اليونان مزعمون ان يقطعوا عليه الطريق باحراقهم

الجسر فهرب للحال وقطع البوغاز وجاء الى سرديس ناركاً ٢٠٠٠٠ مقاتل تحت قيادة صهره مردونيوس في مارانون لكي يحدد الحرب في الربيع. فاجتمع جيشا اثينا وسپارطه وكان عددها ١١٠٠٠٠ مقاتل تحت امرة بوزانياس من اهل سپارطه واريسنيديس الاثيني وهاجموا مردونيوس وصار بين الفريقين وقعة مهولة في سهل بيونيا فانكسر الفرس انكساراً عظيماً ونشنت شلهم وقتل مردونيوس وغنم اليونان غنائم لا تحصى. وفي نفس هذا الوقت كانت الحرب قائمة بحراً عند شطوط اسيا الصغرى وكانت الدائرة فيها ايضاً على الفرس. اما زركسيس الاول الذي كان لم يزل باقياً في سرديس فلما بلغه خبر انكساره برأ وجرأ انهزم راجعاً الى بلاده وبعد قليل قتله احد اتباعه.

واما اليونانيون فلم يرجعوا عن محاربة الفرس بعد انتصاراتهم المتتبع ذكرها وحرّضوا اهل ايونيا على طرح نير الفرس وتخلصهم من عبوديتهم واعانهم على ذلك واستخلصوا منهم جزيرة قبرس. ثم اتوا مدينة يزرانتيموم اى الفسطنطية الحالية ونهبوها ورجعوا الى بلادهم بمكاسب وغنائم وافرة ثم شرعوا في ترميم اثينا وحصنها وزينوها بالابنية الفاخرة والمرايح الجميلة ووسعوا مبانيها حتى اصبحت ابهى مدائن ذلك العصر واجملها.

ومن ثم اخذ اليونانيون يتفوّون ويسترجعون مدنهم في مكثونية شيئاً فشيئاً واما بوزانياس قائدهم العام فلما رأى انهم يريدون ان ينكسوه ويطعوا في طريقه نصعبات اخذ يكتب ملك الفرس سراً واعداً اياه ان يسلمه جميع بلاد اليونان بشرط ان يزوجه ابنته وان يكون نائباً مكانه على البلاد التي يسلمه اياها فاشتبه اليونانيون به ودعوه الى مجلسهم فبرر نفسه اذ لم يكن لهم حجة ظاهرة بمسكونه بها ولكن اذ وقعت يدهم بعد ذلك رسالة الى زركسيس ارادوا ان يقبضوا عليه فهرب النجاً الى هيكل يلاس فلم يستطيعوا ان يدخلوا اليه لياخذوه منه لانه حسب عندهم حراماً مسك من النجاء اليه فسدوا عليه الباب فمات جوعاً. وقيل ان امه هي اول من اخذت حجراً فوضعت على باب الهيكل وان الباقين

لما راوا ذلك فطنوا لسد باب الهيكل . ثم أقاموا الحجة على ثيستوكليس منبهين
بالاشتراك في خيانة بوزانياس فنقوه أيضاً من البلاد فالتجأ الى اعظم عدوه
وهو زركسيس الثاني ملك الفرس الذي قبله بكل فرح وترحب به كل
الترحاب وغمره بنعمه فاقام ثيستوكليس في بلاد الفرس الى يوم وفاته . قيل انه
امات نفسه بالسهم لئلا يجبر على اخذ السلاح ضد وطنه مكافأة لما ابداه زركسيس
من المعروف نحوه . وقام بعد نفي ثيستوكليس رئيساً للاراحة اريستيديس
الصديق وبعد موت هذا تولى الرياسة سيمون بن ميثياديس وكان رجلاً
ذاسعة وديعاً كريماً محباً لجميع الناس فاتحاً بيته وبياتينه الجميلة لمن اراد
الدخول اليها وكانت اصحابه تبعه حاملة نقوداً فكان يعطي المحتاجين من ابناء
وطنه من صادفهم في طريقه . فاغضبت تصرفاته هذه اهل بلاده زاعمين انها
تأتي الشعب والبلاد بخسائر اديبة فنقوه وتولى مكانه بريكليس ثم دعوه بعد
خمس سنين وولوه قيادة الجيش وكانت يومئذ الخصاصات والفتن الداخلية آخذة
من اليونانيين كل مأخذ فلما علموا بلاشيها لم يجد لها علاجاً انفع من اشتهار الحرب
على الفرس ثانية فانتصر عليهم في عدة وقائع وافتتح الجانب الاعظم من جزيرة
قبرس التي كانت تابعة لهم . ولما رأى زركسيس ملك الفرس ان مملكته قد
ضعفت في الحروب الكثيرة المستطيلة اضطر ان يطلب الصلح فاجابه سيمون الى
ذلك تحت الثلاثة الشروط الآتية وهي اولاً انه يرفع يده عن جميع املاك اليونان
في اسيا الصغرى وان تكون ممالك مستقلة بذاتها . ثانياً ان يمنع سفنه من السير
في البحر . وثالثاً ان عساكره لا تتخطأ اكثر من ثلاثة اميال ضمن حدود المنازل
اليونانية غير ان سيمون لم يتمتع بثمرة اعماله العظيمة اذ انه توفي من جرى جرح
اصابه في حصار جزيرة قبرس سنة ٤٤٩ ق م . وبقي بريكليس رئيساً في اثينا بعد
موت سيمون مدة عشرين سنة واهتم كثيراً بتحصين المدينة وتزيينها وفي عصره
بلغ اهلها الدرجة القصوى في اتقان الصنائع والفنون ومعامل البناء لاسباب
الفش والتصوير وراجت فيها سوق المعارف والعلوم فكانت مدرسة للعلماء

والعلوم ولذلك سميت ام العلوم والفلسفة. وفي اواخر ايام بريكليس وقع خلاف وشقاق بين اثينا وسبارطه كانت نتيجتها اخيراً شوب نيران الحرب الطويلة التي دامت مدة ثمانين سنة وسميت حروب اليليبونيسوس اي حروب المورة. وكان السبب في ذلك انه لما وقعت حرب بين ولاية كورثوس وجزيرة كورفو ان بريكليس عرض حكومة اثينا على مساعدة اهل كورفو فحسب هذا الامر في سبارطه تعدياً ونكثاً للعهد التي كانت قد اقيمت بين ممالك اليونانيين. وكانت سبارطه تنظر الى اثينا ونجاحها بعين الحسد وتترقب الفرص لاذلالها وتنكيس شوكتها فطلبت اليها ان تنفي العائلة الالكيمونيدية كانها تريد بذلك نفي بريكليس. فهذه الاسباب وغيرها مما لا يسعنا ضيق المقام لاستيفائها كان من شأنها جميعاً اثارة الحرب المذكورة

ففي سنة ٤٢١ ق م ثبت نيران تلك الحروب ودامت الى سنة ٤٠٤ بدون انقطاع. فكان من الجهة الواحدة سبارطه وكورثوس وجميع ولايات المورة الى ارغوس وكارالمالك الشمالية ومن الجهة الاخرى اثينا وفساليا وبعض جزائر الارخيل الرومي وكان عدد جيش اثينا يبلغ نحو ٢٢٠٠٠ مقاتل وعدد جيش سبارطه ٦٠٠٠٠ مقاتل تحت امر ارخيداموس ملكهم. اما الاثينيون ففاقوم جداً بالقوة البحرية فاشتعلت بينهم الحروب برّاً وبحراً وهلك منهم عدد عظيم جداً في مدة الثمانين سنة التي دامت الحروب فيها وكان الانتصار نارة لاثينا واخرى لسبارطه ولكن في السنة الاخيرة من هذه الحروب قام في سبارطه رجل شهير ذو حذق ودراية عارف فن الحرب وابوابه وهو ليساندروس فانتصر على جيش اثينا انتصاراً عظيماً ومن ثم تقدم وحاصر اثينا برّاً وبحراً وما زال يشدد عليها الحصار حتى طلبت التسليم فعقد شروط الصلح واصبحت اثينا بموجبها خاضعة لحكومة سبارطه التي صارت بعد ذلك من اعظم الولايات اليونانية واقواها. فتكبر السبارطيون جداً وتعظفوا وشرعوا في المظالم والعدوان واطل ليساندروس من اثينا الحكم الجمهوري ونظامها القديم

واقام عوضها ثلاثين عضواً او رئيساً تحت امر حكومة سبارطه فشرع هؤلاء يظلمون ويعتسفون الاثينيين ويجورون عليهم كثيراً وقتلوا منهم في مدة اقل من سنة عدداً عظيماً وما زالوا يظلمون ويتعدون الى ان ضجر منهم الاثينيون وشرعوا يتآمرون في ايجاد طريقة لخلع نير هؤلاء المردة وكان يومئذ في اثينا رجل ذو دراية وحنق اسمه ثراسيبولوس فنهض مع اهل اثينا جميعاً وطردها الثلاثين رئيساً السبارطيين ورجعوا الحكم الجمهوري وذلك بمساعدة بوزانياس ملك سبارطه نفسها لانه كان يكره ليساندروس وبخشي سطوته واعادوا نظامات صولون

وفي هذا العصر عاش سقراط وهو اشهر فلاسفة اليونان واول من علم بوجودانية الله ومخلود النفس وكان رجلاً نقياً ورعاً فاشتكى عليه اهل اثينا زاعمين بانه يفسد عقول الناس بتعاليمه فحكم عليه بالموت وذلك بشرب عصير الشوكران وقد ترك تعاليم مفيدة جداً الا انه لم يكتب منها شيئاً في حياته وانما كتب بعد موته عن يد تلميذه افلاطون

وكان اليونانيون المستوطنون في ولايات اسيا الصغرى اليونانية قد قاموا على زركسيس الثاني بن داريوس نوثوس ملك الفرس وطلبوا مساعدة سبارطه فارسلت جيشاً لمجدهم تحت قيادة ملكهم اجيزيلاس فتجددت الحرب ثانية بين اليونان والفرس فتقدم اجيزيلاس الى اسيا الصغرى وفتح فريجية ومنها تقدم نحو بلاد فارس نفسها فخاف زركسيس جداً واخذ يحرض اثينا وغيرها من بلاد اليونان ممن كان بينها وبين سبارطه عداوة ان يقوموا لمحاربة سبارطه فالتزم اجيزيلاس ان يعود الى بلاده للمحاربة عنها ولولا ذلك لهدم اركان السطوة الفارسية وبعد ان دامت الحرب جملة سنين عقد اخيراً الصلح المعروف بصلح اتلبيداس وهو ان يصير ارجاع اسيا الصغرى وجزيرة قبرس للفرس وان مدن هيلاس وجزائرها كافة تكون مستقلة قائمة بذاتها ما عدا جزائر لنوس وامبروس وسيروس فتتضم الى اثينا وان ملك الفرس وسبارطه يقيمان

الحرب على كل من لا يعمل بموجب شروط هذه المعاهدة . وكان ذلك سنة

٢٨٨ ق م

هذا ولما كانت الحرب قائمة على ماقـ وقدّم بين اثينا وسبارطه نفوت
ثيبة جدًّا وصارت ذات سطوة كلية وما زالت في نجاحٍ واقبال حتى اصبح
قاعدة للعدن والاراضي المجاورة لها . اما سبارطه التي كانت تحب ان تترأس على
جميع الممالك اليونانية فلما رأت نجاح ثيبة خافت من تزايد سطوتها وقوتها
فارسلت جيشًا واخذتها فجأة واقامت عليها ولاية من قبلها فدرعوا يقتلون
ويظلمون ويجورون على الاهالي كما جرى في اثينا فهرب كثيرون من الاهالي
وانوا اثينا فاغناظ الاثينيون من هذا الفعل البربري وتظاهروا بالميل الى ثيبة
اما سبارطه فجمحت ايضا من هذا الفعل القبيح وقاصت الهائد الذي فعل ذلك
الا انها لم تنازل عن الاستيلاء على ثيبة وملحقاتها . فقام اخيرا ايبامينونداس
ويلوبيداس رجلان شهيران من اعمال ثيبة وقتلا ظالم بلادها . فثبتت من ذلك
حرب شديدة بين سبارطه وثيبة ودامت زمانا ليس بقليل ففاز اهل ثيبة اولاً
فوزاً عظيماً في واقعة حدثت بقرب اوكرنا احدى مدن اركاديا في المورة
وتقدموا بانتصار حتى ابواب سبارطه نفسها واحرقوا مدناً كثيرة ونهبوا سبارطه
ثم عادوا الى بلادهم فائزين غانمين . ثم تجددت الحرب ايضا بعد مدة وجيزة
وكانت الغلبة لايامينونداس ايضا ولكنه قُتل في الحرب وقبل موته بقليل بينما
كان منتظراً نتيجة الموقعة التي كانت سبباً لموته لما اخبروه ان الفوز كان لهم
صرخ قائلاً كفاني حياة ونزع السهم الذي كان ما زال في جسده واسلم الروح
فكانت به بداية سطوة ومجد ثيبة ونهايتها بنهايتها فعقدت الصلح مع سبارطه لكي
تبقى اقلما يكون على ما كانت عليه من الاستقلال لانها امست خائنة سبارطه بعد
فقد قائدها ايبامينونداس . واما اجيزيلاس ملك سبارطه فمع ما كان عليه من
الشجوخة اذ كان ابن ٨٠ سنة لم يطبله عيش الا بالحروب فاتي مصر لمحاربة
الفرس فلقى الموت هناك وبموت ارناحت البلاد وعظم السلام على ان الآداب

اخذت من هذا الوقت مهاجر ربوع البلاد اليونانية وكسدت فيها سوق التقدم
والفلاح واخذت تميل وتنهقرادياً
وبقرب هذا الوقت حدث في مكدونيا قلاقل كثيرة وذلك ان استاناس
ملكها توفي تاركاً ثلاثة بنين فشرع هؤلاء يتنازعون الملك فبعث المكدونيون
وفداً الى ثيبه يطلبون مساعدتها في نزع الخصام من بلادهم فارسلت ثيبه عسكراً
نحت امريلوبيداس لكي يصلح احوال تلك البلاد ولما اتى مكدونية ولى احدهم
ملكاً عليها ومهد الاحوال وعاد معه فيلبس اخو الملك وهو ابو اسكندر الكبير
وعدد من اعيان البلاد رهناً ومن حين انتصار ثيبه على سبارطه المرة الاخيرة
وعقد الصلح بينهما لم يحدث بين اليونانيين امر مهم حتى زمان تلك فيلبس
المذكور آنفاً على بلاد مكدونية

الباب السادس

في ملكة مكدونية وقيام فيلبس سنة ٣٦٠ ق م الى

موت الاسكندر

ان تاريخ بداية هذه الملكة كاكثيرتواريخ مبادي باقي الممالك والشعوب محاطاً
بظلمة كثيفة اما مؤسسها ولول ملوكها فرجل اسمه كرانوس عاش في اوائل
الجيل الثامن ق م والمظنون ان المكدونيين واليونانيين هم من اصل واحد على
ان اليونان حصلوا المكدونيين نصف براءة كباقي الامم ولم يكن لهم صوت في
المشورة الامفيكتيونية وكانت السلطنة في يد اشراف البلاد على نوع ما ولم
يكن للملك شيء من الاستقلال والجنود كانوا طوعيين اذا شاموا تبعوا الملك
في غزواته وحروبه لاسيما اذا علموا ان في ذلك لهم فخراً او غنائم ليسلبوها .
وكان ملوكها خاضعين للفرس زماناً طويلاً غير انهم في زمن حروب البليونيانية
اخذوا يتخلصون نوعاً من ثقل ذلك اليد ومن وهدة بحر الظلام والجهالة

وقد علمنا في ما تقدم ان فيلبس الذي كان ابن الملك السادس عشر من ملوك مكدونية كان قد أخذ الى ثيبة عندما اتى بيلويداس الى مكدونيا ليتزع منها الفلاقل والفساد وكان يومئذ عمره نحو ١٠ سنين فاقام في ثيبة نحو اثنتي عشرة سنة فتعلم امورا كثيرة مفيدة ودرس عند ابيامينونداس فن الحرب وابوابه ولما بلغه خبر قتل اخيه المالك في مكدونيا هرب الى بلاده فوجدها مضطربة ثائرة وكان لاجي فيلبس ولد صغير السن فأخذ عمه فيلبس على نفسه ان يكون وصيا له واعتنى بامر تربيته وحكم باسمه ولكن عما قليل قام المكدونيون وطلبوا اليه ان يكون هو الملك الشرعي عليهم اذ لا يريدون ان وصيا يملك عليهم فاجاب طلبهم ونولى زمام المملكة وكان حينئذ عمره نحو ٢٥ سنة. وقبل ان يتبوأ تحت المالك خرج لحاربة جيوش اعداء كثيرين كانوا يتهددون عرش ملك ابن اخيه فاتصر عليهم جميعا وبدد ثملهم واخضع جملة اماكن فاجبه قومه كثيرا ولما تمكن فيلبس في الملك اخذ يدبر واسطة لاختضاع باقي المالك اليونانية وضمها الى ملكته. وكانت سيارطه واثينا اقوى المالك اليونانية قد ضعفتا من الحروب التي وقعت بينها وبين الفرس. وثيبة ايضا كانت قد وهنت من حروبها مع سيارطه وفقد فائدها الهام ابيامينونداس فاخذ بزرع الشقاق والفساد بين هاتيك المالك وكان له في جميعها اناس من اهلها واعيانها في خدمته الذين ساعدوا كثيرا في اجراء وانمام مقاصده هذا وكان قد وجد في نواحي مدينة فيلي معادن من فضة وذهب فاستخرج منها اموالا وكوزا وافرة ساعدته كثيرا في انمام مرغويه اذ استطاع ان يتصر بواسطتها حيث لم يقدر يتصر بجيوش السلاح. وفي سنة ٢٥٦ ق م وهي السنة الرابعة من ملكه وضعت زوجته الملكة اوليمپياس ولدا ذكرا فسماه اسكندر ولما نشأ قليلا سلمه الى الفيلسوف اريستوطاليس الشهير لكي يعتني بتعليمه وتهذيبه فنشأ شابا ادبيا شجاعا كما سيأتي الكلام عنه

وبقرب هذا الوقت حدث بين ممالك اليونان حرب شديدة سميت

الحرب المقدسة مَدَّت لفيلبس السبيل الذي طالما صبا اليه لنوال مرغوبه من اخضاع الممالك اليونانية لسلطوته . وكان السبب في ذلك ان قوماً من اهالي فوسيديا وضعوا ايديهم على حقل من اوقاف هيكل ايولون فحسب ذلك امراً عظيماً وحُك عليهم من قبل المشورة الامفيكتيونية بغرامة مبالغ وافر كفارة عن ذنوبهم وفوضت الجمعية المشار اليها اللوكرين واهل ثيبة ان يحصلوا منهم تلك الغرامة فأبى اولئك ان يخضعوا لحكم المشورة وتنعوا عن الدفع وجأهروا بالعصيان وحمأ السلاح واستعدوا للحرب فشبت نيران الحرب ودامت مدة عشرين بين فوسيديا وسبارطه واثينا من الجهة الواحدة وثيبة وثناليا ولوكريا من الجهة الاخرى فانتهر فيلبس هذه الفرصة ليكون له نوع من المداخلة الرسمية بين تلك الممالك وطلب اليهم ان يكون وسيطاً ومصلحاً فيما بينهم فقبلوه وجعلوه عضواً من اعضاء المشورة الامفيكتيونية ما عدا الاثينيين فان خطيبهم الشهير ديموستين حذّرهم من فيلبس الذي كان احبل من ثعلب وحرّضهم على عدم قبول مداخلة في ما يتعلق ببلادهم واراهم ان مقاصده انما هي ليتزع حريتهم ويخضعهم لسلطته . فاغتم فيلبس فرصة هذه الحرب وتقدم بجيشه قاصداً فتح مضيق ثرموبيل ليكون كعصاً يتركاً عليه عند الحاجة . اما ديموستين فلما درى بذلك جهز فرقة من العساكر ولاقى فيلبس عند المضيق المذكور . فلما رآه فيلبس جيش اثينا اثني راجعاً تاركاً مفسده الى فرصة انسب

وكان بعد ذلك ان قوماً من اهالي لوكريا وضعوا ايديهم على بعض اراضي هيكل ايولون فحكمت عليهم المشورة الاهفيكتيونية كالحكم السابق فأبوا ان يخضعوا فتجددت الحرب المقدسة الثانية ودُعي فيلبس ان يكون قائداً في هذه الحرب فكان يتظاهر بالتمنع في اول الامر لكي يخدمهم ويجعلهم يطمنون من جهته واخبراً زحف بجيشه وابتدأ بفتح المدن المجاورة بيوتيا وفوسيديا . اما ثيبة فلما رأت ذلك اندهشت واثينا اخذتها الحيرة فهض ديموستين واراهم مقاصد فيلبس وحيلة التي طالما حذّرهم منها واخذ يحرضهم على النهوض لمقاومته فجهزوا

جيشاً وخرجوا لملاقاة ثلاثين ألف مقاتل والنقى الفريقان بالقرب من إحدى مدائن يونيا الشمالية واصطدم الجيشان في سهول شبرونه واصطالت نار القتال بينهما وبعد قتال شديد دارت الدائرة على اليونانيين وانتصر فيليبس عليهم وذلك سنة ٢٢٨ ق م. فلما استكمل الممالك اليونانية خاضعة له عامل اليونانيين معاملة حسنة جداً واطلق الأسرى بدون فدية ولكي ينسي اليونانيين مصيبة فقد استغلاليهم أراد أن يحول أفكارهم نحو محاربة الفرس عدوهم القديم فعقدت جمعية في مدينة كورنثوس حضرها وكلاء من قبل سائر الدول اليونانية وقرّر القرار فيها على تولي الملك فيليب قيادة الجيش الأولي في الحرب التي كانوا عازمين فتحها على آسيا. فخرجت الأوامر في تحضير المهمات الحربية وشرعوا في الاستعدادات الكلية والجزئية وأرسل فيليب القائد بارمينون مع مقدمة الجيش إلى آسيا الصغرى حيث كان مزمعاً أن يلاقيه ببقية الجيش على أن العناية لم تسع له بذلك إذ قتله بوزانياس أحد أتباعه سنة ٢٢٦

فخلفه ابنه أسكندر الملقب بالكبير وعند العرب بذي القرنين وكان عمره يومئذ ٢٠ سنة وكان على جانب عظيم من الخدق والدراية والشجاعة والإقدام. ولما بلغه ذات يوم نجاح وانتصارات أبيه قال بأسف وغم إن أبي قد غلب تقريباً على العالم بسيفه ولم يترك لي شيئاً أغلب عليه بسيفي

وكان بعد موت فيليب أن الممالك اليونانية فرحت جداً أملًا باسترجاع استقلاليتها وكان ديموستين الخطيب يحذّرهم من أسكندر كما كان يحذّرهم من أبيه. وبعد أن تبوأ أسكندر تخت الملك جاهرت ثرائها بالعصيان فأتاها وحاربها وانتصر عليها وأخضعها لسطوته ولما علم مجاهرة الأثينيين وغيرهم بالعصيان تقدم إليهم بقوة عظيمة وأتى أولاً ثيبة وفتحها وخرّبها وباع نحو ٢٠٠٠٠ من أهلها ولما رأت باقي البلاد اليونانية ما كان من بأس وقوته خافت جداً وخضعت له. ومن ثمّ عند جمعية دولية في مدينة كورنثوس حضرها وكلاء من كل البلاد اليونانية وأعلمهم أنه عازم على محاربة الفرس كما كان عازماً أبوه قبل وفاته

ففوضته الجمعية قيادة جيش اليونانيين

فاخذ يوزع كنوز ايبو على قواد جيشه واصحابه ولم يبق لنفسه شيئاً فقال له
احدهم ايها المولى اراك قد افرغت كل كنوزك فماذا اقيمت لنفسك فقال له
الرجاء. ومن ثم نأهب للسفر ولم ياخذ معه من الزاد والمهمات سوى ما يكفي شهراً
واحداً لانه كان موقناً بالنجاح وسار بجيش عدده ٣٠٠٠٠٠ رجل و ٦٠٠٠
فارس وافي اولاً طروادة وقدم ذبائح اكراماً للابطال الذين قُتلوا في حرب
طروادة ومن ثم تقدم نحو بلاد فارس



اسكندر الكبير

فلما علم داربوس قد مات اوس ملك الفرس بقصد اسكندر استهزأ به وعزم
على كسر شوكته وكان يدعو الصبي المجنون . فوافاه داربوس بجيش عظيم
قيل ٢٠٠ الف مقاتل عند شاطي نهر غرانيكوس من اسيا الصغرى فقتل

الفرقان قتالاً شديداً كانت الدائرة فيه على عساكر الفرس وقد قُتل منهم حسب قول البعض نحو ٢٠٠٠٠ قتيل ولم يقتل من جيش اسكندر الا نفر قليل. وفي وقت المعركة هجم اثنان من امراء الفرس على اسكندر ولولا مساعدة احد امرائه انتلاه. وبعد هذا الانتصار خضعت لاسكندر اسيا الصغرى الا القليل وفي السنة الثانية اتى داريوس ذاته بجيوش جرارة مقدارها نحو ٦٠٠ ألف مقاتل فوافاه اسكندر الى الاراضي الوعرة عند ايسموس في كيليكيا وحاربه وغلبه فهلك من جيش الفرس عدد لا يحصى. واما خسارة اسكندر فكانت قليلة جداً. فانهمزم داريوس ليلاً وقطع نهر الفرات غير مصدق بالنجاة وهو يتعجب من شجاعة اسكندر وبساله جيشه ووقعت زوجة داريوس وامه وابنتاه في يد اسكندر فاعتبرهن كل الاعتبار وكرهن اكراماً لا مزيد عليه وامر ان يعفى بهن كل الاعتناء

فبعث داريوس وفدًا الى اسكندر يطلب اليه فداء زوجته واهل بيته بمبالغ وافرة وانه يعقد معه الصلح فيزوج ابنته ويهرها كل الاراضي الواقعة بين نهر الفرات وبحر الروم فاجابه اسكندر مع وفده انه مستعد ان يسلم حريمه بادنى شرط اذا اتى بنفسه يطلبهن. فعظم الامر على داريوس جداً ولم يرد ان يتنازل الى هذا الحد

وقد اتى هذا الانتصار بتسليم سوريا فاطبة ففتحت جميع مدنها ابوابها للمتصر الا مدينة صور فاغناط اسكندر جداً من كبرياء اهلها وتقدم لمحاربتها فحاصرها سبعة اشهر وقيل تسعة اشهر وفتحها بعد ان ردم البحر بخرابات المدينة القديمة وقد تقدم الكلام عنها في تاريخ فينيقية. ومن ثم تقدم وحارب مدينة غزة التي اظهرت العصاة ففتحها عنوة بعد حصار شهرين وباع من اهلها مقدار ١٠٠٠٠ نفس واسر جاركها باتيس الخصي وربطه في سلسلة وراء مركبه فكانت الخيل تسير وهو ينجبط على الارض حتى هلك. ومن هناك قام الى القدس التي كانت خاضعة وقتئذ للفرس فخرج للملاقاة رئيس الاحبار والكهنة بلباسهم

الرسمية فاعنبرهم اسكندر كل الاعتبار ودخل الى هيكلم ومجد ومنهم تأمينات
ونطينات دامت لم زماناً طويلاً من بعده

ثم تقدم الى مصر التي فتحت له ابوابها بدون مقاومة وبعد ذلك اتى هيكل
جوينترامون الكائن في الصحراء فهلك كثير من جيوشه في تلك الرمال
الحارقة فقدم ذبائح وطلب من الكهنة ان يلقبوه بابن جوينتر بعد ان اعطاهم
هدايا وافرة فتلقب بابن جوينتر ومن ثم عاد الى مصر ووضع اساسات
الاسكندرية مسمياً اياها باسمه

وبعد ان نظم احوال البلاد تقدم ثانية نحو بلاد فارس لكي ينزل بها
البلاء الاخير فبعث داربوس يعرض عليه عقد الصلح فيسلب كل الاراضي الواقعة
الى غربي نهر الفرات . فرفض اسكندر قبول ذلك قائلاً ان العالم لا يستطيع
احتمال رين كما انه لم يستطع احتمال شمسين فلما رأى داربوس عناد اسكندر
وتعظمه عزم على المداخلة الى النهاية فركب بنحو ٢٠٠ الف مقاتل وقال بعضهم
اكثر وبعضهم اقل . فوافاه اسكندر بجيش مقداره ٦٠٠٠٠ والثنى الفريقان
بقرب اربلا احدى مدن الفرس وثقائلا قتالاً شديداً ارجحت له قواعد الجبال
فلم يلبث طويلاً حتى انكسرت جيوش الفرس اذ كان قد وقع في قلوبهم
الرعب من قتال اسكندر في المواقع السابقة فانهمزم داربوس وولى هارباً الى
بكتريا وهي جزء من بلاد النذر المستقلة وقتل هناك فساد اسكندر على المالك
قاطبة وتزوج بروكسانا ابنة داربوس

واذ كانت المطامع مائة قلبية لم يكنف بكل هذه الفتوحات فتقدم الى
بلاد الهند وفتح اكثرها واراد ان يتقدم بعد الى جهة المشرق على ان عساكره
لما رأت ان لا حدة لمطامع ولا نهاية لانعابهم ابوا ان يتقدموا اكثر من ذلك
وطلبوا الرجوع الى اوطانهم فاشى راجعاً ليس بدون اسف وحزن واتى مدينة
يرسبوليس وهي من اشهر مدن بلاد فارس وافخرها واحرقها حرقاً فانه مع ما
كان عليه من رفعة الشأن والغلبة والمجد كان شديد الحنق سريع الغضب .

وكان قد اتى مدينة بابل قاصداً ان يرميها ويجعلها قاعدة الممالك الشرقية فاقام
 ١٠٠٠٠ الف فاعل يشتغلون فيها وقصد ان يمضي بعد ذلك الى قرطجة
 ويفتحها ومنها الى اوروبا ليخضع اسبانيا وإيطاليا ومن ثم يعود الى مكدونية ولكنه
 بعد ذلك بفترة قصيرة مرض ومات في السنة الثالثة والثلاثين من عمره والثالثة
 عشرة من حكمه وذلك سنة ٢٢٢ ق م

الباب السابع

في ما حدث بعد موت اسكندر الى هذه الايام اي من سنة

٢٢٢ ق م الى سنة ١٨٧٢ ب م

فات اسكندر ولم يترك خليفة من نسله وكان عندما احس بقرب حلول
 اجله نزع خاتمه من اصبعه واعطاه الى برديكاس احد امرائه فسأله فواده
 واكابر خواصه عن بعين ولي عهد بعده فقال الأكثر استحقاقاً . فتنازل
 برديكاس بعد موت اسكندر باتفاق رفقاته من القواد نيابة الملك الى حين
 ولادة الملكة روكسانا التي كانت حلي عند وفاة زوجها اسكندر اما العساكر
 فلم يرتضوا بذلك واعلموا انهم يريدون اقامه اريدي اخي اسكندر فكان له من
 الملك الاسم فقط . ومن ثم قسم برديكاس ممالك سيده على ٢٤ قائداً من القواد
 الاولين وكان له الرياسة على الجميع وفي تلك الاثناء وضعت روكسانا زوجة
 اسكندر ولداً ذكراً فسمي باسم ابيه . فاخذ برديكاس على نفسه امر تربيته وان
 يكون وصياً عليه ولكن لم يلبث طويلاً حتى حسده رفقاته وعزموا على قلبه
 او اهلاكه وكان اعظم عامل في هذه الثورة اتتبار ولكنه كان مضطراً ان ينجده
 أولاً نيران الفتن التي كانت اخذت في الاشتعال بين اليونانيين

ولا يخفى ان اسكندر قبل خروجه من بلاده كان قد خلف اتتبار وكيلاً
 للملك في مكدونية فلما علم اليونانيون بموت اسكندر فرحوا جداً املاً باسترجاع
 استقلالهم وحررتهم . فجعل ديموستين مجرض الاثينيين للنهوض في طلب حررتهم

وانضم اليهم كثيرون من باقي البلاد اليونانية فقاموا جميعاً ببدأ واحدة وحاربوا
 انتيباتر في لاميا من اعمال ثساليا فكسره ولحقوه وحاصروه وكسر اليونان
 احد قواد اسكندر الذي جاء لخدمة انتيباتر وقتلوه ولكنهم انكسروا بعد ذلك
 في وقعة صارت بينهم وبين كراتيد قائد مكدوني عند كراتون فانهمزمو
 وتشتت شملهم . فعاد اهل ثساليا للطاعة واضطروا الاثينيون الى مثل ذلك
 واشترط عليهم بدفع مصاريف الحرب واقامة جيش مكدوني في مونيخيا من بلاد
 اليونان وبتمليم الخطيبين ديموستين وهيباريد اللذين كانا يحرضانهم على
 المجاهرة بالعصيان . فهرب الاثنان اما الاخير فلم ينجُ فقبض عليه وقتل . واما
 ديموستين فانهمز الى هيكل نبتون في جزيرة كالوريا ولكن لما رأى انه لا يقدر
 ان يفلت من اعدائه ولما يقع في ايديهم فبهموه مهاناً شرب سماً فمات . واما
 انتيباتر فبعد تهديد هذه الامور عقد الصلح ايضاً مع اهل اثوليا لكي يستطيع
 الذهاب حالاً لمحاربة برديكاس في اسيا فلاقاه برديكاس وانضم اليه ايضاً
 القائد كراتير المتقدم ذكره فاتصر انتيباتر عليها في وقعة عظيمة قتل فيها كراتير
 ايضاً واما برديكاس فقتله عسكره بالقرب من مدينة منفيس في مصر حيث
 ذهب لمحاربة بطليموس الذي خلفه اسكندر والياً هناك وكان ذلك
 سنة ٢٢٠ ق م

فاخذ انتيباتر نيابة الملك بعد موت برديكاس زماناً يسيراً والزم
 اولمبياس ام اسكندر ان يهرب الى ابيروس لانه كان بينها عداوة قديمة من
 زمن فيلبس زوجها فاخذت معها كتبها روكسانا والملك الصغير وبعد ذلك
 بقليل مات انتيباتر وخلف مكانه صديقه بوليسبرثون عوضاً عن ابنه كاساندر
 فتحزب كبيرون ضد النائب الجديد وكان معظم السبب في ذلك كاساندر
 بن انتيباتر لانه احب ان يكون نائباً بعد ابيه واما بوليسبرثون فلكي يستميل
 الاثينيين ويتخذهم حزباً له جدد لهم هيئة حكومتهم القديمة وانتشبت الحرب بينه
 وبين كاساندر . وبينما كانوا على هذه الاحوال كان اتيفونوس مشغولاً في اسيا

بتعظيم سطونه وتوسيع دائرة امتلاكه واخيراً قبض على اومين الذي كان يعضد الحزب الملكي بواسطة جنوده الذين خانوه وامانه جوداً فعمّمت بذلك شوكته وسطوته . فلما رأى ذلك بقية قواد اسكندر اضطربوا وخافوا من ازدياد سطونه فتهضوا لمحاربتو فكسروهم جميعاً سنة ٣٠٧ ق م واخذ قبل الجميع لقب ملك . وما زالوا يتنازعون بعد ذلك الى سنة ٣٠١ ق م فصارت بينهم وبين انتيغونوس وابنه ديمتريوس وقعة مهولة في ايسسوس في فرجيّة فدارت بها الدوائر على انتيغونوس وولده ديمتريوس وقتل انتيغونوس فيها فاقسم اذ ذاك قواد اسكندر مملكته الى اربع ممالك . الاولى مصر التي اخذها بطليموس سونير مع بر العرب وجزء من بر الشام اي فلسطين . الثانية مكدونية وبلاد اليونان اخذها كاساندر . الثالثة ثراقيا ويسينيا وبعض اجزاء اسيا الصغرى اخذها لسيماخوس الرابعة بقية الممالك من البحر الاسود الى نهر لاندوس في الهند اخذها سلوقس وسيت مملكة سوريا وهي اعظم الجميع وقد تقدم الكلام عن كل منها في مكانه

وفي اثناء تلك المخاصات والحروب اخذت عائلة اسكندر النعيسة الحظ في الاضمحلال حتى انقرضت اخيراً وذلك انه لما كان كاساندر وبوليسبرثون بخاربان انضمت اوليمياس ام اسكندر الى الاول وفوضت اليه امر تربية اسكندر الصغير ابن روكسانا ولكن اذ كان كاساندر قد اخذ اليه اريدي اخا اسكندر وزوجته ولم يلتفت الى روكسانا وابنها احثالت اوليمياس على اسر اريدي وزوجته فقتلتها ولكن بعد زمان ليس بطويل وقعت اوليمياس اسيرة في يد كاساندر مع كبتها وحفيدها اسكندر فقتلها كاساندر ووضع روكسانا وابنها في سجن ضيق وبعد قليل قتلها بالاشترار مع انتيغونوس وبطليموس . وكان قد بقي في قيد الحبوة ابن لاسكندر من غير زوجته الشرعية اسمه هر كول وكان بوليسبرثون قد اخذ على ذاته امر الاعناء به والحماة عنه فعرض كاساندر على بوليسبرثون ان يعطيه المورة اذا كان يبيت هر كول المذكور آنفاً فتمت هذه

المشاركة بينهما بقتله وهكذا بعد موت اسكندر باحدى عشرة سنة لم يبق احد من عائلته

اما هذه الامور الفظيعة كلها فلم تكن نهاية المنازعات والحروب فان ديمتريوس بن انتيغونوس بعد موت كاساندر صار ملك مكدونية وفتح حرباً على سلوقس فلقبه هذا وتغلب عليه واسره فقام لسيماخوس واخذ ملكة ديمتريوس فوافاه سلوقس وحاربه واخذ ملكته وقتله ومن ثم قُتل هو ايضاً من سيرونوس بن بطليموس الذي كان قد التجأ الى بلاده وصار سيرونوس هذا ملكاً على مكدونية. وكان بعد ذلك انه هاجم بلاد اليونان ومكدونيا قبائل غالية جاءوا من نواحي غالية وجرمانيا فقتل سيرونوس في المدافعة ضد هؤلاء النوم البرابرة. وبعد ان افسد الغاليون ونهبوا البلاد اليونانية الثمالية طردوا اخيراً فذهبوا واقاموا في ثراقيا ومنها الى اواسط اسيا الصغرى وصنعوا لانفسهم هناك منازل سميت باسمهم وهي غلطة او غلاطيه

فقام بعد سيرونوس انتيغونوس غوناتاس بن ديمتريوس الذي لم يبق له بعد موت ابيه سوى بعض اقاليم في بلاد اليونان ونبوا تحت ملكة مكدونية بموجب معاهدة تدرت بينه وبين انطيوخوس الاول ابن سلوقس وفي ايام ملكه هاجم الغاليون بلاده ثانية فدفعهم بعزم ونشاط لا مزيد عليها. وفي اثناء ذلك رجع من ايطاليا بيروس ملك ايبيروس الذي كان قد طرده ليسيماخوس فتغلب على انتيغونوس وطرده وقام مكانه بالملك سنة ٢٧٤ ق م. ولكن بعد ذلك بسنتين قُتل في حصار ارغوس فعاد انتيغونوس الى ملكه وبني الملك في يده ونسله من بعده بدون انقطاع. ولما رأى ملوك مكدونية ان الدهر قد صفا لهم ولم يعد لهم منازع ولا معارض وجهوا افكارهم نحو بلاد اليونان ايضاً واخذهم لمدينة كورنثوس القوية سنة ٢٥١ ق م كاد يوصلهم الى ما طاموا صلبوا اليه. ولكن عندما تدرت المعاهدة المعروفة بمعاهدة اخائية بمساعي وهمة الشاب اراتوس الذي نبغ في ذلك العصر عاد الى البلاد اليونانية بعض روثها

وسطونها زماناً يسيراً. وبعد ذلك اتى الرومان وضموا جميع البلاد اليونانية الى مملكتهم بعد حرب قصيرة فامست البلاد اليونانية جزءاً من المملكة الرومانية ودعيت من ذلك الوقت اخائية على اسم قسم من اقسامها وذلك سنة ٢٠٥ ق م ولبثت في ايدي الرومان حتى نقل الامبراطور قسطنطين كرسية الى القسطنطينية سنة ٣٢٤ م فصارت جزءاً من المملكة الشرقية الرومانية. ثم استفتحها الاتراك في اثناء القرن الخامس عشر م فصارت جزءاً من المملكة العثمانية ولبثت في ايديهم الى سنة ١٨٢١ م ثم تمضت في طلب الحرية في السنة المذكورة ووقعت الحروب بينهم وبين العثمانيين واستمرت بدون انقطاع مدة ثماني سنين متوالية كما مر ذلك في خبر دولة آل عثمان فنجح اليونان بالحصول على بعض ما كانوا يتمنون وذلك باستيلائهم على قسم من بلادهم القديمة بمساعدة بعض دول اوربا فاستقلوا ودعوا اميراً مسكوبياً لملك عليهم فقتلوا احدهم ثم ملكوا عليهم اوثون ابن ملك باقاريا فملك عليهم نحو ٢٠ سنة ثم طرده سنة ١٨٦١ فاثين بانه لم يكن له ولد ثم ملكوا عليهم جورج الاول ابن ملك الدنيارك ولم يحدث امر يذكر من بعد ان نبأ تخت الملك ولا نعلم ماذا تكون آخرة هذا الملك الجديد. لانه منذ القديم لم يفر رجل معتبر في بلادهم الا وقتلوه او نفوه كما فعلوا بـثيمستوكليس وسقراط واريسنيديس الصديق وغيرهم الله اعلم

الباب الثامن

في ذكر بعض شعراء اليونان وفلاسفتهم وطوائفهم

ان اول شعراء اليونان واشهرهم هو هوميروس. قيل انه كان اعمى بطوف متسولاً وهو ينشد قصائده وكان ينشدها قطعة قطعة في اثناء تطوفه ثم جمعت وقد ذكرنا عن اعني مجموعها. ومجموعها قصيدتان طويلتان انقسمتا الى عدة اقسام احداها تعرف بالايياد وموضوعها حوادث حروب طروادة والثانية

سميت اوديسي وموضوعها سفرات عولوس بعد استنتاج طروادة وهامن اجود الشعراء فصيح. وكان وطنه ازبىروعاش في اواسط القرن التاسع ق م والثاني من شعراء اليونان هنريودوس وكان معاصرا لهوميروس نشأ في ضيعة من ضيع يونيا ولم يصل لنا من شعره الا قصيدتان احداها سميت نسبة الالهة موضوعها ميثولوجية اليونانيين اي خرافاتهم واعتقاداتهم لجهة تواليدهم وما جرى بينهم من الحوادث. والثانية سميت الاشغال اليومية وموضوعها الزراعة ومتعلقاتها وانه ايضا قصيدة اخرى تعرف بنرس هيراكليس وشعره جيد ومقبول لكنه لم يضاف شعره هو ميروس

اما حكماء اليونانيين وفلاسفتهم فاقدمهم واشهرهم تاليس عاش سنة ٥٤٧ ق م وهو اول فلاسفة اليونان ومؤسس الطائفة الايونية نسبة الى وطنه ايونيا ومن اشهر تعاليمه ان الماء هو اول الكائنات وعنه وجدت سائر الصور والمواد وان الله اوجد كل شيء من الماء وهو راي قديم ذهب اليه قدماء المصريين وعندهم اخذه تاليس لانه تلمذ في مصر وهو ما زال مقبولا ومعولا عليه عند كثيرين من علماء هذا العصر. الثاني صولون وقد سبق ذكره فلا حاجة الى التكرار. ومنهم فيثاغوروس وهو مؤسس الطائفة المدعوة باسمه ومن عقائدها التناصح وهو اول من علم عن استدارة الارض ووضع جدول الضرب للارقام الهندية. ومنهم سقراط وهو مؤسس الطائفة السقراطية نسبة اليه ومن تعاليمها المعقولات ووحداية الله. ومنهم انتيشينوس ودوجينس مؤسسا الطائفة الكيونية ومعناها الكلية لانهم شبهوا بالكلاب اذ نجوا عنهم كل الامور ولم يقبلوا بشيء منها فرفضوا المعرفة والعلم كشيء لا نفع منه واعتدوا عن معاشره الناس ولذات الدنيا ولاموا كل اجناس الناس ولذلك دعوا بالكليين. ومنهم افلاطون منشئ الطائفة الاكديمية وسميت بهذا الاسم لانه كان يعلم تلاميذه في غياض بقرب مدينة اثينا سميت بنياض الاكديموس. ومنهم ايكوروس مؤسس الطائفة الايكورية ومن تعاليمه انه يجب رفض كل شيء غير التمتع بالذات وافراح الدنيا ومنها ايضا

الرواقية ومؤسسها زينون وكان يعلم تلاميذه في رواق في مدينة اثينا ولذا سميت بهذا الاسم . وقد أشير الى هاتين الطائفتين في اعمال ١٨: ١٧ . ومنهم اريستوناليس منشي الغرافية وقد اشتهرت تعاليمه جداً واعنفها وتشيت بها اهالي اوروبا زماناً طويلاً وما زالوا يعولون على بعضها . ومن اطبايهم المشهورين بقراط الذي كتب عدة فصول مفيدة في الطب وظهر بعده جالينوس وروفس وغيرها فتوسعوا فيه اكثر فاكتر

— ١٠٠١ —

الفصل الثالث

في تاريخ الرومانيين القدماء

الباب الاول

في تاسيس رومية واخبار ملوكها الاولين الى سنة ٥٠٩
ق م حين اقيمت الحكومة الفنصلية

ان السلطنة الرومانية كانت في الازمنة القديمة من اشهر ما لك الارض واعظمها وتاريخها يمتد من اجيال عديدة وهو مشعون من الاخبار والحوادث الدسوية وكثرة الشرور والظلم التي يجعها السمع ويكرها الطبع ومع ان ذكرها غير مقبول فلجئنا الصرورة الى سردها واثباتها لكونها حوادث حقيقية ومن واجبات المورخ ان يذكرها كما توقع في اوقائها فنقول ان مدينة رومية

الشيخة مبنية على نهر تير في ايطاليا على بعد ستة عشر ميلاً من البحر وسميت رومية نسبة الى بانيها رومولوس وتاسست سنة ٧٥٢ ق م وكان رومولوس هذا رئيساً على ثلثة الاف نفر من اللصوص وقطاع الطريق فاتوا وبنوا بعض اكواخ على ثلثة هناك اسمها البلاتين واقاموا حولها حائطاً لمنع مهاجمات الاعداء فكان ذاك بداية اشهر مدن العالم . قيل ان ذلك الحائط كان واطناً حتى ان رموس اخا رومولوس احفره لوطوره وقال لاخيه يوماً انظن هذا السور سور مدينة فغضب اخوه من كلامه وطعنه بجرية كانت في يده فاماته وكان ذلك الدم اول دم سفك والتطخت به اسوار هذه المدينة

ولما انتهى رومولوس واصحابه من بناء بيوتهم طلبوا لانفسهم نساء وكانت ايطاليا يومئذ مسكونة ببعض قبائل متوحشة منهم قوم يقال لهم الصايون كانوا قاطنين بجوار رومية فطلب رومولوس ان ياخذ من بناتهم نساء لرجالهم فابوا ولم يجيبوه الى طلبه فحقد عليهم وصم على هلاكهم فاعد لهم يوماً وليمة عظيمة ودعاهم اليها فحضروا الى دعوته مع بناتهم ونسائهم وانفق رومولوس مع اصحابه على علامة متى اظهرها لم يجهون على القوم فيشكون بهم فلما انتهى الصايون في الفرح والملاعب والذات الماكل والمشارب وقد اعجبهم براعة الرومانيين وخفة حركاتهم في الرقص واللعب اظهر رومولوس تلك الاشارة الى اصحابه فسلوا سيوفهم وهجموا على ضيوفهم وقتلوا اكثرهم وقبض كل من الرومانيين على امرأة واتخذها زوجة له . فلما بلغ طوائف الصايين هذا الخبر اتسيع استشاطوا غضباً وانضم بعضهم الى بعض واستعدوا لمحاربة الرومانيين فالتقاهم رومولوس بجموعه وابطاله ولما التقى الجمعان وتقابل العسكران وكاذ يقع بينهم القتال دخلت نساء الرومانيين الى ساحة الحرب وفرقت بين الطرفين وكن يصحن باعلى اصواتهن فائلات ارجعوا ولا تضربوا بعضكم بعضاً فاية فرقة منكما انتصرت على الاخرى لانجلب علينا سوى الحزن والاسف لاننا بنات الفرقة الواحدة ونساء الفرقة الثانية فائز كلامن في قلوب الفريقين وراى الصايون ان قلوب النساء قد

تطلعت برجالهنّ الرومانيون فتوقفوا عن الحرب وهكذا انتهى الامر على محبة
وسلام وعقدوا معاهدة فيما بينهم

وانتخب الشعب رومولوس ملكاً عليهم فساهم احسن سياسة واقام لهم
مجلساً مؤلفاً من القضاة والنواب لتنظيم احوال بلادهم وفض مشاكلهم واستمر
ملكاً الى ان مات وكانت مدة حكمه ٢٧ سنة واختلفوا في موته فمنهم من زعم انه
خطف بغتة الى السماء وقال اخرون انه كان قد صم على ان يجعل نفسه ملكاً
مستغلاً فخلعه الشعب ومزقوه ارباً وهذا هو الاصح

وبعد موت رومولوس قام ملك ثانٍ على رومية يدعى توما فيفيلوس
وكان رجلاً حازماً حكماً محباً للسلام فسنّ شرائع عديدة حسنة وعلم شعبه الزراعة
وعدة صنائع نافعة وكانت مدة ملكه ٤٣ سنة وخلفه طلس مستيلوس فكان
محبا للحرب والمغازي وفي ايامه وقع النزاع وانتشب القتال بين الرومانيين
والالباينيين الذين كانوا متجاورين ثم انتهى الحال بينهم بان كل فريق من
العسكريين ينتخب ثلاثة ابطال من شجعان عسكره ليلارز بعضهم بعضاً وان الذي
يتصر منهم على الاخر ينسب اليه انتصار الجيش وكان في جيش الالباينيين ثلاثة
اخوة اسم كل منهم كورياتوس وكان ايضاً في جيش الرومانيين ثلاثة اسم كل
منهم هوراتيوس فانتخب هؤلاء الستة رجال ثلاثة من كل فريق ليفوموا مقام
الجيشين في القتال فركبوا خيولهم واعتقلوا سلاحهم ونزلوا الى ساحة الميدان
وانتشب بينهم الضرب والطعان وكان كل فريق من الجيشين واقفاً تجاه الاخر
منتظراً النهاية فانتصر الكورياتيون في اول الامر على اخصائهم وقتلوا منهم اثنين
فاستعظم اخوها مصابها وايقن بالثلف والعدم واذ لم يكن له استطاعة على
مصادمة اخصائه الثلاثة اطلق عنان جواده وفرّ من بينهم فجدّوا في طلبه
لبتلوله وكانوا اعيوا من هول المعركة مع خصمهم اللذين قتلوها ولذلك قصرت
خيولهم ولم يدرك هوراتيوس منهم الا واحداً بعد واحد وكان ذلك غاية مراده
لانه كان كفواً لكل واحد بمفرده فلما اقترب منه الاول ارتد اليه وهم عليه

وضربه بالسيف على عاتقه فالفاه قتيلاً ثم كرّ على الثاني والثالث فاحققها باخيها فلما رأى الالبيون ما حلّ باصحابهم من النكال خابت آمالهم فنكسوا اعلامهم والفقوا سلاحهم الى الارض وسلموا نفوسهم الى اعدائهم فاستبشر الرومانيون بهذا الانتصار العظيم والتفوا هورانيوس بالتعجيل والتعظيم لانه كان سبباً لانتصارهم واقتحامهم وكشف عارهم ورجعوا به الى المدينة وهم يثنون عليه . وما يعنفى الذكر انه كان لهذا الشاب اخت مفرطة في الجمال كانت تحب رجلاً من الكوريانيين الثلاثة الذين قتلهم اخوها في ذلك اليوم فلما بلغها هذا الخبر مزقت ثيابها حزناً واسفاً عليه وقصدت باب المدينة وهي تندب وتنوح فالتفت باخيها في تلك الساعة وهو راجع الى البلد فاخذت تلومه وتشتبه على قتلها حبيبها فغضب من اعمالها وقال لها يا عاهرة اما كان يجب عليك ان تندي اخوك المتولين عوضاً عن حبيبك وان نظري حاسيات الفرح والسرور في انتصار شعبك وخلاص الامة ثم انه اسل سيفه وضربها به فاماتها فحكمت عليه الشريعة بالموت جزاء على هذا العمل النظيم ولكنه حصل على العفو بواسطة الانتصار الذي جرى على يديه ولكن مع ذلك كان عاره بقتله اخيه اعظم من الشرف والاعتبار الذي ناله بسبب انتصاره وسميت تلك الحرب حرب الهورانيين والكوريانيين نسبة الى اسماء الابطال المار ذكرهم

وبعد موت طلس هسيليوس انتخب الرومانيون انكوس مريوس ملكاً عليهم ومن بعده خلفه تركوين الأكبر وكان ابوه تاجراً غنياً ثم جلس بعده على سرير الملك رجل يقال له سرفيوس فحكم ٤٤ سنة ثم قتله زوج ابنته المدعو تركوين الثاني وجلس مكانه فلما بلغ زوجته ابنة الملك المقتول هذا الخبر وكان اسمها طليبا فرحت فرحاً عظيماً بانتصار زوجها على ابيها حباً بالملك والرياسة وركبت من وقتها في مركبتها وقصدت دار الولاية لتلاقي زوجها الشرير وتمتته بالملك وبينما كانت سائرة في احدى الشوارع التقت بجثة ابيها مطروحة هناك فلما رأى سائق المركبة جثة الملك على تلك الحالة اضطرب وخاف وعول على

الرجوع الى الوراء فتمتعة وشمته وامرته ان يتقدم واذ كان الشارع ضيقاً مرت
 المركبة على جثة الملك فداستها الخيل وتلخت عجلاتها بدم الملك ولم تبال طلياً
 بشيء من ذلك ولما تمكن تركوين من الولاية سلك على سرير المملكة كما سلك
 اسلافه بالجور والظلم وارتكاب الفواحش فلقبه الشعب بتركوين المتكبر وكان
 الرومانيون يكرهونه جداً. ويقال ان امرأة دخلت عليه ذات يوم الى الديوان
 وفي يدها تسعة مجلدات من الكتب واعرضها عليه للبيع وطلبت في ثمنها مبلغاً
 فاحشاً واذ كانت الكتب المذكورة مجهولة عنده استعظم ثمنها وامتنع عن مشتراها
 فرجعت المرأة بالكتب الى دارها واحرفت منها ثلاثة ثم قصده في اليوم الثاني
 واعرضت عليه الستة الباقية بنفس الثمن الاول فامتنع ايضاً فتركتها ورجعت
 اليه في اليوم الثالث ومعها ثلاثة كتب فقط واعرضها عليه بالثمن الاول فتأثر
 الملك وتعجب من هذا الامر وصم على ان يشتري الكتب منها ليري ما فيها واذا
 بالمرأة الفهم بين يديه واخفت في الحال فانذهل الملك وجميع من حضر من
 الاكابر والاعيان ففتحوا الكتب وطالعوها فوجدوها رسائل وإشارات تتضمن
 على حكم ونبرات مولفة من بعض النساء فآخترها الرومانيون غاية الاحترام
 واعتبروها كآيات منزلة وحفظوها في خرائيمهم وكانوا يملونها بكل خشوع واعتبار
 كلما وقعوا في شدة اوضيق معتدين بانها تنبيهم بما يحدث عليهم في الازمنة
 المستقبلية

وكان عاقبة امر تركوين المذكور انه طرد مع عائلته من رومية بعد ان حكم
 نحو عشرين سنة وكان السبب في ذلك ابنه سكستوس فانه كان ذمياً قبيحاً الى
 الغاية فمقته الشعب حتى لم يعد يمكنهم ان يجتالوا قبايحهم ومعاصيهم فنوه مع ابيه
 وكان طردها من رومية سنة ٥٠٩ ق م واستلم زمام الحكومة بعد تركوين اثنان
 من القضاة وتلقب كل واحد منها بلقب فنصل اي منفذ الاحكام وكان الشعب
 يتقنون هؤلاء الفناصل في كل سنة ولول من تعين لهذه الوظيفة برونوس
 وكولانيوس فكان برونوس عادلاً مهيباً محباً للوطن حتى انه حكم بالموث على

ابنيه الاثنين بسبب جناية ارتكباها ولم يشفق عليهما

الباب الثاني

في ذكر كوربولانوس واستيلاء الغاليين على رومية وحروب
قرطاجنة الثلاث

وكان سكان رومية يومئذٍ منقسمين الى حزبين الاول من الاشراف والثاني من العامة وكان جميع ارباب المجلس العالي واكثر الاكابر والعمد من القسم الاول فكان انتخاب القناصل منوطاً لهم ولذلك قويت شوكتهم وعظمت سطوتهم وصاروا اصحاب الحل والربط فنشأ عن ذلك فتن ومشاجرات بين الطرفين حتى كادت تقع بينها الحروب ولكنها اتفقا اخيراً بانه في كل سنة يُنتخب خمسة اشخاص من وجوه العامة بوظيفة قضاة في المحاكم وبهذه الوسيلة تحسنت احوال العامة وارتفع شأنهم وانحطت سطوة الاشراف بهذا التدبير ثم اشتدت البغضة والعداوة بين الفريقين . وفي اثناء ذلك نهض رجل من الاشراف يقال له كوربولانوس وكان بطالاً صديداً وجاراً عنيداً فشرع في ابطال منصب القضاة وبذل في ذاك غاية اجتهاده فقاومه العامة وحاربوه ولما تمكنوا منه نفوه من البلاد فذهب الى مدينة انتيوم والتقى بشعب الفولسيين وكانت هذه الامة من اشد الطوائف عداوة للرومانيين فاخذ يحرضهم وينشطهم على محاربة قومه ووعدهم بالغبلة والانتصار فانقادوا اليه واجابوه الى ذلك واعرضوا عليه فرسانهم وابطالهم فانتخب منهم جيشاً عظيماً وقصد به مدينة رومية ولما اقترب منها وبلغ الرومانيين خبره خافوا واضطربوا وارسلوا اليه في الحال بعضاً من اعيان شيوخهم لاستعطاف خاطره فلم يصغ لكلامهم واستمر في مسيره ثم ارسلوا اليه جماعة من خواص كهنتهم وعند وصولهم اليه وقعوا على قدميه والتسوا منه ان يحوّل عنهم ويفض النظر عن قبائحهم فلم يتمكنوا من تغيير

مقاصده ولما اقترب من رومية نزل بعساكره تجاه الاسوار والحصون واخذ
يتفكر في ايجاد الطرائق المناسبة لمهاجمة المدينة فيينا هو كذلك اذ اناه سفارة
ثالثة مؤلفة من اشراف نساء الرومانيين وهن لابسات ثياب الاحزان وكانت في
مقدمتهن امه فينوريا وفرجيليا امراته فاستغلثا به وتضرعا اليه ان يكف عن
هذا العمل ولا يكون سببا لخراب وطنه وهلاك قومه فلما شاهد نذلها شفق عليها
والفت الى امه وقال لما لقد انقذت يا اماه مدينة رومية بتوسلاتك ولكنك
سوف تعذبين ولدك هذا عن قريب ثم تمض في الحال وارشد راجعا بالعساكر
الى مدينة اثيوبوم قصة ملكة الفولسيين فلما بلغ القوم رجوعه عن رومية حقدوا
عليه وصمموا على قتله وعند وصوله الى ابواب المدينة امانته

ثم انه مع تادي الزمان انتظم حال الدولة الرومانية وتعاظم امرها وقويت
شوكتها في الداخل والخارج وازداد عدد اهلها وبقيت في رونتها وزهوتها الى
ان دهمها جيش الغاليين فكانت فرانس سنة ٢٨٩ ق م تحت قيادة الجنرال
بريوس وحاصروا رومية ليفتحوها فدافعت عن نفسها مدة طويلة ثم افتتحوها بعد
مهاجمات عديدة وعند دخول القائد المذكور الى المدينة التقى بجاعة من الشيوخ
جالسين في دار جميلة على كراسي من عاج وفي يد كل منهم عصا من عاج تلوح
على وجوههم سمات الهية والشجاعة فاندش القائد وباقي العسكر من هذا المنظر
ولاسيما من ثباتهم وعدم فرارهم فتقدم احد الجند وقبض على لحيه اقدم وكان
يقال له بايديوس فانشط الرجل غضبا من صنيعه هذا وضرب الجندي
بعصاه فعند ذلك هجمت العساكر على بايديوس وجاعته وقتلوه جميعا ومن
هناك اتشروا في المدينة واحرقوا اكثرها . وكانت رومية يومئذ مدينة عظيمة
فيها ابنية فاخرة وقصور شاهقة اعظمها وامنها قصر الكاينول وهو اشبه بقلعة
حصينة فلما افتتح الغاليون المدينة ودخلوها تجمع في هذا القصر المذكور اكابر
شجعان الرومانيين وحاصروا فيه فهم عليهم مواكب الاعداء كالجراد واحاطوا
بذلك القصر فلم يتمكنوا منه واستمر الحال على مثل ذلك مدة وفي بعض الليالي

بينما كان عسكر الغالين قد اقترب من ابواب الحصن والحراس نيام استفاق
رف من الاز في احد المياكل القريبة من ذلك المكان فايقظ بصياحه الحراس
فصدوا القوم عن التقدم واحتدم الرومانيون هذا النوع من الطير وحرّموا على
انفسهم آكله من ذلك اليوم . ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى قام كاملوس
احد ابطال الرومانيين وانتصر على الغالين وقتلهم حتى قيل انه لم يرجع
احد منهم الى بلاده .

وكان الرومانيون بصرفون اكثر اوقاتهم في محاربة الدول والممالك
الاجبية فبرعوا في فن الحرب وكانوا كثيراً ما يظفرون في حروبهم ومغازيهم حتى
انهم اخضعوا اخيراً جميع ولايات وممالك ايطاليا واستولوا عليها
وكانت قرطاجنة المدعو لرومية وهي مدينة حصينة مبنية على شطوط
افريقية الشمالية على مسافة اربعمائة ميل الى جنوبي رومية فانصلت بينهما العداوة
الى التنازع والتتال وجرى بين الفريقين ثلاث حروب عظيمة تعرف بالحروب
البونيقية فقد فيها جيش كثير من الطرفين وقد استوفيناها في تاريخ قرطاجنة
فلا حاجة لتكرارها هنا وكان الرومانيون في حربهم الاخيرة مع اهل قرطاجنة
قد فازوا بالتجاح والغلبة بواسطة قائدهم الشجاع المشهور المدعو سيبو فانه فتك
بجيش الاعناء فتكاً عظيماً ودخل مدينة قرطاجنة سنة ١٤٦ ق م واحرقها بالنار
ورجع الى رومية بالغنائم والاموال . وعند وصوله اليها البسوة اكاليل الغلبة
والاقتصار التي هي من اعظم جوائزهم وساروا به الى الكاينول بموكب عظيم حسب
العوائد التجارية عندهم

وكانت العادة بين الرومانيين عند وصول القائد المنتصر الى رومية انه
يقف قليلاً في ميدان كميوس مرتيوس وهي ساحة خارج المدينة وهناك يلبسونه
ثوباً ارجوانياً منسوجاً بالذهب ويضعون على راسه نسرًا من ذهب ثم يدخلونه
الى المركبة المعدة له محاطة باصحابه واقاريه وهم في الملابس البيضاء ووراءهم
الفتاقل وارباب المجلس في ملابسهم الرسمية وكان الجيش المنصور يمشي من ورائهم

لابساً خوذاً مكلفة بغصون الدفل وحاملو البيارق رافعون في ايديهم نسوراً
من الفضة مطلية بالذهب عوضاً عن البيارق ثم ياتون بالثيران التي يرسم الذبح
فيطلون قرونها بالذهب ويضعون على رؤوسها اكاليل مختلفة الاشكال وبعد
ذلك ياتون بالغنمة الماخوذة من العدو مع ناج او اسلحة الملك او الفائد المغلوب
ويسبون بها امامهم كما حصل عند دخول نيطس بالظفر الى رومية بعد غلبته
على اورشليم فانه حملت امامه المنارة الذهبية وتابوت العهد وباقي الغنمة التي
اخذها من الهيكل. وفي اثناء الحروب التي اُقيمت على انطيوخوس ومتريدانس
وغيرهما من الملوك المشرقيين كانوا يقودون في المواكب جالاً وافبالاً وغوراً
واسوداً وغيرها من الوحوش الضارية واحياناً كانوا ياتون بها الى المراسع حيث
كانوا يجمعون احفالات الفرع بانواع شتى من الملاعب. ثم بعد الغنائم المذكورة
كانت تمشي فرقة من الاسرى وبينهم الملوك والرجال المأسورون والنساء
والاولاد جميعهم مفيدون بالسلاسل الثقيلة فكانوا احياناً يزدرون بهم ويقتلونهم
بلارحمة واحياناً يبقونهم باقي ايام حياتهم في حالة العبودية ويسلمونهم لبعض
الرومانيين الفاقدين اصحابهم في الحرب لينتقموا منهم ويعذبونهم ثم من بعد هذه
الفرقة كانت تدق آلات موسيقية بنغات مرتفعة لتزيل تهديدات وصراخ اولئك
المنكودي الحظ وامامهم جماعة من الرقاصين واصحاب المساخر بنطنطون
وبهرولون وهكذا كانوا يتقدمون بالفائد المنتصرين في جميع اسواق رومية
الى ان يصلوا به الى الكايتول

الباب الثالث

في اخبار سِلاَ ومارتيوس الى قتل يوليوس قيصر سنة ٤٤ ق م
وما زال الرومانيون يفتحون البلاد والممالك الى ان اصبحت اسبانيا باسرها
ولاية رومانية ثم اثاروا حرباً على مملكة نوميديا في افريقية المعروفة الآن بمجزائر

الغرب فافتحوها واستاسروا ملكها جوكركثا واتوا به الى رومية فامانوه في السجن
جوعاً وعطشاً

ثم في سنة ٩١ ق م حاربوا ولايات ايطاليا المجاورة لهم فاخضعوها . ثم اقاموا
حرباً على متريدانس ملك بنطس في اسيا الصغرى ولم يتصروا عليه انتصاراً
تماماً الا بعد مرور اربعين سنة وفي اثناء تلك الحرب قام في رومية قائدان من
اهل الشهرة وهما ماريوس وسلاً فكان ماريوس جندياً شجاعاً ومع شجاعته
وبراعته فصيحاً وذا تربية حسنة فتحرب لكل من هذين القائدين قوم من الاهالي
وكانت قد وقعت بينها الغيرة والبغضة حتى الجأها الحال الى القتال فحدث
من ذلك حرب أهلية . ومن غريب الاتفاق الذي حدث في اثناء هذه الحروب
ان رجلاً من عسكر سلاً المذكور كان قد قتل جندياً من جنود ماريوس وعندما
نزع عن راسه الخوذة وجد انه اخوه فخرن من هذه الصدفة حزناً شديداً ومن
فرط غمو على فقد اخيه قتل نفسه بيده اسفاً وحسرة . واستمر القتال بين الفريقين
مدة طويلة وحدث بينهما عدة وقائع فكانت الدائرة اولاً على ماريوس وجوعه
ولكنه انتصر فيما بعد على خصمه وهزمه واستولى على رومية ثم اخذ يتقم من اخصامه
ومقاوميه فحدث مذبحه عظيمة بين الاهالي قتل فيها عدد كبير من ارباب
الوظائف والمجالس واشراف الناس جهاراً في الاسواق . واما ماريوس فلم
يخلص من العقاب الذي استحقه بارتكابه هذا العمل لان ضميره كان يوجعه ليلاً
ونهاراً نوبتاً شديداً ولاجل التخلص من ذلك انصب على شرب المسكرات فكان
يتناول منها كمية وافرة ليسلي نفسه ولم تكن الا مدة قصيرة حتى اصاب بحمى
شديدة انتهت بها حياته . ولما بلغ سلاً موته قصد رومية بجيش عظيم فامتلكها
ودعا نفسه الحاكم المطلق وقد سلك مسلك سالفه في قتل من كان متغزياً عليه
من الاهالي فحكم مدة قصيرة ثم خلع نفسه عن معاطاة الاحكام ففرح الجميع بذلك
لانه كان مبغضاً ومكروهاً من اكثر الناس وبعد تنازله ببرهة وجيزة مات
فلو احب الرومانيون الحرية كالابام السابقة لما خضعوا لظلم وجور سلاً

وماريوس ولكنهم التها وتولعوا باللذات الناشئة عن الفنى الذي حصلوا عليه بواسطة فتوحاتهم وانتصاراتهم على ممالك الارض فالتها بالعرض عن الجوهر وصرفوا النظر عن صالحهم الحقيقية فكانوا يخضعون لروسائهم وكبرائهم الذين قادهم في تلك الانتصارات العظيمة ويقدمون لهم احتراماً زائداً فوق الوصف وبعد موت سلاً وماريوس ظهر في رومية قائدان عظيمان احدهما يدعى بومبي والآخر يوليوس وكان بومبي اكبر سنًا واشهر لانه كان قد افتتح خمس عشرة مملكة واخذ ثمان مئة مدينة وتغلب على مثر بدانس اما يوليوس فلم يكن اقل همة وفروسية منه فانه هو ايضا اثار حروباً كثيرة على فرانس وجرمانيا وبريتانيا ويقال انه انتصر في حروبه على ثلاثة ملايين من الناس وقتل نحو مليون منهم . ولما قويت شوكة هذين الاميرين وشاع بين الناس فخرها وبطشها كسالىها سلاً وماريوس ضاقت عليها البلاد بحيث ان كل الممالك الرومانية لم تعد تسعها فداخلها الحسد والطمع وظهرت بينها العلوة وكان قد انتسم شعب رومية الى حزبين بحسب اغراض هذين القائدين فانفرد كل منهما بمجزئه واقتلا في فرساليا من اعمال تساليا وكان قسم كبير من جيش بومبي مولفاً من اشراف الرومانيين الاحداث فلم يستطيعوا الوقوف امام فرسان يوليوس فولوا منهزمين خوقاً من العدم واللف وتمكن يوليوس من الانتصار على عدوه انتصاراً عظيماً وهرب بومبي الى ارض مصر فقتل هناك واتى براسه الى يوليوس فحزن على موته وناح عليه ولكنه لم يرد ان يراه . ولما بلغ ارباب المجلس الروماني انتصار يوليوس قدموا اصواتاً احتفالية لاهنهم ومنحوه السلطنة المطلقة ما دام حياً ولقبوه بقبصر وحكموا على شخصه بالقداسة فصنعوا له تماثلاً واقاموه بين تماثيل الالهة والابطال في الكايتول بالقرب من تماثيل المشتري وكتبوا عليه هذا التمثال قبصر نصف الاله فانظر الى غباوة الرومانيين وجهلهم في ذلك الزمان والى الدرجة التي توصلوا اليها من الاستعباد والتوحش . ولما رأى قبصر علو رتبته ورفعة مكانه ومثلته في اعين الشعب لم يبق عليه ما كان يرغبه وبشبهه الا شيء واحد وهو

ان يسي نفسه ملكاً فوجه افكاره وقواه لاسفالة رضا الشعب والعساكر واخذ
 يتفق مبالغ وافرة على الولائم والضيافات وانواع الافراح والمسرات التي كان
 يدعو اليها جمهور الناس لتمليقهم واستجلاب خواطرم لنحوه فمن ذلك وليمة عظيمة
 دعي اليها الجيش الروماني جميعه فكان ممدوداً في اسواق رومية اثنان وعشرون
 الف مائدة مملوءة بالاطعمة اللذيذة والمشروبات الفاخرة ولم يمنع احدٌ من الجلوس
 والمناولة سواء كان صعلوكاً ام حفيراً . واذ كان الرومانيون قد فقدوا تلك
 الحاسيات الشريفة التي كانت عند اسلافهم ارتضوا ان يكونوا تحت نير عبودية
 قيصرهم بشرط ان يحصلوا على الاطعمة اللذيذة والمناظر المبهجة فسلطوا له بما اراد .
 ولا يتكر بان قيصر كان رجلاً جليلاً مهيباً متصفاً بالصفات الحميدة والحذاقة
 ولذلك نسي الشعب بانه كان قد خدعهم بهذه التملقات واعدمهم حرية بلادهم
 فكانوا يسرون في مشاهدته في المواسم والولائم العمومية جالساً على عرش من
 ذهب وعلى راسه اكبل مرصع بالجواهر النفيسة

ولكن مع كل ذلك لم يخل الامر من وجود بعض الاشخاص من الرومانيين
 الذين استمروا متمسكين بحجة الحرية محبة مجردة فكان بعضهم يبغض قيصر
 لظلمه وبعضهم حسداً وغيرة من تقدمه فانفقوا على قتله واسرعوا في استعمال
 الوسائط على هلاكه واعاناه وكان رئيسا هذه الفتنة رجلين احدهما يدعى
 برونوس والثاني كاسيوس اما برونوس فكان محباً لقيصر ومحبواً منه ولكنه رأى
 ان واجباته لنحو تحرير وطنه تلزمه ان يتظاهر بقتل صديقه قيصر واما كاسيوس
 فع ان كان موافقاً برونوس من جهة تحرير البلاد من نير العبودية كان له
 اسباب اخرى تحركه للقيام وهي انه كان يبغض قيصر وبتنهي هلاكه حسداً على
 عظمتيه . واشترك معهما في هذا العمل ستون رجلاً قد صمموا على اجراء مصادمهم
 جهاراً في دار المجلس العالي خلافاً للاكثرين الذين كانوا قد اتفقوا على قتله سرا
 عند اتصاف الليل . وكانت العلامة بينهم انه عند قدوم قيصر الى دار الولاية
 يعطيه احدهم رقعة كانه طالب حاجة فحينئذ يجمعون عليه ويقتلونه . ولما كان

الصباح الذي عينوه لقتله خرج قيصر من قصره حسب عادته محاطاً بمجهور
غفير من اصدقائه المحالين وعند نزوله الدرج خارج باب القصر تقدم اليه
رجل من المجبيين اسمه ارتميدوروس وناوله رقعة تتضمن خبر تلك الفتنة فتناولها
منه وقد ظن انها عريضة فسلمها لاحد كتبه ولم يقرأها ولو قراها لامكنه ان
يخلص من الموت ثم مر قيصر بموكبه الخاص في اسواق رومية والناس ينفون
من حولهم على الجائنين اجلالاً له ويهتفون في مدحهم ويدعون له بطول
العمر فحامزته الكبرياء واستعظم بنفسه شاعراً بأنه قد صار من اعظم العالم
واستمر في مسيره الى ان وصل الى دار المجلس العالي حيث كان مصفوقاً على
تمثيل كثيرة من مشاهير رجال الرومانيين ومن جملتهم تمثال القائد بومبي
الذي قد اتي براسه الى قيصر من مصر وعند ما اقترب من هذا التمثال تقدم
اليه احد المشتركين في هذا السناد يقال له مناوس سبر فقدم له اعراضاً وجنا
امامة اخذاً بطرف رداءه كانه يستغيث به في قضاء حاجة له فوقف الملك
لبرى ما في تلك الورقة ولم يعلم انها حيلة وعلامة اتفقوا عليها لانهم مفاصدهم الا
انه لم يتو منها حتى وافاه رجل اسرع من البرق وطعته بخنجر في كتفه فالتفت
قيصر اليه واخطف الخنجر من يده وشتمه فعند ذلك هم عليه الباقيون فدافع
عن نفسه بحساسة ونشاط لا مزيد عليها ثم ظهر بروتوس من بين المجهور
وطعته بخنجره وقد ذكرنا ما كان بينه وبين قيصر من الصداقة والمودة فلما رآه
قد رفع يده عليه توقف عن المدافعة ونظر اليه بعين التوبخ قائلاً وانتم ايضاً
يا بروتوس ثم ستر وجهه بطرف ثوبه وسقط على الارض ميتاً امام تمثال بومبي
فغمس اولئك العصاة اسلحتهم في دمه المسفوك وخاطب بروتوس سيسرون
احد ارباب المجلس الذي كان خطيباً شهيراً ومحباً للوطن قائلاً له نهلل وافرح
يا ابا وطننا لان رومية قد تحررت الآن وكان وقوع هذه الحادثة سنة ٤٤ ق م

الباب الرابع

في حكم أوغسطس قيصر وامتداد السلطنة في أيامه مع ذكر
الوسائل التي سببت لها هذه الشهرة والقوة

وبعد موت يوليوس قيصر حدث خلل عظيم في احكام رومية فنهض
اصدقاؤه واعوانه لاخت تارو والانتقام من المذنبين فاضطر بروتوس وكاسيوس
وغيرها من المشتركين في القتلة المار ذكرها ان يهربوا من المدينة وكان ليوليوس
قيصر المقتول ابن اخت اسمه اوكتافيوس كان صغيراً لما مات ابوه فتبناه
خاله قيصر واعتنى بتربيته وارسله الى بلاد اليونان للتعليم والتدريب فلما قتل
خاله المذكور في رومية كما تقدم كان عمره ثمان عشرة سنة وعند ما بلغه هذا
الخبر حضر الى رومية ليستولي على ميراث خاله فاعطاه مرقس انطونيوس احد
روساء الجمهورية جزءاً عظيماً من الميراث وتزوج باخته اوكتاوة ثم اشركه
معه في رئاسة الجمهورية الرومانية واشركا اميراً ثالثاً معها يقال له ليديوس
وكانوا مثل يوليوس قيصر يكرهون الحكومة الجمهورية ويميلون الى المذهب
الملكي فاتفقوا على تشييت شمل اعدائهم وشرعوا في توطيد سلطنتهم واخذوا
يقتلون كل من كان مقاوماً لهم فكتبوا رقعة تتضمن ٢٠٠ اسم من اعضاء المجلس
العالي والذين من اعيان الناس وسلموها لبعض من يعتمدون عليهم وغرؤهم
بالجوائز على قتلهم وكانوا يظهرون مزيد الفرح والسرور عندما يأتهم احد براس
من كان اسمه مكتوباً في تلك القائمة فكان اكثرهم يقتلون اباؤهم واعمامهم ومن
يعز عليهم طمعاً ورغبة في المال . اما بروتوس وكاسيوس فكانا قد قصدا بلاد
اليونان والتجأ الى ملكها واستعاناه به على حرب رومية فامدها بمئة الف مقاتل
من شجعان قوم فانتصيا راجعين على الفور الى رومية بهذا الجيش العرمرم لتخليص

المملكة من ايدي المتحصين. وكان قد بلغ خبرها مرقس انطونيوس واوكناقيوس
 فخرجا لتتاهما بالجيوش الرومانية فالتقيا بهما في اطراف قبلي واما وقعت العين
 على العين اشتبك القتال بين الفريقين فكانت الدائرة على بروتوس وكاسيوس
 وانهمزمت جموعهما وتبددت فالتزما ان يقتلا نفسيهما خوفاً من الاسر والانتقام
 وبموتها راقمت احوال المملكة للشركاء الثلاثة ثم اتفق اوكناقيوس وانطونيوس
 على طرد شريكهما الثالث فطرداه من شراكتها وصفا لها الوقت وراق ثم وقع
 بينهما الاختلاف والنزاع بسبب تزوج انطونيوس بكليوباترا ملكة مصر واستنزاعه
 باخت اوكناقيوس التي كان متزوجاً بها فخاربا بعضها بعضاً وانتهى الامر
 بانتصار اوكناقيوس على انطونيوس في بلاد مصر فقتل انطونيوس نفسه بيده
 هناك فاصبح اوكناقيوس بدون مقاوم ولا منازع واستقل بنفسه على احكام رومية
 واتخذ لنفسه لقب امبراطور واشتهر باسم قيصر ونسي ايضاً اوغسطس ومعناه
 الموقر وهي القاب ثلاثة مترادفة على معنى واحد تطلق عند الرومانيين على كل
 ملك من ملوكهم وكان المجلس العالي ايضاً اعطاه لقب باتر باتريا اي ابي وطو
 وغير ذلك من الالقاب على سبيل التخميم والتعظيم ومن ذلك الوقت تحولت
 الجمهورية الرومانية الى دولة ملكية. وكان اوغسطس من افراد الملوك عادلاً
 حليماً يميل الى المعارف والآداب فرتب القوانين العادلة لراحة الاهالي وافتتح
 ممالك واقاليم كثيرة بشجاعة قواده وامرائه لاسيما قائده المسى اغريبا فانه كان
 من افراد الابطال ثم استولى على مصر وغيرها وكان مع سطونه وابته ودبعا
 انيساً ومع انه لم يكن يومئذ في رومية الاً قليل من اهل الصلاح ونصي السلام
 نصرف هذا الملك باستعمال سطونه على طريقة اهل ما استعملها كثيرون غيره
 لانه في كل مدة حكمه كانت رومية في غابة الهدوء والسلام وفي ايامه عاش فيرجيل
 وهوراس واوفيد وغيرهم من مشاهير الشعراء وحازوا على انعامه وشهامه بانظاره
 ولذلك مدحوه في اشعارهم واطنبوا في وصفه وعاش اوغسطس قيصر المذكور عمراً
 طويلاً ثم مات سنة ١٤ بعد الميلاد وله من العمر ست وسبعون سنة بعد ان حكم

احدى واربعين سنة حكومة ملكية فضلاً عن مدة الرئاسة الجمهورية. وكان العامل على اليهود بالندس من قبله هيرودس وفي مدة حكمه صار الاكتاب العمومي المذكور في الانجيل الذي بسببه ذهب يوسف ومريم الى بيت لحم حيث ولد المسيح كانت السلطنة الرومانية في ايام اوغسطس في اعظم واعلى درجة من زهوها وغناها وكانت متسلطة على جميع شعوب اوروبا ما عدا بعض القبائل في الجهات الشمالية الذين استمروا محافظين على استقلاليتهم. اما الممالك التي كانت تحت تصرف احكام الرومانيين في اوروبا فهي انكلترا وفرنسا واسبانيا والمانيا وجميع ولايات ايطاليا واليونان وتركيا في اوروبا وغيرها وكانوا ايضا يحكمون على اكثر البلدان الواقعة بين اسيا الصغرى غرباً والهند شرقاً مع كل اسيا الصغرى وسوريا وفلسطين وغيرها وقد امتدت قوتهم وقويت شوكتهم بهذا المقدار حتى انهم اخضعوا اكثر ممالك افريقية كمصر ومراكش والحبشة وغيرها وكان لهم في كل ولاية ومملكة من هذه الممالك المذكورة ولاية وحكام وعساكر رومانية تسوسها وتحفظها وبالحقيقة ان هذا الامر من اعجب العجائب لانه لم يتيسر لغيرهم من دول الارض ما تيسر لهم من الفتوحات والانتصارات وليس ذلك الا بواسطة ادارة حكامهم وعلوهم ائمتهم. وفي ذلك العصر تحسنت صنائع البناء والنقش والتصوير وتوصلت الى درجة سامية من الكمال وامتدت في جميع اطراف السلطنة. وكانت المدن والبلدان مزينة باهياكل المبهجة والقصور المرمية المزخرفة الملوحة من التماثيل الجميلة والصور الثمينة فاقاموا في جميع البلدان التي اقتنحها الرومانيون ابنية عامة كثيرة النفع كتحصين الطرق وقيام الجسور المثبتة وبناء الاقنية لجلب الماء الى المدن والى بومنا هذا كثير من بقايا تلك المشروعات والعمليات العظيمة في اغلب البلدان التي وقعت تحت ايدي ذلك الشعب العظيم مع انها اقيمت منذ الف سنة تقريباً. واما مدينة رومية فكانت من اعظم مدن العالم وابهجها وكانت دائرتها في زمن اوغسطس ٥٠ ميلاً وعدد سكانها اربعة ملايين وكانت محاطة بأسوار عالية متينة البناء نظير

بأقي المدن القديمة لان الضرورة يومئذ الزمهم الى ذلك لاجل وقاية المدن وصيانتها من هجمات العدو. وكان لها ثلاثون باباً وكانت من عجائب الزمان منظرًا وبهجة حتى يكاد الواصف يعجز عن وصف زخارفها وحسن رونقها وزينتها لان القواد الذين اختفوا الممالك الاجنبية بانتصاراتهم كانوا يأتون بجميع الامتعة والتحف النفيسة العجيبة التي يحوزون عليها في مغازيمهم ويضعونها في قصور هذه المدينة وهياكلها زينة لها فكان فيها تماثيل جاءوا بها من بلاد اليونان واعمد من مصر وامتنع مجسمة عجيبة وغريبة من اسيا وغير ذلك من النضة والذهب والنجارة الكريمة التي كانوا يجمعونها من اقطار المسكونة . وكان فيها قصور جبلة وهياكل مستظرفة اكثرها من المرمر المنقوش نقشاً جميلاً ومرايح ومحلات مدهشة للمشاهد والملاهي العمومية وغير ذلك من الابنية الفاخرة التي تدهش الابصار وتبهر بحسنها الافكار وبالاجمال كانت مشحونة بغنائم وظرائف الدنيا بأسرها. اما الوسائط التي استعملها الرومانيون للحصول على هذه الشهرة والافتخار فهي الفتوحات والممالك التي استولوا عليها والغنائم الكثيرة التي اكسبوها بواسطة قساوتهم البربرية في قتل اعدائهم وسلب اموالهم بدون ادنى رحمة ولا شفقة

ولا ينكر ان الرومانيين نظير اليونانيين والفرس والمصريين وغيرهم من الامم القديمة كانوا يتصورون تصورات من جهة الفضيلة فكانوا يعلنون احبائاً اعمالاً حسنة تستحق المدح ولكنهم كانوا نظير الشعوب المذكورين فاقدي الاداب الحقيقية التي تستدعي معاملة الناس على نفس الاسلوب الذي نريدهم ان يعاملوا به . وكانت رومية ايضاً نظير غيرها من الامم القديمة فاقدة تلك الديانة الحقيقية التي تعلم الناس ان كل قوة غير مبنية على مبادئ العدالة والاستقامة لا بد من سقوطها وانقراضها فلذلك كانت فاقدة المجد الحقيقي لانها لم تحصل على تلك العظمة والشهرة الا بواسطة سفك الدماء والنهب ولكن مع كل ذلك استمرت زمناً طويلاً في عظمتها وبهجتها بعد اوغسطس قيصر وزادت

تعمات اغنيائها واشرافها وتوصلت في المعارف والفنون الى درجة سامية

الباب الخامس

في تعداد إمبراطرة الرومانيين وبعض اخبارهم

وبعد موت أوغسطس خلفه طيباريوس سنة ١٤ للميلاد وكان رجلاً جافياً فأنكأ شرس الطبع قبيح المنظر افرع الرأس مولعاً بشرب المسكرات وكان فيه تيه وتعاطم ولذلك كان يتفخر على من تقدمه من الملوك السالفين وكان كثيراً ما يقول في خطبه انا مولى الرعايا وقائد القواد وملك الاهالي وسيدهم واستوزر من يلائم طبعه من الوزراء والأمراء فاشاروا عليه بقتل عاتلة أوغسطس فقتل أكثرهم وحكم على كثيرين من الناس بالموت بدون جنحة ظاهرة والقي جنثهم في الأزقة والأسواق ليشاهدها الناس ومن جملة قبايحها انه امر يوماً بقتل امرأة مسكينة لانها ناحت على قتل ابنها . وكان مع بطشه وقتكه في اضطراب يارتباب عظيم خوفاً على نفسه من القتل فكان ضربه يوسوسة وثقلته ومع اتصافه بهذه الخصال الذميمة كان خبيراً بالسياسة والتدبير فكانت ايامه صلحاً وسلاماً مع باقي الممالك الاجنبية ولم يحصل في مملكه ادنى اختلال في النظامات . وفي ايامه صلب السيد المسيح في اليهودية التي كانت وقتئذ ولاية رومانية . واليه تنسب مدينة طبرية التي بنواحي القدس بناها هيرودس انتيباس بن هيرودس الكبير وكان عاملاً له على اليهودية وسماها باسمه . ومرض هذا الامبراطور مرضاً شديداً واذ كان مشرقاً على الصحة خفت الحرس فراشه فمات

ثم خلفه كليغولا وهو ثالث امبراطور من امبراطرة الرومانيين بعد وغسطس تولى سنة ٢٧ بعد وفاة عمه طيباريوس فاستبشر به الرومانيون لانه كان في اول حكمه على جانب عظيم من الاستقامة والعدالة ثم لما مرض

وشفي من مرضه استعالت استقامته وعالته الى التعدي والظلم وارتكاب الكبائر وسفك الدماء . وكان يحب اهل الملاهي والسخرية واللعب ويستحضرهم الى ديوانه ويدعو لذلك ارباب المجلس ويظهر لهم الفرح والانشراح وكان كل من يرفع صوته من الوزراء والاعيان في هذا الاجتماع يأمر بضربه . ومن غريب اعماله انه كان قد اصطنع له اصطبلًا من المرمر لفرس كان يعزها وعمل لها حوضًا من العاج ورصع سروجها باللؤلؤ والجواهر وقيد اسمها في دفتر الكهنة يزعم انها بتصير ذات يوم حاكمة على الرومانيين . وبالجملة فانه كان من اقبح الناس سيرة وكان من فرط قساوته وقبائحته انه اذا امر بقتل انسان لا يكتفي بقتله الا بحضور اهله ليشاهدوا عذابه وموته . وفي ايامه كانت الحروب غير منقطعة وعلى الخصوص في بارثيا وبرثانيا . فلما كثرت جورته وعم الناس شره قتله احد قواده في قصره واراح الاهالي من ظلمه

ثم خلفه كلوديبوس سنة ٤١ وكان على غاية من الخفة والنفلة ومع ذلك كانت له مشاركة في الادب والمعارف فقد ألف تاريخ رومية وقرطاجنة وغير ذلك من الكتب التي فقدت وضاعت . وكان تزوج بامراة تسمى مسالينة فكانت نبغضة وتبغى له الموت طمعًا في زواج شاب من الامراء كانت تودده وتميل اليه فصممت يومًا على قتله لتولي محبوبها زمام المملكة فلما انكشفت له خيانتها قتلها وتزوج بامراة ارملة من نسل اوغسطوس اسمها اغريبنه وكانت اشر واخبث من الاولى وكان لها ولد من زوجها الاول يقال له نيرون وكان لكلوديبوس المذكور ولد من زوجة اخرى ابريطانيكوس فكانت تغار منه وتطمع في تولية المملكة لابنها نيرون ليكون لها نفوذ الكلمة في الحكومة بمجاهة فقدت قتل زوجها كلوديبوس لتنال مرغوبها فسقته كاسًا مسمومة لثيمته واذا كان قصدها ان تقيم ابنها نيرون خليفة لابيها عوضًا عن ابن ضرته المتقدم ذكره اخنت عن الشعب موت كلوديبوس واخذت تستميل اليها قلوب الاعيان والوزراء وقواد الجيوش حتى تمكنت منهم ووافتها الجميع على تولية ابنها نيرون وبايعوه وهو ابن خمس

عشرة سنة

وكان جلوس نيمون على سرير الملك سنة ٥٤ لليلاد وكان يظهر منه في اول الامر الانس والوداعة وكان الاستقامة ثم تغيرت اطواره وسامت احواله فخلع العذار وجار على العباد بالقتل والظلم والعذابات المختلفة وكان يبغيض المسيحيين بغضاً شديداً ويتمنى هلاكهم . وكان قد بلغه ذات يوم ان كثيراً من اهل رومية اعتنقوا الديانة المسيحية فكره ذلك منهم وامر بقتلهم ثم قتل بولس الرسول ظلاً وعدواً وأُنا وقتل بعده بطرس الرسول ثم قتل مرقس الانجيلي بالاسكندرية لثنتي عشرة سنة من ملكه ثم قتل امه وامراته واخاه ومعلمه الفيلسوف سينيكا . وكان قد امر بحرق جانب عظيم من مدينة رومية بالنار مجرداً لكي يراها مشتعلة فعند ما اضطربت بالنار كان على احد السطوح المرتفعة يضرب



صورة بولس الرسول وجدت في احدى القبور القديمة منقوشة على قطعة نحاس وهي من الجيل الخامس

على العود فاتهم المسيحيين بهذه الجريمة واجرى عليهم قصاصات صارمة . وكان يصطنع الولايم ويدعو اليها الناس وينفق عليها الاموال الكثيرة ويجول في الليل متنكبراً يزري المالك باطراف المدينة ليتجسس اخبار الناس وما يقولون

فيه . واستمر على هذه الحالة الذميمة الى ان خلعه اكابر الشعب فانزلوه عن كرسى الملك وحكروا عليه بالموت بضرب العصي فقتل نفسه بيده انجو من العذاب وقيل ان عسكره هجموا عليه فقتلوه بالسيف حتى لم يبق في جسده عضو يعرف والقوه الى الخارج فادلوه الى الكلاب ولم يدفن وقما يوجد نظيره في التدرب بجميع الخصال الردية وظهرت قباحتها اكثر لسبب سمو رتبته وشرف مقامه قال الشاعر

المعيب في الجاهل المغمور مغمور وعيب ذي الشرف المذكور مذكور
كمنوفة الظفر تخفى من صفارتها ومثلها في سواد العين مشهور
وقام بعده غلبا واوثون في سنتي ٦٨ و ٦٩ اما الاول فقتله جده واما الثاني فقتل نفسه بيده

ثم قام بعدها فيثاؤس سنة ٦٩ وكان بطالاهما وشجاعا مقداما عديم الشفقة قاسي القلب يحب القتال ومباشرة الحرب ولا يهتم صالح الشعب فمقتله الناس وكرهوه واضمروا له الشر وفي اثناء ذلك قام عليه احد قواد جيشه فخاربه واسره ثم اوثقته بحبل وامر العساكر ان تقوده على هذه الحالة الى موضع معلوم في المدينة ليقتلوه فقادوه الى ذلك المكان وامانوه هناك موتا قبيحا ثم قطعوا راسه ووضعوه على راس حربة والقوا جثته في نهر تير وكان ذلك آخر العهد به

ثم خلفه فسباسيانوس سنة ٦٩ وكان متصفا بالسياسة وحسن التدبير وكان وقتئذ يحارب اليهود في اليهودية اعصيانهم على الدولة الرومانية فلما بلغه موت سالفه جعلت عساكره تنادي باسمه قيصرًا فترك فلسطين وسار الى رومية وقام ابنه تيطس مكانه ودخل المدينة بدون ادى مقاومة فخضع له جميع الاهالي وبايعوه بالملك فحكم عشر سنين اغلبيها في الراحة والسلم وهو اول امبراطور روماني مات حنفا انه

ثم خلفه ابنه تيطس سنة ٧٩ وكان قبل جلوسه على سرير السلطنة لا يبعد

منه إلا التساوة والجبروت لاسيما ما ظهر منه من كثرة القتل والنهب عند محاصرته القدس واستيلائه عليها فلما حكم سلك سبيل العدل والإنصاف وحدث خصالة فاجئة الناس وبقوة مسرة البشر ومن جملة مناقبه أنه مضى عليه يوم لم يفعل فيه شيئا من الخير لرعاياه فيما هو يراجع نفسه بذلك في المساء متف صارخا آه يا اصحابي قد ضيعت يوما. وفي أيامه هاج بركان جبل يزوف بقرب نابولي وخرب ثلاث مدن واحترق جانب عظيم من مدينة رومية ثم اعتبه وبأ مخيف مات به كثيرون من الاهالي وقد منهم في يوم واحد عشرة الاف نفس فكان تيطس يتفق على المصايين من خرائط بكل مخاض ثم مرض تيطس بعد ذلك بالحمى فدخل الحمام فمات به فجأة بعد ان حكم ستين وشهرين

ثم خلفه اخوه دوميتيانوس سنة ٨١ وكان قبل تقلده منصب القيصري متصفا بمكارم الاخلاق والسيرة الحسنة ولكن بعد جلوسه على كرسي السلطنة تبدلت محاسنه بالفجائع والردائل فاشبه نيرون في ارتكاب الفواحش وقتل النفوس بدون جناية وكان اذا لم يجد من يقتله سلى نفسه بقتل الذبان حتى لا يخلو دقيقة واحدة من الاذية والضرر قيل ان احد خدامه سئل يوما هل عند الملك احد اجاب ولا ذبانه. وكان مع هذه الاوصاف الذميمة متعظما متكبرا حتى انه لقب نفسه الها وسيدا. وكان يكره اليهود ويبغضهم بغضا شديدا فقتل اكثرهم ثم اضطهد المسيحيين وامر بتلهم كما فعل نيرون وحبس يوحنا الانجيلي. ومن غريب اعماله انه كان قد استدعى ارباب المجلس يوما الى وليمة اعد لها لم وعند حضورهم دخل بهم الى مخدع مظلم كان قد وضع فيه عدة نوايت مكتوب على كل منها اسم واحد منهم وبعد ان تهددهم بالقتل امر باطلاقهم ويقال انه دعاهم اليه يوما آخر وطلب منهم ان يتذكروا بعضهم مع بعض عن الذل الاطعمة وافضلها وان يعطوا قرارهم عن احسن الاواني المناسبة لطبع جنس من اجناس السك. وكانت اكثر اعماله على هذا النمط فلما زاد

شره منته الشعب وخذوا عليه فاغروا على قتله امبراً يدعى اسطفانوس فحضر اليه بوسيلة كتاب حضر به اليه ثم ناوله الكتاب فيينا كان مشغولاً بقراءته وثب عليه وقتله

ثم خلفه نرقاسه ٩٦ وهو في سن السبعين وكان جواداً انيساً ذا معرفة وسياسة ولكنه اذ كان مسناً صعب عليه ان يقوم باثقال السلطنة وحده فاستدعى اليه تراجان حاكم جرمانيا فتنباه واشركه في الملك معه وعينه خائنة له . وكان قد امر برد من كان منفيًا من المسيحيين واباح لهم التمسك بدينهم ورجع يوحنا الانجيلي الى افسس

ثم خلفه تراجان المذكور وكان على جانب عظيم من الحكمة والفضة وشدة لباس فخفف المكوس واهتم بجلب كل ما يقتضي لراحة الشعب فانشأ القناطر واصح الطرق وجدد المواني البحرية لتكثير التجارات والمعاملات وبنى في رومية ملعباً لسباق الخيل وجدد مكتبة عظيمة واقام العمود الرخامي الابيض المسمى التراجيان ورسم عليه الحروب التي وقعت بين الرومانيين وباقي الدول الاجنبية وجميع انتصارات القياصرة في ذلك الزمان . وكان قد عبر نهري الفرات والدرجلة بعساكره واخضع ما بين النهرين وبلاد العرب وغيرها من الممالك الشرقية وصبرها ولايات رومانية فاشتهر ذكره في سائر الاقطار حتى ان ملوك الهند بعثوا اليه سفراء ليهشوه على انتصاره . وكان مضطهداً للمسيحيين ومن فرط بغضه لم امر بقتل سمعان بن اكلاوبا اسقف اورشليم وعند زيارته انطاكية سنة ١٠٧ امر بطرح اغناطيوس اسقف تلك المدينة الى جب الاسود فات شهيداً

ثم جلس بعده على سرير الملك ابن عمه ادرينانوس سنة ١١٧ وكان سريع الغضب كثير القلب لا يثبت على راي فكان تارة حليماً واخرى قاسياً جافياً وكان مبغضاً للمسيحيين واليهود فقتل منهم خلقاً كثيراً وهو الذي رمم مدينة القدس وبنائها بعد ان كانت قد هدمت في حصار تيطس فرجع اليها اليهود

وزادوا في تحسبها وتحصنها وكان قد بلغه انهم يريدون ان يخرجوا عن طاعه
فارسل اليهم العساكر وقتل اكثرهم وخرب المدينة حتى صارت قاعاً نصفاً
وكان هذا الخراب لثلاث وخمسين سنة من خراب تيطس

ثم تولى بعد هذا القيصر تيطس انطونيوس سنة ١٢٨ وكان حليماً عادلاً محباً
للسلام مطبوعاً على مكارم الاخلاق وفي ايامه حصلت المسيحيون على تمام الراحة
لانه كان قد رفع عنهم تلك الاضطهادات السابقة واعطاهم حريتهم وكانت مدة
حكمه ٢٣ سنة

ثم خلفه مرقس اوريليوس انطونيوس سنة ١٦١ وكان متمسكاً بمذهب
زنبون الحكيم احد الفلاسفة المتقشفين وكان منعكاً على المطالعات والدروس
واكتساب العلوم والفنون ولكن اذ كانت حالة الملكة يومئذ في قلق واضطراب
لم بعد يمكنه ان يلتفت اليها بل التزم ان ينهض الى محاربة الولايات التي كانت
قد عصت عليه في الجهات الشمالية وبخضعها . وفي ايامه فاض نهر رومية فازعج
الاقاليم المجاورة واضر بالاهالي ثم غلب ذلك زلزلة عظيمة ازعجت المسكونة
وحدث وباء عظيم هلك به خلق كثير

ثم خلفه ابنه كومودوس سنة ١٨٠ وكان قد شارك ابيه في حرب البرابرة
ولكنه بعد موت ابيه عقد معهم صلحاً وخالف في ذلك وصية والده ليغتنم فرصة
النعم في ملاهي رومية ولذاتها وعند موته قام مكانه بولاية الامر برينناكس والي
المدينة سنة ١٩٣ ففصح المجند من جرى ذلك لانهم لم يكونوا يريدونه قيصراً عليهم
فقصدوه نحو ثلاث مئة نفر منهم الى داره وهجموا عليه وقتلوه . فلما خلا سرير
السلطنة من ملك او ولي عهد بعده استصوب الشعب ان يضعوا المنصب الملكي
في المزارد فينال من يدفع فيه مالا اكثر من غيره فاجتمع الاكابر والاعيان
وارباب الوظائف والاركان واخذ بعضهم يتزايد على البعض فاستقر البيع على
بوليانوس وكان ذا ثروة عظيمة فبايعوه بالملك وصادقوا على ولايته بدون ارادة
عامة المجند المتفرقة يومئذ في بريتانيا وسوريا وباني الاقاليم الخارجية الذين

عند وقوفهم على هذا الخبر خلعوا الطاعة وباع جنود كل اقليم ملكاً اخاروق من القواد حتى صمدت الملكة تميزق الى عدة قياصرة فاخارت العساكر المحافظة على سواحل ايطاليا سفيوس القائد قيصرًا على الملكة وكان موصوفًا بالشجاعة وحسن التدبير فقصد رومية بسرعة مع جيشه ودخلها بموكب عظيم وتبوأ تخت الملكة بدون حرب ولا قتال . وكان المجلس العالي قد اصدر حكمًا بعزل بوليانوس المذكور وقتله كجرم قبض عليه الجند وقتلوه بعد ان حكم ٢٦ يومًا فقط وذكر بعضهم ان سبب قتله كان عدم تقديمه العطايا التي كان قد وعد بها ارباب المجلس عند مبايعتهم اياه تخت الملكة . وفي غضون ذلك حدثت حرب أهلية بين شعوب الرومانيين استمرت نحو اربع سنين

وكان سفيوس يقارب يوليوس قيصر في الشجاعة والبسالة والادارة العسكرية فانتصر على مقاوميه وعاملهم بقسوة لا مزيد عليها وقبض على الذين كانوا قد باعوا كرسي الملكة لسالفه واثار حربًا على الاسكونسين سنة ٢١١ ومات في مدينة يورك من اعمال انكثرا

ثم تولى بعده ابنه كاراكلا وكان دمويًا شريفاً قتل اخاه وجرح امه في ذراعيها وقتل باكاير الناس وقتل منهم نحو عشرين الف نفس ثم اضطرب واخذ القلق والوسواس من جرى ذلك ولازمه الهم والخوف حتى انه كان يرى كثيرًا احلامًا مزعجة فكان يلبي ذاته عنها بالولائم والالعب المختلفة وكانت نفوده مغشوشة فكانت دنائره الذهبية من نحاس مغشاة بالذهب ومسكوكاته الفضية من رصاص مغشاة بالفضة وكان يخزن المعاملة الخالصة في خزائنه لوقت النزوم والحاجة . وكان يتدرب بزي اسكندر المكدوني في اللبس والعوائد حتى انه اتخذ لنفسه ستة الاف من العساكر المكدونية ثقيلًا لعساكر اسكندر وعطى ايضًا ثمال اسكندر على الهياكل والمعابد وسمى نفسه اسكندر لتكون هذه التماثيل رمزًا له ثم شرع واستعد للغزو والتجارات على منوال اسكندر ولكنه لم ينجح فلما رأى جده حاله المهانة وانحطاط ناموس دولتهم بوجوده قتلوه وهو

يومئذ ميلاد سور يا بدسيسته مكرينوس الحاكم الذي خلفه في السلطة زماناً يسيراً
ثم قام بعد مكرينوس المذكور بسيانوس هايوكوبالوس سنة ٢١٨ وكان
غلاماً بديع الحسن والجمال وقيل انه بسيانوس يعني الشمس لحسنه وجماله وكان
في أكثر الاوقات يتزى بزى النساء فيضع في عنقه قلادة من ذهب وفي يده
اساور من الذهب وكان ينشر في قصره انواع الزهور والرياحن وينشر تحت
رجليه الفضة والذهب فاستفجع الناس اغفاله فقلع عليه الاهالي وقتلوه وكانت مدة
حكمه اربع سنوات

ثم خلفه ابن عمه اسكندر سيفيروس سنة ٢١٢ وكان ملكاً عادلاً حليماً انيساً
وديعاً الى الغاية وكانت امة مسيحية يقال لها مامه فكان يستشيرها في جميع
اموره ويعمل برأيها فلما ابطال عبادة الاوثان واخرج الاصنام من رومية ودعا
الناس الى الديانة المسيحية وكان كثيراً ما يجمع الاهالي وبعضهم بالخطابات المفيدة
ويدارك مجتنب ملاحظته ما يقع من الخلل والنساذ في اقطار المملكة وكان ينعم
على اهل الفنون والصنائع بالجوائز السنية لترغيبهم وتشجيعهم ولم يكن يقبل في
ديوانه احداً من ارباب الملاهي والالآت من المغنين كباقي اسلافه وامر بدفع
أجور العسكر في اوقاتها وكان يزور المرضى من الجند في خيامهم . ونصدي
سيفيروس لحرب العجم فقصده تلك البلاد بجيش عظيم وعند وصوله الى انطاكية
عصفت عليه فرقة من عسكره وصممت على قتله فقادها الى الطاعة بواسطة
شجعائه وثباته ثم تقدم فجه بلاد العجم وحارب ملكها اردشير واتصر عليه ورجع
الى رومية ظافراً منصوراً واستمر ملكاً الى ان قام عليه بعض العساكر وهو يومئذ
في حرب القبائل المتبريرة وقتلوه مع امه بدسيسته مكسيمينوس . وكان السبب
في ذلك ان سيفيروس قبل وقوع هذه الحادثة باثنتين وثلاثين سنة وهو اذ
ذاك قائد الجيوش الرومانية كان قد نزل بجيشه على مدينة تراس وهي مدينة
مكسيمينوس المار ذكره فامر المصارعين واليهوانية وجميع ارباب الملاهي
والحرف ان تلعب امامه ذات يوم وكان مكسيمينوس في ذلك المكان وكان

جباراً عنيداً شديد القوة شرس الاخلاق طويل القامة فتقدم هذا الى امام
سفيروس وتمثل بين يديه وطلب منه ان ياذن له بالدخول بين زمرة
المصارعين ليريه شيئاً من براعته فاذن له بذلك فدخل بينهم واظهر من النشاط
والقوة الشديدة ما ادهش به العقول فاستحسن سفيروس عمله وانشرح من برازه
وحسن حركاته ففرّبه اليه وادخله نفراً في سلك عسكره ثم اخذ يدمه ويرقيه
في الوظائف والمناصب الى ان صيره من اكابر القواد فلما اشتهر امره وانتشر
ذكره بحمد فضل مولاه واحسانه الذي كان سبباً لارتقائه وحدثه نفسه على قتله
واعدامه طمعا بمنصب القيصرية فاخذ يستميل اليه القلوب والخواطر ويحرض
الجند على قتل سفيروس قبصرهم حتى قاموا عليه وقتلوه كما وصفنا وشرحنا
وباعوا هذا الغدار المذكور ونادوا باسمه قيصرًا . وقد ذكرنا ما كان فيه من
القوة والبطش وشراسة الاخلاق فاحتر الناس اشد الاحتتار وعاملهم بالجفا
والاستكبار وكان قد زحف لقتال اهل جرمانيا بالجيوش الرومانية فساء ذلك
في اعين الشعب وتمتوا له الهلاك نظراً لما شاهدوه من قبائحهم وفضائلهم فرفضوه
وعزلوه في غيابه باتفاق المجلس العالي وسموا مكانه غودريان وابنه غودريان
الاصغر معاً لداعي لياقتهما واهليتهما لهذا المنصب العالي وكان غودريان وقتئذ
عاملاً على ايامه من اقاليم قرطاجنة في افريقية . وكان للرومانيين حكام في
بلاد المغرب يسمى كاليبائوس فلم يوافقهم على هذا العمل ونمض في الحال لمقاومة
الرجلين المذكورين فقتلها بعد معركة شديدة . فلما بلغ اعيان المجلس في رومية
هذا الخبر انتخبوا رجلين من افرادهم واقاموها على كرسي الملكة يقال لاحدهما
مكسيموس والثاني بليينوس وعندما تمت هذه الاخبار واتصلت الى مسامع
مكسيمينوس القيصر المعزول وهو يومئذ يحارب بلاد جرمانيا استشاط غضباً
وغيظاً من اعمال المجلس وما اجراه في حق فارتد راجعاً على الفور قاصداً رومية
وفي اثناء مسيره حوّل وجهه نحو ايطاليا لينتقم من اخصامه ومبغضيه . وكان
المجلس قد اصدر امراً الى ولاية ونواب تلك الاقاليم التي لا بد من مرور

مكسيمينوس عليها برفع الذخائر والمؤونة وباقي اللوازم العسكرية من جميع المدن والقرى التي في تلك الاطراف حتى عند وصوله اليها لا يجد فيها ما يستعين به على قطع الطريق وكان الامر كذلك غاية عند قدوم هذا الملك بالجيوش الجارة الى تلك البلاد وجدها خالية من المأكولات ولوازم العسكر وكان قد نفذ زاده فسات امورهُ وتضعضت احواله فهاج العسكر عليه لشدة ما قاسوا من الجوع ومن مشقات الحرب وقتلوه في مضربه . وبعد موته سى المجلس عوضاً عنه شاباً اسمه غودريان وهو من نسل غودريان المذكور سابقاً فبايعوه واجلسوه على كرسي الملكة . وكانت الفرس في ايامه قد غزت أكثر الولايات الرومانية التي في جوارها واستولت على أكثرها بطريق التعدي والعدوان فنهض هذا الملك لمحاربتهم وزحف اليهم بالعساكر فحاربهم واتصر عليهم في أكثر المعارك واستخلص منهم تلك الولايات ثم مرض بعد ذلك ومات

الباب السادس

في اخبار باقي قياصرة رومية الى انقراض السلطنة

وفي سنة ٢٤٤ الميلاد نبأ تخت السلطنة القيصرية رجل عربي الاصل يدعى فيلبس وكان حاذقاً نجيباً وكان قبل ارتقائه الى هذا المنصب والياً على المدينة فهاج عليه الجنود اخيراً وعزلوه . واقاموا مكانه رجلاً يسمى ديسيوس وكان من اكابر قوادهم فتحارب الاثنان وكانت الدائرة على فيلبس المذكور فقتل بعد ان حكم خمس سنين . وكانت مدة حكم ديسيوس المذكور عديمة الانتظام كثيرة الفتن والنساد وتولدت هذه الاختلالات والمفاسد في أكثر الولايات الرومانية حتى كادت الدولة تكون على خطر عظيم وتقع أكثر ذلك من سوء تصرف القياصرة واغصانهم كرسي الملكة بدون اهلية ولا استحقاق وفي ايام هذا الملك سنة ٢٥١ تحرك الغوثيون من الاقاليم الشمالية وخرجوا من بلادهم واجتازوا نهر الطونة وحاربوا الولايات الرومانية واستولوا عليها ونهبوها واضروا باهلها فالتزم

ديسيوس ان يسير اليهم لتخليص تلك البلاد من ايديهم فخارهم نحو ستين ثم قُتل في تلك الوقائع وخلفه قائد جيشه المسي غالوس فعند صلحهما مع اولئك البرابرة وارضاهم بالمال لكي يرجع الى حظوظه ولذاته في رومية بدون ان يلتفت الى صالح وطنه . وفي اثناء ذلك زحف الفرس لاستخلاص سوريا من يد الرومانيين وتحرك اهل الشمال ثانية فكانت الحكومة في اضطراب وارتياب بين الشمال والشرق . وكان مع غالوس قائد يدعى اميليانوس فتولج هذا حرب اهل الشمال وبعد انتصاره عليهم طمع في لبس تاج الملك فلأب نفسه قيصراً بين جنده وتقدم نحو مدينة رومية ليحارب مولاة فاستد غالوس لقتاله وخرج بالعساكر لاستقباله ولكنه اذ كان مكروهاً من الجند وقواد العساكر قتلوه وسملوا مكانة اميليانوس امبراطوراً

وكان في رومية رجل شخ اسمه فاليريان قد نسي قاضياً من طرف المجلس الكبير في ايام ديسيوس وكان محبوباً ومعزوزاً من جميع الناس فلما بلغه قتل غالوس نهض بمحيش عظيم لقتال اميليانوس طعماً بالقيصرية قالت اليه الجنود وسموه قيصراً عوضاً عن اميليانوس المذكور . وكان سابور الاول ملك الفرس قد استولى يومئذ على انطاكية ثم قصد مدينة حمص ليستخلصها من ايدي الرومانيين فزحف اليه فاليريان للدفاع عن تلك البلاد واقام مكانة ابنة غلينوس نائباً في رومية وكان شاباً مملأ عدم المعرفة في السياسة والامور الحربية . فعند وصول فاليريان الى سوريا اشتبكت الحرب بينه وبين سابور المذكور فانتصر سابور عليه بواسطة مكيدة دبرها له فهزم جيشه واخذ اسيراً وكان يهينه ويحفره ويستصعبه معه اينما حل ويلبسه احسن الثياب الفاخرة ويقعد بذلك الاسمراء به والنهيم عليه وكان اذا اراد ان يركب فرسه طرحه على بطنه وداسه برجله واستمر فاليريان على هذه الحماة العيسة عدة سنوات ثم مات في اسر الفرس وقام مكانه بالملكة ابنة غلينوس وفي ايامه كانت الملكة الرومانية في اسوأ حال مضطربة من خارج ومرتبكة من داخل بواسطة المغازي والثورات

حتى كادت تشرف على الخراب والدمار وقد انصب عليها في وقت واحد جميع
المصائب والشكبات كالقنوط وفيض الأنهر والأوبئة ومع هذه الدواهي كان
الامبراطور غلينوس ملتجئاً بولائه ودعواته ومنكباً على مسراته وشهواته غير مبالي
بأغارة الأعداء ولا مكثرت بخراب المملكة وكان يقول ما دام اقليم ايطاليا تحت
امري وتصرف بيدي فلا ابالي بضياغ باقي الاقاليم الخارجية فغضب الجند من
فعاله وقاموا عليه وقتلوه وانتخبوا مكانه كلوديوس الثاني سنة ٢٧٠ وكان مهوداً
من فحول روساء الجبوش . وكان الغوثيون قد جمعوا جيشاً عرمرماً ونزلوا على
سواحل البحر الاسود واغاروا على المدن الرومانية في تلك الاطراف فسار
هذا الملك لقتالهم وانتصر عليهم نصرة عظيمة ومات عقب ذلك بالطاعون
ثم خلفه اوريبيان فيصر سنة ٢٧٠ وكان بطلاً صنديداً وجباراً عنيداً وكانت
بريتانيا وفرنسا واسبانيا في ايامه في حالة العصيان فرحف الى تلك الممالك
وبدء ثمل العصاة وادخلهم تحت الطاعة والانقياد . وكانت زنوبيا ملكة تدمر
ارملة اودينانوس احد القواد الذي كان محالفاً للرومانيين ومظاهراً لهم على
الفرس قد قويت شوكتها بعد موت زوجها ومدت يدها لاستخلاص ولايات
الرومانيين التي في تلك الجوار فاستولت على اكثرها وساعدتها الاقدار الى انها
تملكت الديار المصرية ولكنها لم تطل احكامها في مصر حتى طردت منها فقصدها
هذا التبعصر الى سوريا وحاربها وانتصر عليها في موقعي انطاكية وحمص وقبض
عليها واخذها اسيرة الى رومية ودخل بها الى المدينة في موكب عظيم وهي متيعة
بزناجير ذهبية . ثم نهض اوريبيان بعد ذلك لمحاربة الفرس في اسيا وعند
وصوله الى القسطنطينية قامت عليه فتنة من جنده اثارها كاتب سره فقتل عنها
وتولى بعده سنة ٢٧٥ ناسيتوس احد ارباب مجلس رومية بعد فترة ثمانية
اشهر بدون ملك وكان من ذرية ناسيتوس المورخ المشهور وكان شجاعاً مستأناً
فاضلاً عاقلاً صافي النية ولكنها لم تطل ايامه فمات في كبدوكية بعد ستة اشهر
من حكمه من جرى الانعاب والهجوم التي تراكمت عليه

وخلفه أخوه فلوريانوس الذي لم يكن اهلاً لهذا المنصب ودعا نفسه
 امبراطوراً قبل قرار المجلس بشيئته فيصراً وكان قائد جيوش الشرق المدعى
 برونوس لا يميل لهذا القيصر فقاومه بمساعدة المجلس ونولى مكانه سنة ٢٧٧
 ونودي باسمه ملكاً . وكانت طوائف البرابرة في أثناء الفترة التي كانت فيها
 الكرسي بدون ملك اغارت على فرنسا وما يليها من البلاد ونهبت مدائن
 كثيرة فانقضّ عليهم برونوس وبدد ثملهم واستخلص منهم المدن والاموال ثم
 شرع في تحصين الحدود والثغور لاجل صيانة البلاد وكان لا يدع الجند في
 البطالة بل يستعملهم في الخدمة العمومية كعمارة القناطر والجسور واصلاح شغل
 الطرق وفتح الذرع فغضب الجند من مداومة هذه الخدمة فقاموا عليه وقتلوه
 ثم خلفه كاروس الوالي وكان قد اشرك معه في الاحكام ابنه كارينوس
 ونوميريان واذ صمّ على حرب الفرس اخذ معه ابنه نوميريان واقام ابنه
 كارينوس نائباً في غنايه وعند وصوله الى ما بين النهرين مات هناك بصاعته
 على ما قيل سنة ٢٨٢ بعد ان اخضع عدة مدائن في تلك الجهات . فتنازل
 الرومانيون من هذه الحادثة واوقفوا الحرب ثم مات ابنه نوميريان بعد ذلك
 قتيلاً عند رجوع الجيش من اسيا . واما كارينوس الذي كان قد تخلف على
 تخت السلطنة بالنيابة عن ابيه فارتكب من القبايح والشرور ما لم يرتكبه يرون
 في زمانه وكان مع ذلك محبوباً من الجميع ما عدا جنود الشرق فانها لم تخضع
 له ونادت باسم ديوكليتيان الذي كان في اول امره فلاحاً من اهل دلماتيا ثم
 ارتقى باجتهاده الى رتبة قائد جيش من جيوش الرومانيين فلذلك وقع الخصام
 والنزاع بين عساكر الولايات الشرقية والغربية ونهض الفريقان لمحاربة بعضهما
 البعض فالتقى في ميسيا واقتتلا اشد قتالاً وبينما كانت دلائل الانتصار تلوح
 على صفوف عسكر كارينوس قتله احد قومه وبموته اصبحت الحكومة في يد
 ديوكليتيان وكان المذكور ذا همة ونشاط وكان حكمة ابتداء نظام جديد اكمل
 في حكم قسطنطين الكبير

واذ رأى ديوكليتيان اتساع السلطنة وعدم امكان ادارة مهامها كما ينبغي من مركز واحد اشرك معه في الحكومة صديقاً مخلصاً له يدعى مكسيميانوس وسأواه بنفسه في نفوذ الكلمة وجعل اقامته في ميلان وولجته زمام ايطاليا وافريقية ثم انتخب رجلين وهما قسطنطينوس مكوروس وغاليريوس وولجها ادارة ولايتي الدانيوب والرين واما هو فعمل دار اقامته في مدينة نيكوميدي في اسيا الصغرى ليكون قريباً من الولايات الشرقية ولاسيا من الفرس ليروي غلبته ويستقم منهم من اجل مهاجمتهم المتتابعة على الاملاك الرومانية ومن اجل الاهانة القبيحة التي اجروها على القيصر فاليريان . واما المجلس الكبير فابقاءه في رومية ولبعد المسافة بينها وبين المراكز المتقدم ذكرها كان المجلس عديم الحركة اسماً بلا جسم

وكان هذان الامبراطوران يشتركان في تدبير المملكة معاً مع غاية الوفاق والحدة وكانا يمضيان وينهيان في الاشغال الكلية والجزئية من تلقاء انفسهما بدون سوال فكان ديوكليتيان راس الدولة ومكسيميانوس عضدها . وفي ايام هذا الملك ذهب قسطنطينوس القائد واخضع بريتانيا التي كانت قد اظهرت العصاوة واستقلت بنفسها من عهد عشرينين . وبينما كان غاليريوس مشغولاً في حرب الغوثيين ومكسيميانوس منهمكاً في اطفاء نيران الثورات في افريقية كان ديوكليتيان موجهاً كل عزمه ومستعداً لمقاومة الفرس فانتهاز فرصة الاضطراب الكائن وقتئذ في بلاد العجم بسبب نسيمة الملك ناريس وارسل تيرباداتيس ملكاً على ارمينية التي كان سابور قد افتتحها وجعلها من ملحقات مملكته ورفع مداخلة الرومانيين من حق نسيمة ملوكها . وكان تيرباداتيس المذكور من ذرية ملوك ارمينية وكان يومئذ مقيماً في رومية تحت حماية الرومانيين منهزماً من وجه الفرس فلما وصل الى ارمينية ترحب به الاهالي ونادوا باسمه واستقرت له الولاية مدة . ولكن لما استقام حال بلاد فارس وسكنت الفتن والاضطرابات خاف تيرباداتس من هجوم العجم عليه واستغاث بالرومانيين فعند ذلك زحف ديوكليتيان لحرب الفرس فانتصر عليهم في عدة مواقع ثم عقد معهم صلحاً به ان استولى على جملة

ولابات وجعل ارمينية من ملحقات رومية وبعد ذلك ارتد راجعاً الى رومية وفي السنة الحادية والعشرون من ملكه تنازل عن الكرسي الملكي سنة ٣٠٤ وسكن في دلمانيا وجعل صاحبة مكسيميانوس تتقي ايضاً في نفس ذلك اليوم . ولكن مع كل الشهرة والعظمة التي اكتسبها ديوكليتيان جلب عاراً عظيماً على اسمه بسبب الاضطهاد الفظيع الذي اثاره على المسيحيين في كل اقاليم سلطته اذ كان قصده ان يمحوا اثرهم ويظني خبرهم من على وجه الارض ومن فريد اعماله انه امر يوماً وهو في مدينة نيكوميديا بحرق ٦٠٠ نفس من المسيحيين كانوا مجتمعين يوم عيد الميلاد للعبادة فمات جميعهم

اما عدد الاضطهادات التي اثارها قياصرة الرومانيين على المسيحيين فهي عشرة اولها سنة ٦٤ للميلاد في زمن نديون . الثاني سنة ٩٥ في ايام دوميتيان . الثالث سنة ١٠٧ في ايام تراجان . الرابع سنة ١١٨ في ايام ادريان . الخامس سنة ٢١٢ في ايام كاراكلا . السادس سنة ٢٢٥ في ايام مكسيمينوس . السابع سنة ٢٥٠ في ايام ديسيوس . الثامن سنة ٢٥٧ في ايام فاليريان . التاسع سنة ٢٧٤ في ايام اوريليان . والعاشر سنة ٣٠٣ في ايام ديوكليتيان المذكور . وبعد هذا الملك اتفقت الامبراطورية الى قسطنطينوس كلوروس الذي كان اقامه ديوكليتيان مع غاليريوس كما سبق الكلام وبقي امبراطوراً نحو ١٥ شهراً حين وقع مريضاً في مدينة يورك من اعمال انكثرا ولما بلغ ذلك ابنه قسطنطين اسرع سرا من نيكوميديا وقصده الى هناك فوصل قبل وفاته فسماه خليفة له وصادق له على ذلك اهل بريتانيا ونودي باسمه فيها سنة ٣٠٦ ثم زحف على فرانسا وبعدما دبر امورها سار الى ايطاليا وكان المجلس الكبير غير راض بقسطنطين فهيج الاهالي ضده ونادوا باسم مكستينوس بن مكسيميانوس امبراطوراً في رومية فقهره قسطنطين بعد حرب تذكر وقتله ثم انتصر على باقي المتأولين واخضع البلاد شيئاً فشيئاً حتى استبد بالسلطنة وحده بدون منازع وكان الملك قسطنطين عظيم الهامة صحيح البنية شديد لباس لايبالي

بالمشقات والاضطراب ولا بكل من الانعاب والاسفار وكان مع ذلك مشهوراً بكل
 الرفعة والشفقة منفرداً بالوصاف الحميدة والآراء الصائبة السديدة فلم يغفل عن
 صلاح الحكومة وعن استجلاب رضا الشعب وبالحيلة كان من افراد الرجال
 وصناديد الابطال . وقد امتازت ايامه عن باقي ايام القياصرة بامر من عظيمين
 اولها نقل كرسي السلطنة الى القسطنطينية والثاني اعتناقه في سنة ٢١٢ اديانة
 المسيحية وشدة تمسكه بها حتى لم يكن احد من الملوك اشد حمية منه عليها فجعلها
 ديانة الولاة والحكام وهدم هياكل الاصنام واذ لم يكن في ذلك الوقت استنف
 عام على جميع الكنائس فكان هو في واقع الامر صاحب القول عليهن . وفي ايامه
 ظهر الاعتقاد الاربوسي الذي قاومه اثناسيوس رئيس اساقفة الاسكندرية فامر
 قسطنطين بالشام مجمع اكيريكي في مدينة نيس في ايطاليا فقرر به هرطقة
 اربوس وكان ذلك اول مجمع مسكوني . وقيل ان سبب نقل قسطنطين سرب
 السلطنة الى القسطنطينية هو انه لما دخل الى مدينة رومية في اول امره مؤيداً
 منصوراً لم يأت من اهلها بشاشة وجه وترحيب وذلك لتمسكه بالديانة المسيحية
 فغضب من ذلك ولا سيما من انعكاف الاهالي على العبادة الاصنامية وصم على
 ان يبنى مدينة غير رومية يجعلها مقر الحكومة ودار السلطنة فاختر مدينة
 بيزانتيان لتراحتها وحسن موقعها بين اوروبا واسيا ولكونها مشرفة على ثلاثة اجار
 فرسها وبنى اسوارها وقصورها واتمها على احسن حال فرغب الاهالي فيها لكثرة
 منافعها وفوائدها وقصدها الناس من جميع الاقطار واشتهرت بالقسطنطينية
 نسبة لقسطنطين . وكان قسطنطين هذا قد افرز من خزائنه مبالغ جسيمة من
 الاموال لاجل قيام الكنائس في مدينة اورشليم وفي الاراضي المقدسة فاتخذت امه
 هيلانة على ذاتها العناية بذلك فسافرت من القسطنطينية في بعض شهور سنة
 ٣٢٦ الى اورشليم وكان سفرها المذكور علة لسعادة سكان تلك البلاد الذين
 كانوا يلجئون اليها من اغنياء وفقراء وارامل وايتام ومديون ومرضى ومحبوسين
 فانها كانت تعولهم وتنفذهم وتوزع عليهم الاموال الكثيرة وعند وصولها الى

القدس هدمت معبد الزهرة الذي كان الوثنيون قد شيدوه على جبل الحجلة
ثم اعتنيت بكشف قبر المسيح ويقال انها وجدت بقايا من الصليب فجاءت بها
الى القسطنطينية. وكانت هذه الامبراطورة قبل اعتناقها الديانة المسيحية متزوجة
بقسطنطينوس كلوروس ابي قسطنطين الذي لم يكن وقتئذ سوى قائد من
القواد الرومانية. فلما صار قيصراً طلبها بحسب عادة الرومانيين الوثنيين طعماً
بزواجه ثاودورة ابنة الامبراطور مكسيميانوس فلما ارتقى ابنها قسطنطين الى
كرسي القيصريّة بعد موت ابيه ارسل فاحضر امة ميلانة الى البلاط الملكي
وشرفها بتسمية اوغسطا اي ملكة ثم عرفها بحقيقة الديانة المسيحية التي كان قد
اعتنقها فتصرت من يومها وانعكفت على العبادة وكانت غيرة على اقتناء
الفضائل الانجيلية

وعند وفاة قسطنطين سنة ٣٣٧ انقسمت الملكة بين اولاده الثلاثة وهم
قسطنطين الثاني وقسطنطيوس وقسطنس وكانوا قساة القلوب منعكبين على
الملاهي والتمعات التي من شأنها ان تهدم اركان النجاس وتفسد الازهان فكان
اول شيء فعلوه انهم اصدروا امراً بقتل سبعة اشخاص من اقربائهم خوفاً منهم
على الاحكام ثم اخذوا يعدمون باقي اعضاء عائلتهم شيئاً فشيئاً حتى لم يبق منها
سوى ولدين ضعيفين من ابناء عمهم ثم وقع بينهم الشقاق والخلاف وعادي كل
واحد منهم الآخر. وفي تلك الاثناء نهض سابور الثاني ملك الفرس لغزو الولايات
الرومانية فوافاه قسطنطين احد الاخوة المذكورين الذي كان سهمه في القسم
الشرقي من الملكة وانتشبت بينهما حرب شديدة استظهرت فيها الفرس ثم انتهى
الحال بوقوع الصلح بين الفريقين. وعند رجوع قسطنطين الى بلاده وقع بينه
وبين اخيه قسطنس منازعة مات بسببها سنة ٣٤٠ وبقي قسطنس وحده حاكماً
على الاقطار الغربية مدة عشر سنوات الى ان قتله مغنتطيوس قائد الجيوش
الرومانية في غالبا طعماً باختلاس منصبه. ولما بلغ قسطنطيوس قتل اخيه
استشاط غضباً ونهض في الحال بجيش عديد للانتقام من مغنتطيوس فاتصر

عليه بعد عدة وقائع هائلة قُتل فيها أربعة وخمسون ألفاً من خاص عسكره واذ رأى مغنطوبوس ما حل به من الذل والنكال قتل نفسه

فهذه الثورات المتتابعة زعزعت أركان الدولة الرومانية وجعلتها في خطر عظيم فكانت برابرة الشمال تهجم عليها من جهة المغرب وأكاسرة الفرس تهددها من جهة المشرق فتضيق قسطنطوبوس من جري ذلك ولم يعد يرى نفسه كفوًّا للقيام بجميع مهام الملكة فاشرك معه ابن عمه يوليان وسماه قيصراً على الولايات العالية فسار يوليان إلى قتال الأفرنج وحلفائهم الذين كانوا قد غزوا البلاد فخارهم وانتصر عليهم واشتهر اسمه بين الجنود ومالت إليه القلوب حتى أنه أقيم امبراطوراً سنة ٢٦٦. وكان قد صمم على قتال قسطنطوبوس طمعاً أن يستقل بنفسه على إقطار الملكة فجدد الجنود وسار بنفسه قاصداً القسطنطينية وكان قسطنطوبوس يومئذ مشغولاً بحرب الفرس فات قبل وصول يوليان إليه وموتوه انفرد يوليان بإحكام الملكة وتلقب بالجلالدة بحمد الديانة المسيحية وأعاد الديانة الوثنية سنة ٢٦٢ ولما صلا له الوقت وراق استعد للحرب الشرق فتقدم نحو آسيا فشتى في أنطاكية ثم حوّل وجهه نحو القدس فأوقع بسوريا الوبال وأخذ يجمع اليهود إلى اورشليم وأبتدأ بعمار هيكلم لكي يبين بذلك فساد الكتب المقدسة ويكذب نبوة المسيح بهذا الشأن وذكر أميانوس أحد مورخي الأمم الذي عاش في تلك الأيام أنهم اذ كانوا يجفرون الأساس خرجت نارٌ من الأرض وحرقت الفعلة وسمعوا رعوداً وشرارات نارية تخرج من الصخور فكفوا عن العمل. ثم قصد بلاد الشرق فأجناز الفرات وحارب الفرس فانتصر أولاً ولكنه انكسر أخيراً وبينما كان يحاول الفرار جرح جرحاً بليغاً مات به. وموتوه نودي باسم يوفيان امبراطوراً مكانه سنة ٢٦٢ فعقد صلحاً مع الفرس بعد أن أعطاهم أربع ولايات رومانية. وفي أيامه نشدت النصرانية ثانية ولكنه توفي قبل رجوعه إلى القسطنطينية

ثم خلفه فالنتينيان قائد الحرس سنة ٢٦٤ وكان فظاً غليظاً فاشرك معه

في المملكة اخاه فالانس وخصه باحكام البلاد الشرقية واني لنفسه المالك المغربية ثم سار بنفسه لقتال البرابرة في شمالي اوروبا فاجازهم وانتصر عليهم ولكن مع كل ذلك كانت المملكة تزداد سقوطاً يوماً بعد يوم لان الحروب الداخلية التي حدثت في مدة حكم اولاد قسطنطين الكبير اهلكت جانباً عظيماً من العساكر وتركت حدود المملكة عرضة لمهاجمات الاعداء وغاراتهم . وكان هذا الملك يعاقب على الذنب باشد العقاب ولذلك كان قد حبس دين مقيسين في قفص واجاعها حتى اذا اراد قتل احد اطلقها عليه

ثم مات هذا القيصر سنة ٢٧٥ بعد ما حكم ١٢ سنة تقريباً وترك المملكة الغربية لابنه غراطيان بينما كان فالانس متولياً على الشرقية وكان قد اشترط على غراطيان ان يشارك معه اخاه الاصغر فالنتينيان الثاني الذي كان وقتئذ قاصراً . وفي تلك الاثناء قام الهونيون (وهم قوم برابرة اشداء من سكان اسيا الشمالية) على الغوثيين الذين كانت احكامهم ممتدة من بحر البلتيك الى حدود نهر الدانوب فخاف منهم الغوثيون والتجأوا الى فالانس المذكور وطلبوا منه ان يجبرهم ويأذن لهم ان يسكنوا في بلادهم فاجابهم الى سواهم واقبلهم في مملكتهم وسمح لهم ان يتاجروا ويتعاطوا اسباب التجارة وكان عددهم نحو مليون نفس . وكان الرومانيون يحجرون عليهم ويعاملونهم بكل قسوة حتى لم يعد لهم استطاعة على الإقامة بينهم فخلعوا طاعتهم وصمموا على استخلاص المملكة من ايديهم فاعتزلوا بسلاحهم وزحفوا مجموعهم على القسطنطينية وحاصروها فخرج الامبراطور فالانس لقتالهم بعساكر المدينة وانتشب القتال بين الفريقين فكانت الدائرة على الرومانيين فانهم هزمت جموعهم وجرح امبراطورهم ثم مات عقب ذلك . ولما اتصل هذا الخبر الى غراطيان امبراطور المملكة الغربية نهض لانفاذ المملكة الشرقية والانتقام من القوم ولكنه اذ رأى ضعف حاله وانحطاط سطة حكمه اشرك معه رجلاً يسمى ثيودوسيوس وكان اسبانيولي الاصل موصوفاً بالحقاقة وحسن التدبير فولاه عوض فالانس ففجع ثيودوسيوس واصبح الاحوال في اثناء اربع سنين بحسن

سياسته وتديره وعقد صلحا مع الوثنيين بعد ان اخضعهم وفي غضون هذه الحركات قام في الغرب القائد الروماني المدعو مكسيموس وزحف بجيش جرار على فرانسوا ونسي امبراطورا وكان غراطيان وقتله في بارنزفر هاربا الى مدينة ليون وهناك قتل بوشاية مكسيموس المذكور ثم نهض مكسيموس بعد ذلك لمحاربة ايطاليا طمعا باشهار نفسه امبراطورا على جميع الممالك الرومانية . وكان لغراطيان زوجة تدعى جوستينا وولد لسي قائلتيان الثاني وابنة اسمها غلا فهرت جوستينا مع ولديها الى ثيودوسيوس واستجارته فالتقاها بالترحاب والتبجيل وتزوج بابنتها غلا ثم استعد لحرب مكسيموس فنهض بجيش عديد وحاربه فظفريه وقتله واعاد الملك الى قائلتيان بن غراطيان سنة ٢٨٨ غير انه لم تطل اباهة حتى مات وموته انفرد ثيودوسيوس بحكومة السلطنة الرومانية وحده ومات سنة ٢٩٥ في مدينة ميلان

الباب السابع

في انقسام الدولة الرومانية الى سلطنتين وانقراض الغربية منها

وكان لثيودوسيوس المذكور ولدان احدهما يسي ارКАДيوس والآخر يسي هونوريوس فقسم بينهما السلطنة في حياته وجعلها امبراطوريتين مستقلتين احدهما امبراطورية المشرق وكرسيها القسطنطينية والثانية امبراطورية المغرب وكرسيها رومية فتولى هونوريوس على المغرب واخوه ارКАДيوس على المشرق . وكان لهونوريوس وزير من افاضل الناس يقال له سبيليكو من قوم القندال فكان يوده ويستشير في جميع اموره نظرا لادارته وحسن سياسته . وكانت الممالك التابعة رومية وقتله ايطاليا وافريقية وفرانسا واسبانيا وبريتانيا وعدة ولايات في باقاريا والنمسا وغيرها ولكن مع كثرة هذه الولايات والتلكات التي

تدل على عظم السطوة الرومانية لم يعد الرومانيون قادرين على المدافعة عن انفسهم
وحفظ بلادهم من غزوات البرابرة المتصلة لان انقسامهم وتجزئهم من الجهة
الواحدة وانعكاسهم على الملاهي واللذات من الجهة الاخرى استأصلت منهم تلك
الحاسة والمسالمة التي اشتهروا فيها قديماً وجعلتهم يرضون بجائلهم مهما كانت
دنية ويسلمون انفسهم للقدر فكانت الاعداء تغزوهم وهم وقوف وان لم يهضوا
لمقاومتهم خسرنا ونهضوا بحيث لم يبق ادنى ريب من جهة سرعة انقراض
تلك السلطنة العظيمة لاسيا بعد انقسامها . وحدث في سنة ٤٠٢ ان قوماً من
الغوث المقيمين في الغرب تحمداً لرياسة قائد يقال له الارليك دخلوا بلاد اليونان
ونهبوا اكثر مدائنها وهدموها وكان لامبراطور الشرق وزير يدعى روفينوس
موصوف بالخلافة وحسن التدبير فاقنعهم بحسن سياسته ان يخرجوا من بلادهم
ويقصدوا بلاد ايطاليا حيث الغنائم الكثيرة ووعدهم سراً بالمساعدة والامداد
فبهذه الوسطة ابعدهم عن اراضي المملكة الشرقية والتي سخطهم على هونوريوس
الذي بمساعي وإدارة وزيره ستيليكو امكنه ان يصادم غاراتهم وهجماتهم المتتابعة
ويبعدهم عن بلادهم مؤقتاً . ثم بعد هذه الحادثة بايام يسيرة نقل هونوريوس
سرير السلطنة من مدينة ميلان الى رافينا وفي غضون ذلك اغار على الرومانيين
اقوام من قبائل جرمانيا المتحالفين وكانوا نحو مئتي الف رجل تحت رياسة ملكهم
رودوغاست فالتفاهم ستيليكو الوزير بعساكر الرومانيين وبعد قتال شديد
انتصر عليهم فقتل ملكهم وبدد جموعهم ثم قصد بلاد غاليا بعد هذه النصره
فاوقع باهلها واشتلكها من حدود الرين الى جبال البرن . ولما اشتهر امر هذا
الوزير حسده اكثر الناس فوشوا به الى هونوريوس واتهموه بخيانة كاذبة فامر
بقتله بدون فحص ولا اثبات وبموته تشددت عزائم ملك الارليك على قتال
الرومانيين فزحف ثانية على رومية بجيش جرار وهدد اهله بالهلاك والخراب
فخاف الشعب من كثرة الاعداء المتجمعة عليهم واذ لم يمكنهم المدافعة تعهدوا لملك
الارليك بدفع مبالغ وافرة اذا رفع عنهم تلك البلية فاجابهم الى ذلك وانسحب

عنهم ولكنه اذ راي منهم علم الوفاء في ما انتقلوا عليه عاد اليهم بجزم اشد من الاول فحاربهم وافتتح المدينة عنوةً والقي فيها النهب والسلب بعد ان قتل الموقفاً من الاهالي واحرق جانباً منها . ثم قصد جنوب ايطاليا حيث كان مزبجاً ان يركب البحر المتوسط ويبحر الى افريقية ليفتحها ولكنه مات في اثناء ذلك وخلفه اخوه ادولفوس . وكان قصد هذا الملك ان يجعل رومية سربرسلطة الغوثيين ثم عدل عن هذا الفكر خوفاً من عدم امتزاج شعبه المتوحش مع شعب الرومانيين المتمدن فاختر السكّن في مكان اخر يناسب حالة شعبه فترك ايطاليا وسار مع جنده واستوطن في اسبانيا بعد ان نسي ملكاً على ايطاليا اربع سنوات وتزوج بـ بلاسيلا اخت هونوريوس . اما الرومانيون فكانت سطوتهم وشوكهم تضعف يوماً بعد يوم بحيث التزم هونوريوس ان يتنازل عن زمام احكام بريتانيا وعن اراضي جرمانيا العليا والسفلى ثم توفي عقب ذلك بعد ان حكم ٢٨ سنة وخلفه قسطنطينوس احد قواد الرومانيين المشهورين . وكان هذا القائد قد تزوج ببلاسيلا المذكورة عقب رجوعها من ايطاليا بعد وفاة زوجها في اسبانيا ولكنه لم يستقر بالخلافة الا زماناً يسيراً حتى قام عليه البعض وقتلوه فخلفه ابنه فالنتينيان الثالث واذ كان عمره ست سنوات كانت امه تحكم بالوكالة عنه وفي تلك الايام زحف جنساريك ملك القندال في اسبانيا الى افريقية فغزاها واستخلص جميع الولايات الرومانية من يد بونيفاس الوالي الروماني . وفي اثناء ذلك خسرت رومية ايضاً تملكاتها الاسبانيولية والفرنساوية حتى لم يبق لها الا بلاد ايطاليا التي انسلخت عنها بعد ذلك بقليل

وفي ايام هذا الملك سنة ٤٥٢ غزا ايطاليا اتيلا ملك قبائل الهون وبينما كان قاصداً مدينة رومية ليفتحها توفي قبل وصوله اليها فلم يلحقها منه اذى . ثم قتل فالنتينيان الثالث سنة ٤٥٥ وخلفه عشرة ملوك لم نذكرهم حباً بالاختصار وكان اخرهم رومولوس اوغستولوس وفي ايامه تجمعت قبائل الهول القاطنة يومئذ على شطوط بحر البلتيك وزحفت تحت راية ملكها اودواكر فغزت بلاد

بافاريا والنمسا ثم تقدمت على رومية واستفتحها ومات رومولوس المذكور غيب ذلك سنة ٤٧٦ وانقرضت به الدولة الرومانية بعد قيامها ١٢٢٩ سنة . وما يستحق العجب ان اول ملك اسس هذه المملكة كان رومولوس الاول واخر ملوكها هو رومولوس الثاني وهذا من غريب الاتفاق

الباب الثامن

في عوائد الرومانيين القدماء وبعض اصطلاحاتهم

ان الرومانيين كانوا ينقسمون الى قسمين اي الاشراف والعوام ثم بعد ذلك أُضيف الى هذين القسمين قسم ثالث يُعرف بحزب الاسياد وهو في درجة وسطى بين الاشراف والعوام وحدث بينهم من جرى ذلك منازعات ومخاصات كثيرة . واما روساء الدين فكانوا يُنتخبون من اعيان الاهالي وكانت وظائف روساء الكهنة ذات اهمية سياسية عظيمة لانهم كانوا مولجين بتقديم الذبائح البشرية للآلهة ويعتنون بالطقوس الدينية ولكثرة الخرافات الكثيرة وفتنة اقاموا جمعية من الناس المنجمين والمبصرين لاجل تفسير الاحلام والاهامات والمناظر الغريبة والانباء عن امور مستقبله وكانوا يستندون في تفليكاتهم على هيئة السماء وهيئة امعاء الحيوانات والطيور وغير ذلك وكان الرومانيون يعتقدون بها كل الاعتقاد . وكان اولئك المنجمون في رومية يفسرون للشعب ارادة الآلهة من جهة اشهار الحرب او عقد الصلح حتى لم يكن احد يجسر على مناقضتهم ومن فرط اعتقاد الناس بهم لم يباشر احد عملاً مهماً قبل ان يستشيرهم وباخذ رأيهم فلذلك كانت وظيفة المنجم ذات اهمية عظيمة حتى كان كثير من خواص ارباب المجلس العالي يجتهدون في الحصول عليها . وكان كاتو وسيسرون المعدودان من افراد رجال رومية في العالم وذكاة العقل من جملة اولئك المنجمين ولكنها لم يكونا يعتقدان في تلك الخيل والخرافات الكاذبة ويقال ان

كانوا المذكور قال يوماً لأحد أصحابه كيف يمكن أن ينظر منكم إلى وجه منكم آخر ولا يضحك

أما ديانة الرومانيين فهي مستعارة من الديانة اليونانية وكانت عبادة جوبيتر إله المشتري وغيره من الآلهة متضمنة فيها . وكانوا يعتقدون بالله خصوصي لكل من فضائل الناس ورزاياهم وقواهم الجسدية والعقلية ولكل شيء مادي أو جوهري من العالم المنظور وغير المنظور وكان لهم أيضاً إله خصوصية لكل وادٍ وجبل وساقية وكثيراً ما كانوا يؤلهون علماءهم وأبطالهم العظام وبالاختصار أن جميع أنواع العبادات الوثنية كان جائزاً استعمالها في رومية . أما اليهود والمسيحيون الذين لم يكن بينها فرق عند الرومانيين فكانوا يشقون كثيراً بسبب الاضطهادات البربرية التي أثارها عليهم أولئك القوم واستمرت الحال على مثل ذلك مدة طويلة حتى انتهت أخيراً العقائد النصرانية على تلك المخرافات الباطلة وصارت ديانة السلطنة . وكان للرومانيين هياكل كثيرة جميلة البناء مزخرفة بالمخونات المستطرفة ومملوءة من التقدّمات التي كان الشعب يأتي بها وكان عدد أكبرها وأشهرها ما بنى عن الأربع مئة وكان الكهنة يخدمون في تلك الهياكل ويقدمون ذبائح من الثيران والغنم وغيرها من الحيوانات . وكان لهم هياكل أخرى يرسم الآلهة التي من الطبقة الثانية وهي أقلّ ظرفاً من الأولى ودعوها البيوت المقدسة وكان في بيت كل عائلة غنية معبدٌ مخصصٌ بها لأجل عبادة إلهتها الخصوصية

أما الزواج فكان عندهم من الأمور الضرورية وعاقبوا من امتنع بأشدّ القصاصات الصارمة وفي بعض الأجيال فرض قضائهم وقتاً مخصوصاً لزواج الشبان فبلنهم من بلغ السن المعين أن يتزوج في برهة محدودة وجعلوا ذلك فريضة شرعية . وكان أوغسطس أيضاً يشدد القصاصات على الذين يتوقفون عن الزيجة ويمنع كثيري النسل عطايا كثيرة . وكانوا بخطوب البنات مدة طويلة قبل عقد الزواج الذي يجرونه باحتفال عظيم بحضور الكهنة والمجتمين

ويحررون شروط الزيجة بحضور جمهور من الشهود وكان الثريتان يثبتان تلك الشروط بقشة يكسرانها امام الحاضرين وبعد ذلك يهدي العريس عروته خاتماً تلبسه في الرُسطى من يدها اليسرى لاعتقادهم انه يوجد عرق يتدفق من تلك الاصبع الى القلب ثم يختمون احفالم بضيافة بقيها ابو العروس . وبعد تمهيط العروس وقت الزفاف كانوا يفرقون شعرها بستان ربح اشارة بانها



هيئة ملابس الرأس عند نساء الرومانيين القدماء

تكون عن قريب قريبة مقاتل ثم يتوجونها بأكليل من زهور ويضعون هلى رأسها مندبلاً يليق بها وعند نهاية لبسها يرافقها الى بيت العريس ثلاثة صبيان من كان والدوم احياء ويحمل امامها خمسة مشاعل ومردن ومغزل . وعند وصولها الى البيت تربط جوانب الباب بحبال من صوف مغمسة في شحم مذؤب لاجل منع قوة السحر وبعد ذلك يحملونها ويدخلون بها الى الغرفة اذ لم يكن يسمح لها ان تدوس العتبة برجليها ثم يتقدم العريس ويهديها مفاتيح البيت

مع اناس من قبها مالا ونلر . ثم يضع ضيافة عظيمة لجميع اهل العرس مصحوبة
بالاثر الطرب والرقص وكان المدعوون يشدون مدايح للعريسين
وكانت العادة عند الرومانيين ان يحرقوا موتاهم كما كانت تفعل اليونان
في الازمنة القديمة غير ان هذه العادة القبيحة لم يكتولوا يشعلونها الا في ايام المشيخة
الاخيرة وبعد ذلك ادرجت في افطار الملكة واستمرت الى حين دخول
الديانة المسيحية وكانوا يفركون جثث الاموات بانواع الطيب ويلبسوهم الثياب
الفاخرة ويلفونهم على فراش مغطى بالزهور ويزينون ابواب البيت باغصان
السرو . واذ كانوا يعتقدون ان شارون الموكل بارواح الاموات لا يحمل روح
الميت ويعبر بها نهر الموت ما لم ياخذ الرسم المعين كانوا يضعون قطعة صغيرة
من النقود في فم الميت يرسم شارون المذكور . وكانوا يوقدون المشاعل ويحلقونها
امام الجنازة واقرباء الميت واصدقائه يحلقون جسده على نقش مكشوف
مغطى بالثمن الاقشنه وموكب الجنازة يسير تحت ادارة شرط الرومانيين . فاذا
كان الميت شجداً يضعون عليه علامات رتبته وتراقفه الجند منكسي الاسلحة
امامة حسب العادة الجارية الآن وكانوا يحلقون امام النعش تماثيل الميت وتماثيل
سلفائه وبعد ذلك ياتي الموسيقيون والندابون والرقاصون والمهرجون ويمشون
امام الميت ثم يسير وراء النعش اهل الميت وبنائه في الملابس الحزينة بلطن
وتندبه مكشوقات الرؤوس ومحلولات الشعور ثم القضاة والاشراف بدون
ثياب رسمية ثم عبيد الميت الذين كان قد حررهم في مدة حياته لاسبين طرايش
الحرية . اما جنازة العطاء والاعيان من ذوي الرتب فامتازت عن غيرها في
الاحتفال والمدايح التي تناسدها اصحاب الميت فوق جثته في الكايتول وكان
ذلك كثير الاستعمال في اواخر مدة المشيخة وعند نهاية هذه الاختلالات كانوا
يرشون القبر ويشتمونه بالزهور ويودعون الميت وداعاً اخيراً وبعد ذلك
يرش الكهنة جميع الناس الحاضرين بالماء ويصرفونهم الى بيوتهم . ولكن لما
ادخلت عادة حرق اجساد الموتى كانوا يطرحون الجسد على حزمة من حطب

على شبه مذبح ثم يدور الجمهور حوله بكل هدو على صوت آلات الموسيقى ثم يتقدم احد الاقرباء بمشعل ويضرم النار في ذلك المحطب ثم يلتون الاطياب في اللهب ويطشون الوقود المشتعل بالخمر ثم يجمعون الرماد في آنية ثينة وياتونها في قبر العائلة . واذا كان الميت من طغمة الجنود فيضعون سلاحه والغنائم التي يكون قد سلبها من العدو على الحزمة المذمومة ذكرها لتحرق مع البقية

واذ كان الاعتقاد العام عند الاقدمين بان ارواح الاموات يسرها سفك الدم كانوا يذبحون على قبر الميت تلك الحيوانات التي كان يميل اليها في مدة حياته . واما في الازمنة القديمة المتوحشة فكانت تلك الذبائح بشرية فكانوا ياتون بالعبيد والاسرى ويذبحونهم على قبور ساداتهم واحيانا كان ياتي بعض الاصحاب ويقدمون انفسهم للذبح حبا بالمفتودين وجرت بعض حوادث نظير هذه بين الرومانيين الاقدمين لكنهم مع تمادي الايام ابطأوا تلك العادة القبيحة عندما ابتدأوا يمدنون

اما صنائع الرومانيين القدماء فانحصرت في حراثة الارض وبعض من بسيطة متعلقة بها وكانوا يعتبرون امهر الحراثين كافضل الناس . وكان الحراثون يميلون الى الخرافات فكانوا يمتنعون عن الاشغال كافة في خامس يوم من الهلة . وفي السابع والعاشر منه كانوا يزرعون الدوالي ويضعون النيد على صغار البقر لاجل التطيع . وفي العاشر منه يباشرون في السفر . وكانوا ياتون بحجبة حمار ويلقونها على حدود الحقول لاعتقادهم بان ذلك مما يحسن تربتها ويمنع عنها الحبل . وفي زمان المشيخة الاولى لم يكن في بساتين الرومانيين سوى قليل من انواع البقول واشجار الفاكهة واما التناج والكرز وغيرها من الاثمار اللذيذة والزهور الجميلة فقد استجلبوها من بلاد العجم واسيا الصغرى بعد مدة طويلة . وكانت العادة عندهم ان يظلوا مساطب جنائهم وماشيها باغصان الدوالي ويلقونها فيها التماثيل ويحيطونها بسياجاة مرتفعة من الشوك والعليق . والارجح ان الرومانيين اكتسبوا معرفة زرع الكروم واستخراج الخمر من اليونانيين فكانوا

وقت استخراجهم ينتجعون ويفرحون ويصبون الخمر الجديد على الارض اكراماً
للمشتري والزهرة

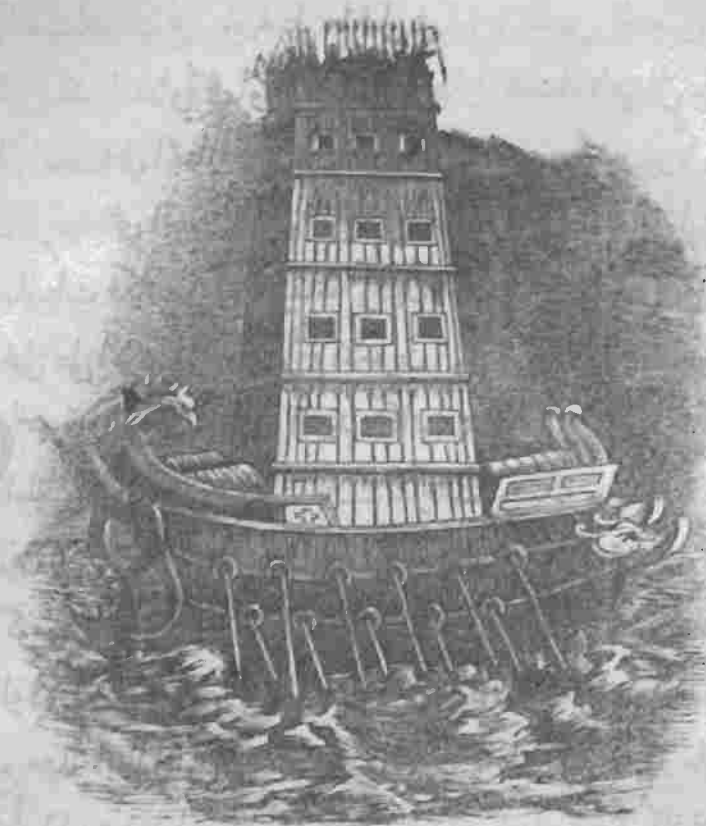
وكان للرومانيين اليد الطولى في الابنية والنش على الحجر والمرمر وفي
اقامة الجنائن المستظرفة . ومن اشهر ابنيتهم في تلك الاعصار قصر الفيلسوف
بيليني صاحب الثروة العظيمة فكانت له املاك عديدة منها القصر المذكور
الذي لم تضرب صفحاً عن ذكره لشهرته في بطون التواريخ

ولما كانت حروب الرومانيين تكاد تكون متواصلة الا قليلاً كانت امورهم
العسكرية وما يتعلق بهامها الحرية تشغل انتباه اشهر رجالهم وتوجه الثقات
الجمهور الى الاستعدادات والاختراعات التي من شأنها ان ترفع شأنهم وتلقي
هيبته في قلوب اعدائهم . وحكمت الشريعة وقتئذ على كل رجل من احرارهم
ان يخدم في العسكرية رغماً عنه في اي وقت كان من سن السبع عشرة الى سن
الست والاربعين . وكانت القوات الرومانية مقسومة الى فرق ومواكب
فاشتملت كل فرقة على ثلاثة الاف من العساكر المشاة وثلاث مئة من الخيالة
ثم زادوا عددها بعد ذلك فجعلوها سبعة الاف وكان يرق الفرقة نسراً من
فضة بحملة ضابط من ذوي الرتب على رمح . اما الخيالة فكانوا يحملون علامات
من شريط منقوش عليها باحرف ذهبية الاحرف الاولى من اسم الامبراطور
وعدد الفرقة . ولم يكن عندهم من آلات الموسيقى العسكرية سوى النغير . وكان
بعض العساكر يتسلحون بمجربات خفيفة والبعض بمجربات ثقيلة ويتقلدون
الانراس والبلاطات على اليمين ويتدرعون بدروع من نحاس او فولاذ ونحمت
الدرع ثوب احمر واصل الى الركبة وعلى رؤوسهم خوذ من نحاس بشراريب
من شعر الخيل . واما القواد فكانوا يلبسون قمصاناً مدرعة بخشفات من النحاس
او الفولاذ مصفحة احياناً بالذهب ونحمتها اثواب ضيقة واصله الى اواسط الساقين .
وكانوا يركبون الخيل بدون ركابات وكانت سروجهم قطع قماش ملفوفة بحسب

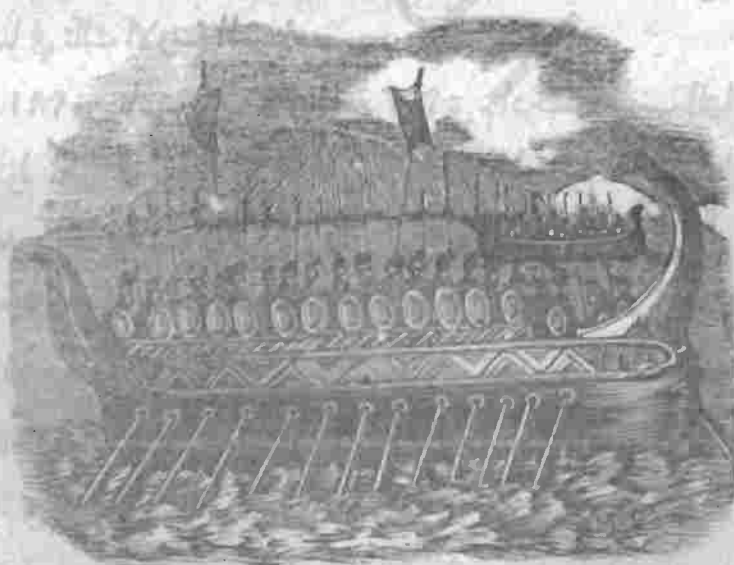
رغبة الراكب وكان تدير العساكر ونظامها متفناً غاية الاتقان وقوانينهم في غاية ما يكون من الصرامة

اما مراكب الرومانيين البحرية فكانت على شبه مراكب قرطاجنة غليظة وضعيفة البناء عالية المؤخر والجوانب ومع انها كبيرة لم تكن تصلح لمصادمة الانواء والارياح العاصفة وكان لها صفان او ثلاثة صفوف من المقاذيف بحسب عدد طبقاتها اما مقدمها فكان مدرعا بالحديد على هيئة راس حيوان وعلى ظهرها الاعلى برج غير ثابت تستخدمه العساكر كنaras لاطلاق الاسلحة وفيه جسر يستعملونه وقت العبور والهجوم على مراكب العدو. وقيل اكتشف آلة الحرك التي بواسطتها استؤمن السفر في اواسط البحر كانت سبر المراكب مقتصراً في الشطوط. وحسب المركب كبيراً اذا كان محمولة نحو ثلاثة الاف كيلة. وكان تجار الولايات البحرية التي على شطوط البحر المتوسط يجلبون الى رومية جميع انواع محاصيل الشرق غير ان تلك التجارة انحصرت فيما بعد باهل رومية بعد ان فتح اوغسطس الديار المصرية وصارت حينئذ مدينة الاسكندرية مركزاً لتلك التجارة

وكان للرومانيين مراح كثيرة قد شيدوها لاجل الفرجة على الوحوش المضارية وعلى مصارعة الابطال وانواع الملاعب بالسيف. وكانوا يحفظون الوحوش البرية في اوجرة حول القنطرة الوسطى من المراح ويصونون تلك القنطرة تصويهاً متيناً ويحيطونها بقناة من الماء لاجل صيانة المتفرجين وعند اجتماعهم في هذا المرح كانوا يطلقون الوحوش بعضها على بعض فكانت تضر ببعضها ويقتل كثير منها. ويقال انه قتل منها احد عشر الفا في مشاهد الاشهر الاربعة التي اقيمت فيها الافراح لاجل انتصار الرومانيين على اهل داسيا وقتل ايضاً في حادثة اخرى نظيرها خمس مئة اسد في برهة وجيزة. وكثيرون ايضاً من المسيحيين الاولين مانوا شهداء بواسطة طرحهم للوحوش في تلك المراح. ومن ملاعب الرومانيين التي افتخروا بها المصارعة بالسيف اي لعب الحكم وهذا



برج حربي بحري



سفينة حربية رومانية

النوع من اللعب حدث في رومية على ما قيل في اواخر الجبل الخامس من تأسيسها وكانوا قد استعملوه في اول الامر امام جنازة بقصد الاحتفال والتعظيم ومن ثم صار استعماله في الجنازات العمومية وبعد ذلك حسب ضرورة واجبا للاحتفالات الرسمية التي اقيمت في ايام المواسم والاعياد. اما الاسلحة التي استعملوها في تلك المصارعات فكانت مضرة وقاتلة وكثيرا ما وقع عدد واقر من اولئك المصارعين قتلى على الارض لاجل تفرج الآخرين. وفي اول الامر خصصوا تلك المصارعات للمجرمين او للأسرى ثم للعبيد فكانوا يتصارعون باسلحة مختلفة نارة وبالاسلحة الكاملة واخرى مجرّية ذات ثلاث شوكات وشبكة بواسطتها يجهد احد الخصمين ان يعرقل خصمه وبشبكة بها وهكذا يتمكن من قتله. وكان الامبراطور كومودوس يشترك احيانا كثيرة في تلك المصارعات متحفزا على نفسه باعقائه الاسلحة الكثيرة. واستمرت هذه العادة دارجة ومستعملة بينهم الى الجبل الرابع حينما ابطها الملك قسطنطين الكبير واقام عوضا عنها ملاعب اخرى من شأنها ان تنشط الجسد وتقوية لان تهدمه. فهذه الاخبار كافية لتظهر لنا حالة تلك الازمنة المتوحشة ونجعلنا شاكرين المرحم الالهية التي لم تسمح بان يكون نصيبنا في تلك الازمنة القبيسة

وسنة ٢٩١ من تأسيس رومية اي سنة ٢٦٢ ق م ادخلت اللعب التياراتية الى رومية ولم تكن في البداية الا الرقص على انغام الناي ولم تعتبر الروايات عندهم الا بعد ذلك بمئة سنة وقيل ان اول مسرح بني لهذه المناظر كان يسع ٤٠ الف نسمة من المتفرجين. واما الصنائع اللطيفة او الرياضية فلم تُعرف عند الرومانيين الا بعد الجبل السادس من تأسيس رومية اذ اكتسبها جنودها من الامم الذين فتحوا بلادهم وادخلوها الى رومية. ثم بعد ذلك ابتداء الاغنياء ان يتقنوا دورهم ويزينوها بالتصاوير وانواع النفوش. وكان في مساكن الاشرف مخادع جميلة فيها مكاتب مباحة لمن يرغب الاطلاع عليها من الادباء والعلماء وكانت الكتب نادرة الوجود لسبب كثرتها وصعوبة نسخها فكتبت على الرقوق

وبعضها على الورق المصنوع من اوراق النبات المصري المعروف باسم بايروس فكانوا يصلون اطراف الاوراق بعضها مع بعض ويلفونها درجاً ويحفظونها ضمن لفافة من الجلد او الحرير. واما ملابس الرومانيين الاعيادية فكانت قميصاً واسعاً من صوف لا كمان له وثوباً آخر ابيض ضيق يلبسونه تحت القميص وقت الخروج من البيت الى السوق وعند رجوعهم الى بيوتهم يترعون القميص. وكان رجالهم غالباً مكشوفى الرؤوس يلبسون في ارجلهم تارة احذية مكشوفة مربوطة بالرجل بواسطة شرائط وتارة جزمة قصيرة



الفصل الثالث

في اخبار ايطاليا

الباب الاول

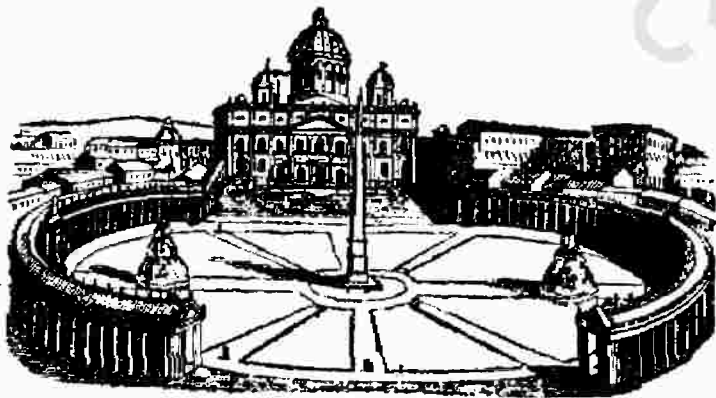
في جغرافية هذه البلاد

هذه المملكة موقعها في جنوبي اوروبا وممتدة الى داخل البحر المتوسط وهي على شكل جزيرة واشبه بفردة حزمة في وضعها وتكوينها وعدد سكانها الآن نحو سبعة وعشرين مليوناً اكثرهم على المذهب الباباوي. وحكمها من نوع الملكي المفيد. اما هواؤها فهو في غاية الاعتدال والنفاسة حتى ان صينها لا يكاد يختلف

عن فصل الربيع. اما ارضها فيخصبة جداً وفيها كثير من الفاكهة المتنوعة كالتي
والعنب والبردقان والخمر الجيد وكل نوع من الحاصل كالارز والقطر
وسائر انواع الحبوب وفيها ايضاً دود القز وانواع البرفير والبرمر والرخام.
ولاها صنائع عديدة يعنون بانقانها وتحسينها كالنصوير والنش والابنية
المزخرفة والامت الطرب وغيرها من انواع كراخين الاقمشة والفخار والفرغوري.
واكثر اهلها يحبون الملاهي والمسرات كالغناء والرقص وجانب عظيم منهم في
حالة الكسل والشقاء والفقر يميلون طبعاً الى تصديق الخرافات والقصص التي
لا طائل تحتها

وفي هذه البلاد عدة بحيرات وانهر وجبال. منها البركان المسمى فاسوفوس
الذي بقرب مدينة نابولي وهو جبل شهير وقديم العهد يتفد منه احياناً
دخان ولهب نار ممتجة بمواد ذائبة. وفي جزيرة سيسيليا وهي صقلية بركان
آخر يدعى اتنا نظير ذاك ويوجد بقربه كروم مخصصة من العنب والتين
والبردقان والزيتون وسائين وجنائين عديدة ذات زهور جميلة. وعند هذا
الجبل مدينة عظيمة البنيان يقال لها كاتانيا

ومن اعظم مدن ايطاليا مدينة رومية وهي مدينة كبيرة ذات ابنية جميلة
وقصور فاخرة عظيمة. وبها كنيسة مار بطرس وهي من الهج واعظم الهياكل في



كنيسة مار بطرس في رومية

العالم وتربها قصر الفاتيكان الشهير المخصص لسكن البابوات. وفي هذه المدينة

كثير من الصور والتماثيل القديمة التي تفوق على غيرها من تصاوير ومنقوشات
 باقي الناس في الصنعة وحسن الرسم الدالة على براعة وحذافة سكانها الاقدمين
 ولا سيما خرائبها المتفرقة التي تذهل العقول وتدهش النواظر ببهجتها وجمالها وعظم
 ارتفاعها. وقد افرزنا فصلاً مخصوصاً لذكر اخبار هذه المدينة وبعض حوادثها.
 ثم مدينة نابولي وهي جميلة المنظر وبها ابنة فاخرة. ومدينة فيبس وهي من اشهر
 مدائن تلك البلاد واجملها. ومدينة تورين عاصمة سردينيا. ومدينة فلورنسا
 البهجة. ومدينة جينوا واقليم تسكانا الذي هو من اجمل اقاليم ايطاليا واظرفها
 وغيرها من المدن المشهورة التي لا يسعنا الوقت ان نتعرض لها لان ذلك مما
 يخرجنا عن موضوع روح الكتاب المقصود به التلميح لا الاسهاب

وخلاصة الكلام ان مملكة ايطاليا بوجه الاجمال جميلة وظرينة جيدة الهواء
 يقصدها ذور الامراض من باقي جهات اوربا واميركا في فصل الشتاء لاعتدال
 اقاليمها. وتقصدها السياح من جميع الاقطار للفرجة على ما فيها من الآثار القديمة
 والابنية الفاخرة ولكن مع كل منزهاتها وحسن هوائها وزخرفة قصور مدنها
 وخرائب رومية المدهشة لا يرغب السائح ان يتوطن فيها نظراً لشراسة اخلاق
 الجانب الاكبر من شعبها والجهل المستولي عليه وليس ذلك الا من سوء تصرف
 الولاة والحكام الاقدمين وعدم التفاتهم الى تنوير الشعب. وفي هذه الايام بعد
 انضمام ممالكها الصغيرة وولاياتها الى مملكة مستقلة اخذ ملكها الحالي فيكتور
 عمانوئيل في اصلاح شأنها وتحسين حالة شعبها بواسطة وضع الشرائع والنظامات
 المحسنة وتأسيس المدارس الكلية واعطاء الحرية الثلاثة حتى انه في

زمن قريب يمكن للاباطاليانيين ان يضاهاوا باقي اصحاب

الرتبة الاولى في المدن

والمعارف

منظر المدينة فلورنسا



الباب الثاني

في تاريخ ايطاليا ويتضمن بعض اخبار البندقية

ان هذه المملكة كانت تسمى قديماً ساتورنيا ثم غلب عليها اسم ايطاليا نسبة
الى ايطالوس احد ملوكها التدماء الذين وفدوا اليها من اركاديا (وهي قسم
من المورة) في الجيل الرابع عشر قبل المسيح. وكان يسكنها وقتئذ ام وقبائل

مختلفة الاجناس والاقاب بعسر تاصيلها لتقدم عهدا اذ لم تفدنا التواريخ شيئا عنهم الى ظهور رومولوس مؤسس السلطنة الرومانية التي ضمت اليها كل بلاد ايطاليا واوروبا واكثر ولايات الشرق الامر الذي الجأنا الى فتح باب مخصوص لاختبار الرومانيين والاختصار في هذا الفصل

وبقيت ايطاليا في ايدي الرومانيين الى ان انقرضت دولتهم سنة ٤٧٦ للميلاد واستولى على البلاد اودواكر ملك الهول فزاع عنها اسم الدولة الرومانية ودعاها مملكة ايطاليا . ثم افتتحها ثيودوريك ملك الاسروغوث وبقيت تحت تسلط خلفائه الى سنة ٥٥٢ حينما استخلصها من ايديهم السلطنة الشرقية عن يد القائد بليساريوس اولاً ثم بواسطة نارسيس القائد الثاني الذي اقيم والياً عليها في مقاطعة رافينا . وسنة ٥٩٨ اتى ايطاليا قوم يقال لهم اللونغوبارد الذين سموا فيما بعد لومبارد واستولوا على اقسامها الجنوبية فانقسمت حينئذ الى قسمين قسم سمي ايطاليا اللومباردية وقسم ايطاليا الرومية . فاستمرت ايطاليا الرومية تحت تسلط ولاة الروم المنتصبين من طرف قياصرة السلطنة الشرقية الى سنة ٧٥٢ للمسيح عبارة عن مئتي سنة وكان عدد ولايتها في المدة المذكورة تسعة عشر والياً اولهم نارسيس المذكور واخرهم اوتينجوس وكان كل من هؤلاء الولاة يُلقب باسم اكسارخوس

وسنة ٧٢٦ حدث هياج في ايطاليا بسبب اختلافات دينية بين الكنيسة الغربية والكنيسة الشرقية انتهت باستقلال امارة رومية ودخولها في سلك الجمهورية تحت رئاسة البابا . وسنة ٧٥٢ امتد اللومبارديون الى جهة جنوبي ايطاليا فاستخلصوا من الروم جانباً من املاكهم ودعوا مقاطعة بنفانتو . وبعد ذلك هاجم ايطاليا الفرنساويون في ايام ملكهم بيپين ثم في ايام ابنه شارلمان الذي اسس سلطنة غربية مكان السلطنة الرومانية التي انقرضت وتزوج امبراطوراً عليها سنة ٨٠٠ للميلاد فكانت اغلب ايطاليا من جملة ممالك سلطنته . ولكن بموت كاراوس السمين انتقلت سلطنة الغرب من العائلة الكارولوفنجية

واختلس ايطاليا اكابر امرائها فخص كل واحد منهم لنفسه ولاية من ولاياتها
وكان اشهرها نابولي ونوسكانا وبارما وجنوا ولومبارديا وسردينيا ورومية
وفنيس اي البندقية التي هي من اشهر مدائن تلك البلاد واجملها

ومع قلة العلاقات التي كانت بين الدول الخالقة وقلة وسائط الاتصال
كان للايطاليين ولاسيا اللومبارديين شهرة ورغبة في التجارة واتقان الفنون
وخاصة بعد محالطتهم لاهالي المشرق وقت الحروب الصليبية ومع ان الغرض
من تلك الحروب والمغازي انما هو مجرد افتتاح البلاد عن هوس خارج عن
الصواب قد عادت بالنفع على التجارة وتولع الايطاليون في اتقانها بحيث انه
في القرنين الثاني عشر والثالث عشر كادت تجارات اوروبا ان تكون في
ايديهم وكانوا يحسبون رؤساء التجار والصنائع ولم تخط منزلتهم الى وقت معاهدة
الملائن الانسياتيكية للتجارة

واذ كانت فنيس من امهات مدائن ايطاليا التي اكتسبت شهرة عظيمة في
الاحقاب القديمة راينا ان نذكر عنها شيئاً قبل استيفاء الكلام عن تاريخ ايطاليا
فتقول انه في سنة ٤٥٣ للميلاد غزا ايطاليا قوم من برابرة شمالي اوروبا وكان
بقرب هذه المدينة طوائف من السكان فلما دهمهم هذه البلية فر بعضهم من وجه
مطارديهم وقصدوا ساحل البحر واتخذوها لهم مسكناً وكانوا يعيشون بالتجارة
وصيد السمك واستخراج الملح. وكان هناك عدة جزر صغيرة متقاربة بعضها لبعض
فاخذ القوم يقيمون فيها الابنية ويستوطنونها وكانت تتوارد اليها الناس من
اكثر الجهات وتنضم الى ذلك القوم حتى في مدة قصيرة اكتست تلك الصخور
الفرعاء بالابنية والقصور الفاخرة واصبحت كمدينة واحدة متصلة بعضها ببعض
بالجسور والقناطر المستظرفة. وعلى توالي الايام اشتهر اهليها في التجارة والقوة
البحرية اشتهاراً عظيماً. وكانت هذه الجزر في اول الامر منفردة ومستقلة عن بعضها
ولكنها في سنة ٦٩٧ اتحدت معاً واقامت عليها رئيساً عاماً ليسوسها ويدبر
امورها ومن ذلك اليوم صارت تحسب مشيخة نابعة السلطنة الشرقية وبقيت

تابعة لها الى الجبل العاشر حيث استقلت استقلالاً تاماً . وسنة ٩٩٧ لما كان
 بطرس اورسيولو الثاني رئيساً عليها قويت شوكتها بهذا المقدار حتى انها اخضعت
 كل الاساكن البحرية في دلمانيا وايسنيريا وصارت نعد اقوى واغنى دولة في
 اوروبا لاسبا في عمارتها البحرية . وما زالت شوكة الفينيسيين تزداد وتقوى يوماً
 بعد يوم حتى انهم في الجبل الحادي عشر جهزوا عمارة عظيمة مولدة من مئتي
 سفينة وارسلوها لمساعدة المشبكين في الحروب الصليبية الاولى . ثم ساعدوا
 الصليبيين بعد ذلك على فتح مدينة القسطنطينية سنة ١٢٠٤ وحازوا منها على
 غنائم وافرة ونخب متكاثرة من نفائس الجواهر والمعادن وانواع الصور والتماثيل
 المشغولة وجاءوا بها الى بلادهم ولكن بعد ذلك بقليل اخذ طالعهم في سقوط
 وهبوط اذ حاشرتهم مشيخة جنوا واستظهرت عليهم في جملة وقائع . وفي الجبل
 الخامس عشر حارب فينيسيا السلطان محمد الثاني واستخلص منها عدة جزائر
 في الارخبيل وبعض ولايات في المورة ولكن لما كانت شوكة اهل البندقية
 لا تزال عظيمة في اوروبا وصبتهم منشراً في كل اطرافها خافهم مجاوروهم وحسدوهم
 ملوك الافرنج على ثرونتهم ونجاحهم فاخذ البابا يوليوس الثاني بهيج الدول عليهم
 وبعد ان استمال اليه بعض الملوك اعنصب معهم على اذلال تلك الجمهورية
 فكان امبراطور المانيا وملك فرانس وملك اراغون والبابا يوليوس المذكور
 رؤساء تلك العصبة المعروفة بعصبة كبري فاغاروا على البندقية واستخلص البابا
 جميع المدن التي كانت للبنادقة في الاراضي الباباوية واسترجع فردينند ملك
 نابولي المدن التي استولت عليها المشيخة المذكورة على سواحل كالابري . فلما رأى
 اهل البندقية انهم محصورون من كل جهة وليس لهم نصير التزموا ان يسلموا
 بما انت به التفادير وانحصروا داخل اسوار ملكتهم وسنة ١٥٧١ استخلص منها
 السلطان سليم الثاني جزيرة قبرس وسنة ١٦٦٩ استخلص منها السلطان محمد
 الرابع جزيرة كريت فهذه المصائب مع غيرها اضعفتها واضرت بتجارها جناً
 ولكنها استمرت في استقلاليتها الى الجبل الثامن عشر حينما خضعت لفرانسا . وسنة

١٧٩٨ استولت عليها دولة النمسا وبقيت تحت تصرف احكامها الى ان الحقت
بمملكة ايطاليا سنة ١٨٦٦ كما سيأتي شرح ذلك في محله
اما احوال ايطاليا فاستمرت على الحالة المذكورة آنفا نحو سبعين سنة
وكانت المنازعات فيها متصلة دائمة من اهل الطمع وارباب الفساد فكان الحجر
بغزون اراضيها الشمالية بينما كانت اقاليمها الجنوبية عرضة لمغازي الاسلام الذين
افتشوا سبيلها واستولوا عليها زمانا يسيرا الى ان اخرجهم منها امراء نورمنديا
واقاموا مكانهم

وبينما كانت الاحوال مضطربة في ايطاليا استدعى البابا يوحنا الثاني عشر
اوثنون الكبير ملك جرمانيا اليه ليقبضه من جوراحد ملوك ايطاليا الذي كان
قد تعدى عليه فسار اليه وحارب خصمه وافرج عنه تلك الشدة وتوج ملكا على
كل ايطاليا ثم امبراطورا على كل السلطنة الغربية وكان ذلك سنة ٩٦٢ للمسيح
فاستمرت ايطاليا خاضعة لملوك جرمانيا الى سنة ١٢٦٨ ثم اخذت بعد ذلك
تستقل امرياتها الواحدة بعد الاخرى . وصارت كل امرية منها قائمة بذاتها
تحت حكم ملك او جمهورية او امرية ودام حال ايطاليا على هذا المتوال الى
سنة ١٥٠٤ حين وقع النزاع بين فرنسا واسبانيا في شأن هذه البلاد فكانت كل
دولة منها تود ان تضع يدها عليها وتستخلصها لنفسها . وبعد ان بذلت فرنسا
غاية جهدها في امتلاكها لم تنل بغيتها وفازت اسبانيا باستيلائها على مملكة
الصفليتين سنة ١٥٠٥ ثم استولت على امرية ميلان سنة ١٥٤٠ اذ حصرت
ايطاليا شمالا وجنوبا ونصرفت يباقي ولاياتها كما ارادت ولم يبق مستقلا الا
البندقية . وفي القرن السابع عشر اخذت قوة اسبانيا في ايطاليا ان تضعف
وتنقص حتى كادت تزول بالكلية واغضبت منها اوستريا سنة ١٧٠٦ امرية
ميلان ومملكة الصفليتين فبقينا تحت حكمها مدة ثم تنازلت عن الصفليتين وعن
امرية بارما الى فرعين من عائلة البوربون الاسبانيولين بشرط ان لا نضم الى
مملكة اسبانيا

ولكن لم يمض زمنٌ طويلٌ حتى تبدلت أحوال إيطاليا بسبب حروب
 المشيخة الفرنسية ووقائع نابوليون الأول الذي بعد أن ضمَّ بيمونتي وسافوي
 إلى فرنسا أحدث انفصالاً آمرياً ميلان عن النمسا وجعلها دولة جمهورية
 واستعاضت النمسا بدلاً عنها بالبندقية وملحقاتها. ولكن بعد حرب أوسترلينس
 سنة ١٨٠٥ ألزم نابوليون دولة النمسا أن تنازل عن البندقية وضمها إلى امريّة
 ميلان وسماها ملكة إيطاليا وأقام فيها البرنس أوجان ابن زوجته الأولى نائباً
 عنه بالملك. ثم أقرز نابولي وجعلها ملكة قائمة بذاتها وأقام عليها صهره الجنرال
 يواكيم مورات. أما توسكانا ورومية وجنوا وغيرها فاضمنت إلى أعمال فرنسا.
 فعلى هذا الوجه كانت كل إيطاليا تابعة لفرنسا ما عدا سردينيا وجزيرة سبيليا.
 ولكن بعد حوادث سنة ١٨١٤ رجعت رومية وملحقاتها للبابا ورجعت نابولي
 سنة ١٨١٦ إلى فردينند ملكها الأول واستولت دولة النمسا على ميلان
 والبندقية وسينما ملكة اللومبارديا والبندقية وهكذا باقى الأقاليم رجعت لأربابها.
 وفي سنة ١٨٥٩ انتصرت فرنسا لسردينيا فخارتها النمسا واستخلصنا منها
 اللومبارديا وأضيفت إلى أحكام فيكتور عمانوئيل الثاني ملك سردينيا. وفي سنة
 ١٨٦٠ انعقد أربع جمعيات من عمد أهل إيطاليا بمدينة فلورنسا وبولونيا وبارما
 ومودينا وبعد مداوات كثيرة استقر الرأي على خلع ملوكهم لتقصيرهم وعدم
 اهليتهم وضم ممالكهم لملكة سردينيا تحت ولاية الملك فيكتور عمانوئيل المشار إليه
 فاستحسن الأهالي أرائهم ووافقوا عليها وقبل ملك سردينيا هذا الانضمام وأخذت
 المالكة تنضم إليه الواحدة بعد الأخرى من ذلك اليوم وكان أول من انضم إليه
 نابولي وصفاية وأومبريا التابعة لملكة رومية وغيرها وفي سنة ١٨٦١ نودي به
 ملكاً على إيطاليا. وفي سنة ١٨٦٦ انضمت إليه أعمال البندقية من بعد المعركة
 الهائلة التي وقعت بين النمسا وبروسيا عندما تحزبت بروسيا لإيطاليا. ثم في
 سنة ١٨٧١ وضع يده على مدينة رومية وجعلها مقراً كرسي الملكة. وبعد موت
 فيكتور عمانوئيل قام مكانه ابنه هومبر وذلك في ٩ ك ٢ سنة ١٨٧٨ وجعل مكان

اقامت في مدينة فيورنسا

فهذا هو بالاختصار تاريخ ايطاليا التي كانت ميدانا وسیعاً للشاجرات والحروب بعد انقراض السلطنة الرومانية وما تقدم يظهر ان هذه البلاد لم تصر قط دولة مستقلة كانكلازا او فرانساً او غيرها تحت ولاية ملك عام او مشيخة عامة بل كانت على الدوام متجزئة بين امراء كثيرين ومنقسمة الى ممالك صغيرة منها مستقلة ومنها تابعة بحيث يعسر وصف كل منها على حدته واستيفاء الشرح عنها واما انضمامها الآن فهو ما لم يحصل عليه الايطاليون قبل هذا التاريخ وهذا الاتحاد يتضمن فوائد جمة نأول لنجاح الأمة ووضعها في مصاف ذوب الرتب الاولى

الفصل الرابع

في اخبار رومية وبعض اخبارها

انه لا امر معلوم ان رساء الديانة الاولين كانوا جميعاً متساوين في ما يخص بامر الدين والسلطة الكنائسية غير انه امتاز اساقفة المدن الكبيرة على ما سواها نظراً لوجودهم في مراكز الحكومات واحتياج الغير اليهم لاجل المساعدات . فكانت رومية والقسطنطينية والاسكندرية وانطاكية والقدس مراكز السلطة الكنائسية وتعتبر اساقفتها على نوع ما كروساء الدين . ولكن اذ كانت رومية كرسي الامبراطورية الرومانية وتحت الدنيا بنامها كان لاساقفتها شرف وامتياز

على غيرهم فحظوا من الاحترام والاکرام باوفرها ولم يكن لهم امتياز آخر غير ذلك. وفي اثناء الجيل الرابع فافت عظمة رومية والقسطنطينية على باقي المدن المذكورة وانحصرت فيها سطوة اساقفتها ومن ثم اخذت كل منها تدعي السيادة والرياسة على اختها فوقع النزاع والخصام بين الكبيستين اعني الشرقية والغربية واستمر البغض والحسد بينهما الى اوائل الجيل الثامن في ايام ليو الثالث امبراطور الشرق الذي قاوم مسألة عبادة الصور والتماثيل بينما نشبت رومية في استعمالها فانفجرت حينئذ العداوة الظاهرة بين الكبيستين وحصل الانقسام الذي لم يعد يجد سيلاً للانضمام

وفي اواسط الجيل الثامن لما لم يجد غريغور بوس الثاني اسقف رومية طريقاً لابطال نشب الكنيسة الشرقية في رفض عبادة الايقونات حول قواه الى تهيج الشعب الروماني للانتقام الى هذه المسئلة الدينية فعمست رومية وراقينا على قوادها وولاتها المتولين ادارة الاحكام من قبل سلطنة القسطنطينية وتقلد كل شعب ايطاليا السلاح واثاروا هيجاناً عظيماً في كل اقطار البلاد وكسروا جميع تماثيل قياصرة الرومانيين الموجودة في رومية وقتلوا الوالي الكبير المقيم في راقينا وكل مناومي مشروع عبادة الصور واستقلت اماره رومية وصارت دولة جمهوريه تحت رياسه البابا . ولكن مع ذلك لم يكف ولاه الروم عن مقاومة الباباوات ومضادهم فكانت الاحوال في اضطراب عظيم فانتهاز فرصة هذه الثورات لويتر باند ملك لومبارديا واستولى على راقينا واخضع جميع المدن التابعة لها ثم استرجعها منه عاجلاً سلاطين الروم واذ لم يستطيعوا ان يحفظوا البلاد كالايام السابقة فمض استولنوس ملك لومبارديا وافتتح راقينا من ايدي ولاه الروم ونهدد رومية بالخراب فمض البابا اسفانوس الثالث وذهب الى فرانساستغيثاً بملوكها فانجدوه واستخلصوا من اللومبارديين ولاية راقينا واهدوها للحبر الروماني ليستولي على محاصيلها وايرادائها وبتفتها في منافع الكنيسة ويكون دوريساً مدنياً خاضعاً لاحكام فرانساستصادق على ذلك الملك شارلمان

وزادة اراضي اخرى كان قد استملكها من مغازبه على لومبارديا فصارت
تلكات الحبر الروماني عظيمة وغناه وافراً جداً وازدادت ثروته يوماً بعد يوم
لتوارد الهدايا اليه من كل جهة ومكان وقدم اليه كثيرون من الامراء والاعيان
قرى ومقاطعات برمتها حتى انه في وقت قريب اجتمع في شخص الباباوات
سطوة الدين والدنيا وصاروا ملوكاً ارضيين وروساء دين معاً بحيث ان عظمتهم
كانت مساوية لسطونهم بلا حدٍ وهكذا مع تنادي الايام صار للباباوات اهمية
عظيمة وحق كبير في تولية ملوك الارض وعزلم حسب مشيئتهم

اما كلمة بابا فكانت قديماً تطلق على جميع الاساقفة بدون استثناء ولم
يخصص بالحبر الروماني الا في سنة ١٠٧٣ في زمن غريغوريوس السابع الذي
شيد اركان سلطة الباباوات السياسية فكانت سطونهم يومئذ في اعلى طبقة سائدة
على كل ملوك الارض اذ كان لغيرهم من الملوك تاج واحد واما هم فكان لبعضهم
ثلاثة تيجان احدها فوق الاخرى دلالة على السلطة الثلاثة المثلثة المجمعية فيهم وهي
رياسة الكنيسة العمومية واسقفية رومية والولاية المدنية على الاراضي الرومانية .

وبلغ اعتبار هؤلاء الاحبار الى هذا المقدار حتى انهم احياناً عندما كانوا يعاون
ظهور الخيل بمسك لم الركاب كثيرون من الملوك والسلاطين . وكانوا احياناً
يصدرون حرمات على امة باسرها ويامرون بحاربها وكان اذا انكر احد سلطة
البابا يحرق وهو حي . وسنة ١٠٧٧ ازم البابا غريغوريوس هنري الرابع
امبراطور المانيا ان يقف حافياً ثلاثة ايام في فصل الشتاء امام باب قصره
ليقبل منه الغفران وقد استوفينا هذا الخبر في ترجمة هنري الرابع كما سيأتي .

وسنة ١١٧١ رفس بابا اخر برجاء تاج ملك اخر من ملوك جرمانيا حينما كان
الملك جاثياً امامه وبالاجمال نقول ان جهالة تلك الاعصار طمست بصائر
الشعوب حتى لم يعودوا يروا في روساء الدين خطأ فكانوا يذعنون لكل
احكامهم واجراءاتهم ويخضعون لكل ما يستمر عليهم راجعاً كانه منزل لا عيب فيه .
والى هذا المقدار انصلت سيادة الباباوات وشوكتهم حتى لم يبق في اوربا مملكة

الا واضطربت من افعالهم ولا ملك الا وتعكر من مطامعهم ولا كرسى الا وارتج من شوكتهم

وفي الجبل الحادي عشر وقع النزاع والخصام بين الباباوات وبين باقي ماللك اوروبا وعلى الخصوص مع المانيا في شان السيامات الاكيريكية التي نشأ عنها حروب كثيرة . لانه كما لا يخفى ان الاكيروس في تلك الازمنة كانوا عندما يرسمون على مناطعة او ابرشية ملزومين ان يحتفلوا لملكهم بين الامانة والطاعة وبعد ذلك ياتيه الملك بلفيه الكنائسي ويقدره وظيفته سواء كان بطريركا ام اسقفا ام غير ذلك من الوظائف ويأذن له ان يتصرف بالملكات المختصة بابرشيته اكونها مربوطه بالتزامات اميرية ثم يعطيه عكازا وسيفاً دلالة على السلطة الزمنية ثم صليبا وخاتماً اشارة على السلطة الروحية وبدون هذا التصريف من قبل الملك لم يمكن للاكيروس الدخول في وظيفتهم

فلم يقبل الباباوات بهذا الامر واخصهم غريغوريوس السابع فانه نهض سنة ١٠٧٢ لمقاومة ذلك وطلب رفع مداخلة الملوك في هذا الامر واراد تخصيص هذه الحقوق وحصرها بالباباوات فنشأ عن ذلك مخاصمات قوية ومحاربات شديدة اخصها بين جرمانيا وايطاليا في ايام ملكها هنري الرابع ثم ابنه هنري الخامس الذي غزا ايطاليا مرتين واسر البابا اوربانوس الثاني ثم اطلقه . واستمر ذلك الحال الى سنة ١١٢٢ حين عقد صلح بين الطرفين في ايام البابا كالبيكتوس الثاني وقض هذا المشكل على وجه مرض للفرقتين وهو ان يكون للملك حق التصرف المدني والبابا التصرف الكنائسي . وفي اول الجبل الثاني هاجت تلك الخصومات ثانية واضطربت نيرانها وامتزجت بين منازعات اخرى كانت قائمة وقتئذ بين قسمين كبيرين في المانيا وايطاليا يقال لهما الغوالف والجيبيلين ولكنها انطلقت اخيراً سنة ١٢٦٨ عند موت كوتراد ملك جرمانيا

ولكن مع كل سطوة الباباوات يومئذ وتوطيد سلطتهم على الاراضي الرومانية

كثيراً ما كانت مدينة رومية تعصيم وثقاومهم عندما يتذكر اهلها مجدها القديم ويقابلونه على حالتها الدينية فكثيراً ما خلعوا الطاعة ورفعوا علم العصيان ضد رياسة الباباوات وكثيراً ما خلع الحبر الاعظم عن كرسيه ونفي من رومية حتى النزم في وقت ما ان ينقل الباباوات كرسي الحبرية الى افينيون من اعمال فرانسا حيث اقاموا فيها نحو سبعين سنة هرباً وخوفاً من هييجان ومقاومة الشعب . واذ لم يوجد في رومية قوة كافية لتوقيف اسباب الفتن والحركات كثيراً ما كان يظهر بعض البلقاء من ذوي النباهة والاقدام على عظام الامور وبواسطة منادائهم واعمالهم يستميلون قلوب الاهالي الى الاتحاد معهم بطلب الحرية والاستقلال فينشأ عن ذلك تحزبات وخصومات تأول للخلل وسلب الراحة . غير ان تلك المشروعات لم تنجح حتى النجاح لان سلطة الباباوات كانت كفوءاً لاتخاذها واطفاء نيرانها بواسطة القاء القبض على المسييين وقتلهم اما حرقاً بالنار او بمجد السيف . ومن اشهر هولاء القوم ارنولد دي بريسكي ونيكولا دي رينزي الذي حكم مدينة رومية مدة في الجيل الرابع عشر

وكان لاجبار رومية شوكة عظيمة وهيبة قوية ليس فقط بين الناس ولكن بين الدول ايضاً حتى ان الملوك كانت تؤدي لهم مزيد الاحترام والطاعة وحسب سعياً من كان ميل الحبر الاعظم نحوه . واذ كان للاجبار دخل في الامور المدنية واغراض في الامور السياسية كان ذلك موجباً لتعرضهم الى نتائج تلك المداخلات في اشهار الاسلحة عليهم وعلى اراضيهم وملك حومة دين النصرانية . فانه امر غني عن البيان انه بسبب تحزب الباباوات لبعض الملوك او الامراء او لاغراض اخرى دينوية كثيراً ما اوجوا حروباً في بلاد ايطاليا وانشقاقاً بين الشعب وكثيراً ما قامت عليهم الملوك وحاربهم ونهبت رومية وباقي اراضيهم لاسباب سنة ١٥٢٧ في زمن البابا اكليمينض السابع حين هاجمه جيوش الامبراطور شارل كان تحت قيادة الدوك دي بوربون وفتكت مجيوشه واملاكه واسرته بعدما نهبا المدينة واحرقوا فيها وفي الاهالي ما بقصر عنه

الشرح وما لا يتصوره عقل

وكان البابا اينوسنت في ايام فيليب اوغسطس ملك فرانسا وابنه لويس الثامن في الجيل الثالث عشر قد اصدر امراً باضطهاد وابادة الولدنسيين والبيجنسيين وها فرقان من مذاهب النصرانية في جنوبي فرانسا . وكان السبب في ذلك ان تابعي هاتين الفرقتين كانوا يندرون الشعب بالامور الدينية ويحاولون من مكان الى مكان حاملين الكتاب المقدس ومبشرين به فالتصق بهم كثيرون من الناس واقتدوا بتعاليمهم من جلنهم بطرس قالدورجل من قرية قوفي فرانسا وناجر عظيم في مدينة ليون فحركته الغيرة والحجة الى خلاص الانس فباع كل املاكه ووزعها على الفقراء ثم انه ترجم التوراة الى لغة القودوا وجمال كارزا من مكان الى مكان فتبعه كثير من الناس وتلقبوا بالولدنسيين نسبة الى بطرس قالدو المذكور مقدمهم الشهيد ويعرفون ايضاً باسم قودوا نسبة الى قومدينته . ومع ان ظهور قالدو المذكور كان في الجيل الثاني عشر زعم بعض المؤرخين ان هاتين الشيعتين نبغتا في عهد الرسل ويسددون في اثبات قدميتها على شهادة معانديهم رئيسي اساقفة طورين وصانكوري اذ يقولان ان الولدنسيين هم اقدم القبائل واكثرهم نقوى . واما الولدنسيون فيؤكدون ان كبسهم اسمها الرسل واستمرت من ذلك الوقت متمسكة بتعاليم الرسل البسيطة بدون ادنى تغير . فلما راي الحبر الاعظم نجاح هؤلاء القوم وانه بواسطة تعاليمهم وادعاء عامتهم في حق التبشير تنسلب حقوق الكنيسة الرومانية ويقع الخلل في نظامها شرع في استعمال الوسائط للاشانه واثار عليهم اضطهادات شديدة وعدهم من المجرمين بالهرطقة وهاج عليهم ملوك فرانسا وباقي الشعب كما تقدم فكانوا يعذبونهم بسائر انواع التعذيبات التي لا تخطر على بال بشر فكان منهم من يحرق حياً ومنهم من يمزقون اعضاءه بالسيف الى غير ذلك من العذابات الاليمية ودامت عليهم الاضطهادات مدة طويلة . وكان عدد من قتل منهم في اثناء هذه الاضطهادات على ما قيل نحو مليون نفس ومع كل ذلك لم يزل

موجوداً منهم الى يومنا هذا نحو عشرين الف نسمة في بلاد ايطاليا
وفي القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر حصل شقاق عظيم في امر
الذين اورث الكنيسة عاراً كبيراً وذلك ان اثنين او ثلاثة من الباباوات كانوا
يجولون في وقت واحد في اوروبا كل واحد منهم يستميل خاطر ملوكها اليه
للمعاضدة في مقاومة الآخر فكان ذلك سبباً لاحتقارهم وانحطاط شأنهم والازدراء
بمناصبهم السامية فنشرت منهم القلوب وانكر الناس على رؤساء الدين تلك
الاعمال ولا سيما وقت ظهور اسكندر السادس ثم يوليوس الثاني فانه ظهر منها
ما كسا الكنيسة عاراً واحتقاراً على مدى الاجيال بواسطة عدم استفادتها وفساد
اعمالها مما لا يريد التعرض لذكره

اما انتخاب الباباوات قديماً فكان يجري بمعرفة الاكليروس والشعب .
ولكن اذ كان يحدث من جرى ذاك اختلافات ومنازعات شديدة اوجد البابا
غريغوريوس العاشر طريقة مناسبة لرفع اسباب تلك الاختصاصات وهي انه عند
انتخابهم حبراً كانت تجتمع الكردينالية في مكان معلوم ويقفل عليهم الباب من
خارج فيأخذون في المداولة واعطاء القرار في نسمة خليفة للكرسي وكانوا
ملزومين ان يتموا انتخابهم في مدة ثمانية ايام فان لم يتم لهم ذلك في المدة المعينة
كانوا يمنعون عنهم المأكولات ولا يهدمون لهم سوى الخبز وقليل من الخمر فقط
في كل الوقت الذي كانوا بصرفته علاوة على الثانية ايام . ومن شروط ذلك
الاجتماع ان البابا الذي سوف يقع عليه الاختيار يقتضي ضرورة ان يكون من
زمرة المجتمعين لامن غيرهم . وعندما كان يقر الرأي على احد كانوا يحملونه على
الاكتاف ويأخذونه في الحال الى كنيسة مار بطرس وينادون باسمه غب اجراء
الاحتفالات اللازمة ويقلدونه بمفتاحين احدهما من ذهب والاخر من فضة رمزاً
الى منافع السماء الموعود بها الى مار بطرس

وللباباوات رسل عند الدول الاجنبية على نوعين احدهما يدعى قاصداً
وهو الذي ينوب عنه في الامور الدينية والاخر يدعى نونوس وهو الذي يقوم

مقامة في الامور السياسية . واغلب متوظفي حكومة الباباوات هم من طغمة اهل الدين ما عدا العساكر الذين يبلغ عددهم اثني عشر ألفاً فانهم من عامة الناس وسنة ١٥١٧ ظهر مرتينوس اونيروس من اعمال جرمانيا منادياً باصلاح الكنيسة فاهتزت ماللك اوروبا باسرها من تعاليه ومولفاته وقد ذكرناه واوردنا شيئاً من اخباره في تاريخ جرمانيا فلا حاجة الى ذكرها هنا . ومن ذلك الوقت ابتدأت السلطة البابوية الزمنية في السقوط والهبوط يوماً بعد يوم حتى ان بعض الممالك في اوروبا رفضت كل صلة معهم سواء كانت سياسية ام دينية بعد ان وقع بينهم مخاصمات ومحاربات شديدة . ولم يزل امرهم في انحطاط وسقوط الى سنة ١٨٧١ حين دخل الايطاليون الى رومية وجعلوها عاصمة المملكة وذلك عقب انقراض المجمع المسكوني الذي صادق ونادى بعصمة البابا ييوس التاسع . ولكن مع انه فقد السلطة الزمنية لم يزل رأساً للكنيسة الرومانية . اما البابا الحنولي الآن فهو ليون الثالث عشر جلس على كرسي الرئاسة في ٢٠ شباط سنة ١٨٧٨

الفصل الخامس

في اخبار الدولة الرومانية الشرقية بعد انفصالها عن السلطنة الغربية وذلك من سنة ٢٩٥ الى سنة ١٤٥٢ عبارة
عن ١٠٥٨ سنة

قد ذكرنا في ما مضى كيفية انقسام الدولة الرومانية الى ملكين غربية

وشرقية بعد ان شرحنا اخبار الدولة الاولى وحوادث ملوكها الى زمن انقراضها ونذكر الآن اخبار السلطنة الثانية وما يتعلق بها من اهم الحوادث والاخبار على وجه الاختصار فنقول انه بعد وفاة ثيودوسيوس الاول جلس ابنه اركاديوس سنة ٣٩٥ على كرسي السلطنة الشرقية . وكان من جملة ممالكها وملحقاتها الخارجية مصر وسوريا واسيا الصغرى ثم تراكياء وهي قسم كبير من بلاد الرومي ثم داسيا اي مولدافيا وفلاخيا وما يليها من النواحي . وكان هذا الملك ضعيف الرأي عدم التدبير لم يحدث في ايامه ما يستحق الذكر فكانت البلاد في راحة وسلام . ومات اركاديوس بعد ثلاث عشرة سنة من حكمه وخلفه ابنه ثيودوسيوس الثاني سنة ٤٠٨ وكان عمره يومئذ تسع سنين وكان كايه في ضعف العقل وقلة الادراك فلهاذا كانت مدة ايامه تحت طاعة وزرائه واخيه بوليكرىا فكانت متسلطة عليه وقائمة بتدبير الملكة . وحدث في زمانه ان قبائل الهونيين اي الهجرا غاروا على القسطنطينية فحاصروها وضيغوا على الالهالي بعد ان استولوا على سبعين مدينة ونهبوها فالتزم ثيودوسيوس ان يعقد صلحا مع قائدهم تحت شروط مهينة للسلطنة

وبعد موت ثيودوسيوس المذكور خلفته اخيه بوليكرىا فكانت ذات حكمة وفراصة موصوفة بالعقل والاداب وهي اول انثى جلست على سرير السلطنة الرومانية . وكان السبب في انتخابها انخطاط مقام الدولة الرومانية والاهانة التي لحقت بها في ايام اخيها وابيها فاقنض الحال رفع شان الدولة وتقوية شوكتها فاختر اكابر الملكة هذه الاميرة لتكون ملكة عليهم وذلك لما يعهدونه من حكمها وحسن تدبيرها فبايعوها بالملك . ولكن لما كان حكم النساء عند الروم على خلاف العادة خافت من ان يخلعوها بعد ذلك عن الكرسي فتزوجت برجل متقدم في السن من اكابر المجلس يدعى مارسيان وفوضت اليه امور الملكة فكانت احكامها منفردة ومنجدة مع زوجها ثلاث سنين ثم انفرد زوجها بالملك الى سنة ٤٥٧ وموت الملكة المذكورة انقضت عائلة ثيودوسيوس الاول . وبعد

موت زوجها ماريان تبوأ ليو الاول سرير المملكة بانتخاب قواد الرومانيين وهو اول امبراطور توجه بطرك . ثم خلفه ابنه ليو الثاني سنة ٤٧٤ وكان اولاً رئيس المحافظين في ولاية من ولايات الاناضول . ثم تولى بعده زينو ثم انسطاسيوس وكان هذا الرجل قد نشأ بمدينة من مدن ايطاليا وهو من عائلة خاملة الذكر فارتنى بهارته الى ان صار من جملة ضباط القصر الملكي فساعدته التقادير الى ان تزوج بالقيصرة اريانة ام القيصر زينو فسعت في ترفيته الى المسند القيصري وامرت المجلس الروماني بانتخابه قيصراً وكان في اول حكمه مكرماً معظماً من جميع الرعايا ثم سلك مسلك الظلم والعدوان فصار ممقوتاً ومبغوضاً من الجميع . وكان ديناً بهذا المقدار حتى انه كان يعرض بيع المناصب والرتب لمن يشترى . ثم خلفه جوستينوس واصل مولده في بلاد الرومي وكان اولاً يرعى المواشي ثم انتظم في سلك العسكرية وارتقى الى اعلى الرتب في ايام ليو الاول ثم استولى على سرير المملكة بالحملة والخداع بعد انسطاسيوس وسلك في احكامه سبيل العدل والانصاف

وبعد جوستينوس قام جوستينيانوس سنة ٥٢٧ للميلاد فزهت السلطنة في ايامه وعظمت سطوتها بسبب انتصاراته الكثيرة فاستخلص بلاد افريقية من ايدي القندال بواسطة بليسار يوس القائد الشهير الذي اخضع قرطاجنة ايضاً واسر ملكها جليم واتي به الى القسطنطينية فقتل هناك في وسط محفل عظيم . ومن ذلك الوقت صارت افريقية تابعة سلطنة القسطنطينية . ثم زحف بليسار يوس على ايطاليا واخضعها مع سيسيليا وقهر فيتيس ملك الاستروغوت واتي به اسيراً الى القسطنطينية مفيداً بالزناجير . فهذه الانتصارات والافتتاحات حركت حمية قباد بن فيروز ملك فارس على حرب الروم ونجهز بجيش عظيم لقتالهم . ولما بلغ خبره جوستينيانوس ارسل اليه قائده بليسار يوس بالجيش الكبيرة فجرى بينها عدة وقائع نارية اتصر فيها الفرس واخرى الروم فاستمر الحال على ذلك مدة مستطيلة واذ لم يتمكن الواحد من الآخر تمكناً كافياً اوقفنا

الحرب ومهادنة مدة خمسين سنة. وكانت قبائل الغوث في ايطاليا قد اظهرت العصاة يومئذ على الملكة الشرقية واستقلت في تلك البلاد فارسل اليها الملك جوستينيانوس القائد بليساريوس ثانياً ليفانها ويخضعها. وعند وصوله الى ايطاليا وشي به بعض حساده ومبغضيه الى الملك وتكلم في حقه بما لا يليق فاستدعاه الى القسطنطينية وارسل مكانه نارسيس القائد فاستخلص البلاد من ايدي الغوث وادخلهم تحت الطاعة والانقياد ومن ذلك العهد صارت حكومة ايطاليا منوطة بايدي الولاة الروم فكانوا يحكمون عليها ويسوسونها من طرف سلطنة القسطنطينية. وفي تلك البرهة نهض قوم من البلغار بين واتحدوا مع قبائل بلاد السرب وتقدموا بمجموعهم الى مكدونيه واثراكيا فهاجموها ونهبوها وامتدوا في غزورهم وغاراتهم الى ان اقتربوا من القسطنطينية فخرج لتناول القائد بليساريوس المذكور فاقع بهم وشنت عليهم وكانت هذه الحروب آخر انتصاراته اذ رفضه بعد ذلك الملك واكابر الوزراء بسبب وقوع بعض مناسد وقتل اثمهم بها فصار مكروهاً ومبغضاً من الجميع وصرف باقي عمره في الدل والهوان

ولكن مع كل سطوة الملكة وشهرة عظمتها ومجدها من خارج كانت احوالها الداخلية غير مرضية بسبب المصائب التي دهمتها لاسيما بوقوع الزلازل الكثيرة التي حدثت في اقطار الملكة واضرت باكثر المدائن وطلى الخصوص مدينة انطاكية فانه كان قد هدم اكثرها وقتل فيها نحو ٢٥٠ الف نسمة. ثم عتب ذلك وبأعظم دام وقتاً طويلاً. وكان يموت بهذا الطاعون في القسطنطينية يومياً نحو خمسة الاف نسمة على ما قيل ثم اتصل العدد الى عشرة الاف في كل يوم واستمر ذلك على مدة ثلاثة اشهر حتى قل عدد الجنس البشري في ايام الملك جوستينيانوس وانقرضت مدائن كثيرة في الشرق من سكانها

واشهر هذا الملك في اشتغاله بمساعة تربيونيان الفقيه على استخلاص السنن والشرائع الرومانية الكثيرة المجموعة منذ اجيال عديدة وفي سن قوانين

وشرائع مدنية تعرف بالقانون الجوستينياني فكان ذلك من اعظم اعمال ذلك
العصر وهو الان قاعدة واساس الاحكام المدنية الحاضرة

ثم قام بعد جوستينيانوس ابن اخيه جوستينوس الثاني وكان في اول امره
حميد السيرة موصوفاً بالعدل والاستقامة ثم ظلم وجار في الرعية واشتغل بالولائم
والملاهي عن الاحكام وترك تدير الملكة بيد زوجته صوفية التي احبت شاباً
يسمى طيباريوس متصفاً بالذكاء والاراء السديدة فكانت تستشيرهُ في جميع امورها
ولا تعمل الا برأيه فطلبت من زوجها وحملته ان يتبناهُ وان يوصي له بالبصرية
بعدهُ قاصدةً ان تزوج به فاجابها الى سواها وتبناهُ وعهد اليه بالملكة وجعله
مستشاراً وشريكاً معه في السلطنة . وفي ايام جوستينوس المذكور هاجم شمالي
ايطاليا قوم من اللونغوبارد فملكوها واستقلوا بها بعد ان طردوا منها حكام
السلطنة ودعوها ايطاليا اللومباردية . وكان ملك القتر الهبارة قد ارسل الى
جوستينوس سفراء لعقد معاهدة حبية بين الدولتين فرفض هذا الطلب واطهر
التعاضم والكبرياء ثم انفق بعد ذلك مع ملك التركان وتحالف معه على حرب
كسرى انوشروان ملك فارس بسبب منازعتها على بلاد ارمينيا . فقامت
الحرب بين جوستينوس وانوشروان واستمر القتال بين الدولتين الى موت
الملكين فانقطعت الحرب بئونهما مدةً وكانت مدة حكم جوستينوس ثلاث
عشرة سنة

وقام بعدهُ بالملك طيباريوس السالف ذكرهُ . وعند جلوسه على كرسي
السلطنة اقام حرباً مع هرمز بن انوشروان وارسل لقتاله قائداً من خاص قواده
يدعى موريس . بنائين الف فارس فحارب العجم وانتصر عليهم في عدة مواقع .
فكافأ الملك هذا القائد بالمواهب الجزيلة وزوجهُ بابتته وعهد اليه بالملك .
وبعد موت طيباريوس نبأ نخت السلطنة موريس المتقدم ذكرهُ وفي ايامه
حدثت ثورة في بلاد الفرس الزمت هرمز بن انوشروان ان يفر من البلاد
وياتي اليه مستغيثاً به فارحب به واكرمه وامدهُ بالجيوش واعادهُ الى كرسي العجم

تحت اسم ابرويز خسرو الثاني . ثم حوّل هذا الملك انتفائه الى حرب التدر الهبارة الذين كانوا قد اتوا من اسيا واتحدوا مع اللومباردين وسكنوا بانونيا التي هي بلاد المجر فارسل انتاهم قائداً من قواده واصحبه بجيش عديد فاتصر عليهم في خمس وقائع . وكان ملك التدر قد اسر من عسكر الروم في تلك الحروب اثني عشر الف فارس فاعرض على موريس اقتداء الاسرى المذكورين وجعل على كل واحد ديناراً . واذا كان موريس موصوفاً بالبخل الذي لا مزيد عليه لم يقبل بذلك ثم راجعه ملك التدر وطلب منه نصف دينار فداء كل راس فرفض سواه وابي ان يعطيه شيئاً فاغناظ ملك التدر من فرط بخله وذبح جميع اسرى الروم فلما اشتهر هذا الامر نفرت طباع الناس من ملكهم وايغضوه وخذ عليه جميع الجند واظهروا عليه العصيان واقاموا مكانه رجلاً من رعاي الجند يدعى فوكاس فبايعوه بالسلطنة سنة ٦٠٢

وكان موريس وقتئذٍ بالقسطنطينية فلما بلغه هذا الخبر فر هارباً مع عائلته الى خلكيدون فارسل فوكاس في اثره فقبضوا عليه وجاءوا به اليه مقيداً مع اولاده وكانوا خمسة فامر بضرب اعناق الاولاد بحضر ايهم . وبينما كانوا يقتلونهم كان ابوهم ينادي ويقول عادل انت يا الله وعادته هي احكامك ولما انتهوا من قتلهم امر فوكاس بقتل موريس ايهم فقتل . ومن اعمال هذا الملك القضيعة انه عند جلوسه على تخت السلطنة اصدر امراً الى عامله بمصريامه برفض جنس المصريين من الوظائف الميرية فحدث من جرى ذلك اضطراب وقتنة في الاسكندرية وكان اكثر اهل هذه الفتنة طائفة اليهود بالاسكندرية فحكم عليهم هذا الملك ان يتنصروا فتنصروا واعتمدوا رغماً عنهم

اما خسرو الثاني ملك الفرس الذي هو ابرويز بن هرمز فعند سماعه بقتل موريس الذي انتذه واعاده الى ملك ابيه اظهر الحزن والاسف وانتهر الفرصة لفتح باب الحرب مع الروم متخذاً ذلك حجةً وسبباً للانتقام من فوكاس فتمض واستخلص من ولايات الروم الشرقية عدة حصون وقلاع وانصلت

غارائه الى بلاد سوريا وكان فوكاس قد سير جيشاً جراراً لقتاله فانكسر
ونفرق

وكانت امة الروم قد نفرت من تصرف فوكاس واعماله القبيحة وندمت
وزراء السلطنة وباقي الامراء على مبايعته وصمموه على خلعه فكتب احدهم رسالة
من طرف اكابرهم الى هيراكليوس والي افرقية وهو المعروف عند مؤرخي
العرب باسم هرقل ان يحضر لتخليص القسطنطينية من ايدي فوكاس . فلما
وقف هيراكليوس على هذه الرسالة جهز عمارة عظيمة وشتمها بالمهات والعساكر
وارسل ابنة طليعة امامه ثم سار بنفسه الى القسطنطينية وعند وصوله اليها قبض
الشعب على فوكاس واتوا به الى هيراكليوس وضربوا عنقه وعنق اخوته ومن
بلوذ به وبابعلو هيراكليوس في سنة ٦١٠ للمسيح وعمره ٢٥ سنة

وقد ذكرنا ان ابرويز خسرو ملك فارس كان قد تغلب على اكثر ولايات
الروم الشرقية في زمن فوكاس . فاستمر بافتتاح البلاد في ايام هيراكليوس ايضاً
حتى استولى على انطاكية والقدس والاسكندرية ثم انصلت مغازيه الى ديار مصر
وبلاذ المغرب وصالح مصرًا على ان تدفع له مالاً معلوماً كما كانت تدفع لقيصرية
الروم . ثم انه بعد هذه الانتصارات قصد بلاد الاناضول واستولى على بروسه
الواقعة على بوزار القسطنطينية واستعان هناك بقبائل التتر الهبارة ونماهد معهم
على ان يغيروا على بلاد الرومي فغاروا على تلك الجهات ونهبوا المدائن والقرى
واستمرؤا في غزؤهم حتى اقتربوا من اسوار القسطنطينية وانتشروا في تلك الاماكن .
فكانت السلطنة الرومية يومئذ في ضيق شديد محاطة بعساكر الاعداء من
جميع الجهات حتى لم يبق من مملكتها اذ ذاك الا مدينة القسطنطينية وبعض
اقاليم على سواحل البحر . فلما اشتد الحال على هيراكليوس وأبس من النصرة
لنفاة عدد العساكر وعدم وجود النقود الكافية لتعيين الجيوش صم ان يسافر
الى تونس وينقل سربرملكه اليها لانها كانت من جملة ولاياته الغربية . فصده
عن ذلك بطرك القسطنطينية وفتح خزان الكنيسة وامده بما يلزم من الاموال

للعين الجنود والابطال فصالح التبر المذكورين ورفع عنه اثنانم تحت مبلغ معلوم من المال ثم انة عين جيشاً عرمرماً وزحف بنفسه لقتال الفرس وعند وصوله الى كبلبيكة نصب خيامه في ايسوس حيث انتصر اسكندر على داربوس فوافته جنود الفرس الى هناك فانتصر عليهم بعد قتال شديد ثم رجع الى القسطنطينية ظافراً منصوراً . وكانت عساكر الفرس بعد هذه الهزيمة لا تزال تشن الغارة عند وقوع الفرص على تملكات الروم المشرقية وتثير الفتن وتلقي الفساد في اطراف تلك البلاد فهض هيراكليوس ثانية لصد هم وردعهم فعبر البحر الاسود وقطع جبال ارمينية وكان قد اتحد مع التركمان على قتال الفرس فامدوهم بجانب من الجند ثم قصد بلاد العجم وعند وصوله الى نينوى وقع بينه وبينهم قتال مهول انتصر فيه جنده على الفرس انتصاراً عظيماً . واتفق بعد ذلك بايام قليلة ان شيرويه وثب على ابيه ابرويز خسرو ملك فارس فقتله وجلس مكانه وعقد صلحاً مع هيراكليوس بعد ان رد له جميع الولايات التي كان قد افتتحها ابوه من الروم فانسحب هيراكليوس بعد ذلك عن حربه وارتد راجعاً الى بلاده بالعز والنصر

ولكن لم تكن اواخر ايام هيراكليوس كواسطها فانه بعد رجوعه الى القسطنطينية اهل ادارة الاحكام وانهمك في مجادلات دينية من جهة لاهوت المسيح . وفي اثناء ذلك افتتحت المسلمون في ايام خلافة ابي بكر مدينة القدس ودمشق الشام واستولت على جانب كبير من سوريا . وكانت مدة حكمه احدى وثلاثين سنة . وكان نائبة على مصر المنفوس الذي حاربته عمرو بن العاص في ايام خلافة عمر بن الخطاب وافتتح منه البلاد

ومنذ موت هيراكليوس الى قيام جوستنيان الثاني سنة ٦١٥ لم يحدث شيء يستحق الذكر سوى مهاجمة المسلمين القسطنطينية مراراً عديدة ورجوعهم عنها بالنشل والخفية . وكان جوستنيان المذكور عنيداً فاسياً عديم الشفقة مضطرباً في جميع احواله ففتنه الشعب وقواد الجنود فخلعوه عن الكرسي وخلعوه

ليوتيبوس ثم طيباريوس الى سنة ٧٠٥. وكان طيباريوس نظير جوستينيان السالف الذكر فخلعه الشعب عن الكرسي فسار الى بلغاريا وهناك جمع عسكرياً ثم رجع كاراً الى القسطنطينية لاسترجاع تاج الملك فدخلها واغتصب الكرسي قهراً وبقي ملكاً مدة ست سنوات ثم قام عليه الشعب وقتله

وسنة ٧١٦ نبأ سرير السلطنة ليو الثالث وكان اصله من ايسوريا وهي مقاطعة صغيرة في اسيا الصغرى وهو من نسب حفيد الأناة كان حازقاً نجيباً سريع الادراك للامور البعيدة فارتقى بهذه الواسطة الى رتبة سامية في العسكرية ثم نسي بعد ذلك قيصرًا واستبد بالسلطنة الى سنة ٧٤١ وفي ايامه انفتح باب الجدال بين الكيبستين الشرقية والغربية من جهة عبادة الصور ووقع بينها الاختلاف والتزعاج في شان هذه المسئلة حتى انتهى بهما الامر الى الانقسام وفي ايامه ايضا خسرت الروم جميع مملكتها في ايطاليا

وكان بعد موت ليو الرابع ان زوجته ايرينا نبأت كرسي السلطنة بالنيابة عن ولدها قسطنطين السادس الذي كان بومثلاً صغير السن فلما بلغ ابنها اشدّه نزع الملك من يدها وقبض على زمام السلطنة ففسدته واضمرت له الشر طمعاً بالملك ثم احنالت عليه فاعدمته بصره واستبدت باحكام السلطنة نحو خمس سنين وهي التي اعادت عبادة الصور الى الكنيسة الشرقية. وسنة ٨٠١ ارسلت كتاباً الى شارلمان ملك فرانساً تعرض عليه ان يتزوج بها ويضم السلطتين الى سلطنة واحدة كما كانتا سابقاً فتنام عليها قهرمانها نيسيفوروس واستخلص منها كرسي السلطنة وجلس مكانها بعدما نفاها الى جزيرة ليسبوس حيث قضت هناك سنة كاملة في احتياج وضيق شديد وبقي نيسيفوروس المذكور ملكاً الى ان قتله كرومنوس ملك البلغار سنة ٨١١. وفي ايامه غزا المسلمون اسيا الصغرى وقهروا الروم في املاكهم الشرقية وضربوا عليهم الاموال. ثم خلف نيسيفوروس ميخائيل الاول سنة ٨١١ وكان قد حارب كرومنوس ملك البلغار لياخذ بثار سالفه نيسيفوروس فانكسر وانهمزمت جيوشه والنزم ان يهرب وبلغني الى بعض

الاديرة . ثم خلفه ليون الخامس سنة ٨١٢ وهو ارمني الاصل وكان بطلاً هماً ذا صولة وهيبة وعند جلوسه على كرسي السلطنة جهز العساكر والجنود وسار بنفسه لحرب البلغار بين فاتصر عليهم وقهرهم وقتل منهم عدداً كبيراً . ثم خلفه ميخائيل الثاني سنة ٨٢٠ . ثم ثيوفيلوس قليل الحظ سنة ٨٢٩ . ثم ميخائيل الثالث سنة ٨٤٢ وهو اخر ملك تولى من ذرية هيراكليوس وكان طفلاً صغيراً فكانت امه ثيودورا تحكم عنه بالنيابة وكان لها اخ يدعى برداس كان قد اقيم وصياً على الولد في حياة ابيه فاخذته الطمع في تاج الملك ووجه افكاره الى الحصول عليه فطفق يستعمل الوسائط اللازمة لنوال المرغوب واذ نجح في مقاصده طرد ثيودورا من القصر الملكي غير مبالٍ بالمعروف الذي كان قد ناله من يدها ونصرف بالملك مدة ٢٤ سنة . وكان برداس المذكور محباً للعلوم والفنون وهو الذي اقام فونتيوس الشهير بطبركا على القسطنطينية سنة ٨٥٨ . ولكن لما بلغ ميخائيل سن الكمال نفر من برداس لاختلاسه الملك فعمل على قتله بواسطة تابعه باسيل واستبد بالاحكام الى سنة ٨٦٢ وكانت الحروب يومئذ متصلة بينه وبين المسلمين في خلافة المتوكل بالله واخيراً مات قتلاً من يد باسيل

ثم قام بعد ميخائيل الثالث باسيل المعروف بالملكوتي سنة ٨٧٦ وهو اول سلاطين الدولة المكدونية وكان اصل هذا الامبراطور من عائلة فقيرة وسائساً عند سالفه ميخائيل الثالث ماهراً جداً في تربية الخيل . فاحبه ميخائيل ومال اليه لقتله برداس واشركه معه بالاحكام واذ كان هذا الامبراطور موصوفاً بالفراسة والذكاء ومحباً لانتشار المعارف لم يحتمل اطوار ميخائيل القظة وقساوته الشنيعة فعمل على قتله واستبد بالاحكام الى سنة ٨٨٦ واعاد للسلطنة جانباً من عزها وشرفها الاولين باستخلاص كريت والصفليتين ثم باصلاح نظمات وشرائع البلاد وتخصيصها وتقويتها بحيث صارت تستطيع ان تقف حروباً وتقاوم مهاجمات العرب وقبائل اوروبا . ولهذا الامبراطور تاليف يعرف بفن الاحكام كتبه لابنه ليوطي في باريز سنة ١٠٨٤ وترجم للغة الفرنسية سنة ١٥٩٠ وله ايضاً مجموع

للشرايع في ٦٠ مجلدًا تعرف بالباسبلية ابتدا فيها باسيل واكلمها ابنة وهي مطبوعة
ابضاً في باريز حديثاً. واستمرت الاحكام في ايدي سلاطين العائلة المكدونية الى
سنة ١٠٥٦ الميلاد ومن اشهر سلاطينها واعظمهم نيسينوروس فوكاس ويوحنا
زميسيس فكانت البلاد في ايامها تامة وزاهية وكان يوحنا زميسيس
قد حارب المسكوب عند غارتهم على القسطنطينية فاتصر عليهم وقهرهم. ثم
زحف الى سوريا فاستخلص اولاً جزيرة قبرس ثم مدينة انطاكية من ايدي
المسلمين وبعد ان ارجف بغاراته قلوب اهل تلك البلاد زحف بالعساكر
وقطع نهر الفرات وافتتح مدائن وحصوناً كثيرة في تلك الجهات. ولكن بعد
موت هذا السلطان الشهير نبأ سرير الملك عدة ملوك خايلي الذكر ضربنا عنهم
صفحة وكان اخرهم ميخائيل السادس فكانت المملكة في ايامه في حالة السقوط
والضعف

ولما رأى الروم ضعف ملوكهم وسقوط دولتهم بايعوا اسحق كومنينوس
بالسلطنة سنة ١٠٥٦ وكان المذكور من عائلة معتبرة من عيال الرومانيين
فاستبد بالاحكام نحو ستين ثم تنازل بسبب مرض اعتراه. ومن خلفائه
أليكسيوس كومنينوس جلس سنة ١٠٨١ وكانت البلاد في ايامه في اضطراب
وخطر عظيم من مهاجمات الاتراك واستخلاصهم الولايات الشرقية ومن تهديدات
النورمانيين وتقدمهم على القسطنطينية تحت رئاسة روبرت غيسكار بعدما كانوا
استولوا على جميع ممالك الروم في ايطاليا. فتمض اليكسيوس بالجهوش
للمدافعة والحماية عن بلاده من سطوة الاعداء فالتقى بالنورمانيين الذين
كانوا يومئذ محاصرين مدينة دورانسو فقاتلهم وانهزم من امامهم بعد وقائع
هائلة. ثم تجددت تلك المحروب ثانية بين الفريقين بجرأ تجاه جزيرة كورفو
فكانت الدائرة على اليكسيوس. وانفق في ذلك الوقت موت روبرت
غيسكار فانسحب النورمانيون عن الحرب بموت ملكهم وارتدوا راجعين الى
بلادهم وكان ذلك سبباً لنجاة السلطنة الرومية وخلاصها من ايدي المغتصبين.

وكان لايكسيوس الذي نحن في صدده ابنة يقال لها حنة كوميثا ذات عقل
 وادب وذكاء مفرط وكانت من احسن نساء عصرها وانجبت واعظم من اشتهر
 من جنس النساء في فن التاريخ . واشتهر اليكسيوس هذا في صحف التاريخ
 بخيالاته للصليبيين ومقاومته لم سراً فكان يدعوهم في اول الامر من اوروبا
 ويعددهم بالمساعدة على اعدائهم ليضعف بواسطتهم قوة الاتراك السلجوقيين
 الذين كانوا يهددونهم بالحروب والغارات ثم عند انتصارهم يعمل على ضررهم .
 وكان جل قصده بهذه التدابير السياسية تهيج ممالك اوروبا وتشغل افكار شعوبها
 بتجهيز الرجال وجمع الاموال لمحاربة سوريا وفلسطين ليوقي سلطنته من مغازي
 طوائف الافرنج التي كانت طالما تشناق الى فتح تلك البلاد طمعاً باكتساب
 غناها . وقد جاءه الامر طبق مراده فانه بسبب حروب الاتراك مع الصليبيين
 انتهز الفرصة فاستخلص عدة مدائن وجزار كان المسلمون قد استفتحوها منه
 وجعل البلاد ان تكون في امن وسلام ليس فقط في ايامه بل ومن بعده ايضاً
 زمناً طويلاً

ومن ملوك هذه الدولة اسحق انجيليوس حكم من سنة ١١٨٥ الى سنة ١١٩٥
 وفي ايامه استقلت بلاد البلغار بعد حروب مهولة وأخذت جزيرة قبرص
 وبيعت كريت الى قنيس ثم اظهر الهصيان عليه اخوه اليكسيوس انجيليوس
 فانزله عن الكرسي ومجته بعدما قلع عينيه وجلس مكانه . فهرب ابن اسحق
 المذكور وكان اسمه اليكسيوس ايضاً الى مدينة رومية واستغاث بالبابا اينوسنت
 الثالث في اعادة ملك ابيه اليه . وكان وقتئذ مجتمعاً في مدينة قنيس جمهور
 غفير من عظماء اوروبا واشرافها بقصد ارسال تجريدة صليبية رابعة الى فلسطين
 فارسل البابا اليهم اليكسيوس واصحبه بتوصية قوية الخ عليهم فيها ان يندوه
 من تعدي عمه وظلمه . فاجابوه الى ذلك وارسلوا معه جماعة من الحجاج القاصدين
 زيارة الاراضي المقدسة مع عشرين القامين القنيسين الى القسطنطينية وعند
 وصولهم الى المدينة حاصروها بعد ان احرقوا عمارة الروم المحافظة عليها . ولما

اشتد الحال على اليكسيوس انجيلوس هرب سراً خوفاً من القتل فعند ذلك حلت الاهالي ملكها الاول اسحق من الاعتقال ونادت باسم ابنه اليكسيوس وفتحت ابواب المدينة الى اللاتينيين فدخلوها على سبيل الضيافة . وكان لما وعد البابا اليكسيوس بالمساعدة على هذه الكيفية اخذته وعداً بأنه عند نهاية الامر ونوال المرغوب يحل السلطنة الشرقية ان تكون خاضعة لاحكام الباباوات وقوانينهم وأنه يكون مساعداً في جميع الحروب الصليبية وان يعطي منفذيه تقيماً كافياً مقابل لانتعاشهم . فاستعظم الروم هذه الشروط ورفضوها ولا سيما انهم نفروا من خدش استقلالية كنيستهم . فاجتمع جمهور اعيانهم وطلبوا من المجلس العالي ان يعزل لم اليكسيوس بن اسحق المذكور ويختب لم امبراطوراً اخر يكون أكثر لياقة لذلك المنصب السامي . فلبى المجلس مرغوبهم واجابهم الى مطلوبهم واقام لم اليكسيوس دوкас المائب مازوفلوس ملكاً وعند جلوسه على سرير السلطنة قبض على اليكسيوس بن اسحق وقتله وأما ابوه فمات بعد ذلك في شيخوخة محزنة

واذ لم يعد مازوفلوس بوعد سالفه اليكسيوس الذي تعهد به للبابا نهض اللاتينيون وحاصروا المدينة ونملكوها ونهبوها وهدموا قصورها وابنيها المستخرقة واقاموا عليها قائد هم بودوين امبراطوراً وبقي ملكاً الى ان مات قتيلاً في وقعت حدثت بينه وبين اهالي تراكيا . واستمر حكم اللاتين على السلطنة الشرقية من سنة ١٢٠٦ الى ١٢٦١ وكانت حروب الروم في اثناء هذه المدة متصلة دائمة مع اللاتين طمعاً باستخلاص العاصمة من ايديهم . وفي غضون ذلك استمرت امة الروم ملكين روميين احدهما في نيقية سنة ١٢٢٢ وملكها ثيودور لاسكاريس والثانية في طرابزون وملكها اليكسيوس كومنينوس فكاتبنا في نحو عظيم يوماً بعد يوم بينما كانت سلطة اللاتينيين في القسطنطينية في هبوط وسقوط . وفي سنة ١٢٦٠ اذ كان ميخائيل باليولوجوس ملكاً على نيقية نهض مع صاحبه يوحنا لاسكاريس وهاجما القسطنطينية في زمن سلطانها بودوين الثاني فاستخلصاها من ايدي

اللاتين واعادوا اليها تخت السلطنة كما كانت في سالف الازمنة وجلس على سريرها ميخائيل باليولوغوس السالف الذكر وكان يوحنا لاسكاريس الذي اعانه واشترك معه على استخلاصها وتحريرها منتظرًا الخلافة بعده . فعامله باليولوغوس بفساوة وحشية اذ قلع عينيه ونفاه من اقطار السلطنة . فخرمه البطريرك ارسانيوس على هذا الفعل الفجيع واستمر باليولوغوس ملكًا الى ان توفي سنة ١٢٨٠ فقام مكانه ابنه اندرونيكوس وفي ايامه اغار على السلطنة طوائف من الاسبانوليين فلم يتمكنوا منها وكانت البلاد يومئذ في قلق واضطراب بسبب ثورات داخلية

وسنة ١٢٥٥ نبأ سرير السلطنة يوحنا باليولوغوس وكانت مدة حكمه نحو ٢٦ سنة وكان ملكًا ظالمًا قاسي القلب قبيح السيرة ومن جملة قبائحہ انه قلع عين ابنه الاكبر اندرونيكوس وحفيده يوحنا وسجنها وسمى مانويل ابنه الثاني وريثًا له . فهاج الشعب من هذا الصنيع الشنيع واجتمع اعيانهم فاخرجوا الاعبين من السجن واعادوها رغبًا الى كرسي الملكة . فالتزم باليولوغوس ان يهرب مع ابنه مانويل وبسبب ذلك وقع تخريبات وانقسامات بين الاهالي الجائهم الى ان يشهروا السلاح بعضهم على البعض واخيرًا اتفقوا على ان يتسولوا السلطنة الى قسمين فحصلوا مدينة القسطنطينية لباليولوغوس وابنه مانويل وضموا باقي البلاد الى حدود القسطنطينية للاميرين الضربرين

وفي سنة ١٢٩٥ اغار على القسطنطينية السلطان بايزيد من آل عثمان ويهدد ملكها بالخراب فعقد معه صلحًا تحت مالٍ معلوم بدفعه له فانسحب عنه ثم هاجمها ثانية سنة ١٢٩٩ تحت حجة الاخذ بشار يوحنا الاعى فحاصرها وضيق عليها فالتزم مانويل ان يهرب الى فرانسَا بطلب الامداد والنجدة فلم ينجده احد . واتفق في اثناء ذلك ظهور تيمورلنك واغارته على الولايات العثمانية فاضطر السلطان بايزيد ان يرحل عن القسطنطينية خوفًا من سطوة تيمور على بلاده

فكر راجعاً وحاربته بقرب مدينة انقره فانهزمت جيوشه وقتل هو في تلك الموقعة.
 وقام مكانه محمد الاول فاستولى على بلاد البشناق والفلاخ ثم جلس بعده السلطان
 مراد صاحب الوقائع المشهورة مع الدول الافرنجية ولاسيا في موقعة قارنا.
 ثم صعد بعده على سرير الملك السلطان محمد الثاني الملقب بالفاتح وكان من
 الشجعان الموصوفين ولم يكن دابة الا الغزو والجهاد واقتتاح البلاد وكان قد
 صمم النية على استخلاص القسطنطينية والاستيلاء على السلطنة الشرقية فجهز العساكر
 والجنود وعقد الرايات والبنود وزحف اليها بثلاث مئة الف مقاتل في زمن
 ملكها قسطنطين الذي هو اخر سلاطينها فحاصرها براً وبحراً الى ان افتتحها فوقه
 وقهرها في اليوم التاسع والعشرين من شهر ايار سنة ١٤٥٢ وصارت من ذلك
 اليوم كرسي سلطنة دولة آل عثمان . وقد مر استيفاء الكلام على حصارها
 وافتتاحها في تاريخ الدولة العثمانية ومن ذلك الوقت انقضت السلطنة الشرقية
 وهكذا بالتدريج فقدت جميع مملكتها وولاياتها فان اثينا سقطت سنة ١٤٥٦

ثم مولدافيا وبلاد السرب ثم المورة وطرابزون والباينا ثم بلاد القرم

وغيرها من المداين الاوروبية التي قد مر ذكرها في

الكلام عن تاريخ آل عثمان فسبحان

من يغير ولا

يتغير

الفصل السادس

في مملكة اسبانيا

الباب الاول

في جغرافية هذه البلاد

ان مملكة اسبانيا هي شبه جزيرة ونحسب من الممالك الشهيرة نظراً لوضعها
وقدميتها ومحاصيلها . اما هواؤها فليد لا يتسلط فيها البرد الشديد كباقي البلاد
الشمالية . وفيها كثير من الجبال المصفرة المرتفعة وادية مستظرفة مبهجة الى
الغاية . اما حدودها فللشمال الشرقي فرانسا يفصلها سلسلة جبال الپيراني اري
جبال البرن وللشمال الغربي الاوقيانوس الاطلانتكي وخليج بيسكي وغرباً
البورتوغال وجنوباً البحر المتوسط وبوغاز جبل طارق الفاصل بينها وبين
افريقية وشرقاً البحر المتوسط ايضاً . ومن جملة ما يثبت في هذه البلاد القمح وغيره
من الحبوب والنباتات والبقول وانواع من الثمار والتفواكه كالرمان والتين
والليمون واللوز خصوصاً العنب الذي يستخرجون منه الخمر الجيدة . ويوجد
فيها من احسن اجناس الخيل ولا سيما الغنم المساة مروية وهي ذات اصواف
عظيمة رفيعة يصنعون منها الشالات النفيسة والاقشة الثمينة . وبها ايضاً عسل
النحل والحريم والقرمز وغير ذلك

اما سكانها فيبلغ عددهم سبعة عشر مليوناً عدا سكان املاكها الخارجية .
واكثر اهلها في حالة الغباوة ويمتازون بصلابة الراي . والفقر بينهم كثير من

جری حروبهم الداخلية التي تكاد تكون متواصلة ولكن مع ذلك توجد فيهم
الاناسة واللفظ وهم يحبون الملاهي والمسرات

وعاصمة هذه المملكة مدينة مادريد وهي من المدن الظرفية تحتوي على
٢٧٥ ألفاً من السكان يحيطها سور كبير وأزقتها عريضة ونظيفة وفيها من الابنية
والمعامل والمدارس والمكاتب ما يكفي لان يجعلها بين صفوف مدائن الرتبة
الاولى وكانت في زمن تلك الرومانيين قرية حنيرة ولما افتتحها المغاربة سنة
١١٠٩ اقاموا فيها الحصون والابرار واطلقوا عليها اسم مادريد . سنة ١٤٠٠
اعتنى بتحسينها وتكبيرها الملك هنري الثالث ولكنها لم تصر عاصمة المملكة الا سنة
١٥٦٢ في ايام فيليب الثاني

ولهذه المملكة تملكات خارجية يبلغ عدد اهلها نحو ستة ملايين ونصف منها
جزيرة كوبا الشهيرة وجزيرة بورتوريكو في اميركا وهي التي اكتشفها كريستوفوس
كولمبوس سنة ١٤٩٢ ومن ذلك الوقت صارت من تملكات الاسبانيولين
واكتها دخلت في ايدي الانكليز مدة قصيرة ثم ارجعها لاصحابها والمرجح بانها
لا تبقى تابعة اسبانيا زمناً طويلاً وسيصيرها ما اصاب باقي تملكانها في اميركا .
ومنها ارضييل الفيلين بين جزائر الاوقيانوس

وفي هذه المملكة قصور وكنائس وابنية فاخرة من اعجب ما يوجد في العالم
اقامها العرب في زمن تملكهم تلك البلاد . اما الديانة الغالبة فهي اللاتينية

الباب الثاني

في تاريخ اسبانيا منذ منشاها الى ظهور فرديند وازبالا في

الجيل الخامس عشر للميلاد

ان اول من دخل اسبانيا الفينيقيون بقصد التجارة لكثرة معادنها وغلايتها
فكانوا يبيعون لاهلها محصولات بلادهم ويحلبون منهم الذهب والفضة . وكثرة

ترددهم اليها بنوا عند مضيق جبل طارق عمودين كبيرين وها المعروفان
بعمودي هر كول فكانا علامة حد لا سفارهم اذ لم يجرأوا وقتل على الدخول الى
المحيط التاسع. ثم بعد الفينيقيين دخل اليونان الى اسبانيا وبنوا فيها عدة مدائن.
ثم دخل بعدهم القرطاجيون وتملكوها ولكنهم لم يلبثوا زماناً طويلاً حتى استولوا عليها
الرومانيون من ايديهم سنة ١٢٤ ق م وبقيت في حكمهم الى سنة ٤٠٦ للميلاد
حين اتى قوم من برابرة شمالي اوروبا يدعون سوافيين وهم قبائل مختلفة من
شعوب جرمانيا كالسكيثيين والفندالين الذين باسمهم سميت البلاد انديلوسيا
اي الاندلس واستولوا عليها. فسكن بعض هذه القبائل فيها مدة قصيرة ثم رحلوا
عنها وبعضهم اقاموا فيها اكثر من مئة سنة. وفي اثناء ذلك اتى قوم من نواحي
الدينبارك واسوج ونروج سنة ٤٧١ للميلاد يدعون بالغوثيين فدخلوا الى
اسبانيا وغلبوا عليها واستولوا على قسم من فرانسا ايضاً. وكان اليونانيون
يترددون كثيراً على اسبانيا حتى صار لهم حيلة مراكز على الشواطئ البحرية في زمن
الملك جوستينيانوس فنقض الغوثيون لمناومتهم سنة ٦٢١ وابعدهم عن تلك
الجهات واستقلوا في البلاد بدون معارض ولا منازع وكانت مدة اقامتهم فيها
نحو ٢٠٠ سنة. وكان آخر ملوكهم رودريك الذي في ايامه هاجمت المسلمون
البلاد واستلموها كما تقدم القول في اخبار العرب ما عدا اراضي استوريا التي
على الشاطئ الشمالي. واذ كان لكل امرٍ سبب لا باس من ذكر الاسباب التي
هيأت الطريق لدخول المسلمين الى اسبانيا فنقول ان رئيس قبيلة الغوث
المسمى اورك كان قد نظم لاسبانيا قوانين جديدة وتنظيمات مفيدة ارتقى بسببها
الى درجة سامية عند الاهالي فاقاموه عليها ملكاً. ثم تنصر الغوثيون في ايام
الملك ريكارد الاول واخضعوا بالامة اللاتينية والامة الاسبانيولية الاصلية فصاروا
جميعاً امة واحدة اسبانيولية. وكان الغوثيون يقيمون ملوكهم بالانتخاب فكان
ذلك مصدراً للنزاع والتعزبات والحروب الاهلية. فانفق في اواخر الجيل
السابع ان ملكاً من هؤلاء القوم يقال له فينينزا وقع بينه وبين دوك كردوفا

نزاع فاستطال على الدوك المذكور وقلع عينيه فنهض ابن الدوك للانتقام من الملك واخذ بشار اليه وكان اسمه رودريك والعرب يسمونه لزريق وقاتل الملك فينيترا وانتصر عليه واغتصب منه تاج الملكة سنة ٧١٠ للميلاد . حينئذ ذهب اولاد الملك المخلوع مع باقي اقاربهم الى بلاد المغرب والنجاوا الى موسى بن نصير العامل من طرف الوليد بن عبد الملك وطلبوا منه ان ينم حرباً على الاندلس ويستقم من ملكها رودريك فكتب موسى الى الوليد يستأذنه بذلك فاذن له . فارسل موسى جيشاً جراراً تحت قيادة طارق بن زياد فافتتح البلاد شيئاً بعد شيء . وكان الاسبانيولون يفرون من امامهم منهزمين حتى انحصروا اخيراً في اراضي استوريا الوعة الكائنة على الشاطئ الشمالي واستوطنوا بها لكونها صعبة المرقى لا يمكن الوصول اليها وكانت قلوبهم مع ذلك مملوءة خوفاً ورعباً من سطوة اعدائهم المسلمين . فذه العيشة المتعبة مع ما تبعها من الاحتياجات والصعوبات صلّت قلوبهم وجعلتهم قوماً ذوي اقدام وبطش لا يبالون بالاهوال والمصائب ولا يرهبون حادثات الدهر

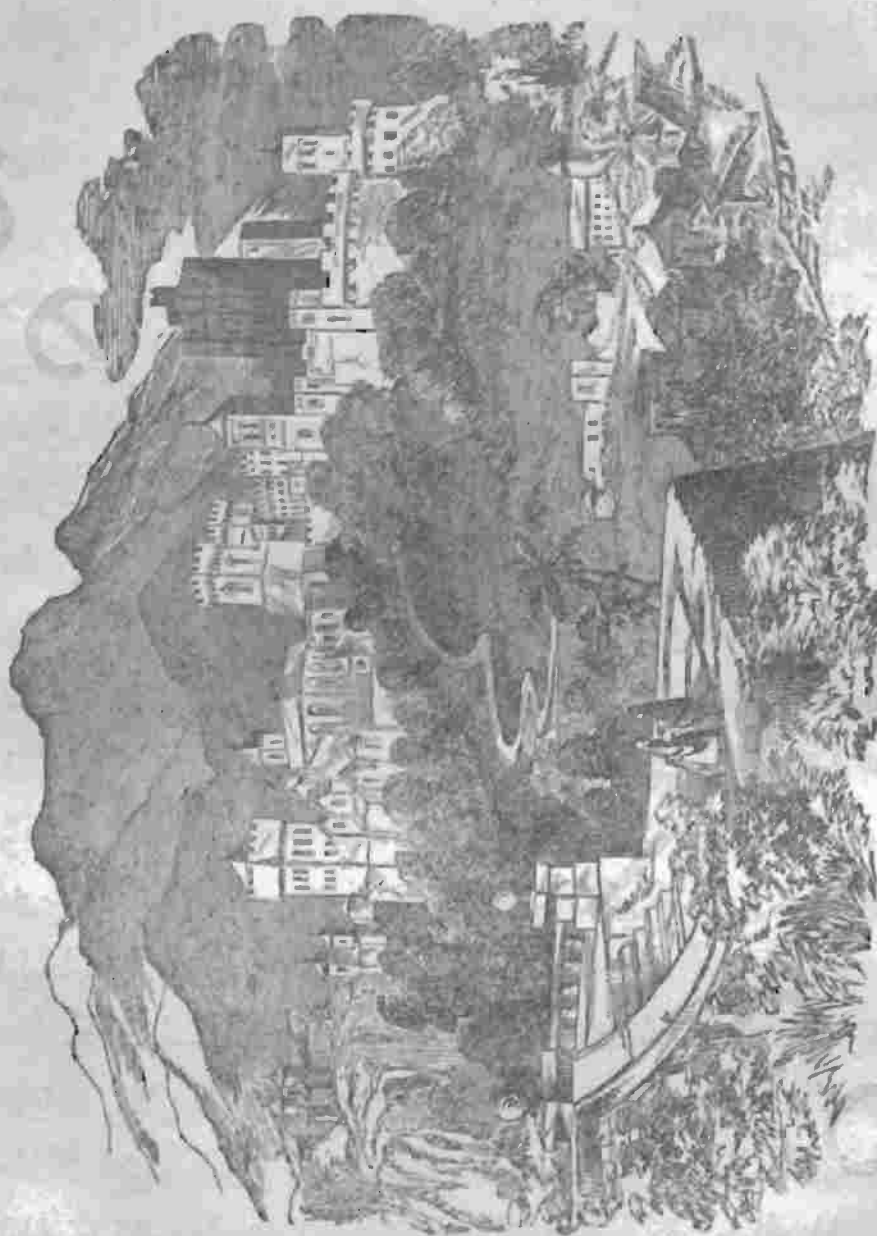
اما المسلمون تحت حكم الخلفاء الامويين فكانوا متمتعين بالراحة والسكينة لا فلاقيل بينهم تزعمهم فنشأت بينهم العلوم والمعارف وازدهرت وانت باثمار لم يات بها غيرهم من اقوام تلك الاعشار فانهم اتقنوا فن الزراعة وعلم البحر والتجارة وغير ذلك بينما كان سكان باقي اوروبا غائضين في لجة بحر الجهالة والغباء لا يعرفون شيئاً من الفنون والعلوم . وقد ترجم افرس بن رشد الكرذوثي كتاب ارسطاطاليس فترى الكتاب في مدارس كرذوثا وفي افريقية بين المراكشيين وانصبوا على درسه وعدوه فسموا من العلوم الرياضية لما فيه من الحكيم والبراعة . وزها في مدارس المسلمين ايضاً علم الجبر والحساب وانصبّت الطلبة على العلم من كل ناي وتنافسوا به . اما الافرخ فلم يكن منهم من يعرف ما هي الحروف الهجائية حتى ولا اشرافهم ايضاً . ولما رأى المسلمون حالهم في عز وامن انهم كانوا في التعم واللغات وانعكفوا على ممارسة الفنون فاكسهم ذلك الرخاوة ونحافة الجسم

واضعف جانباً من قواهم العسكرية وحميتهم الحربية ثم انتشبت بينهم خصومات وقلاقل فعند ذلك اغتم الاستوريون الفرصة وانسحبوا من شمالي البلاد خلقاً كثيراً واندفعوا على املاك المسلمين وامتلكوها مدينة بعد مدينة ومقاطعة بعد اخرى الى ان استولوا على القسم الاكبر منها. وسنة ١٢٨٢ هاجم المسلمين قوم الكاستيليين بجيش جرار تحت قيادة الفونسو السادس وفريدريكو دي ييفار الملقب بسيد كامبادور وكان بطلاً شجاعاً فوصلوا الى مدينة طوليدو اى طليطلة التي على نهر تاغوس وامتلكوها بعد حصار ثلاث سنوات . فلما رأى المسلمون ما حل بهم استجدوا اخوتهم المراكشيين فبادروا لمساعدتهم وقاموا الاسبانوليين اشد مقاومة فكسروهم ككرة هائلة في الزلقة . وكان قائداً على قوم المراكشيين رجل اسمه يوسف واذا رأى ان النصر جاء على يده اخذ الطبع في الجلوس على تخت الخلافة الاندلسية فنجح في مساعيه وارتقى الى تلك الرتبة الرفيعة فكان راس دولة المرابدين

ومن ذلك الوقت لم تنقطع الحروب بين الاسبانوليين والمغاربة وكان النصر متردداً بين الفريقين الى ان انتصر الاسبانوليون اخيراً سنة ١٤٥٠ على اعدائهم فاقاموهم من البلاد التي انتشروا فيها وحصروهم في مملكة غرناطة التي كان المسلمون قد اسسوها منذ سنة ١٢٨٢ . وكانت هذه المملكة كثيرة المدن والسكان واهلها من ذوي الغنى والمقدرة . وعاصمتها تدعى غرناطة ايضاً وكانت مزينة بالابنية الجميلة المزخرفة التي تذهل الناظرين . ومن محاسن ابنتها الحمراء وهو قصر فاق زهاء وبهجة على جميع قصور العالم ولم تزل آثاره الى الآن

ومع ان الاسبانوليين استولوا على اقسام كبرى في البلاد كانت املاكهم غير منضمة بعضها الى بعض بل منقسمة الى عدة ممالك صغيرة مستقلة وكانت الحروب بينهم متواصلة والخصومات دائمة غير عالمين ان هذا الانشقاق يكون وبالاً وتهلكة لم ولكنه وقع اخيراً الامتزاج والالفة بين تلك الممالك واتحد اهلها

بعضهم مع بعض وكان اشهرهم واعظمهم مملكة كاسنيل المشتهة على استوريا
فضها الملك فرديند سنة ١٢٣٠ مع ولاية ليون وصيرها مملكة واحدة ثم اغتصب



البحر في اسبانيا

من المراكشين مدينتي كردونا واشيلية. وكذلك خمس الاول الازاغوني احد
ملوك ذلك العصر تغلب على بعض الجزائر وعلى ملكي فالنسيا وموريكا. كما ان
الفونسو الحادي عشر من كاسنيل استظهر على الجزائر سنة ١٢٠٩ فبذلك

صارت الملكة اسبانيولية ذات شوكة وعظمة

وبعد موت الفونسو هذا خلفه ابنه بطرس الاول وكان ملكاً ظالماً بهذا المقدار حتى انه قام على امرائه الملكة بلانش البوربونية وقتلها ثم جار على اخيه هنري بالظلم والعدوان حتى الزمه ان يعاديه ويقصد ضرره . فذهب هنري الى كارلوس الخامس ملك فرنسا واستجار به فاجاره لانه كان يريد ان يتقم من بطرس لقبه بلانش وانجده بجيش من العساكر الفرنسية فحاربوا بطرس وخلعوه عن سرير ملكه . ففر هارباً واستجار بادورد الملتب بالامير الاسود وكان يومئذ متولياً اماره الانكليز في اكيتين من اعمال فرنسا . فاجاره مراعاة لقوانين الشرف واراد ان يخضع له من اعدائه فخرج في قوم من جنده الى اسبانيا وبتش بالفرنساويين والكاستيليين وكسرهم كسرة مهولة واخذ قائدهم اسيراً وارجع بطرس الاول الى سرير ملكه . ولكنه بحال رجوعه رجع بطرس الى ما كان عليه من السبaths والمظالم فاهله الامير الاسود ولم يشأ ان يساعده بعد . وكان شارل الخامس قد افتدى قائد جيشه الذي اسره الامير الاسود فارجه اذ ذاك لنجدة هنري فحارب كلاهما بطرس الاول واستظهر عليه في وقعة عظيمة وبعد ان قبضا عليه وقتلاه صعد هنري على تخت الملكة سنة ١٢٦٩ تحت اسم هنري الثاني وظهر من نسله عدة ملوك حكموا ملكي كاستيل واراغون الى واسط الجيل الخامس عشر

وكانت اسبانيا وقتئذ منقسمة الى قسمين كبيرين الاول مملكة المغاربة في غرناطة والثاني المالك الرابع المسيحية التي كانت لكلٍ منهم ملك مستقل . فالمملكة الاولى كاستيل وتمتد من بحر بيسكي الى البحر المتوسط . الثانية مملكة اراغون وتضمن على نفس اراغون وباقي الولايات التي بينها وبين البحر المتوسط . الثالثة مملكة البورتوغال او بورتانيا القديمة وكانت قبل ذلك العصر بيد المسلمين زماناً الى ان اناها الفونسو واستظهر على اهلها في واقعة كبيرة واخذ مدينة ليصبون واسنولى على اربع ولايات منها فصارت مملكة اسبانيولية سنة ١١٢٩ .

والمملكة الرابعة كانت مقاطعة بيريني النافارية

الباب الثالث

في اخبار الملك فردينند والمملكة ايزابله والتفتيش الديني الذي
حصل في ايامها وخروج المسلمين من اسبانيا وحوادث
اخرى الى سنة ١٨٧٤

ولما استوى حال اسبانيا واعصبت ممالكها بعضها مع بعض حصلت البلاد
في غنى ونجاح لاسيا بواسطة نظامها المستحسنه التي اوجدت فيها الراحة
والسلم فكانت في تقدم بينما كانت شوكة المسلمين في انحطاط . وما زاد اسبانيا
سطوة انضمام اقسامها الى مملكتين قويتين وهما مملكة كستيلة ومملكة اراغون
اللذان انحصرتا فيما بعد في عائلة واحدة بتزوج فردينند ملك اراغون بايزابله
ملكة كستيلة سنة ١٤٦٩ . فلما اقدرن هذان الشخصان اتفقا على ضم الممالك
الاسبانيولية الى واحدة وطردها المغاربة من غرناطة وغير ذلك من الامور مما سباني
ذكره

وكانت ايزابله هذه على جانب عظيم من المحذقة في الآداب والمعارف
رقية الطبع انيسة لطيفة مستقيمة الراي ذات اقدام في الامور وكان لها من العمر
يومئذ ثمانى عشرة سنة وهي ذات جمال باهر بذهل الناظر وقد طلبها كثيرون
من ذوي الغنى والرفعة فأبى الى ان خطبها فردينند ملك اراغون وتزوجها
وبذلك صارت مملكتا اراغون وكستيل مملكة واحدة من اقوى ممالك الدنيا
واعظمها . الا ان ايزابله كانت متولية زمام مملكتها كاستيل لانها كانت قد
اشترطت على زوجها فردينند بان يبنى حكم الملكة المذكورة بيدها . فافرغت
هذه الملكة الجليلة كل جهدها في ترقية اسباب نجاح مملكتها ولاجل تنكيس

سطوة الاشراف وكبريائهم قوت واحيت جمعية الاخوية المقدسة المعروفة بساتنا
هرمندا التي تشكلت منذ القرن الثالث عشر لاجل الغاية المذكورة وسلت
اعضاءها زمام ضبط البلاد . فكانوا يحكمون ويعدلون بين الشعب ويفاصون
المذنبين ويعاقبون سالي الراحة العمومية بدون نظر الى رتبهم ومقاماتهم .
فتقوى العدل في اقرب وقت واطمان الاهالي وعادت تلك الجمعية بالضرر
على الاشراف . فتشكوا منها للملك والمملكة وطلبوا محوها فلم تستجب انعامهم بل
بالعكس لما راي فرديند المنافع الصادرة عن الجمعية المذكورة سعى في تقويتها
وبذل جهده في حمايتها وامل نوال المرغوب بواسطتها في اضعاف احكام
البارونات وحقوقهم الاثزامية . وكانت الملكة ايزابله تعلق بنفسها من جواردها
وتجول من مكان الى اخر تفتقد احوال الرعايا وتنصف بينهم حسب مقتضى
الشريعة ولم تأخذ بالوجه او تبال بذي رتبة او نعمة بل تجري القانون على
اي نعمة وبذلك رنع الاهالي بالامن والهدو وشيد حكمها وتقوى . غير ان تلك
الطهارة والاستقامة التي انصفت بها ذاهبا الجائلة قد افسدها بعض المتسدين
فلأوا قلبها وسواسا وخرافة وجعلوها تعد وعدا صادقا بانها تتناصل كل هرطقة
في ملكها . وقد ذكرنا في الكلام عن باباوات رومية ما اجراه انيوسنت الثالث
من الاضطهاد على الولدنسيين والاليجنسيين وكيف نظم مجلعا لفحص الهرطقة
وابادهم . فاذا كانت ايزابله مرتبطة بالهد السالف ذكره فكأن اصحاب الغايات
من اقناعها على غير رضى قلبي منها ان تصادق على وجوب اجراء التفتيش
الديني في اسبانيا كما كان جاريا في فرانسفاصادفت عليه وأقيم التجسس في
الملكة وبلغ حالة الى اعلى درجة من الفحش مما لم يصل اليه في اماكن اخرى .
واول مدينة اقيم فيها التجسس المذكور مدينة اشبيلية في ١٧ ايلول سنة ١٤٨٠
وسامه احد الناس بالخدمة المقدسة فارسل لها البابا سكستوس السادس غفرانا
مجانيا على حسن تصرفات اهلها وكان ذلك بطلب بعض الرهبان الدومينيكيين
وموافقة الملك ايضا

وكان اليهود خلقاً كبيراً في اسبانيا ذوي املاك وثروة وكان غنهم ظاهرة
لعموم الناس فهاج عند ذلك حسد الحساد من الاشراف وطمع الملك فيهم
ومالوا باجمعهم عليهم وصمموا على خرابهم واهلاكهم فاقاموا عليهم حججاً وشهوداً
بانهم في اعيادهم الاحتفالية يذبحون اولاداً مسيحيين وقد حلفت خمسة وعشرون
من الاشراف بانهم راوا اليهود في عبد القصح يصلبون ولداً مسيحياً . فصدق
الشعب كل ما قيل على اليهود واضطهدوهم حتى الموت في جميع اطراف اوروبا .
وكان الاسرائيليون في معظم زهائمهم في اسبانيا على جانب عظيم من الذكاء
والاداب والمعارف يشاركون المسلمين في الانعكاف عليها . وبعد انقلاب المغاربة
في اسبانيا بقي اليهود مع الاسبانوليين وهم يتقدمون رويداً رويداً الى ان صاروا
اغنى قوم في المملكة وكان الاشراف يستندون منهم الاموال ولذلك لم يجدوا
طريقاً لوفاء ديونهم الا بتدمير اليهود وابادتهم وتحويل كل املاكهم لمنفعة
الكنيسة والشعب

وفي اثناء ذلك اصدر المحسسون امراً يقولون فيه انه من المفتضي القبض
والشكاية على نابي الهرطقة وعلى الذين يظنونهم الهرطقة . فتواردت الشكايات
من كل فج عميق . وكان اوجيد احد رؤساء المحسسين وقومه الثملة قد جعلوا
اقامتهم في قلعة سبانا خارج المدينة لكي يتمكنوا من اجراء افعالهم الردية من
قتل الانفس والانتقام من عباد الله الابرياء فكانوا كلما راوا احداً من اليهود
يوم السبت لابساً ثياباً احسن حالاً من ثياب باقي ايام الاسبوع ياخذون ذلك
الرجل ويلصقونه ويتفنون منه ظمأ وعدواناً . وفي برهة الاربعة الايام الاول من
اقامتهم في القلعة احرقوا بالنار ستة رجال ولغاية شهر تشرين الثاني بلغ عدد
المحروقين ثلث مئة رجل . ولم يكف هؤلاء القوم بالانتقام من الاحياء فقط
بل نبشوا الاموات من قبورهم واحرقوا رممهم على رؤوس الشهداء ولم يهابوا
الاله ولا الانسان وكان اضطهادهم في الغالب متجهاً نحو الاغنياء سواء كانوا
احياء ام امواتاً فكانوا يضبطون املاكهم وممتلكاتهم

وفي غصون ذلك ضرب الله مدينة اشيلية بواب اهلك من اهلها ١٥٠٠٠
نفس فلم يعتبر المتجسسون ذلك بل اتقلوا الى مكان اخر واستمروا على ما كانوا
عليه من الاذية حتى انهم في مدة سنة واحدة اهلكوا التي نفس حرقاً . واذ كان
هذا المشروع بعد من المشروعات المقدسة اقام الحبر الروماني الخوري توركبادا
معلم ذمة الملكة ايزابله رئيساً عاماً في كاستيل واراغون على ذلك التفتيش
الديني واعطاه سلطاناً بان يرتب مجلساً جديداً هناك . فبادر حالاً الى ذلك
الامر واقام مجلساً كبيراً مؤلفاً من عمد الناس والاشراف وكان عدد جمعيات
الفرعية ثلثين جمعية منشرة في اطراف الملكتين

ولول امر اجراء المجلس المذكور انه اشتهر اعلاناً في الكنائس ايام الاحاد
مضمونة ان كل من يعرف او يشبه بشخص انه تابع الهرطقة يلتزم ان يقرر عنه في
الحال وان لا يحل الكهنة كل من تهمل بهذا الامر . فالتزم الانسان ان يقرر
عن معرفة بهذه الحالة ولو كان اباه او امه او احد اقاربه حتى ان الشكايات
كانت تُقبل وتُسمع ولو زوراً . فكان الكاتب يسجل اسماء الشهود مع شهاداتهم
وبعد ذلك يامر المجلس بالقبض على المشتكى عليه فيأخذونه قبل الفحص
ويجسونه في سرداب مظلم تحت الارض حيث وضع رقباه من قبل المجلس قد
تعاهدوا على انفسهم بقسم ان لا يدعوا احداً من المسجونين يراهم او يشعروهم
ليتجسسوا حركاتهم واقوالهم ويخبروا المجلس عنها . وبعد ابقاء المسجون زماناً في
ذلك السرداب يؤتى به للمحاكمة امام المجلس فان ابي ان يقر بكونه مذنباً يوضع
حالا تحت العذاب الاليم اما بالة معدة لذلك واما بالنار وذلك في مكان
منعزل بلا حواء ولا شفقة واذا اقر من شدة العذاب بان افكاره هرطقة يكون
عن تعذيب في الحال مشرطين عليه ان يعيد هذا الاقرار مرة اخرى في اليوم
التالي اذا بقي حياً . فاذا ابي ان يفعل ذلك يعرضون حالاً جسده المتوجع الى
عذاب اشد من الاول فلا يكون امامه سوى الموت المر او عيشة الذل
والفاقة والمسكنة مملوءة جسده من القروح فيضعف نسله ويكون مهتوك العرض

بين الناس

ثم ان التجسسين الحوا على فرديند وايزابله ان يصدرا امراً بنفي كل اليهود الذين لا يقبلون المعمودية فاجاباهم الى ذلك واصدرا امراً بهذا الخصوص سنة ١٤٩٢ فالتزم هؤلاء المنكودو الحظ ان يترحوا عن بلادهم واطنانهم ويتفرقوا في افطار المسكونة نائمين من مكان الى مكان لايت لهم ولا ماوى مهانين ومحقرين من الجميع هذا فضلاً عن الموت الذي ابتلع الوفاً كثيرة منهم بسبب الجوع وضخامة المعيشة وضيقها بعدما كانوا بارغد عيش ونعمه

وفي اثناء ذلك اقام المراكشيون حرباً في شمالي البلاد واستولوا على قلعة الزهراء بعد ان فتكوا بالاسبانيولين محافظيها فتحوّلت حينئذ افكار فرديند وايزابله الى مداركة هذا الامر ومصادمة الاعداء فجردا جنودها وشناً عليهم الغارة. وكان قد وقع الانقسام والاختلاف بين المراكشين فخل بهم حينئذ الوبال والويل. وكان سيدهم المولى ابو الحسن قد خاص امرائه الشرعية السلطنة زريدة وجار عليها جوراً عنيفاً فجمعت ذات يوم بعض الفلاّند والحلى الثمينة وهربت بها من التصريحي واولادها. فلما رأى الشعب حالها وما افترى به زوجها عليها اغتاظوا جداً وبادروا حالاً الى خلع ابي الحسن عن كرسي الملك واقاموا مكانه ابنه ابا عبد الله من زوجته زريدة المذكورة واما ابو الحسن فانه قصد ملقاً فقبّلوه هناك بترحاب واحتفال وهكذا انتسبت الملكة على ذاتها

ونجح الاسبانيوليون في هذه الحرب اذ كانوا تحت قيادة بطلين عظيمين اي فرديند وايزابله. فان فرديند كان في مقدّمة الجيش يقودهم بحسن تديره وجودة رايه ويشجعهم على الثبات والهجوم فائلاً لم انه اذا رآهم في ضيق او شدة لا يتخلّى عنهم بل يقدمهم بنفسه وماله. اما ايزابله فتولجت مصاريف الحرب وخدمة المعسكر وتدير المرضى والجرحين كالام الخنونة فكانت تجول في الحرب من مكان الى اخر وعندما كانت قلوب العساكر تنسقط وتهبط فكانت

تجهم وتطيب قلوبهم بالفاظها العذبة فتفزع منها الخوف والرعب وتكن فيها
 الفراسة والحاسة فيجهمون على اعدائهم هجمة الاسود الكواسر فينتصرون ويظفرون
 فكانت بالحقبة هي روح تلك الحرب وعلة قوتها . وبعد عدة وقائع انهمز
 المغاربة ودارت الدائرة على جموعهم فاستولى الاسبانيوليون على مملكة غراناطة
 وطرردوا جميع المسلمين من تلك الاطراف بعد حروب تذكر وكان ذلك سنة
 ١٤٩٢ للمسيح وفي ذات السنة التي فيها اكتشف كولمبوس الشهير قارة اميركا
 باسعاف وامداد الملكة ايزابلا هذه . وقد حصر بعض المؤرخين عدد الوقائع
 التي جرت بين الاسبانيولين والمسلمين منذ دخولهم الى وقت خروجهم فبلغت
 ثلاثة الاف وسبع مئة

وسنة ١٥١٦ توفي فردينند المذكور وخلفه ابنه كارلوس الخامس المعروف
 بشارلكان وبعد جلوسه بوضع سنين توفي جده مكسيميليان سلطان النمسا
 والفلنك فانتهى الشعب امبراطوراً على كل بلاد جرمانيا كما سيأتي تبيان ذلك
 في محله . وكانت اسبانيا وقتئذ من الدول الاوروبية الاولى . ومن مشاهير
 ملوكها فيليب الثاني ابن شارلكان نبواً سرير الملك سنة ١٥٥٦ وسنة ١٥٨٠
 لبس تاج ملكة البورنوغال التي بقيت تابعة لاحكام اسبانيا الى سنة ١٦٤٠
 وكان ملكاً عظيم الشأن ذا هبة وسطوة

وكان ابوه قد تنازل له عن مملكة نابولي والصقليتين سنة ١٥٥٤ قبل
 جلوسه على الكرسي فانسع بذلك ملكه وعظم امره ثم تزوج بمرم ملكة انكلترا
 ولكن من غير ان يكون له سلطة على الانكليز . وفي السنة التالية من ملكه
 تنازل له ابوه ايضاً عن مملكة هولاندا فازداد قوة وسطوة . وكانت افكاره
 منجبهة الى اخضاع فرانسوا والاستيلاء عليها فحاربها وكسر جيشها في عدة وقائع
 ولكنه لم ينجح في مقاصده فعقد مع ملكها هنري الرابع صلحاً سنة ١٥٩٨ وهي السنة
 التي توفي فيها . وكان هذا الملك غيوراً في مذهبه الكاثوليكي عدواً للمذهب
 البرونستان الذي كان آخذاً في الامتداد والانتشار في ممالك اوروبا . واذ

قصد ان يقيم مقيمين في ولايات الفلنكية لإزالة الهرطقات حصل على مقاومات شديدة من طرف الاهالي فغلبوا طاعته واشهروا عليه علم العصيان وبعد حروب مهلكة خسر بعض تلك الولايات سنة ١٥٧٩

وجلس بعد فيليب المذكور على سرير الملك ابنه فيليب الثالث سنة ١٥٩٨ وكان ضعيف الراي فاترا لهمة عدم التربية في سلوك طرائق الرياسة والسياسة. وبعد جلوسه بوضع سيوف طرد جميع المغاربة الذين كانوا قد استوطنوا في اسبانيا واختاروا الإقامة فيها على الرجل وكانوا نحو ٢٠٠ ألف نسمة وأكثرهم من اهل الصنائع والعلوم. وما يحكى عنه انه كان ذات يوم جالسا في قاعة المجلس الشوري بالقرب من وجاق كبير مشتعل بالنار لتدفئة المكان وكانت النار مضطربة بهذا المقدار حتى انها احدثت حرارة زائدة الحد فمن شدة كبريائه لم يتنازل الى ان يقوم ويسحب كرسيه بل امر ان تطفأ النار. واذ كان الخادم المتولج امر الوجاق غائبا لم تجسر باقي الخدم ان تجري تلك المأمورية فلبثت النار مضطربة واشتدت حرارتها في القاعة حتى اضرّت بالملك ومات بسببها

ثم قام بعده بالمملكة ابنه فيليب الرابع سنة ١٦٢١ فحكم ٤٥ سنة وكانت أكثر ايامه نعيسة على اسبانيا فانها خسرت بلاد الفلنك سنة ١٦٣٠ وبلاد البورتوغال سنة ١٦٤٠ وتنازلت عن حجة مقاطعات الى فرنسا سنة ١٦٥٩ فاخذت المملكة من ذلك الحين في انحطاط وسقوط. وبعد وفاة هذا الملك جلس ابنه كارلوس الثاني مكانه فتوفي سنة ١٧٠٠ بدون وريث وخلفه امير فرنساوي اسمه فيليب دوك انجو وهو حفيد لويس الرابع عشر ملك فرنسا كان كارلوس قد اوصى له بالملك من بعده ليس فقط لاهليته ولكن لكونه من اقارب فدعي فيليب الخامس وهو راس عائلة البوربون الاسبانيولية. فتمض حينئذ الارشيدوك شارل النمساوي وأدعى بحقه لتاج مملكة اسبانيا فنشأ عن ذلك نزاع عظيم اعقبته فن حروب ليس فقط بين النمسا واسبانيا ولكن بين

بأقي دول أوروبا لان لويس الرابع عشر ملك فرنسا احتشد لحفيده فيليب المذكور واتصرت انكلترا وبروسيا وهولندا للنمسا فاصطلت نيران الحرب بين الفريقين وهي الحروب المعروفة بحروب الوراثة الاسبانيولية وكانت الدائرة فيها على فرنسا واسبانيا فخلع فيليب عن كرسي ملكه مدة ثم أعيد اليها وبقي ملكاً الى ان مات

وقد تظاهرت اسبانيا ضد انكلترا مراراً عديدة ولا سيما وقت الثورة الاميركانية فانها انجذبت مع فرنسا في مقاومتها ومحاربتها ولكنه اخيراً عقد بينهما صلح سنة ١٧٨٢ فنقضته بعد ذلك بخمسة عشر سنة حين اشتركت ثانية مع فرنسا وقت اشتباكها مع انكلترا

وسنة ١٨٠٨ حينما كان نابليون الاول في سمو مجده وسطوته الزم فردينند السابع ملك اسبانيا ان يتنازل عن تخت الملكة واقام مكانه اخاه يوسف بوناپارتي بقوة السيف . فلم يقبل بذلك عموم الشعب الاسبانيولي . فخلعوا طاعته وانزلوه عن الكرسي ولذلك اتشبت حروب مريعة بين الطرفين . واذ كانت انكلترا وقتئذ تنزق الفرصة لكي تضعف قوة فرنسا وتلاشي سطوة نابليون احتشدت للأسبانيولين وارسلت فرقاً من العساكر الى اسبانيا وبورتوغال تحت قيادة الدوك ولينتون الشجاع الشهير وساعدتهم على ابعاد الفرنسيين وترجيع فردينند الى كرسيه سنة ١٨١٤ . ثم مات فردينند المذكور سنة ١٨٣٢ وخلفه ابنته ايزابله الثانية واذ كان للملكة المذكورة عم اسمه دون كارلوس كانت امالة متجهة الى نوال تاج الملك اخذ في استعمال الوسائط التي توصله الى ذلك المقصود فتحزب له عددٌ غفيرٌ من الاهالي وبسبب ذلك هاجت الفتن والحروب بينه وبينها دامت الى سنة ١٨٦٠ ثم راقبت الاحوال واستقر لها الامر ولكن مع ذلك الهدولم تستقر احوال اسبانيا على ما ينبغي لان نيران الفتن والحركات كانت لم تنزل متقدة في صدور اهل الفساد ولم تنج من رؤوس اصحاب المقاصد والغايات . ولما التهب شرارها واضطربت نارها التزمت ايزابله

ان يهرب من اسبانيا في ٢٠ ايلول سنة ١٨٦٨ وتذهب الى فرنسا . فاستلم زمام المملكة الماريشال سيرانو والجنرال بريم الاول نائب ملك والثاني رئيس مجلس الوزراء . اما النزاع فلبث قائماً داخل البلاد فكان البعض يطلبون المشيخة والبعض يطلبون ملكاً الى ان قرّر قرارهم اخيراً على انتخاب الابن الثاني لفيكتور عمانوئيل ملك ايطاليا . ففي سنة ١٨٧٠ نودي به ملكاً تحت اسم اماديو الاول وكان دخوله الى اسبانيا في ذات النهار الذي قتل به الجنرال بريم من احد اخصامه

ولكن مع كل ذلك لم تسترح داخلية اسبانيا من الفتن والفساد لان الحزب الجمهوري لم يفتقر عن اجراء ما يوجب الاختلال في المملكة . واذ كانت هذه الحركات والمفاسد متصلة بين الاهالي ولم تفعل فيها المعاملات السلمية والتهديدات الحربية وكان الملك اماديو الاول من الذين يكرهون الحركات ويحبون الهدوء والسكون تنازل عن تاج ملكه في شهر شباط سنة ١٨٧٢ ونزح من العاصمة ناركا البلاد لاهلها وهو في غنى عن هذا التعب والعناء وقام مكانه ألفونس الثاني عشر في اخر سنة ١٨٧٤ وهو الملك الحالي

الفصل السابع

في وصف مملكة البورتوغال وتاريخها

ان مملكة البورتوغال تمتد في القسم الغربي من اسبانيا ويمجدها شمالاً وشرقاً مملكة اسبانيا وجنوباً وغرباً المحيط الاطلسيكي وعدد سكانها اربعة ملايين . ويتبع هذه المملكة عدة جزائر يبلغ عدد اهليها نحو ٢٦٠ ألفاً هذا ما عدا املاكها

ومستعمراتها الاجنبية فان لها في افريقية جزائر الراس الاخضر وجزائر مان
تومار وموساميد وموزنيك وغيرها . وفي اسيا غوا وسالبيت وباردز وغير
ذلك من البلاد في الهند ثم ما كان في الصين وجزيرة تيمور بين جزائر البحر .
وعدد سكان هذه الاملاك الخارجية يبلغ ثلاثة ملايين وثمان مئة وثمانين الفا
فيكون مجموع اهل البورتوغال ثمانية ملايين وثمان مئة . وكانت مملكة البرازيل
ايضا تابعة البورتوغال قبل سنة ١٨٢٢ واذا صارت دولة مستقلة ستكلم عنها
عند ذكر دول قارة اميركا

اما هواء هذه البلاد فتعتدل وتربتها مخصبة وهي كثيرة المعادن ولكن فلما
يعني الاهالي باستخراجها وفيها بربي من الحيوانات الخيل والمواشي ودود الفز .
ومن اعظم حواصلها ملح البحر وهو من اروج تجارتها التي تجل الى خارج البلاد
لاسيا الى انكلترا . ومن طيب اثمارها التين والبردقان والتارنج والعنب المجيد .
ومن مصطنعاتها الفخار والصيني والصباغ والنسيج والاسلحة واصطناع البلور
والجوخ . ومن اعظم مدنها مدينة ليسبون والعرب يسمونها اشبونة وهي قصبة
المملكة مبنية على مصب نهر تاغوس الذي هو من اكبر انهارها . وفيها ابنة فاخرة
وقصور جميلة مستظرفة وكسائن عديدة وسكانها ٢٥٠ الفا ولها مكتبة فيها
٨٠ الف مجلد . ثم مدينة بورتو وهي من اعظم مدن البورتوغال بعد ليسبون
كثيرة التجارة غزيرة المياه ولها ميناء حسن ونيذها جيد الى الغاية وعدد سكانها
٨٠ الفا واسم البورتوغال مأخوذ المصدر منها . اما الديانة العامة في هذه البلاد
فهي الديانة اللاتينية والاديرة فيها كثيرة يبلغ عددها ٤٩٨ منها ٢٦٠ للرهبان
و١٢٨ للراهبات . ولتقدم الآن لذكر بعض اخبار هذه المملكة من جهة تاريخها
فنقول

ان بلاد البورتوغال كانت تدعى في الزمن السابق عند الرومانيين
لوسيتانيا . وقد استولوا عليها عند افتتاحهم اسبانيا واستمرت في ايديهم ٥٧٠ سنة
الى حين دخول الفندال والسواب وغيرهم من شعوب برايرة الشمال الذين

حكموها الى سنة ٧١٢ حين استخلصها منهم العرب وضموها الى ملكهم بالاندلس فصارت ملحمة بها . ولما قويت شوكة الاسبانوليين في الاندلس واخذوا في استرجاع بلادهم وطرد العرب منها استخلص هنري البورغوني من عائلة فرانسا الملكية بلاد البورتوغال بعد ان كسر جيوش المسلمين وسمي عليها اميراً تحت حامية الفونس السادس ملك كاستيل في اسبانيا وخلفها لابنه الفونس الاول الذي بعد محاربة المغاربة واستظهاره عليهم سنة ١١٣٩ نودي باسمه ملكاً فاستقلت بورتوغال عن اسبانيا من ذلك الوقت

ثم اخذت بورتوغال في التقدم والتجّاج وتوسيع دائرة املاكها بواسطة استخلاصها الاراضي من العرب الذين في جوارها . وبواسطة اسفارها البحرية وتعرضها للاهوال والمخاطر في المحيط الشاسع اصبحت في سطوة وغنى لا مزيد عليها لاسيا في الجبل الخامس عشر وقت اكتشافها طريق الهند واسبلائها على جملة مدائن وارااضي في افريقية واسيا فكانت تعد بين مالئ الارض من الدول البحرية الاولى . ولا يسعنا ان نذكر بالتفصيل ما استولى عليه البورتوغاليون من الاملاك في القارتين المذكورتين خصوصاً في قارة اسيا بالهند والصين وجزائر اليابان لكننا نقول انهم جازوا على اراضي واملاك كثيرة وبسببها حصلوا على غنى ومجد وشهرة عظيمة . ولم يكنوا بذلك بل مدوا ايديهم ايضاً الى قارة اميركا في بداية القرن السادس عشر واستولوا على بلاد البرازيل التي مكثت في ايديهم الى سنة ١٨٢٢

غير ان التوفيق لم يخدمهم زماناً طويلاً فانه في سنة ١٥٨٠ نهض فيليب الثاني ملك اسبانيا وهو ابن عم شارلكان واغتصب تاج دولة البورتوغال وازضاف البلاد الى ملكه فكان ذلك سبباً لتأخير الدولتين في المستقبل . لان الاسبانوليين نظراً لاملاكهم الامبركانية من الجهة الواحدة ونظراً لانشغالهم في الحروب والمسائل السياسية من الجهة الاخرى اهلوا الالتفات اللازم الى فتوحات البورتوغاليين في اسيا وافريقيا فانتهاز الفلمنكيون تلك الفرصة واغاروا

على املاك البورتوغاليين في اسيا فطردوهم من اليابان واستخلصوا جزائر مولوك وكادوا يستولون على برازيل ايضا. وسنة ١٦٤٠ قام اهل البورتوغال على الاسبانوليين وخرجوا عن طاعتهم وملكوا عليهم بوحنا الرابع احد دوقات ابراغنسا الذين هم من ذرية ملوكهم القدماء والذين ما زال الملك في عقيمهم الى الآن. وبعد استقلالهم اتحدوا مع فراسا واتخذوها معبنة ومساعدة لهم. ولكنهم في ايام بطرس الثاني تركوا فراسا واستندوا على الانكليز واعتمدوا عليهم وعقدوا فيما بينهم عهداً سنة ١٧٠٣ فصارت انكلترا من ذلك اليوم صاحبة الكلام ويدها زمام المحل والربط في البورتوغال. وكانت الصنائع والزراعة والتجـر وسياسة المملكة في يدها بحيث لم يكن للبورتوغاليين في المملكة سوى مجرد الاسم فقط

ولما كان نابوليون الاول في سمو سعه واقباله صم على افتتاح بلاد البورتوغال فارسل لها جيشاً تحت قيادة الجنرال جونو سنة ١٨٠٧ فتغلب عليها وامتلكها وسـي عليها والياً تحت لقب دوك دارباتيس. فتظاهرت حيثئذ انكلترا لمساعدة البورتوغال وارسلت جيشاً تحت قيادة الدوك ولينتون فحارب الفرنسيين وازاحم منها بعد ما ارسل العائلة الملكية الى برازيل لتقيم هناك وتسترخ من غوائل المحروب واهوالها فمكثوا هناك الى سنة ١٨٢١ وحكم البلاد في مدة غيابهم نواب تحت مناظرة انكلترا

وسنة ١٨٢٠ حدث في مدينة بورتوشغب وهياج من الشعب وكان قصدهم ان يمحلو الحكومة البورتوغالية حكومة متبـدة بشرائع البلاد ونظامات المجلس. فقبل الملك يوحنا السادس بهذه الشروط ورجع الى اوروبا سنة ١٨٢١ واستبد بالملك الى سنة ١٨٢٦. ولكن بعد خروجه من برازيل بسنة واحدة نهض البرازيليون بطلب الاستقلالية فانفصلوا عن بورتوغال واستقلوا بانفسهم وانتخبوا لانفسهم امبراطوراً يقال له دون بيدرو بن يوحنا السادس المذكور ونشبت استقلالية برازيل عندما دعي دون بيدرو ليرث اياه في تاج مملكة

بورتوغال فلم يذهب بل تنازل عنه الى ابنته دوناماريا وليث امبراطوراً في
برازيل

وعند جلوس دوناماريا على سرير المملكة نهض لمقاومتها عمها دون ميكل
طعماً باستخلاص الملكة لنفسه فتحزب معه جمهورٌ غفير من الشعب واستمرت
الفتن والفلاقل في اقطار المملكة نحو سنة حتى التزم اخيراً ان ياتي ابوها من
برازيل ويجارب اخاه ويوطد كرسي ابنته . وكانت هذه الملكة عاقلة اديبة
موصوفة بالهم وحسن السيرة فاستبدت بالاحكام الى سنة ١٨٥٤ ثم توفيت
وتركت اولاداً قاصرين منهم بطرس ولي عهدا . واذا كان يومئذ قاصراً اجع
راي الوزراء على اقامة زوجها الامير فرديناند وكيلاً مؤقتاً الى ان يكون ابنها
بلغ سن الرشد فاقاموه من ذلك اليوم وكيلاً ووصياً ومكث بالوكالة الى ان
استوفى ابنة بطرس الاكبر سن اللياقة فتنازل له عن الاحكام واستبد بطرس
بالمملكة تحت اسم بطرس الخامس ولكنه لم يلبث ملكاً اكثر من سنة اشهر حتى
ادركته المنية . فقام بعده اخوه دون لويس وهو الملك الحالي فتسلم

زمام المملكة في اواخر سنة ١٨٦١ وهو فتى حديث السن

غير انه يعد من افراد هذا العصر في

المعارف وحسن

الاخلاق

الفصل الثامن

في تاريخ فرنسا

الباب الاول

في وصف فرنسا الحالي

ان هذه البلاد يحدها شمالاً بحر المانش وبوغاز كاس الفاصل بينها وبين انكلترا ثم البلجيك والمانيا . وشرقاً المانيا ايضاً وبلاد السويس وإيطاليا . وجنوباً البحر المتوسط وجبال الپيريه الفاصلة بينها وبين اسبانيا . وغرباً الاوقيانوس الاثلانتيكي

اما الآن فليس لفرنسا من الحدود ما كان لها عندما كانت تدعى غالباً قديماً لانها بعد سقوط الدولة البونابارتيه اولاً سنة ١٨١٥ للميلاد وسقوطها ثانية سنة ١٨٧١ قد خسرت حدودها الطبيعية في الجهة الشرقية والجهة الشمالية والفاصل بينها الآن وبين الجهتين المذكورتين هو خط صناعي اقامته ايدي السياسة . اما عدد سكانها قبل الحرب الاخيرة فكان نحو ثمانية وثلاثين مليوناً اما الآن فهو نحو ستة وثلاثين مليوناً ونصف . هذا بعد طرح سكان الانزاس وخمس اللورين الذي انضم الى المانيا بعد الحرب وهو نحو مليون ونصف واكثرهم على المذهب الكاثوليكي والحرية مطلقة لجميع المذاهب

وعلى شواطئ فرنسا عدة جزائر راجعة اليها وهي جزيرة كورسيكا وجزائر يارس في الجهة الجنوبية من البحر المتوسط وجزائر ري واويلدون واويسان

وليل ديو والليل في الجهة الغربية من البحر المحيط . ومن املاكها عدة مستعمرات في جهات مختلفة في غير قارة اوروبا . ففي افريقية بلاد الجزائر في الجهة الشمالية وولاية السبنيكال وجزيرة غوري في الناحية الغربية وجزائر لارونيون وسنت ماري ومايوت وبوربون في الجهة الجنوبية الشرقية منها وعدد اهلها جميعاً نحو ثلاثة ملايين و ٢٥٠ ألفاً وهم مسلمون وكاثوليك وبروتستانت ويهود . ومن املاكها في اسيا ميناء بوندشيري وكاريكال وماهي وبناون وسانديرناغور في الهند وسابغون في الكوشين صين وعدد اهلها جميعاً نحو ٢٥٠ ألفاً . ولها في امريكا عدة جزائر اشهرها جزيرة كواديلوب ومارتيك وسانت بيير وبيلكون وقسم من ولاية الفيان الفرنسية في الناحية الشمالية الشرقية من امريكا الجنوبية . وفي المحيط جزيرة خلكيدونيا الجديدة وجزائر مركز وغيرها وعدد سكان جميعها نحو ٥٢٠ ألفاً . وكان لفرنسا سابقاً في امريكا كنانادا ولويزيانة وسان دومينيك وسانت لومسي وتاباكو واماكن كثيرة في اسيا اعظمها مركز سورات وقد خسرت كل ذلك خصوصاً في زمان الدولة البونابارتيه الاولى

ان فرنسا هي اجمل ارض سياسية وتجارية نظراً لحسن موقعها الطبيعي وهي غنية بالمعادن والمنتجات . وفيها كثير من الفحم الحجري العظيم النفع والحديد والرصاص والنحاس والقطران الارضي اما الفضة والذهب فنقيان فيها . وبها انواع الرخام والمرمر وحجر الطبع وغيرها من الحجارة وبها انواع الجص والزراب الكبريتي والزاجي ونحوها وكثير من البنايع المعدنية المختلفة . واكثر اراضيها مخصصة جيدة تعطي اكثر انواع المحبوب والثمار . والكرم فيها في غاية النجاج يستخرجون منه كل انواع الخمر المشهورة . وبها دود القز بكثرة وانواع الطير والحيوانات المستخدمة . وصنائعها في غاية النجاج والانتان واهاليها متميزون عن سواهم بانتان عمل الجوخ وجميع اقشة الحرير والصوف والكتان والقطن والجلود والبلور والصيني والفخار المطلي وعمل الحلي واكثر الآلات المنيدة ونحو ذلك . اما

دائرة المنجر فيها ففي غاية ما يمكن من الاتساع والنمو داخل البلاد وخارجها .
وفيهما كثير من المدن الكبيرة المعتبرة كليون ومرسيليا وبوردو ونور واورليان
وغيرها وعاصمتها باريس وهي من اجمل مدن الدنيا واعظمها بعد لندن . وفيها
كثير من القصور المزخرفة باظرف اعمال البشر والمراحح المعتبرة الكثيرة وبمر
في وسطها نهر السين فينفسها شطرين وهو اعظم انهرها بعد نهر اللوار . وفي
فرانسا كثير من الانهر والجداول والوديان والجبال مما لا يسعنا ضيق المقام
تعدادها وحكمها الآن من النوع الجمهوري

الباب الثاني

في اصل فرانسا وشعوبها القدماء واديانهم وعوائدهم وتغلب
الرومانيين ثم الافرنك عليهم وتأسيس الدولة الاولى
الملكية المعروفة بالمير وفنحية سنة ٤٨١ ب.م
ثم سقوطها وانقراضها سنة ٧٥٢

ان فرانسا كانت تدعى قديماً غاليا او غاله ويمتد تاريخها الى القرن
السادس عشرين وهو في اعصره الاولى كباتي توارنج مبادي المالك القديمة
لا يعلم عنه الا القليل . اما شعوبها فهم من قبائل مختلفة دخلت البلاد في
اوقات غير معلومة واستوطنت فيها . واخص تلك الشعوب قوم الكلتيين
جاءوا من الشرق من نواحي بكثريان مع الامم التي هاجرت الى البلاد اليونان
وابطاليا وتقدموا في شمالي غاليا حتى اشرفوا على المحيط ونزل بعضهم وقطعوا
البحر وعبروا جزائر بريطانيا الانكليزية . وقد وفي غاليا قبائل اخرى قاطنة
في جنوب البلاد وهم الايبير او الباسك الذين بطن فيهم انهم اتوا من شمالي

افريقية واسبانيا ولم يزل البعض من الفاسكون او الباسك القاطنين في جنوبي فرنسا عند جبال الپيرني يتكلمون بلغتهم . ثم اتاها ايضا الفينيقيون بحراً ودخل بعضهم اواسط غاليا واخلطوا بالام التي وافت قبلهم . ثم آتى اليونان وتزلوا في الشطوط البحرية الجنوبية في القرن السادس ق م ويقال انهم اول من وضعوا اساسات مدينة مرسيليا

اما عوائد الغالين القدماء وملابسهم واطعمهم فكانت خشنة كسائر الامم القديمة وكانوا على جانب عظيم من الحماسة والحدة والشجاعة والكرم والسخاء والقيام بحق الضيافة . فكانوا بكرمون جداً من نزل بجوارهم غاضين النظر عن اصله وفصله ويتصرفون لكل من استغاث والتجأ بهم . وكانوا طوال القامة اجشاء الصوت قليلي التكلم سريعي الغضب قزبي الرضا يطلبون بعضهم بعضاً الى المبارزة الشخصية عند الغضب . وكانت اسلحتهم البلطات والحراب وكانوا يتسربلون بالدروع وعلى رؤوسهم الخوذ وارتاسهم كبيرة جداً تسترهم من الراس الى القدم . وكان لنسائهم الحرية في اختيارهن ازواجهن وكن باتين رجالهن بالمهر . فكان الاب اذا اراد زواج ابنته دعا جمهوراً من الشبان الى منزله فتخرج الابنة ويدها كاس مائة خمر فمن ناولته الكاس كان عريساً لها وكان للرجل التسلط المطلق على المرأة وعلى اولاده وله حق التصرف في حياتهم جميعاً . وكانوا عند موت رب العائلة يحرقون معه كل ما كان عزيزاً لديه حتى ومن الحيوانات . ويطرحون معه ايضاً بعض المكاتب ظناً منهم ان الميت المحروق يستطيع اخذها معه الى اقاربهم المتوفين . اما ادبياتهم فاشبهت ادبيات اهل الشرق كالهنود مثلاً ولا بد ان هذه العادة المار ذكرها في حرق جثث امواتهم مأخوذة عن هؤلاء الهنود . وكان لهم عقائد بعضها حسنة وبعضها سيئة ومذهبهم يُعرف بالدرويد يسم نسبة الى كهنتهم الدرويد . وكان لهؤلاء بعض نعاليم حسنة فكانوا يعلمون بالثواب والعقاب بعد الموت ويحرضون رعيهم جداً في شان تربية الاولاد حسناً وعمل الخير ويقولون ان من اقصر

صاحبة مالا في هذه الحيوة باخذة في الحيوة الآتية ومن قتل نفسه لاجل صديق
 له يلاقيه في العالم الآخر وان الابرار في عيالهم هم بمنزلة ارباب وملوك . وعلموا
 احيانا بتناخ الارواح واشياء من هذا القبيل واقاموا احتفالات عبادتهم بين
 احراش السنديان مقدمين احيانا الذبايح البشرية لزعيم ان الالهة لا تسر الا
 بالدم . وكان هؤلاء الكهنة اصحاب الحل والعقد ذوي سطوة عظيمة على الشعب
 وبعدهم الاعيان ثم العامة وبقي هذا المذهب الى بعد دخول الديانة المسيحية الى
 فرانسا وكان اوغسطوس قيصر بعد يوليوس قيصر قد اصدر امرا بملاشان ومعه
 ذلك بقي زمنا طويلا يمارس في بعض انحاء المملكة

وكان الغاليون اي الفرنسيون القدماء على جانب عظيم من البسالة
 والشجاعة ومحبة الاستقلال والحرية لا يرضخون لما ياتهم وباتي بلادهم بالذل
 والعبودية . وكانوا يجنون الحروب والغزوات فخاف سطوتهم وباسهم اكثر الامم
 المجاورة لهم حتى الدولة الرومانية التي وطدت اركان سطوتها في اغلب اجزاء
 العالم المعروف يومئذ وكادوا يهدمون اركان دولتها . وقد هاجموا ايطاليا مرارا
 من سنة ١٤٠٠ الى سنة ٥٨٧ ق م وفتحوا مدينة رومية عاصمتها سنة ٣٩٠ ثم
 قطعوا جبال الالب ونهر الدانوب وافسدوا البلاد ونهبوها ودخلوا اراضي
 اليونان ايضا واعملوا فيها السيف والنهب ثم امتدوا ودخلوا اسيا وصنع بعضهم
 فيها منازل ومستعمرات . وقد اُنيت تلك الاراضي باسمهم غلاطية نسبة الى غاله .
 ولم تتمكن الدولة الرومانية من قهر الغاليين الذين كثيرا ما كادوا يهدمون اركانها
 الا بعد ان صرفت اعواما كثيرة في اجراء استعدادات كلية ولم تتمكن من
 التغلب عليهم واخضاعهم لسطوتها الا من سنة ٥٨ الى سنة ٥٠ ق م بعد حروب
 هائلة عن يد اعظم واشهر قوادها يوليوس قيصر . وكانت الدلة الرومانية تنظر
 بعين الاهتمام الى اخضاع هؤلاء القوم فبعدها فتح يوليوس قيصر عليهم حروبا
 دموية طويلة منحت الدولة الرومانية انعامات وهبات وافرة ورفعت قدره
 وشانه ولكن مع ذلك لم تستطع ان تقبض على زمام الملك على هذه الامة زمانا

طويلاً جداً . فبقيت تحت نسلها الى اواسط القرن الخامس للميلاد حين هاجمت غاليا قبيلة من قبائل المشرق كانت قد هاجرت اسيا في زمن غير معلوم تماماً ونزلت في شمالي فرانس في بلاد بلجيوم وفي تخوم المانيا الغربية يقال لما قبيلة الافرنك فدخلتها وقطعت الى اسبانيا ووقعت فيها السلب والنهب مدة من الزمان ثم عبرت البحر ودخلت افريقية وتضععت فيها . وسنة ٢٥٨ في سلطنة بوليانوس قبصر هاجم الافرنك غاليا مرة ثانية ونزلوا عند شطوط نهر الموز فنازعهم بوليانوس قبصر زماناً طويلاً ولم يقدر على اخضاعهم فتركهم اخيراً يستوطنون عند شطوط النهر المذكور

وكانت الامة الافرنكية مقسومة الى عدة قبائل كل منها خاضعة لامير خصوصي وكان جميع هؤلاء الامراء خاضعين لامير واحد قبل اسمه فاراموند واتقياً حكم هذا الامير سنة ٤٢٠ للميلاد وبقي الى ٤٢٠ ثم خلفه ابنه كلوديون ودامت ولايته الى سنة ٤٤٨ وهو اول من اخذ في توسيع دائرة سلطة الافرنك . ثم توفي وخلفه ميروفي احد اقارب سنة ٤٤٨ . وسنة ٤٥١ اتحدت القبائل الافرنكية مع الغالين سكان فرانس القدماء وانضموا جميعاً الى الرومانيين لمحاربة الهونيين الذين كانوا قد هاجموا غاليا ووقعوا فيها السلب والتخريب وحاربوهم وطردوهم بعد معارك شديدة فتحولوا الى جرمانيا . وبعد هذه الحادثة وطد الافرنك اركان حكمهم في غاليا الشمالية تحت قيادة كبير امراءهم ميروفي المذكور وهو اول امير دعا ذاته ملكاً وتوفي سنة ٤٥٦ وتولى مكانه ابنه شيلديريك الاول الى سنة ٤٨١ ثم خلفه ابنه كلوفيس وقد دعي جميع الملوك الذين خلفوا ميروفي من عائلته الملوك الميروفنجيين نسبة اليه وهذه العائلة هي العائلة الاولى التي نبأت تحت ملكة فرانس على ان المؤرخين لا يورخون ابتداء ملكة الافرنك الا منذ نبأ نخبها كلوفيس الاول بن شيلديريك بن ميروفي وذلك من سنة ٤٨١ للميلاد لانه اول من تغلب على جميع قبائل الافرنك التي هو منها واخضعها لسطوته وفتح الجانب الاعظم من غاليا

ولما تولى كلوفيس المذكور سنة ٤٨١ كانت الرومان والالامان والفيزيغوث والبورغنديين وغيرهم يتنازعون في غاليا فاتصر الافرنك عليهم جميعاً . ففي سنة ٤٨٦ كسر كلوفيس جيش الرومانيين في سواسون وطردهم من جميع الاقطار التي كانوا لا يزالون فيها . وسنة ٤٩٦ حارب الالمان واتصر عليهم في موقعة توليياك ودفعهم الى ما وراء نهر الرين واخضع بعضهم . واذ كانت الديانة المسيحية قد انتشرت قبل ذلك بزمان طويل في تلك النجوم تنصّر الملك كلوفيس عقب المعركة التي رجبها على الالمان وكان السبب في تنصّره زوجته كلونيلد فتعدّ في مدينة ريمس مع عائلته وجنوده واعيان دولته وكان هو الملك المسيحي الوحيد في ذلك العصر بينما انحاز غيره من الملوك الى ارنقة اربوس وبناء على ذلك حاز ملوك فرانسوا التقدم الديني على ما سواهم من الملوك الكاثوليكين . وسنة ٥٠٠ الميلاد حارب كلوفيس جماعة البورغنديين واخضعهم فخلوا اليه الخراج . وفي سنة ٥٠٧ حارب الفيزيغوث واتصر عليهم وطردهم وحاصروهم في اقليم سبتيانيا وهو قسم كبير من جنوب فرانسوا واخرج ما عداه من ايديهم . وبعد ذلك اذ اختلف الافرنك بالاهالي الاصليين تغلب اسم الافرنك على كل سكان بلاد غاليا فسميت بلادهم فرانكا ثم بعد ذلك ببعض سنين بدلت الكاف بالسين فصار اسمها فرانسوا وفي الاصل لم يكن اسمهم افرنك بل انما ذلك لقب غلب عليهم (من فرانكس اي شجعان)

ثم توفي كلوفيس سنة ٥١١ بعد ان حكم ٣٠ سنة وهو من اشهر ملوك هذه الدولة وله اربعة اولاد وهم شيلديبرت وكلوتير وكلوديمير ونياري . فاقسموا الملك بينهم وتبع من ذلك اربع ممالك متفرقة فاخذ شيلديبرت الاولى وكانت مدينة باريس نخنا لها والثانية قاعدتها سواسون والثالثة قاعدتها اورليان والرابعة منس . وفي سنة ٥٢٤ انضموا جميعاً وكسروا شوكة البورغنديين ومحو رسوم ملكهم بالتمام واخضعوا بلادهم كباقي البلاد . وبقيت فرانسوا منقسمة الى ان مات ثلثة منهم فضمها كلوتير الاول سنة ٥٥٨ مملكة واحدة تحت حكمه لكنها

انقسمت بعدهُ ثانيةً وذلك سنة ٥٦١ وصارت اربع ممالك مستقلة كالاول . وكانت باريس ايضاً تختاً للاولى وسواسون للثانية وملتس للثالثة وبورغنديا للرابعة . وفي سنة ٥٦٧ توفي كاربيرث ملك باريس فصارت ثلثاً واستمرت هكذا منقسمة الى سنة ٦١٣ . وقد اعقب هذا الانقسام حروب اهلية طويلة نتج عنها انضمام زماناً يسيراً في عهد كلوتير الثاني وبقيت منضمة الى عهد ابني راغويرث الاول سنة ٦٣٨

وبعد وفاته انقسمت مرةً ثالثة الى اربع ممالك وهي اوسترازي ونوسيري وبورغونيا واكينانيا وكانت الاثنان الاوليان ممتازتين عن الاثنتين الاخرين بالسطوة والنفوذ مدةً من الزمان . ثم اجتمعت ايضاً مملكة واحدة من سنة ٦٧٠ الى سنة ٦٧٣ في حكم شيلدبيرك الثاني ثم في سنة ٦٨٧ نقوت اوسترازي وارتفع شأنها على نوسيري وتقدم امرؤها وفازوا بباقي الولايات فادخلوا بورغونيا تحت طاعتهم ثم اكينانيا وهو القسم الرابع من مملكة فرنسا الذي استخلصه شارل مارثل من عرب الاندلس سنة ٧٣٢ في زمن خلافة عبد الرحمن بعد حربٍ مهلكة قيل انه قُتل فيها نحو ٢٠٠ الف رجل من جيوش العرب وربما كان ذلك مبالغةً

وسنة ٧٥٢ لليلاد افرضت الدولة الفرنساوية الاولى وهي الدولة الميروفنجية وسبب انقراضها طياشة ملكها شيلدبيرك الثالث وقلة دراينيه اذ كان له وزيرٌ يقال له يابين على جانب عظيم من الخدق والدراية والاقلام وكان من اشرف رجال فرنسا وعظائمهم فكان قابضاً على زمام الامور ولم يكن لشيلدبيرك المذكور من الملك الا مجرد الاسم كما كان قد آل امر سلفائه ايضاً منذ سنة ٦٨٧ فانهم كانوا ملوكاً بالاسم فقط فقبض يابين على الملك شيلدبيرك وحجز عليه في احد الاديرة واستولى زمام الملك بدون ممانع ثم توفي شيلدبيرك بعد قليل وبموته كانت نهاية الدولة الاولى التي ملكت فرنسا مدة ٢٠٤ سنين وعدد الملوك الذين خرجوا منها ٣٤ ملكاً

فهذه هي الدولة الاولى التي وطدت اركان المملكة الفرنسية وسنت لها
نظامات موافقة لروح ذلك العصر اذ كانت قبل ذلك شوكة الملك ضعيفة
جداً فكان النفوذ لجمعية الملة العمومية التي اجتمعت كل سنة في وقت معين
وكان لها الحق في انتخاب الملوك وفي اعطائهم الامدادات والاعانات اللازمة
وكانت هي التي تشرع القوانين والشرائع ونحکم في فصل جميع الدعاوي بدون
معارض . وكانت الخدمة العسكرية بالاختيار لا بالانعصاب . وكانت القيمة
التي يغنيها الجيش تُوزع عليه بالمحصص حتى ان الملك نفسه كان لا يأخذ منها
الا ما يخصه بالقرعة . وبوید ذلك ما حدث بعد معركة سواسون التي اشرنا
اليها في ما تقدم فان جنود الملك كلويس الاول صاحب النصر في تلك
المعركة كانوا قد نهبوا كنيسة سواسون واخذوا منها امنعتها ومن جليتها اناء
ذهب كبير ثمين فبعث اسقف الكنيسة الى كلويس رسلاً يترجوه ان يرجع
الاناء المذكور على الاقل فقال لهم ان وقع هذا الاناء في نصيبو يرجعه الى
الكنيسة فلما جمعت الغنائم ووضعت في وسط الجنود طلب كلويس ان يعطوه
قبل الفسمة الاناء المذكور زيادة على حصته فاطهر جميع العساكر انهم يريدون
اجابة طلب الملك الا انه خرج من بينهم عسكري جسور قدم كالوحش ورفع
بلطته وضرب بها الاناء بشدة وقال للملك باعلى صوته مالك شيء لا مطلقاً سوى
ما يخلصك بالقرعة ولا تغرُك بامتياز خصوصي وكانوا احياناً يهينونه اذا لم يمثل
الى طلبهم فاشبهوا من هذا القبيل الانكشارية في الدولة العثمانية

الباب الثاني

في قيام الدولة الفرنسية الثانية وانقراضها وهي المعروفة
بالكارلوفنجية من سنة ٧٥٢ الى ٩٨٧

ان هذه الدولة هي من عائلة الدوك بايين الذي اغتصب الملك من
شيلديريك الثالث وتُعرف بالكارلوفنجية وقد دُعيت بهذا الاسم نسبة الى
كارلوس الكبير ابن بايين اشهر الملوك الذين خرجوا منها وهو المعروف ايضا



شارلمان

باسم شارلمان ملك فرنسا وإمبراطور المغرب وكان هو راس هذه الدولة ولول
ملوكها. وقد ذكرنا ما كان عنده من السطوة والاقلام فقام بتدبير المملكة اتم قيام

وضم مقاطعات فرنسا الى مملكة واحدة ما عدا مقاطعة بريطانيا الفرنسية وتغلب على سبتيانيا من سنة ٧٥٢ الى سنة ٧٥٩ ثم على اكيثانيا من سنة ٧٥٩ الى سنة ٧٦٨ وامند سلطانه ونفوذ كلمته الى ايطاليا والمانيا والزم السكسونيين ان يدفعوا اليه الخراج . وسنة ٧٥٤ اتى البابا استفانوس الثاني الى فرنسا ووعده باين بمساعدة سلطان الكنيسة على اتيانه في الملك وهو وعد البابا بالمساعدة العسكرية . وكان اللومبارديون قد تهددوا رومية فخارهم باين والجا استولف ملكهم الى احترام البابا وجعل للكنيسة الرومانية عدة امتيازات وملكها عدة اراضٍ .

وبعد موت هذا الملك سنة ٧٦٨ خلفه ولده شارلمان المذكور وكارلومان . ففي سنة ٧٧١ توفي كارلومان واستبد شارلمان بالملك وحده وكان ذا شوكة وبأس موصوفاً بالذكاء والدرابة وله حروب ونصرات كثيرة . فانه قد تغلب على نصف ايطاليا من سنة ٧٧٢ الى سنة ٧٢٤ وعلى سكسونيا وباقاريا ثم اتى رومية وثبت للكرسي الباباوي الحقوق التي كان منحها له والده وعندما دخل رومية المرة الاولى صعد على درج كنيسة ماري بطرس وقبل بورع كل درجة منه . ثم حارب عرب الاندلس وتغلب على اسبانيا الشمالية سنة ٧٧٨ وعلى الافاراي النصر الهبارة اهل بانونيا سنة ٧٨٧ وضم جميع الممالك المذكورة في مملكة كبيرة سماها بالسلطنة الغربية المتجددة واراد بالمتجددة احياء السلطنة الرومانية الغربية بعد اندراسها . وسنة ٨٠٠ للميلاد ذهب الى رومية وتوج يوم عيد الميلاد من البابا ليو الثالث امبراطوراً على المغرب . هذا وقد رغب شارلمان في ترقية اسباب العلوم والفنون كما رغب فيها الخليفة هرون الرشيد في الشرق اذ كان معاصراً له . فذاع صيته عند الملوك وارتفع مكانه فكان اشهر ملك ظهر في اوربا من وقت سقوط الدولة الرومانية الغربية الى سقوط الدولة الشرقية . واسس في باريس مدرسة جامعة لسائر المعارف وكان يصرف اكثر اوقاته في مداولة العلوم واكتساب المعارف وكان مجلسه محفوظاً بالعلماء .

وسنة ٨١٢ اشرك معه في الملك ابنه لويس الملقب بالحليم وما زال في عزٍ ونجاح الى ان توفي سنة ٨١٤ فتولى مكانه ولده لويس المذكور. غير ان هذه السلطنة لم تتجاوز سنة ٨٤٢ حتى انقسمت الى ثلاث ممالك مستقلة وهي فرنسا والمانيا واطاليا وصار تاج السلطنة يداوله بعض الذرية في ايطاليا مرةً وفارهم من امراء العائلة الكاروفنجية اخرى حتى انتقل الى طائفة من الاعيان ليسوا من تلك العائلة ثم انتهى الامر بابقائه بيد الالمان وانقراض هذه العائلة سنة ٩٨٧

اما سبب ضعف هذه العائلة وتلاشيها فهو انه لما كان الملك لويس المذكور ابن شارلمان فاترا لهمة وضعيفا غير قادر ان يقوم بحق سياسة كل المالك التي فتحها والده قسم قبل وفاته سلطته المتسعة بين اولاده الثلاثة سنة ٨٤٢ كما ذكر. فلك ابنه الاكبر على بلاد جرمانيا والثاني على فرنسا والثالث على ايطاليا. الا انه لم يعين حدودا مناسبة لفصل فرنسا عن المانيا ولكنه اعطى ولده البكر لوتير الذي تبوأ كرسي سلطنة المانيا بلادا في الجهة الشمالية اليسارية من نهر الرين مع انها كانت من اراضي فرنسا بحسب النجوم القديمة والفواصل الطبيعية. ولما كان هؤلاء الملوك الثلاثة المذكورون غير اهل للقيام بحق ادارة ممالكهم المقسومة كما قام بجنتها جدهم شارلمان شرعوا في استعمال وسائل غير مناسبة واجراءات مضرة ردية ظانين انها توطد اركان سطوتهم وقواعد ممالكهم وسنوا شرائع وقوانين انت بلادهم بعدم بنوائب عديدة ودواهي كثيرة لاسيما حين صارت سطوة اشرافيهم تتزايد وتعاظم

اما تلك الترتيبات والاجراءات المضرة التي اقاموها فهي اعطاء الذين يحسنون خدمتهم القابا عالية ورتبا سامية وامتيازات لم ولنسلم من بعدهم وهي التزامات وراثية اي ان يحكموا على مقاطعات من ممالكهم ويورثوها لذريتهم وان ينصرفوا فيها تصرف المالك بالملك وذلك ليستندوا عليهم عندما تمس الحاجة. فاني ذلك باضرار ونكبات كثيرة على ممالكهم لان هؤلاء الحكام مع غمادي الايام

تقووا كثيراً حتى صاروا اصحاب شوكة وسطوة فتحملوا طاعة مواليهم وجاهروهم بالعصيان واستقلوا باقطاعاتهم بعد ثورات ومنازعات وحروب كثيرة . ثم شرعوا يحاربون بعضهم بعضاً ويخربون في البلاد كيها شاهوا فاستبدوا وامسكوا اخيراً عنان سلطة مطلقة في ما يتعلق بسياسة الرعايا واقام بعضهم الحروب على نفس الملك فاتى ذلك الدولة والامة بالضعف والافتقر مدة سنين كثيرة . وما زالت عصية اعبانهم تعظم وتغتم فرصة التسلط على السلطة الملكية حتى انه في سنة ٨٨٧ قام احد اولئك الاعيان المتزيمين يقال له اودون وهو جد العائلة الثالثة المعروفة بالكاييتانية وسلب الملك من يد العائلة الثانية التي نحن في صددنا الى سنة ٨٩٨ . ومن ذلك الوقت اخذ يتناول تارة الكارلوفنجيون وطوراً خلفاء اودون المذكور الى سنة ٩٨٧ حين كان لويس الخامس الملقب بالكسلان ملكاً من العائلة الكارلوفنجية فهض حيثذ كبير وزرائه وفعل به ما فعله سالفه الاول باخر ملوك الدولة الاولى . وقيل ان امرائه بلانش دسّت له سماً بالاتفاق مع وزيره المذكور هو ككايت فات في السنة العشرين من عمره والاولى من ملكه وبه تلاشت الدولة الثانية وقام عوضاً عنه هو ككايت راس الدولة الثالثة

الباب الثالث

في قيام الدولة الثالثة المعروفة بالكاييتانية وسقوطها

من سنة ٩٨٧ الى سنة ١٧٨١

ان هو ككايت المتقدم ذكره الذي اغتصب الملك من يد آخر ملوك العائلة الكارلوفنجية كان من اعظم اشراف فرانسوا واشدهم باساً واكثرهم واوسعهم املاكاً فقبض على عنان الملك ونهواً تحت فرانسوا سنة ٩٨٧ واستبد في الملك

الى سنة ٩٩٦ وكان نسله كثيراً وخرج من عائلته رجال كثيرون فووحذق ودراية واقدم وتملكوا فرنسا زماناً طويلاً اطول من الزمان الذي ملكت فيه العائلتان السابقتان . وقد تفرعت هذه العائلة الى جملة فروع وهي امراء كاييت نسبة الى خلفاء هوك كاييت المذكور الذين استمروا يتناولون الملك الى سنة ١٢٢٨ . وامراء فالوا الاولون والثانيون اولهم فيليب السادس واخرهم هنري الثالث من سنة ١٢٢٨ الى ١٥٨٩ . وامراء اورليان وهم فرع من امراء فالوا . وامراء بوربون اولهم هنري الرابع واخرهم كارلوس العاشر من سنة ١٥٨٩ الى سنة ١٧٩٢ ومن سنة ١٨١٥ الى سنة ١٨٣٠ . ثم فرع اورليان من السنة المذكورة الى سنة ١٨٤٨ . وقد دامت دولتهم باتصال مدة ٨٦٤ سنة منذ سنة ٩٨٧ لليلاد الى سنة ١٧٩٢ حين قُتل لويس السادس عشر عند حدوث الثورة الفرنسية العظيمة التي احدثت انقلابات كلية في الهيئة والسياسة والعوائد . وهذا هو الذي حمل الامة الفرنسية على اعتبار تاريخ الثورة المذكورة حداً انتهى اليه تاريخ القرون المتاخرة

وعندما جلس على كرسي ملك فرنسا هوك كاييت مؤسس الدولة الثالثة كانت البلاد لم تزل على ما هي عليه في زمن الدولة الثانية . فان الجمعيات التي اسلفنا عنها كانت لم تزل مستمرة على عظم شوكتها وتنفيذ اوامرها فكانت هي تتخبط من العائلة الملكية الامير الذي يتولى كرسي الملكة ولا يولى ملك الا برضاها ولم تقدر الملوك ان ترتب قانوناً جديداً من غير رضا ارباب تلك الجمعيات . اما هوك كاييت فانه عند جلوسه على كرسي الملكة احدث في سياستها تغييرات عظيمة اثرت في شوكة الجمعيات العمومية المتقدمة وفي احكامها فاخذت من ذلك الوقت تتزايد القوة الملكية في فرنسا شيئاً بعد شيء حتى الى ايام الملك كارلوس السابع في الجيل الخامس عشر حين كسر شوكة الاشراف وابطل التراتيب والحقوق الالتزامية في القوانين العسكرية وانشأ فرقة من عساكر المشاة وجعل عليهم ضباطاً لاجل تعليمهم وقيادتهم فصاروا يخضعون له ويعتبرونه كولي

نعمهم . ثم ان الحروب الصليبية التي كان للفرنساويين دخل عظيم فيها ولان هلك فيها نفوس عديدة وصرف لاجلها اموال جزيلة اورثت البلاد نتائج حسنة جداً سواء كان من جهة المشروعات والتراتب العسكرية ام من جهة اتقان التجارة والزراعة ونحو ذلك

ومن ملوك هذه العائلة فيليب الثاني الملقب اوغسطوس جلس سنة ١١٨٠ . وسنة ١١٨٩ اتحد مع ريكاردوس ملك انكلترا الملقب بقلب الاسد وقام الاثنان بجيش جرار وجاءوا سوريا لنجدة الصليبيين وهي الحرب الصليبية الثالثة . ولما وصلا الى سبيليا اي جزيرة صقلية وقع بينهما شقاق ومناقرة افضت الى افتراقها . على ان فيليب اوغسطوس اتى سوريا وله يوم مجيد في اخذ عكا ثم قفل راجعاً سنة ١١٩١ الى فرنسا واخذ بهيج الاحزاب ضد ريكاردوس المذكور انفاً . ولما عاد هذا الاخير الى ملكته بعد عقد الهدنة مع صلاح الدين الابوي انتشبت الحروب بينه وبين فيليب الذي لم ينل فيها فوزاً يستحق الذكر في مدة تلك ريكاردوس ولكنه من سنة ١٢٠٤ الى سنة ١٢٠٥ استخلص من ايدي انكلترا اعمال نورمنديا وانجويونانو . وقد رغب هذا الملك في ترقية اسباب المعارف والتجارة وله عدة مناقب حسنة ثم توفي سنة ١٢٢٢

وقد خلفه الملك لويس الثامن ولم يحدث في ايامه امر مهم وكانت مدة حكمه ٢ سنين فقط فخلفه لويس التاسع المعروف بالقدس لويس سنة ١٢٢٦ وهو من مشاهير هذه العائلة فهم مصالح الملكة وساسها احسن سياسة وجعل للناج ما يستحقه من الاعتبار والسلطان واقام دعائم الملك على امن اساس . وكان نقياً ورعاً محباً للاداب والمعارف . وسنة ١٢٤٤ اعترأه مرض شديد اوشك ان يموت فيه فنذر انه اذا شفي ياتي الى محاربة المسلمين في فلسطين . فقام سنة ١٢٤٨ واتى مصرأ وفخ دمياط سنة ١٢٤٩ ثم تقدم الى داخلية البلاد وصارت بينه وبين جيش المسلمين معركة في المنصورة سنة ١٢٥٠ انتصر فيها ولكن بسبب المجاعة والمرض الذي اصاب جيشه بعد ذلك انهم ان يقفل الى

الوراء فوق اسيرا مع اثنين من اخوته في قبضة العدو فافتدى نفسه مع اخويه بمقدار من الذهب يبلغ نحو سبعة ملايين فرنك وباخلاء دمياط ونحوه عن القطر المصري فخرج من مصر واتى فلسطين واقام فيها مدة اربع سنين وفي اثناء اقامته فتح فيصرية وصور وهذه كانت نتيجة جميع اعماله في هذه التجربة. واذ كانت امه تطلب اليه ان يرجع الى مملكته منذ مدة طويلة عاد الى فرنسا واخذ في اصلاح احوال داخلية. وسنة ١٢٧٠ نهض مرة اخرى للخدمة الاراضي المقدسة في فلسطين لكنه اتى اولاً تونس بقصد الانتقام من التونسيين الذين كثيراً ما كانوا يتعدون على السفن الفرنسية وغيرها ويسلبونها وامسى البحر عسر السلوك بسببهم. ففجج اولاً بعض النجاح على ان الدهر لم يسأله الى النهاية اذ اصاب جيشه مرض الطاعون واضرب به جداً ثم اصيب هو ايضاً به فادركته المنية في تونس

وقد ازدادت فرنسا نمواً ايضاً في مدة فيليب الثالث خليفة التديس لويس من سنة ١٢٧٠ الى سنة ١٢٨٤ اذ اضاف المذكور مقاطعة لانكدوك الى التاج وتدخله في جميع المنازعات الحاصلة يومئذ في املاك اسبانيا المسيحية امتد نفوذ كلمته الى ايطاليا لاسيما في نابولي. وقد خلفه ولده فيليب الرابع سنة ١٢٨٤ فشرع في استرجاع الاملاك التي كانت قد اعطيت الى لوثير امبراطور المانيا واثار عدة حروب في نفس فرنسا على بعض الامراء الفرنسيين اصحاب المقاطعات ومع ادورد الاول ملك انكلترا ونجح في اكثرها ووسع نطاق المملكة ونجح في مقاطعاته ضد سلطة البابا الزمنية وكسر شركة خدمة الدين وسلطة الاشراف وجعل بينهم وبين السيادة حاجزاً وهو مجلس المشورة فكانت تنظر فيه قضايا المملكة والشعب. ووقع بين فيليب الرابع وبين البابا بونيفاس الثامن مخاصمات ومنازعات كثيرة فاخرج البابا المذكور ضده ثلاثة منشairs ودعاه ضالاً وارانيكياً ثم حرمه. فاغناظ فيليب جداً وارسل جيشاً الى ايطاليا فقبضوا على البابا واهانوه اهانة عظيمة واذ لم يكن اصحاب فيليب بشكس البابا

بونيفاس بما حصل عليه من الاذلال اهانة اهانة لم يسمع قط بمثلا وهي انهم
اركبوه بغلا بالمقاوب من غير سرج ولجام ووجهه مدار الى نحو موخر البغل
وطافوا مستهزئين به فمذه الاهانة بالحبر الروماني مع فقد امواله الكثيرة التي
وضع فيليب ملك فرانسوا وقواده ايدهم عليها أثرت به تأثيراً عظيماً ادمته
الحياة

وبعد توفي فيليب الرابع خلفه فيليب الخامس الملقب بالطويل بعد وفاة
اخيه لويس العاشر الذي لم يملك الا سنتين . فرجعت فرانسوا القهري من ذلك
اليوم . لانه بعد موت فيليب الرابع الذي اقام دعائم الملك اخذ اولاده وحفدة
في الميل الى الاعيان بدون تبصر في عواقب الامر والنتائج المضرة التي تنرب
عليه . فجاء ذلك الاشراف طبق المراد واغضبوا تلك الفرصة لارجاع سلطتهم
ثانية باعانة اولئك الملوك الذين كانوا يجهلون مصالح الملك كما ينبغي . وقد
حصل مثل هذه الاعانة للاشراف من الفرع الثاني الملكي الملقب بالثوا الذي
اشرنا اليه في صدر الكلام عن هذه الدولة وذلك اقداة بخلفاء فيليب الرابع .
فيسبب هذا التصرف المعلوم اشرفت فرانسوا على السقوط والاضمحلال بعد
ذلك الفوز والنجاح وفتح الباب للدول المجاورة لها على مهاجمتها واستخلاص
املاك كثيرة منها فاعتمد الانكليز فرصة اختلال احوالها وضعفها وشرعوا في
الحروب المعروفة بحروب المئة سنة وقهرهم في عدة اماكن بعد ان استولوا على
جانب كبير من بلادهم . وكان مبدأ هذه الحروب سنة ١٢٢٧ وامتدت الى
سنة ١٤٥٢ تشب نيرانها من وقت الى وقت واشهر الوقائع التي انتصر فيها
الانكليز على الفرنسيين معركة كريسبي سنة ١٢٤٦ وواقعة بواتي سنة ١٢٥٦
حين اخذ ملكهم يوحنا الثاني اسير حرب وتوفي رهوناً في بلاد الانكليز . وبينما
كانت فرانسوا اخذة في انهوض في زمن حكم كارلوس الخامس الملقب بالعاقل
من سنة ١٢٦٤ الى سنة ١٢٨٠ عادت القهري في ايام كارلوس السادس اذ
كان قاصراً بعد لا يستطيع ادارة مهام الدولة ثم لاختلال عقله فيما بعد بمرض

المونومانيا . واذ ذاك كادت فرنسا تشرف على الاضمحلال بالكلية خاصة بسبب نزاع وشفلاق امراء العائلة الملكية اصحاب الثروة والنفوذ وتدخلهم في سياسة المالك طمعاً في الاستيلاء على التاج ورغبة في السلطة ونفوذ الكلمة لاسيما مع ما آل اليه امر العائلة الثانية من اشراف وامراء بورغونيا الذين كانت سطوتهم تضاهي سطوة الملك لابل واكثر من ذلك خاصة في اماره كارلوس الخامس . وما زاد فرنسا ضعفاً ووهناً على ضعفها المشاجرات والمنازعات العديدة التي أهرقت فيها دماء كثيرة بين شيعة ارمينياك وبورغندا . اما الحروب مع انكلترا فكانت بلا فتور وسنة ١٤١٥ انتصر الانكليز في واقعة ازنكور وتغلبوا على اكثر الايلات البحرية الفرنسية وتوغلوا في اواسط البلاد واستولوا زمام احكامها ونودي باسم ملكهم هنري الخامس ملكاً عليها وتزوج بعده ابنه هنري السادس فكانت فرنسا مملكة انكليزية محضة جملة سنوات . وبينما كانت غارقة في الحبح اوقيانوس الفتن والاضطراب والبلايا محيطة بها من كل ناحية ولا ترى لها منفذاً للتخلص من ذلك الارتباك اذا بطالع سعيد بزغ في اقتها سنة ١٤٢٢ وذلك بظهور الابنة جان دارك وهي ابنة احد الفلاحين متظاهرة بالتنفوس والورع . فرغمت ان الله ارسل اليها ملاكاً يامرها ان تخلص فرنسا من بلاياها وانه تراعى لها الملاك ومريم العذراء عدة مرات وامراها ان تذهب الى الملك وتطلعه عما كان . فترددت حسب زعمها في اول الامر ثم كاشفت والدها عما كان وطلبت اليه ان يسمح لها بالذهاب الى الملك فلم يجيب طلبها ولكنها ذهبت اخيراً خفية عنه وانت الملك كارلوس السابع وكان وقتئذ في شينبون واطلعت على الخبر فتعجب من شجاعتها غاية التعجب ولم يكن لها من العمر حينئذ الا ١٨ سنة . وبعد مفاوضات طويلة انقاد اخيراً الملك وارباب ديوانه الى طلبها وكان الانكليز يومئذ محاصرين مدينة اورليان وكادوا يفتقونها فجهز الملك لجان دارك المذكورة جيشاً صغيراً فقادته بشجاعة تقصر دونها شجاعة الرجال وهمهم ولم يرض الا بضعة ايام حتى انكسر جيش الانكليز وتقهقر بعد ان فقد منه خلق

كثير وما برحت تطاردهم وتدفعهم حتى اوصلتهم الى مدينة رَمس ثم كسرتهم
 هناك ايضا مرة اخرى بعد ان كبدهم خسائر عظيمة ثم تحولت بالجيش نحو
 باريس لطرد الانكليز منها وفعلت امورا ادهشت الانكليز حتى ظنوها ساحرة.
 وبينما كانت تحاصر مدينة كومبيان هجمت امام الجيش على الاسوار فكبا بها
 فرسها ووقعت اسيرة في ايدي الانكليز فاخذوها ومن غيظهم منها حكموا عليها
 بالموت بدعوى انها ساحرة واماتوها حرقا بالنار فكان ذلك فعلا ملوما
 ومنظرا محزنا جدا نشعر منه الاجسام . وسنة ١٤٤٤ عُقد صلح مع الانكليز بعد
 ان خسروا معظم فتوحاتهم في فرانسوا واقتصروا على بعض الاقاليم البحرية . ثم
 في سنة ١٤٥٢ تجددت الحرب مع الانكليز ثانية ودامت الى سنة ١٤٥٢ فطرد
 الانكليز بالكلية من اراضي فرانسوا وكانت هذه الحرب نهاية الحروب المسماة
 بحروب المئة سنة

وبعد ان انقذت فرانسوا من ايدي الانكليز شرع كارلوس السابع في
 تقويم اودها واصلاح شأنها وازال ما لحق حكومتها من الخلل وجدد بها وفاقا
 من العساكر المستمرة فكان بذلك قدوة لمن اتى بعده من الملوك حيث سلکوا
 على منواله ولم يحتاجوا الى طلب العساكر من الامراء الملتزمين كما في الماضي
 وكسر من شوكة الاعيان جانبا عظيما وحصل بينه وبينهم حروب كانت له النصره
 عليهم . ثم توفي سنة ١٤٦١ وخلفه ولده لويس الحادي عشر فحذا حذو سالفه
 وتغلب على عصبة الاعيان وازاد الى حكم التاج احدى عشرة ايالة كانت كل
 واحدة منها مستقلة بالتصرف ولئن كانت ولايات حكامها بيد الملك في الظاهر .
 وكان هذا الملك شديد الاستقامة عالي الهمة محبا للعلوم والمعارف وانشأ جملة
 اماكن لاتشارها وكان محاميا للآداب مكرما العلماء واهل الطباعة والفنون
 وكان قد اخترع هذا الفن في مايانس يوحنا غوتنبرغ سنة ١٤٥٠ ثم نقل الى
 باريس سنة ١٤٧٠ في عهد هذا الملك فانتسعت بهذه الوساطة دائرة العلوم
 وتقدمت باقرب وقت . وكان علم الطب يومئذ قليل التقدم مزوجا بالضلالات

والاعمال البحرية ولم يكن له مدرسة مخصوصة فجدد له هذا الملك مدرسة خصوصية سنة ١٤٧٢. وكان لهذا الملك مزيد الالتفات الى التجارة فاحضر من بلاد اليونان ومن بلاد ايطاليا كثيرين من ارباب الحرف والصنائع ووجدد المعامل لعل الافئدة المزركشة بالذهب والفضة واقشة الحرير. ومن عظيم مشروعاته تربية البريد وكانت البرد في مبدأ الامر معدة لمصالح الملك والبابا خاصة ثم اتسعت دائرتها سنة ١٤٨١ حتى صارت تستعمل في مصالح الاهالي ومراسلاتهم. وبالحيلة احدث اصلاحات كثيرة نافعة ووسع نطاق الملكية بدون ايقاع حروب ولم يحدث في ايامه سوى واقعتين ومع ذلك اكتسب بسياسته من الفتوحات ما لا يكتسبه غيره من الملوك بالاسلحة ثم مات سنة ١٤٨٣ وترك جميع ثغور المملكة محصنة مستوفية سائر اللوازم

وخلفه ابنه كارلوس الثامن ولم يكن له ما كان لابي من الاوصاف والمحامد. وكان والده قد ترك جيشاً يبلغ ستين الفا على احسن حالة واكمل نظام فشرع في حروب ايطاليا من سنة ١٤٩٤ وامتدت الى سنة ١٤٩٨ وفتح امرية ميلان ثم خرجت من يده ولم ينج من هذه الحرب سوى المشقات وفقدان العسكر. ثم توفي سنة ١٤٩٨ في ريعان شبابه ولم يترك عقباً فخلفه لويس الثاني عشر وهو اقرب اقاربه اليه فتعاضد في الحروب في ايطاليا حتى افضى فيها ماله ورجاله وفتح سنة ١٥٠٠ امرية ميلان ثانية وسنة ١٥٠١ استولى على بلاد لومبارديا وبالحيلة نقول ان ايام هذا الملك صرفت اكثرها في الحروب ومات اخيراً سنة ١٥١٥ بعد ان خسر اقليم ميلان الذي كان قد فتحه

وقام باعباء المملكة بعده فرنسيس الاول وكان قد اظهر منذ صباه ما يدل على حسن مستقبله. وكان سالفه قد ولجّه في حباته بعض ماموريات نبح فيها حق النجاج فلما استلزم زمام الاحكام شرع في انجاز مناصد سلفه من جهة استرجاع ميلان وبعد ان جدد المعاهدات القديمة التي كانت بين فرنسا ودولتي انكلترا والبندقية زحف الى ايطاليا بجيش لم يسبق لفرنسا الى ذاك

الوقت انها بعثت بثلة الى ما وراء جبال الالب . وكانت الخزينة عند موت
سلفه قد امتدت في عسر الا ان ذلك لم يشي عن عزمه فسار حتى جاوز جبال
اللب واتصل سنة ١٥١٥ على سويسرة في واقعة مارينيان واستولى على بعض
المدن الحصينة منها مدينة نوار ونغلي اهل سويسرة عن اقليم ميلان وانعقدت
شروط الصلح وصارت حكومة جنيف تحت حمايته ثم انكسرت جيوشه في بيكوك
سنة ١٥٢٢ في محاربة الامبراطور شارل كان فحسرا اكثر فتوحاته . سنة ١٥٢٥
عزم على استرجاع ما فقده من الاملاك في ايطاليا فلتصر سيفه مبداء الامر ثم
انكسر في واقعة بافيا وانجرح ونزع اسيرا في قبضة العدو فاخذ اسيرا الى
اسبانيا وبقي في لسر الامبراطور شارل كان اكثر من ١٢ شهرا . ثم عقدت معاهدة
مالها تخليته كل الاقاليم التي فتحها فرنسيس في ايطاليا ودفع مبلغ من النقود
نظير فدية وهكذا تخلص فرنسيس من اسره بعد ان قاسى كثيرا . سنة ١٥٢٩
عزم هذا الملك على ارجاع اقليم ميلان وارسل جيشا لفتح فانكسر كسرة عظيمة
وتجددت ثانية شروط الصلح وكان الوسيط في عقدها البابا اكليمينس .
وهكذا مع حذق فرنسيس ودرايته وشجاعته لم يتيسر له مدة ملكه ان ينال ما
كان يصبو اليه وبالجهد استطاع ان يدفع عنه قوة الامبراطور شارل كان
وسطوته

ومن ثم عظم السلام بالمعاهدة التي عندها فرنسيس مع هنري الثامن ملك
انكلترا . وكان من شروط هذه المعاهدة ان ولي عهد فرانسوا يتزوج بالاميرة
مارية الانكليزية . وقد رغب هذا الملك في ترقية اسباب المعارف والفنون
فراج سوفها بعد ان كان كاسدا حتى صار يلقب ابا العلوم والمعارف فكان رايه
ان ليس لتعظيم العلماء حد ينهي اليه وانه ما دام العلم معظما في مملكته دام عزها
وفلاحها واذا امين فيها سقطت . واذا كان قد نشأ من صفوه على حب العلم
ومارسته كان يجب مجالسة العلماء فكانوا يصاحبونه في كل مكان ولا يفارقونه
في سفاره ولا في منزله وكان يقدّمهم المناصب الرفيعة ويجزل لهم العطاء .

وقد اعتنى جداً بالنزول والصيادات وأنشأ عدة أسنة عظيمة فاجتره كنصر
فوتيلور وقصير سان جرمن وغير ذلك من الأسنة المعبرة الجميلة المدهان توفي
اخيراً سنة ١٥٤٧

ثم خلفه هنري الثاني . سنة ١٥٥٢ اُضيف المذكور الى حكم الناج / ثلاث
عائلات كان كل منها مرسومًا بامفرد وكان هؤلاء الاساقفة يقيمون الحروب
على ما جاورهم لتوسيع نطاق عملاتهم واخضاع جيرانهم وكانوا يقتلون الرماح
والسيوف وكانوا في كل مكان في حرب مع الاهالي لان الشعب طلب الحرية
وهم طلبوا الطاعة لهيئة

وفي أيام الملك شارلوس التاسع الذي حكم سنة ١٥٦٠ حدثت بدمية
البروتستانت المعروفة بدمية ماري برثولماوس سميت بذلك لانها حدثت يوم
عيد ماري برثولماوس في ٢٤ آب سنة ١٥٧٢ . وكان ذلك بامر الملك ووشاية
امو ماري دي مديسيس . فاقام الكاثوليكون للمتعضيون بحق تنفيذ هذا الامر
البربري حتى انبم في اكثر انحاء المملكة وكانت ذلك النهار يوماً مهولاً على
البروتستانت يفوق وبله ويل يوم ذبح الاطفال في بيت لحم ونواحيها بامر
هيمودس . فقتل في ذلك النهار عدد غفير قيل عشرة الاف في مدينة باريس
وستون الفا في باقي مدن فرنسا والمخالصة انه كان يوماً جهنمياً وكانت فرنسا
كانها قبر مفتوح معد لابتلاع البشر . ويؤكدون ان الملك نفسه كان واقفاً في
احدى نوافذ صرحه في اللوفر يشاهد تلك المناظر المريعة مبهلاً وانه قتل
عدة انفس بغدارته التي كان يطلقها على اولئك المساكين . ولما بلغ البابا هذا
الخبر سراً جداً وامر بنيام تشكرات وابتهالات لله في جميع الكنائس الكاثوليكية
من اجل هذا العمل . واستمر ذلك التعصب ضد البروتستانت حملة سنوات
وكانوا يقيمون هوكيتوت . ولحوادث تلك الاضطهادات كتب مطولة وشروح
مستوفية

وفي اثناء حكم الملك هنري الثالث آخر امراء عائلة فالوا كانت فرنسا

مقسومة الى ثلاثة اقسام. القسم الاول البروتستانت ورئيسهم امير كوندي وهنري نافر الذي نبأ سر الملك فيما بعد تحت اسم هنري الرابع. القسم الثاني البولينيكي او الكاثوليكي المعتدل وانضم هذا الى القسم الال ورئيسه الدوك دالانسون اخو الملك هنري الثالث. القسم الثالث الكاثوليكي المتعصبون او الحمر ورئيسهم الدوك دي كيز. فوقع بين الطرفين وقائع بطول شرحها وكان الفوز فيها للقسمين الاولين. فعقد هنري الثالث صلحاً مع هنري الرابع يُعرف بصلح لوش او بوليو. فهاج حزب الكاثوليكي المتعصبين واقاموا الاتحاد المعروف بالاتحاد المقدس وكانت الغاية فيه تخلص الديانة نحو ذكر الكلفينيين اي البروتستانت وابدانهم عن آخرهم. وشر في ذلك الاتحاد انه من واجبات كل ابناء الوطن ان ينضموا اليه ولا فيعتبروا ويعاملوا كاعدا وان يقبضوا على الملك هنري الثالث ويضعوه في دبر ويقبضوا مكانه الدوك دي كيز ملكاً على فرنسا. اما هنري الثالث فلما كان مرتاباً من جهة غاية ذلك الاتحاد المدعو بالاتحاد المقدس وكان ايضاً يخشى سطوة الدوك دي كيز والاضطار تنهده فرّ هارباً من باريس واتى بلوا وارسل يدعو اليه الدوك دي كيز ولما حضر قتله. فهاج جميع كاثوليكي فرنسا ضده من جرا هذا العمل فاضطر ان ينضم الى هنري الرابع وحاصر باريس واذا اوشك ان يتغلب عليها قتله رجل يدعى كلامان في اليوم الاول من شهر آب سنة ١٥٨٩ مات في اليوم الثاني وبه انقرض آل قالوا ونودي باسم هنري الرابع ملكاً على فرنسا من قسم عظيم من الجنود

وبملك هنري الرابع ابتداءً فرعاً اخر من العائلة المالكية وهو فرع من البوربون. وكانت ولادة هذا الملك في ١٢ ك ١٥٥٣ في مدينة بوجيث لة قصر باق الى هذا اليوم على ما كان عليه من القدمية. وهو من سلالة الكونت روبرت دي كلارمون الابن السادس للملك لويس التاسع. وكان رجلاً حاذقاً مدركاً بروتستانت المعتمد في بداية الامر ولكنه اتبع المذهب

الكاثوليكي فيما بعد لنوال ماري لانه بعد وفاة سالفه هنري الثالث تركه قسم كبير من الجنود الكاثوليكية فاضطر ان يرفع الحصار عن باريس . ومع كل اجتهاده وشدة بأسه وانتصاره مرتين على مقاوميه في اراك وايفري لم يستطع ان يدخل العاصمة الى سنة ١٥٩٣ حين ترك مذهب القديم البروتستانتى واعتنق المذهب الكاثوليكي ولولا ذلك لاستمرت القلاقل والحروب والمنازعات زماناً طويلاً ولم يتمكن من اخضاع القوم وسنة ١٥٩٨ ابرز امراً يعرف بامر نانت نسبة الى المدينة التي أعطي فيها اجازيه للبروتستانت ان يتمتعوا بممارسة رسوم مذهبهم بكل حرية بدون مانع ولا معارض الامر الذي الفاه حنيد لويس الرابع عشر . وفي تلك السنة نفسها عقد صلحاً مع ملك اسبانيا ومن ثم انكب على اصلاح داخلية البلاد واتحاد القوت وعصب الجراح التي انت بها الثورات والحروب الدينية الاهلية وتوفي اخيراً قتيلاً في ١٤ من شهر ايار سنة ١٦١٠ وخلفه ابنه لويس الثالث عشر الملقب بالعاذل

وكان عمر لويس ٩ سنين عند وفاة ابيه فكانت نيابة الملك في يد امو ماري دي مديسيس الى ان بلغ السنة الرابعة عشرة من عمره فقبض على عنان الملك . وكان ضعيف العزيمة فاترا الهمة وكان الكردينال ريشليو الشهير هو الذي يدير امرا المملكة ومهامها واما الملك فكان له الاسم فقط . وفي ايام دولته كثرت الحروب من داخل ومن خارج ولكنه فاز وانتصر فيها . فحارب اسبانيا والنمسا واطاليا في الخارج ومن داخل كانت الحروب الدينية فتغلب على البروتستانت وفتح مدينة روشيل التي كان البروتستانت محاصرين فيها من عظم جور الكاثوليكين عليهم وذلك بعد حصار شديد ولكنه لم يبلغ الامر الذي كان والده اجاز به للبروتستانت ان يتمتعوا بحقوقهم الدينية ومات سنة ١٦٤٣ وكان قد سبقه الى القبر وزيره الكردينال ريشليو ببضعة اشهر وهذا الوزير المذكور هو الذي اسس الملك المطلق ومهد طريقه للويس الرابع عشر بعد ان كسر شوكة البروتستانت ومحاثر نصرقات الاشراف وهو الذي رفع شان

فرانسا الى ذري المجد والفخر في الحروب المماسة بحروب الثلاثين سنة وذلك من سنة ١٦١٨ الى سنة ١٦٤٨ ونقل اليها الرجمان الذي كان قبل ذلك لدولة النمسا

وبعد وفاة هذا الملك خلفه ابنه لويس الرابع عشر الملقب بالكبير ولم يكن له اذ ذاك من العمر سوى خمس سنين فكان تحت وصاية ووكالة امو حانة ديوتريش والكردينال مازارين الوزير الاول الذي خلف الكردينال ريشليو وكانت الحروب يومئذ لم تزل متعاقبة فعقد سنة ١٦٤٨ صلح وستفاليا ثم سنة ١٦٥٩ عند صلح البيريني فصارت فرانسا بشروط هذين الصلحين اعظم ممالك اوروبا سيطرة ونفوذا وقد تعصبت عليها اكثر دول اوروبا ودافعت حق الدفاع وازدادت قوتها وسطوتها في صلح نيم سنة ١٦٧٨ ثم اخذت اخيراً بالفتوى من طول الحروب مع اسبانيا المماسة بحروب وراثه اسبانيا . وقد رغب جداً لويس الرابع عشر في ترقية اسباب التجارة والفنون والعلوم وخنض رسوم الاموال الاميرية وفعل اموراً كثيرة مستحقة الاعتبار فزهت البلاد وامت وكادت تخسف رونق اعظم دول اوروبا ولكن عندما اتى اوامر جده المار ذكرها من جهة البرونستانات اخذت عمال كثيرة برونساتية من اهل الشهرة والحاريف والفنون يهجر اوطانها عندما باتت مسلوقة الحريه من ممارسة رسوم ديانتها . ومن ثم حدثت الحروب الكثيرة التي اشرنا عنها وجلبت هذه الامور على الدولة الضعف واناخر الادبي والمادي فاضحت فرانسا فاقدة اكثر فتوحاتها في الشرق والشمال والجنوب وانحصرت ضمن دائرة حدودها الاولى وهكذا فقدت في اواخر ايام هذا الملك العظيم الشان عزها وبهاهما ورونتها بالنسبة الى اوائلها وبالاجمال نقول ان عصره كان من الهج وازهى الاعصار السالفة وقد ظهر فيه عدة مشاهير من ارباب الحرب والعلم ككوندي وتورين ودوكازن وكوير ولوفوا وراسين وموليارد لافوتين وبوالا وبوسوي وفيلون مؤلف نيليك ولوبرون وغيرهم . وهو الذي انشأ دار الاثقاليد وقصر فرساليا

الذي انتفى عليه اموالاً جزيلة وكانت وفاة هذا الملك في الاول من شهر
ايلول سنة ١٧١٥ للميلاد في السنة السابعة والسبعين من عمره والثانية والسبعين
من ملكه.

وحظته حفيد ابنه لويس الخامس عشر وكان ايضاً فاجر الهبة ضعيف
للعزيمة محاطاً بمجهور من النساء اللاتي ينجل الانسان ان يصف سجاياهن الذميمة
فبات عنان الملك يلتصق في اكف اميالهن واغراضهن . وحدثت في
ايامه حروب كثيرة اكثرها في فائدة دولة النمسا وذلك من سنة ١٧٥٦ الى سنة
١٧٦٣ وقد حازت فرنسا في ايامه اللورين وجزيرة كورسيكا على انها ضيعت
مستعمراتها في الخارج ودام حكمه من سنة ١٧١٥ الى سنة ١٧٧٤ للميلاد ثم توفي
بمرض الجذري

ونبوا بعده تخت الملك حبيدة لويس السادس عشر سنة ١٧٧٤ وقد
اطلب المؤرخون في مديحهم وقالوا انه كان نقياً ورعاً محباً للشعب وراغباً في
تقدمه ونجاحه غير انه كان ضعيف العزيمة لا يحق الاركان في نفسه وفي ايام دولته
حدثت الثورة العظيمة في فرنسا وهذه الثورة هي ابتداء تاريخ فرنسا الحديث
ومستوط الدولة الثالثة الفرنسية

الباب الرابع

في الثورة الفرنسية واسبابها وقيام الجمهورية الى الامبراطورية
الاولى من سنة ١٧٨٩ الى سنة ١٨٠٤

ان الشيء بالشيء يذكر . وقبل ان نشرع في الكلام عن حوادث الثورة
التي حدثت سنة ١٧٨٩ رأينا انه من اللازم ان نذكر شيئاً عن الحوادث التي
سبقت لها السيل والتي كانت مصدراً لها فنقول . قد علمنا فيما تقدم ان
فرنسا ابتدأت بالتأخر السياسي والمادي والادبي منذ اواخر مدة ملك لويس

الرابع عشر وفي زمن تلك ابن حفيده لويس الخامس عشر لان هذا الاخير لم يكن يهتم الا بالانعام بحق شهبانو وامبالو الفاسدة فاحاط به نساء كثيرات اتقن في بلاطه في فرنسا ليا مستوليات على قلبه فامسى عنان الدولة في ايديهن وبات زمام ادارة المهام وسياسة العباد في اكف اغراضهن وامبالهن وكن مهتمات في ما يانهن ويأتي اهلن واعوانهن بالمجد والسطوة وكسب الاموال وتنفيذ المآرب قاطعات النظر عن صوامع البلاد والرعايا . وفي اواخر ملك لويس الخامس عشر باتت سياسة البلاد الداخلية في ارتباك عظيم وفي ايامه طرد الرهبان اليسوعيون من فرنسا كما طردوا من الممالك الاوروبية الاخرى . فكان ذلك مصدراً لاضطرابات ومقالات كثيرة لان الرهبة المذكورة كانت ذات شهرة وسطوة عظيمة . فهذه السياسة واعمال اخرى كثيرة نظيرها لا بسعنا ضيق المقام لاستيفائها اضعفت قوة الدولة ووقعت المالية في عسر لا مزيد عليه وقطعت العلاقات التي ربطت فرنسا باسبانيا وناپولي ونكست شرفها واذلتها في اعين دولتي انكلترا وروسيا وهكذا امست الامة فاقدة الامل في ما يرفع عنها ذلك الجور والظلم وبات الجميع يتظرون زمان الشروع في اصلاح ما قد طرأ من الفساد . ولو لم يمت لويس الخامس عشر وطالت حياته ولو مدة يسيرة لابتدات الثورة في ايامه ولكن ما اخر حدوثها مدة خمس عشرة سنة هو نبوءة حفيده تحت الملك لانه كان محباً للشعب جداً وكان يحاول اصلاح الاحوال بتشييد اركان الدولة بالاشراك مع مجلس نواب الامة الذي كان قد الغاء سالفة

وكانت حيثئذ الامة الفرنسية مقسومة الى ثلاثة اقسام وهي الامراء وخدمة الدين والعامة وكانت اعنة السياسة وزمام ادارة مهام الامور قد اضمحت في ذلك الوقت في ايدي الامراء وخدمة الدين . اما الشعب فلم تكن له يد فيها ولا كان لهم حق في المراتب ولا في ادارة امر ما من الامور العمومية فصرف هذا الملك التعميس الحظ قصارى جهده وهتم بمساعدة وزرائه لاصلاح احوال

الامة والدولة فلم يات كل ذلك بادي نتيجة حسنة . ولما كان روح الثورة قد اتشرب بين الشعب واخذت الجرائد تتجاوز حدود الاعتدال في الكلام ضد الملك وحكومته رأى لويس السادس عشر ان لا فائدة من الاصرار على الملكية اذ لا عضد له ولا معين فعزم على الخروج من فرنسا وخرج من قصره في التوليري في ٢٠ حزيران سنة ١٧٩١ ومعته الملكة واخوته وابنته وبنته وركبوا جميعهم مركبة كانت معدة لهم وساروا سرا متنكرين ولكنه انكشف امرهم اذ عرفهم في مدينة فارين فقبضوا على الملك واهانوه واعلوا الحكومة في باريس بذلك فارسلت امرا بترجيع الملك الى باريس للحماية . فقلل ذلك اعتباره عند الشعب والجمعية الوطنية وجعل مضادي الحكومة الملكية يشددون طلب قيام الجمهورية

ولما رأت ملوك دول اوروبا ما هو جار في فرنسا خافوا ان يباتوا هم ايضا هذفا لامور كهذه وعلى الخصوص بعدما رأوا ما حدث عندما ألقي القبض على الملك اتفق امبراطور المانيا وملك بروسيا بموجب معاهدة سنة ١٧٩١ ما لها ان الدول تعتبر ما هو جار على لويس السادس عشر ملك فرنسا كانه جار عليها جميعا . فاغناظت الامة الفرنسية من ذلك واجمع رايها مع ملكها ووزرائه على اشهار الحرب على المانيا وبروسيا وكان ذلك في العشرين من نيسان سنة ١٧٩٢ وصادقت الجمعية على ذلك فانتشبت نيران تلك الحروب الشديدة التي دامت مدة ثلاث وعشرين سنة ونالت بها فرنسا افخر اكابيل المجد كما سيأتي ذكره في مكانه قال الجميع وقتئذ الى الملك ولكن الى مدة قصيرة ثم حدث بعد ذلك امور كثيرة لا يسعنا استيفائها لضيق المقام وهاج الشعب هجاءا عظيما وهم على بلاط الملك وطلب اليه المصادقة على نظامات جديدة كانت قد قررتها الجمعية المدعوة بالحكومة الاجرائية فابي وبعد ان حدثت امور يطول شرحها قبضوا على الملك وعلى عائلته وسجنوه في دار التامبل وبقي مسجوناً مدة اربعة اشهر وكان ممن حبس معه زوجته ماري انطوانت شقيقة امبراطور المانيا

والنساء ثم ابنة وابنة وشقيقة الاميرة البصابات وخادم. وفي اثناء سجنه اقيمت
 المحجة عليه بانه قد خان الوطن وحققوا عليه كل الحق لاسيما عندما راوا
 انتصارات جيوش الاعداء الالمانية والبروسية ونهددها العاصمة. وفي ٢١ ايلول
 سنة ١٧٩٢ اقاموا جمعية الكوثفانسيون ناسيونال اي جمعية اتفاق الامة وقررت
 هذه الجمعية باتفاق اعضائها الغاء الملكية وقبضت على زمام السلطة الاجرائية
 والنظامية وكانت الجنود الفرنسية قد اظهرت ما لا مزيد عليه من الشجاعة
 والبسالة وسرعة الحركة في محاربة الدول المتحدة فسرت الحكومة الجمهورية
 الفرنسية بهذا النجاح واعلنت وجوب الغاء المظالم الناتجة عن وجود الملوك
 في كل اوروبا ونشرت اعلاناً مآله انها مستعدة ان تساعد الامة التي ترغب في
 خلع ملكها طلباً للحرية واعلنت ايضاً انها ستلغي السلطة الملكية من كل البلاد
 التي تدخلها جنودها وتقيم عوضاً عنها سلطة الامة وتلقي الحجز على املاك خدمة
 الدين والامراء قياً بما بحق مصاريف الحرب وكان كل ذلك في ١٥ كانون
 الاول سنة ١٧٩٢

وبعد انقضاء اربعة اشهر من تاريخ سجن لويس السادس عشر واقامة
 المحجة عليه كما تقدم حكم عليه بالموت فطلب الملك فرصة ثلاثة ايام ليستعد فيها
 للموت فرفض مجلس النواب ان يمنحه اكثر من ٢٤ ساعة وفي صباح ٢١ من
 كانون الثاني سنة ١٧٩٢ جاءوا بالملك الى محل القتل موثق اليدين وكانت
 تلوح على وجهه علامات الشجاعة وعدم الاضطراب. فتخلع ثيابه ولما وصل الى
 اعلى المكان المعد للقتل بعد عن الجلادين وتقدم قليلاً الى جهة المساحة حيث
 كان مجتمعاً جمع غفير وجيش جرار. وقال مخاطباً الشعب بصوت مرتفع.
 ايها الفرنسيون اني اموت برياً ما اتهمني به هذا الشعب واسامح من رغب
 في قتلي واسأل الله ان لا يجعل فرانساً مسؤولة سفك دمي. وكان يرغب ان يطل
 الكلام غير ان الاوامر صدرت بضرب الطبول والالات الموسيقية العسكرية
 حتى لم يقدر احد بعد ان يسمع صوت الملك فساقوه الى الذبح وضرب عنقه

وحدث بعد قتل الملك في فرنسا شغب عظيم وكان القتال مستمداً خارج
 المملكة وداخلها وكانت البلاد في ذلك الوقت كأنها قبر مفتوح معداً لابتلاع
 القتلى . ووقعت فرنسا في الحروب المستطيلة التي انت بها بعد قتل ملكها . اذ
 تحالفت جميع الدول على محاربتها وابداء شعبها واقتسام مملكهم . وكان في
 مقدمة هذه الدول النمسا وبروسيا . وزد على ذلك الحرب الاهلية التي اثارها
 اهل بلجيوم وولاية فاندني بسبب سياسة جمعية الكوثانسيون الملوثة الخالية من
 الحنانية وفي ٨ شباط سنة ١٧٩٣ اشهر مجلس الكوثانسيون الحرب على انكلترا
 وهولندا وجميع دول اوروبا ما عدا اسوج والدانيرك وقينيسيا والدولة العثمانية .
 فاشتبهت نيران الحرب في كل فرنسا وكان ابتلاؤها في بلاد بلجيوم في ٢٠ شباط
 سنة ١٧٩٣ ومن ذلك الحين كانت الحروب متصلة بين فرنسا واكثر دول
 اوروبا ودامت الى سقوط الامبراطورية الاولى سنة ١٨١٥

وحدثت بعد ذلك امور كثيرة فظيعة تقشعر منها الابدان . منها انهم
 بعدما حكموا على الملك بالقتل اقاموا ايضا المحجة على الملكة وانهموها بانها كانت
 مشاركة في كل اعمال زوجها وحكموا عليها بالموت ايضا فاركبوها مركبة لنقل
 البضائع واتوا بها الى حيث كانوا قد قتلوا زوجها من مدة قريبة وبعد ان
 صعدت على المذبحه خرَّت على ركبتيها وصرخت صوتاً مرتفعاً قائلة يا الهي اسالك
 ان تسامح قاتلي . ثم نهضت فساقتها الى المذبحه وقتلوها وذلك في ١٧ تشرين
 الثاني سنة ١٧٩٣ ودفنوها في القبر الذي كانوا قد دفنوا فيه زوجها منذ
 تسعة اشهر واخذوا ولي العهد وسلوه لرجل اسكاف وفوضوا اليه امر
 تربيته . وكان رجل يسمى رويسير مشهور بالظلم والعدوان قد تولى ادارة
 تلك العدة الفاسية البربرية فاستدعى الاميرة البصابات شقيقة الملك لويس
 السادس عشر اتي كانت لم تنزل مسجونة في دار التامبل واقام محاكمتها في ٩
 ايار سنة ١٧٩٤ في مجلس الجنابات حيث أصدر عليها الحكم بالموت فقتلوها ظلماً
 وعدواناً في نفس ذلك النهار

ثم ان روبسبير المذكور لكي يميل بالشعب اليه كان قد امر قبل ذلك بنهب الكنائس والاديرة وباضطهاد خدّمة الدين بوجه الاجال واباح قتلهم فاقام القوم بحق تنفيذ هذا الامر البربري حتى القيام . ثم امر بتقرير نسق جديد لحساب الاشهر والسنين وكان قصده ابطال جميع الاصطلاحات السابقة وقرّر اول التاريخ منذ قيام الجمهورية في ٢٢ ايلول سنة ١٧٩٢ وغير اسماء الاشهر والايام مبتدئاً من شهر ايلول وقسم الاسابيع الى عشرة ايام وغير اسماء الايام فسمّى يوم الاحد الاول والاثنين الثاني والثلاثا الثالث وهلمّ جراً الى العاشر . وكان كل شهر ثلاثين يوماً وازداد لآخر السنة ستة ايام وبعد ان اصبح وحده قابضاً على زمام الامور شرع في نشر ما كان يحب ان ينشره من تعاليم قولتير وروسو الكافرين للذين كانوا قد همّوا بحب الثورة في قلوب الفرنسيين وعجلاً وقوعها بواسطة كتاباتهم ففي ١٠ ايار سنة ١٧٩٤ امر روبسبير بعد ان اتفق مع اعوانه الاردباء نظيره الذين كانوا يدعون انهم ينوبون عن الامة بابطال الديانة المسيحية وجميع الآديان واعلن انه من الواجب ان يقر الانسان بوجود الخالق وخلود النفس فقط وامر ايضاً بقتل خدّمة الدين وجميع اللذين يتصورون ويتعزّبون لهم . فثار هولاء الاردباء الاشرار مدة ولكن بعد ذلك بمدة ليست طويلة حدثت ثورة في باريس وسقط روبسبير ورفقاؤه من رجال الحكومة واقبحت الدعوى على روبسبير نفسه وعلى اعوانه فحكم عليهم بالموت فنالوا جزاء اعمالهم الشنيعة البربرية وماتوا موت الاندال . فانه عندما صعد ذلك الذي خضب ارض فرنسا بدماء اولادها هو واعوانه على المذبحة اظهروا من الخوف والجبن ما يعيب الرجال فكانوا يبكون كالاطفال حتى ان بعضهم ماتوا من مجرد النظر الى قتل رفقاءهم وكان ذلك في ٢٧ و٢٨ تموز سنة ١٧٩٤ وكانت جيوش الحكومة قد انتصرت وطردت جيوش الاعلاء من فرنسا واسترجعت مدينة طولون من الانكليز بالقوة وذلك تحت ادارة شاب لم يتعود بعد خوض المعارك ولم يحضر في ساحات القتال قبل حضوره في هذا الحصار

وهو البطل المشهور نابوليون بوناپارت وبعد ذلك امرت جميع الاسلحة من
الاهالي ورجعت الراحة الاهلية مدة يسيرة اذ حدث بعد ذلك فلافل كثيرة.
وفي ٢٧ تشرين الاول سنة ١٧٩٥ اقاموا حكومة جديدة تُعرف بحكومة
الديركتوار مؤلفة من خمسة اشخاص مديري للحكومة الاجرائية ولذلك دُعيت
حكومتهم حكومة الديركتوار اي الحكومة المديرية ودامت هذه الحكومة من
٢٧ تشرين اول سنة ١٧٩٥ الى ١١ تشرين الثاني سنة ١٧٩٩ لليلاد وحدثت
في زمانها حروب كلية نالت بها فرنسا انحر اكليل الجهد والسطوة والقوة .
فحاربت المانيا والنمسا اولاً ثم حاربت دول ايطاليا المختلفة تحت قيادة القائد
بوناپارت الشهير فانتصر انتصارات كلية وفتح كل ايطاليا ووضع عليها ضرائب
واقام فيها حكومات واضعاً لها نظمات وقوانين جمهورية . وكانت وتنفيذ
ايطاليا مقسومة الى ممالك صغيرة ودوقيات مستقلة اكثرها خاضعاً للنمسا وبعد
ان انتصر في معارك عديدة وقعت بينه وبين جيوش النمسا في ايطاليا ومهد
الامور وعقد معاهدات مع دول ايطاليا ودوقياتها تقدم لمحاربة النمسا في اراضيها
وهناك ايضاً فاز فوزاً عظيماً وفتح اكثر مدنها غير ان الجيوش الفرنسية
ال اخرى التي كانت تحت قيادة غيره من اشهر قواد فرنسا لم نالت بنتيجة حسنة
عندما كانت تحارب المانيا والنمسا من الجهة الشرقية وارتدت الى فرنسا بعد
وقائع كلية بدون ادنى نتيجة . ومن ثم طلبت دولة النمسا الصلح فعقد بوناپارت
معها صلحاً اتى فرنسا بالانحر والشرف والفوائد السياسية والمادية وعاد راجعاً بعد
ذلك الى باريس فتلقاء الشعب والحكومة بزيد الاعتبار واثى الجميع عليه
مزيد الثناء والشكر وكان ذلك سنة ١٧٩٧ . وبعد ان اقام مدة في باريس
عرضت عليه حكومة الديركتوار ان ياخذ قيادة العارة البحرية التي كانت قد
نعينت لغزو الاسا كل الانكليزية ولكنها استصوبت اخيراً الراي الذي كان
قدمه بوناپارت بفتح البلاد المصرية وبلاد سوريا لكي تكونا مفتاح بلاد الهند
وكان جل قصد الحكومة ان تبعده عن فرنسا لانها امست خائفة سطوته .

فجهزت له اربعة وثلاثين الف جندي مع عدد عظيم من السفن البحرية الحربية
 واخرى لنقل المهات . فركب بونابارت هو وجنده تلك السفن واقلعوا
 قاصدين الاسكندرية . وفي اثناء السفر فتح جزيرة مالطة من فرسان انصار
 المقدس وقد مر ذكرهم في تاريخ آل عثمان . فتك بونابارت فيها ثلاثة الاف
 عسكري وتقدم الى الاسكندرية مع بقية الجيش واكثر السفن فاخذ الاسكندرية
 والاساكن البحرية ثم تقدم بجنوده الى داخلية البلاد قاصداً القاهرة فاستولى
 عليها بعد معركةين انتشبت نيرانها بينه وبين مراد بك قائد جيش المماليك .
 الاولى عند الرحمانية بالقرب من دمنهور . والثانية امام اهرام الجيزة . وفي غضون
 ذلك وردت اليه الاخبار لجهة انتصار عمارة الانكليز على عمارته الفرنسية في
 ابي قير واحتراق الجانب الاعظم من بوارجه واسر الجانب الاخر فتكدر
 واضطرب لانه امسى منفصلاً عن فرنسا ومع كل ذلك ما زال الامل بخامر
 قلبه بالتغلب على جميع الموانع والصعوبات وبعد ان مهد الامور في النظر
 المصري تقدم بفرقة من الجنود لفتح بلاد سوريا فاخذ العريش وغزة وبافا
 وتقدم واقام الحصار على عكا مفتاح هذه البلاد وضائنها جداً واشك ان ينتجها
 لولا مساعدة الانكليز للجزار والي سوريا ووقع مرض الطاعون بين صفوف
 عسكريه فاشتت راجعاً عنها تاركاً فتوحاته في المدن التي ذكرناها آنفاً وعاد الى
 مصر ومنها سافر راجعاً الى باريس بعد معركة ابي قير الهائلة التي هلك فيها ١٢
 الف جندي من عسكري آل عثمان والانكليز تاركاً قيادة الجيش الاولى الى القائد
 المشهور كبير الذي لم يكن دون بونابارت بالشجاعة والحنق والدراية وقد
 قتله فيما بعد رجل احق بدسيسة من قبل المماليك ومسلمي مصر . فقامى بونابارت
 اخطاراً عظيمة في اثناء سفره الى ان وصل الى فرنسا اذ اوشك ان يبيت اسيراً
 في قبضة الانكليز وذلك في اواخر سنة ١٧٩٩ للميلاد . وكانت دولة النمسا
 ودول ايطاليا تتوقف عن اجراء بعض شروط المعاهدة التي قررها بونابارت
 قبل ذهابه الى مصر وكانت انكلترا تهيج دول اوربا على فرنسا فبانت تلك

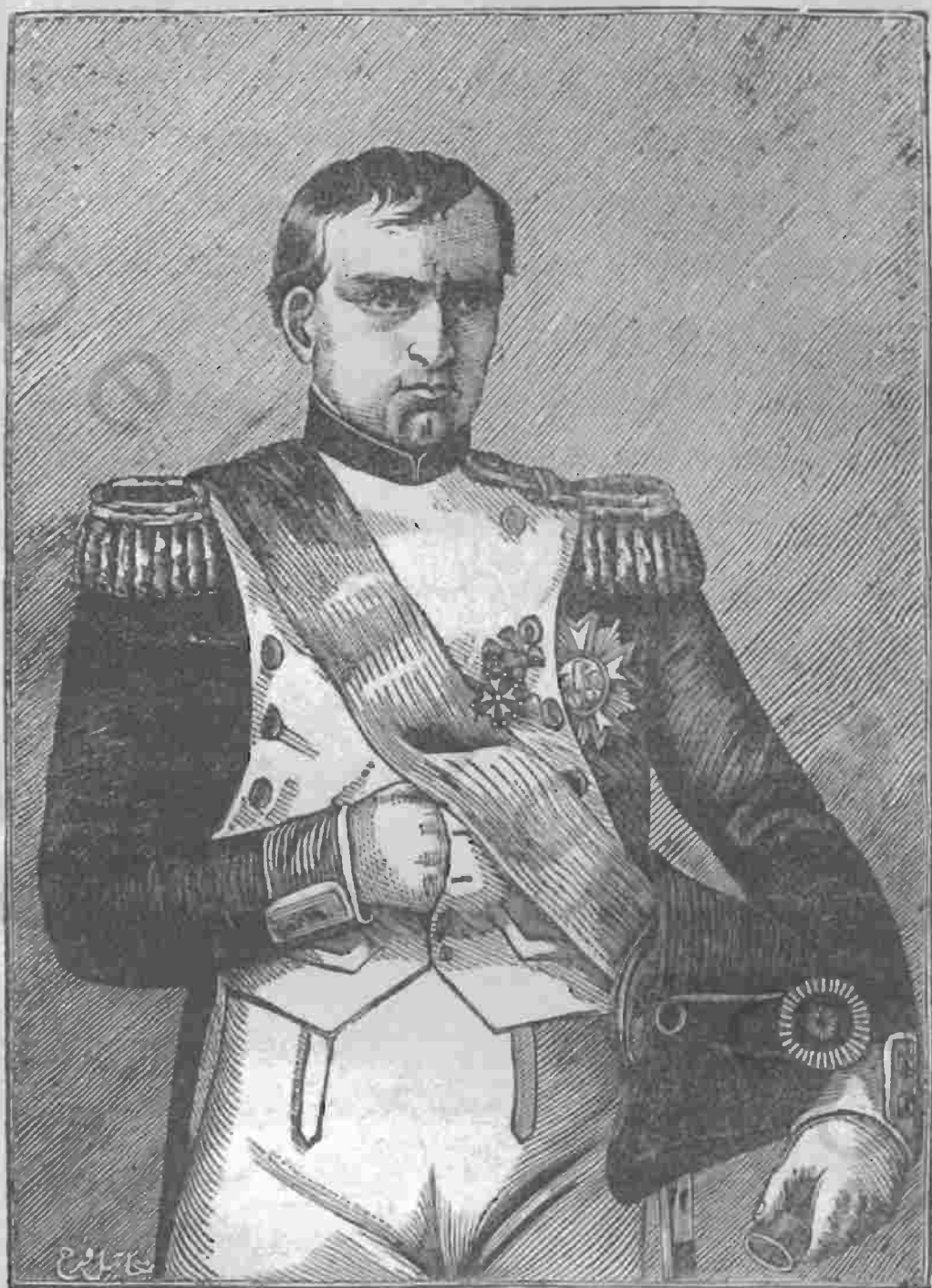
المعاهدة متعلقة بين الموت والحياة واخذت فرنسا والنمسا ودول ايطاليا نستعد جميعاً للحرب وفي اثناء ذلك بعثت فرنسا سرذمة صغيرة تحت قيادة القائد هومبرت وعارة بحرية الى ايرلاندا من املاك انكلترا ليضرم نار العيوان بين الاهالي ويجهلهم على العصيان املاً بتخويف انكلترا لعلها تفلح عن تهيج النمسا وباقي دول اوروبا على فرنسا ثم اخذت تجهز جيشاً اخر لخدمة القائد هومبرت في ايرلاندا فتاخر ذلك فحارب هذا القائد بالنسر القليل الذي كان معه مدة ليست بقليلة واضطر اخيراً ان يسلم. وبعد ذلك اتت بعض البوارج الانكليزية ببعض الجنود وانزلتها في ميناء اوسندد الفرنسية لخدمة الاوقيانوس فدفعهم الفرنسيون واهلكوا منهم عدداً غفيراً

هذا وكانت حكومة نابولي قد اشهرت الحرب على فرنسا وولجت قيادة جيشها الى القائد النمساوي ماك فخاربه القائد الفرنسي في ايطاليا وكسره واستولى على مدينة نابولي نفسها والزم الملك واهل بيته واعيان دولته ان يتجهوا الى البوارج الانكليزية التي كانت تحت قيادة الاميرال نيلسون في جزيرة صقلية وقرر القائد الفرنسي الجمهوري في تلك البلاد ولما كانت القلاقل والاضطرابات آخذةً بالازدياد ودول اوروبا مُصمتة على كبح عنان الفرنسيين اخذت فرنسا تستعد كل الاستعداد وتجنّد الجنود واخيراً لما رأت انه لا بد من فتح الحرب بعثت في ١٢ اذار سنة ١٧٩٦ الى القائد جوردان صورة اعلان اشهر الحرب ليعتد به الى دولة النمسا وامرته حكومة الدبركتوار ان يهاجم جيش النمسا الذي كان تحت قيادة الارشيدوق شارل وبعثت ايضاً بمثل هذه الاوامر الى القواد الذين كانوا في ايطاليا وهكذا شبت الحرب وقامت على قدم وساق فنجحت الجيوش الفرنسية في اول الامر كل النجاح وكان نجاحها في ايطاليا مستديماً غير ان جيش الرين الذي كان تحت قيادة جوردان انكسر اخيراً ونقهر الى الحدود ولولا بعض الموانع التي حالت بين الارشيدوق النمساوي وبينه لانزل به الوبل والهوان . فعاد القائد جوردان الى باريس

تاركاً قيادة جيشه الى احد اركان جريه ليعرض على الحكومة سوء حالة الجيش
واحتياجه الى الزاد والمهمات وفي غضون ذلك كان رجوع بونا بارت من مصر
ولما اتى بونا بارت بباريس وجد حكومة اللديركتوار في اسوأ حال فافدة
سطوتها واعتبارها اذ ليس لها رئيس فيه الاهلية واللياقة لان مدير مهام امورها
كما ينبغي فاختار بمساعي اخيه لوسيين وبعض اعوانه من كانوا يميلون اليه بقلب
الحكومة المديرية واقامة حكومة جديدة فنجحت مساعيه وابطل حكومة
اللديركتوار واقام الحكومة المعروفة بحكومة الكونسولات وهي مؤلفة من ثلاثة
اشخاص يدعون قناصل وتبوا هو رياستها فسي قنصلاً أولاً الى عشر سنين وكان
ذلك في اليوم التاسع من شهر تشرين الثاني سنة ١٧٩٩ ثم سي قنصلاً مدة حياته
سنة ١٨٠٢ وسنة ١٨٠٠ بعد ان تبوا المسند الاول في الحكومة الجديدة اسلم
قيادة جيش ايطاليا وتقدم لمحاربة ايطاليا والنمسا اذ تكثرت باليهود التي كان
عقلها معها قبل سفره الى مصر فخار بها واتصر عليها بينما كان القائد مورو
قائد جيش الرين متصرفاً في الجهة الشرقية . فطلبت النمسا الصلح فعقد معها
معاهدة تعرف بمعاهدة لونشيل وذلك في ١٤ تموز سنة ١٨٠٠ وسنة ١٨٠٢ عقد
معاهدة أميين مع الانكليز غير ان هذه المعاهدة لم تتم من الطرفين وتجدد بعد
ذلك العدوان والتنافر

هذا وبعد ان انهى بونا بارت اعماله العظيمة في الخارج انكب على اصلاح
داخلة بلاده وهدد جراحاتها التي انت بها الثورة والحروب الكثيرة الداخلية
والخارجية وسوء ادارة مهام امور الدولة التي كان يموسها قوم غير اهل للقيام
بمقاييل ادارة اعمال عظيمة وكثيرة الاهمية لاسيما في تلك الظروف الصعبة التي
بانت فيها فرنسا فكثرت مساعيه بالتجاج العظيم . وهكذا بعد ان كان مهام
الجلس التفضائي (السينا) سنة ١٨٠٢ قنصلاً طول حياته على الجمهورية رقاء الى
الامبراطورية سنة ١٨٠٤ وهكذا انتهت الحكومة الجمهورية الأولى في فرنسا
التي دامت اثني عشرة سنة

obeikandi.com



ناپوليون الاول امبراطور فرنسا ودين

الباب الخامس

في قيام الامبراطورية الفرنسية الاولى وسقوطها وارجاع الملكية
وسقوطها ايضاً الى قيام الجمهورية الثانية والامبراطورية
الثالثة وذلك من سنة ١٨٠٤ الى سنة ١٨٤٨

انه لما كان هذا الفصل ذا اهمية كلية في تاريخ فرنسا وكان معظمه متعلقاً
بالامبراطور نابوليون الاول ولم تصدّ في ما تقدم لتقرير حياة هذا الرجل العظيم
راينا قبل ان نستوفي الكلام من جهته ان نقرر اولاً ولو بالاجاز خبر حياة هذا
الرجل الذي لم يتم في الارض كثيرون نظيره فنقول
ان نابوليون وُلد في ١٥ آب سنة ١٧٦٩ للميلاد في مدينة اجاكسيو عاصمة
جزيرة كورسيكا التي كانت قبل ذلك تابعة لولاية جينوا الايطالية قبل ان
فتحتها فرنسا وضمها الى بلادها. وكان والده شارل بوناپارت من المشهورين في
الجزيرة المذكورة وكان له ثمانية اولاد فخمسة منهم ذكور وهم يوسف ونابوليون
ولوسيين ولويس وجيروم. وثلاثة منهم اناث وهنّ ليزا وپاوپينا وكارولينا.
وكانت ولادة نابوليون بعد ان استولت فرنسا على تلك الجزيرة بنحو شهرين
وكان بنو في القامة ويتقدم في الآداب تحت ادارة امه التي كانت على جانب
عظيم من التهذيب والتفوى والدراية لان اباؤه شارل بوناپارت توفي حديث
السن فاعتنى بامر عائلته اخوه لوسيين الذي كان رئيس شمامسة وكان يخصص
بالاعتناء بنابوليون اذ رآى فيه ما يدل على حسن استعداداته. ولما كان هذا
الشئ على مضجع الموت اجتمع حوله اولاد اخيه كلهم فقال مخاطباً كبيرهم وهو
يوسف انك انت اكبر اخوتك سناً غير ان نابوليون هو اكبركم درايةً ومعرفةً

ولا ينتظر في المستقبل الى اعتناء احد فانه قادر ان يعتني بذاته
ولما بلغ نابوليون سن العشر سنوات أدخل الى مدرسة حرية في مدينة
برلين فاقام فيها اربع سنين وانصب كل الانصباب على المطالعة واقتبال العلوم
ولاسيما العلوم الرياضية وهام بمطالعة التاريخ جتاً . وكان حاد الطباع قليل
الكلام والحركة قليل اللعب وكثير التفكير وكان شديد الميل لمطالعة فن الهندسة
ولاسيما ما كان يتعلق منها بهندسة الحصون والقلاع ولما بلغ سن الأربع عشرة سنة انتقل
من مدرسة برلين الى مدرسة باريس فبرع جداً وفاق على جميع التلامذة رفقاءه .
وفي اول ايلول من سنة ١٨٨٥ نال الدبلوم وهي شهادة المدرسة ورتبة وكيل
فائقم في سلك الجندية وبعد مدة قصيرة ارسلوه الى فرقة من الجيوش مقبلة في
مدينة فالانس فرقوه الى رتبة فائقم وبعد ذلك بسنتين اتى باريس ولما
ابتدأت الثورة سنة ١٧٨٩ كان بوناپارت في مدينة فالانس ومع ان كثيرين
من المأمورين والضباط كانوا يخرجون من الخدمة العسكرية ثبت بوناپارت
في خدمته وقبل بالثورة وبالتغيرات التي انت بها ثم رفته جمعية الكوثاسيون
الى رتبة فريق بعد حصار طولون وفتحها من الانكليز وهكذا ما زال نجمه ساعده
بطلع في برج السعود الى ان اضحي في قبضة يد عنان اعظم شعوب العالم
وإدارة مهام امورهم وذلك عندما اقامه المجلس القضاي ١٨٠٤ امبراطوراً
على فرنسا وبعد ذلك بسنة سبي ونُزج ملكاً على ايطاليا في مدينة ميلان
الابطالية

الأ ان الدولة الانكليزية منذ سنة ١٨٠٢ لم تكن تنظر الى ترفي نابوليون
واجراءاته بعين القبول فجددت الشاغر مع فرنسا وكانت تترقب الفرص
لادلالها ولم ترض ان تعقد معه صلحاً ولا ان تعرفه رئيس الامة الفرنسية فغضب
من ذلك واخذ يجري استعدادات وتجهيزات كلبة لتقطع خليج المانش وغزو
الملكة الانكليزية وبما هو منهمك في ذلك انحدت دولة النمسا مع دولة روسيا
على محاربتة فالتزم ان يترك استعداداته البحرية وبحول وجهه نحو تلك الصاعقة

الجديدة فتغلب على النمسا وروسيا ودخل فيها عاصمة النمسا ومحق الأوستروموس في معركة أوسترليتز الشهيرة وبينما كان صدى انتصارات نابليون مائلاً واسطاً أوروبا سنة ١٨٠٥ كانت الأخبار مكدرة لجهة العامة المجرية الفرنسية التي أبادها الأميرال نيلسون الأنكليزي في ترافلكار حيث قتل فيها أيضاً. فبعد انتصار نابليون في أوسترليتز عقد مع النمسا الصلح المعروف بصلح بريسبورج الذي بموجب ضم إلى ملكة إيطاليا املاك فينسيا المعطاة للنمسا سنة ١٧٩٨ وسنة ١٨٠١ وجعل دوقيني ورتسبرج وبافاريا في سلك الممالك واعطى دوقية بادن الكبرى إلى صهر مورات وسلخ ملكة نابولي من فرديناند الرابع ملك سبيليا المزدوجة فاعطاه سبيليا فقط وهي جزيرة صقلية. واعطى أخاه يوسف ملكة نابولي وإقام أخاه لويس نابليون ملكاً على هولندا. وأنشأ الاتحاد المعروف باتحاد الرب فطلبت امبراطورية ألمانيا وبات الاتحاد المذكور نمت حماية نابليون وذلك سنة ١٨٠٦

أما انكلترا وروسيا وروسيا فكانت تنظر إلى هذه الأمور بعين التفور والخوف من اخلال ميزانية أوروبا. فانفتحت بروسيا وروسيا على مقاومة نابليون واشهرتها الحرب على فرنسا. فقام نابليون سنة ١ٸ٠٦ وحارب بروسيا أولاً وقهرها قهراً عظيماً ودخل برلين عاصمتها وأخذ منها ضرائب وبعض اقسام من ممتلكها ثم حارب اسكندر الاول الروسي وانتصر عليه أيضاً ببعض معارك عظيمة وعقد معه ومع ملك بروسيا صلح تياسيت سنة ١٨٠٧ وإقام أخاه جيروم بوناپارت ملكاً على فاستفاليا من أعمال المانيا وجعل سكسونيا في سلك الممالك وفصل املاك بروسيا في بولونيا وجعلها دوقية تُعرف بدوقية فارسوفي الكبرى وإضافتها إلى ملكة سكسونية. ومن جملة الشروط التي تدرت في معاهدة هذا الصلح بعض شروط سرية منها معاهدة دفاع ومهاجمة واقتسام ممالك أوروبا بين القيصر الروسي والامبراطور الفرنسي خلا الملكة العثمانية والملكة البريطانية. وإن كل دول أوروبا تقبل ميثاقها على السنن الانكليزية ولا تدخل

بلادها وفي تلك السنة نفسها عقدت مشاركة بين فرنسا واسبانيا مآلها اقتسام دولة البورتوغال بينها ودخلتها الجيوش الفرنسية واستولت على عاصمتها ليسبون وهربت العائلة الملكية الى بوجينيروفي برازيل ومن ذلك اليوم امتدت الحرب هناك بين فرنسا وانكلترا الى سقوط الدولة البونابارتية . وسنة ١٨٠٨ تم كتاب التشريع الفرنسي المعروف بكود نابوليون لانه هو الذي شرع فيه وتم تحت مناظرته وفي السنة نفسها دخل مورات صهر نابوليون اسبانيا بثمانين الف جندي فوقع من ذلك فيها الشقاق والفلاقل حتى اضطرت العائلة الملكية ان تلتقي الى بابون . ومن ثم اقام كارلوس الرابع ملك اسبانيا نابوليون قاضياً بينه وبين ولده لفصل الخلاف الواقع بينها فكانت النتيجة اخيراً استعفاء كارلوس واولاده وتنازلهم عن الملك لنابوليون . فاقام نابوليون اخاه يوسف نابوليون ملكاً على اسبانيا . وتبوأ تحت مملكة نابولي عوضاً عن اخيه يوسف صهره مورات . الا ان ذلك لم يات بنتيجة حسنة لالهالك الجديد ولللامبراطورية . لان الاسبانوليين لم يكونوا يرضخون لما ياتهم باندل والعبودية ومن ذلك الحين الى سقوط الامبراطورية لم تنفد الحروب بين اسبانيا وفرنسا لاسيما ان انكلترا لم تكن تنفرد عن معاضدة اسبانيا طوراً باخذ السلاح ظاهراً ونارةً ببذل الذهب الواضح فهلك في الحروب الاسبانولية من سنة ١٨٠٨ الى سنة ١٨١٣ ما ينوف عن ٤٠٠٠٠٠٠ نفس من فرنساويين والمان وابطاليان وبولونيين

ولما كانت فرنسا قد ضعفت بسبب فقدان عدد عظيم من نخبة جيوشها نهضت دولة النمسا ناكثة بالعهود سنة ١٨٠٩ لمحاربتها فلاقاها نابوليون وكسر جيوشها في جملة معارك هائلة وحاصر فينا ورمها بالقنابر والكرات المشوة واستولى عليها وبعد ان فاز في معركة واغرام الهائلة فعوض ان يسلم املاك النمسا الى ولايات صغيرة ارتضى باخذ بعض مقاطعات وبعقد عود الزواج على الاميرة ماري لويزا ابنة امبراطور النمسا فتزوج بها وطلق امراته الامبراطورة جوزيپين التي قبلت بشرب تلك الكاس المرة فخرمة البابا لاجل ذلك العمل

المذموم اما نابوليون فلم يبال بمجرمه وارسل وقبض عليه واتي به الى فرنسا اسيراً وبقي بها الى سنة ١٨١٤ . وسنة ١٨١١ ولد له ولد ذكر من زوجته ماري لوبزا ودعي من حين ولادته ملك رومنة .

وسنة ١٨١٢ اشهرت الامبراطورية الحرب على القيصر الروسي لانه نكث بعهود صلح تيلسيت فتهض نابوليون بجيش جرار وقطع المانيا ودخل بلاد روسيا فوقعت بينه وبين الروسيين معركتان كبيرتان وما زال يطارد العدو الى ابواب موسكو عاصمة روسيا في ذلك الوقت حيث التقى بالجنرال كوتوزوف الروسي فهزم جيشه وشتت ثملته ودخل موسكو . غير ان الروسيين كانوا قد همياً وطريقة لاحتراق عاصمتهم قبل ان يخلوها فاضرموا فيها النار وكاد يهلك نابوليون وكل جيشه . فانهمز الفرنسيون واخذوا من ذلك الوقت يتقهقرون ويهلكون افواجا افواجا من البرد الشديد والجوع والمرض . واخيراً لما اخذ الضعف منهم كل ما خذ شرع القواد الروسيون في مهاجمتهم ومطاردتهم فهلك اكثرهم الا القليل فهرب نابوليون وعاد الى باريس متنكراً وجند صفوفاً جديدة وخرج سنة ١٨١٣ لمحاربة الدول المتحدة وهي روسيا والنمسا وبروسيا واكثر ولايات المانيا التي كانت قد هاجت عليه بسبب خيئته في حربه الاخيرة مع الروسيين فاتصر اولاً وفاز ولكنه غلب اخيراً ودخل المتحدون باريس واشهروا ارجاع الملكية من سلالة آل بوربون في ٢١ اذار سنة ١٨١٤ ودعوا لويس الثامن عشر وهو اخو لويس السادس عشر المقتول . فاستعفى نابوليون في ٤ نيسان سنة ١٨١٤ واعطوه جزيرة الالب لملك عليها فاقام فيها عشرة اشهر ثم عاد ودخل فرنسا في اول اذار سنة ١٨١٥ واتى باريس بدون مقاوم فهرب لويس الثامن عشر ليلاً وعاد الى انكلترا

اما الدول المتحدة فلما رأت ذلك نهضت ايضاً لمحاربة فرنسا ومعها انكلترا فخرج نابوليون من باريس واخذ قيادة الجيش وانتصر في لينبي على الجيوش البروسية اتصاراً عظيماً ولكنه غلب في معركة واترلو الشهيرة من الدولك

وليتون قائد الجيش الانكليزي وكانت معركة هائلة جداً قاتنى راجعاً الى الوراء ودخل باريس وتنازل عن الملك الى ابنه نخت اسم نابوليون الثاني في ٢٢ حزيران سنة ١٨١٥ غير ان الدول المتحدة لم تقبل بان يتبوأ نخت فرنسا احد من سلالة نابوليون . وكانت مدة حكمه بعد رجوعه من جزيرة الالب مئة يوم فقط وبعد تنازله عن الملك ذهب الى روشفورت وطلب من حكومة انكترا ان تقبله ضيفاً في بلادها حيث يقيم تحت شرائع البلاد وقوانينها فركب من روشفورت البارجة الانكليزية المسماة بلروفون فانت به الى بليموت احدى المواني الانكليزية وقبل ان ينزل منها الى البر ارسلت اليه الحكومة الانكليزية معتمدين انكليزيين اعلنا له انه اسير الدول المتحدة فاقام المحبة على ذلك ولكن من غير فائدة فابتغته الحكومة الانكليزية في البلروفون تحت الترسيم عشرة ايام ثم شبعته الى جزيرة القديسة هيلانة في جنوبي الاوقيانوس الاثلاثيكي فبقي هناك اسيراً الى ان توفي في ٥ ايار سنة ١٨٢١ تحت وطء دفن وبنيت جنته هناك الى سنة ١٨٤٠ ثم اتى به الفرنسيون من تلك الجزيرة ودفنوه في دار الاقاليد في باريس وهكذا كانت نهاية الامبراطورية الاولى الفرنسية وصاحبها

وبعد سقوط نابوليون والامبراطورية انحصرت فرنسا ضمن حدودها القديمة ودعت الدول المتحدة الملك لويس الثامن عشر ثانية ليتبوأ نخت فرنسا فجلس على كرسي الملك ثانية في شهر نوز سنة ١٨١٥ ودامت مدة ولايته ٩ سنوات ثم توفي سنة ١٨٢٤ بدون عقب فتنبأ نخت الملك اخوه كارلوس العاشر وله عدة اجراءات حسنة وفي ايام ملكه فتح الفرنسيون جزائر الغرب في ٦ نوز سنة ١٨٢٠ وبعد هذا الانتصار ببضعة ايام اراد تقرير بعض قوانين مغايرة لروح الشعب وسلب حرية المطابع والجرائد فاغاض هذا الامر الشعب جداً واحداث هجائاً عظيماً كانت نتيجة سقوط كارلوس عن نخت الملك وذلك في ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ نوز سنة ١٨٢٠ فاستعفى متنازلاً عن الملك لحفيده الدوك دي بوربدو ولكن بدون نتيجة . فذهب الى اكوس في بلاد الانكليز ومن هناك اتى

براغ ومنها الى كورتيز مدينة نساوية وتوفي فيها سنة ١٨٢٦ في السنة ٨٠ من عمره . فتمت تخت الملك بعده لويس فيليب من سلالة آل اورليان في ٩ آب سنة ١٨٣٠ وكان على جانب عظيم من الحذق والدرابة والشجاعة والاقدام . وقد اظن المورخون في مدح . واحداث اصلاحات كثيرة في فرنسا ودامت ولايته من سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٤٨ اذ حدثت الثورة الفرنسية الثالثة فسقطت الملكية ثانية وأقيمت الجمهورية الثانية فذهب لويس فيليب وعائلته الى انكلترا ومات هناك سنة ١٨٥٠ في السنة ٧٧ من عمره وفي ايام هذا الملك تم فتح الجزائر في افرقية

الباب السادس

في قيام الجمهورية الثانية من سنة ١٨٤٨ الى ١٨٥٢ وقيام
الامبراطورية الثالثة من سنة ١٨٥٢ الى ١٨٧١ وسقوطها
وقيام الجمهورية الثالثة سنة ١٨٧١ الى ١٨٨٤

كثيراً ما يرى ارباب السياسة من نافذة الحاضر ما سيحدث في المستقبل . ان نابليون الاول عند ما قدم له المجلس القضائي تاج الامبراطورية قال لم بعد ان شكرهم وشكر الامة الفرنسية انه سيركب في المستقبل احد انسابي سرير هذه السلطنة ايضاً . وها قد جاء الزمان الذي اشار عنه ذلك الرجل العجيب حيث سقطت الملكية ثانية وأقيمت الجمهورية الثانية وتمت المسند الاول في ادارة مهام امورها لويس نابليون ابن اخي الامبراطور نابليون الاول . هذا ولما كان خبر رجوع الملك للسلالة البونابارنية مستحق الاعبار لم نجد بداً من تقرير بعض الاسباب والحوادث الاكثر اهمية بهذا الشأن وذلك بالايجاز الكلي فنقول

انه بعد عودة نابوليون الاول بالخبية من معركة واترلو اجتهد بان يقيم ابنة الذي من امرأته الثانية والذي كان ولي عهد فرنسا امبراطوراً على فرنسا تحت اسم نابوليون الثاني فلم تسلم بذلك الدول المتحدة فأرسل الى جده امبراطور النمسا حيث ربي في بلاطه وتوفي بدهاء السل سنة ١٨٤٢

فلما توفي ولي عهد نابوليون الاول صار حق التملك على تخت فرنسا للبرنس نابوليون الثالث الذي كان قد ادرج اسمه في دفتر ولاية العهد عند ولادته اذ لم يكن لنابوليون الاول عمو ولد لان الشريعة التي سنت بمصادقة الامة في ولاية العهد لم تعط حق ارث الملك اذا لم يكن للامبراطور نسل الا لاولاد يوسف ولويس واذا لم يكن لنابوليون الاول ولا اخيه يوسف اولاد ادرج اسم شارل لويس ابن لويس نابوليون تطبيقاً للشريعة المار ذكرها في راس دفتر سلالة العائلة النابوليونية وجرى احتفال عظيم عند ولادته كانه مزعم ان يكون ورثاً لتخت مملكة فرنسا . فلما توفي ابن عمو ولي العهد الشرعي واصبح هو ولي عهد الامبراطورية اخذ يعلق اماله بالمستقبل ويصرف قصارى همته ومساعدته في الوصول الى ما طالما كان يتمناه . وبعد رجوع الملكية الى فرنسا خرجت الاوامر بنفي العائلة النابوليونية من كل تخوم فرنسا

واذا كان البرنس نابوليون غير مكرن بدوام حكم الملك لويس فيليب وعالماً كراهية الاعيان جميعاً للملك المشار اليه ما كان براؤه من ميل العامة نحوه وشدة ميل جموع الفرنسيين نحو الامبراطورية السابقة عزم اخيراً سنة ١٨٣٦ على الخروج من ظلمة المنفى الى ساحة الشهرة وجعل يبذل جهده باشاعة اسمه واكتساب الشهرة وذلك بواسطة التأليف الكثيرة التي نشرها من سنة ١٧٣٢ الى سنة ١٨٣٦ وباستخدام غيرها من الوسائط ايضاً ولكن بمقدار ما كان صيت العائلة النابوليونية شهيراً كانت الوسائط التي استخدمها لنوال مرغويه قاصرة وضعيفة ولم تات به بالمرغوب ومع ذلك لم يقدر من النظار والاجتهاد لنوال غايته الى ان قبضت عليه اخيراً الحكومة ونهته الى البلاد المتحدة ثم عاد منها

عندما بلغه خبر مرض والدته في سويسرا فاقام عندها نحو شهرين الى ان ماتت سنة ١٨٢٧ ثم اخذ يحدد الوسائط لنوال مرغوباته وكانت فرنسا في تلك الايام مرتبكة بسبب المعاهدة التي عُنِدَت بين الدُول في اوروبا في ١٥ تموز سنة ١٨٤٠ التي كانت من شروطها منع فرنسا عن الدخول في الاتحاد الاوروي . فكان اخراج فرنسا من ذلك الاتحاد سبب خسائر سياسية كلبة .

وفتحت الباب للبرنس نابوليون ان يقيم ثورة في فرنسا فاخذ البرنس بصرف جهده وهنه في ذلك ولكنه لم ينجح ايضا بل قبض عليه وسجن في قلعة هام وبقي مسجوناً مدة ست سنوات متوالية الى ان انت سنة ١٨٤٦ لما بلغه مرض والده الذي كان شيخاً ومشرقاً على الموت وانه يرغب في ان يرى ولده قبل وفاته ولو مرة واحدة . فقياماً بحق الواجبات النبوية ارضى بان يطلب من الملك لويس فيليب ان ياذن له ليمضي ويدفن والده ثم يرجع الى السجن ليقضي باقي حياته كما قد حكم عليه فلم يجبه الملك الى ما طلب فعزم على الفرار لكي يرى ابيه الذي كان منفياً جثثاً في مدينة فيورنسا فدبر طريقة للفرار من تلك القلعة مع ما فيها من الحفر والجنود ونجح فيها . فخرج نابوليون من تلك القلعة بعد ان حلق شاربيه وتزى بري فاعل واتى بليكا ومنها الى مدينة لندن ولما علمت حكومة فرنسا هربه كسبت الى دوك توسكانا ان لا يسمح لنابوليون بالدخول لبلاده وهكذا سد بوجهه باب الذهاب الى والده المريض وصارت انكلترا منفى جديداً له

واما فرنسا فكانت في ذلك الوقت في هيجان واضطراب عظيم وذلك لان الاهالي كانوا قد طلبوا الى الملك لويس فيليب اصلاح قوانين الانتخاب وغير ذلك فرفض طلبهم فزاد ذلك هيجان الامة وسلبت الامنية وكثر التعدي وانتقل في شوارع باريس ولم يعد الملك يأمن على حياته والتم ان يهرب الى انكلترا . فدامت الاحوال على هذا المنوال وامتد النزاع الى كل اطراف فرنسا ونودي بالجمهورية واستقر الراي اخيراً على انتخاب البرنس نابوليون

ليكون رئيساً لها فتسلم زمام الأمور في ٢٠ ك ١ سنة ١٨٤٨ واخذ بصرف الهمّة
بجمع اصحاب الاهواء المنحرفة واصلاح الخراب الذي احدثته الثورة عند سنوط
الملك لويس فيليب . ولم يمس الا القليل حتى توطدت الامنية واخذ دولاب
الاعمال يدور كجاري عادته . وسدت ابواب الفتن والفساد وفتحت المدارس .
هنا فضلاً عن الاصلاحات التي احدثها في دوائر الاحكام والمجالس والعسكرية
وهكذا ما زال نابوليون بريد سطوته ويوطد اركان دولته باستمالة قلوب
الامة مع ما كان له من الاضداد والاصنام الاشداء وفرنسا تتقدم وتنمو يوماً فيوماً
حتى ان ارتقى الى مسند الامبراطورية في ١٤ كانون الثاني سنة ١٨٥٢ فحاز
قصب السبق على كل ملوك اوروبا ووصلت فرنسا في ايام دولته الى اعلى
درجات المجد والشرف واصبحت ميزان العالم السياسي

وفي اوائل السنة الثالثة من تبوء نابوليون تخت الملك شبت نيران حرب
القرم اي سنة ١٨٥٤ التي دامت مدة ثلاث سنوات وانتهت سنة ١٨٥٦ فكان
قبيها للجيش الفرنسي من الاعمال الحربية العظيمة ما اكسبها عظمة ومجداً لا
يزيد عليها . وبعد ان فتحوا قلعة سيستانبول طلب القيصر الروسي الصلح
وعقدت الجمعية الدولية في باريس بعد ان كانت تجري في فيانا عاصمة النمسا
وقرروا معاهدة سنة ١٨٥٦ المعروفة بمعاهدة باريس . ومن ذلك الوقت اضمحت
باريس مرجحاً تزداد اليه اكثر ملوك الجيل التاسع عشر واعياناً

وسنة ١٨٥٩ حدثت حرب ايطاليا فاخذ نابوليون نفسه قيادة الجيش
لحاربة اوستريا فخارب الامبراطور فرنسيس يوسف وانتصر عليه في معركتي
ماجانتا وسولفرينو وكسر جيوشه واخذ منه ما كان باقياً من املاك الايطاليانية
نحت تسلطه وضماها الى مملك ايطاليا فاندرت كل ايطاليا امة للثما واخذ مقابل
ذلك مقاطعتي سافوا ونيس وعند الصلح مع اوستريا بعد ان قهرها . وسنة ١٨٦٠
ذهبت الجيوش الفرنسية تحت قيادة الجنرال مونتوبان مع بعض الجيوش
الانكليزية وكانوا جميعاً ١٥٠٠٠ مقاتل فدخلوا الصين ثم الكوشين صين

وكسروا جيوش امبراطور الصين الكثيرة العدد والعديد وبددوا ثلهم فبعث
امبراطور الصين بدعوى الصلح فصالحوه تحت شروط لو سمعها قبل ذلك
الصينيون لاقشعرت ابدانهم منها . وسنة ١٨٦٢ ارسل نابوليون جيشا الى
المكسيك وفتحها واقام عليها امبراطورا الارشيدوك فرديناند مكسيميليان شقيق
امبراطور اوستريا . ولكن هذه الحرب لم نجد نفعاً لفرنسا ولذلك الامبراطور
المنكود الحظ لانها كانت سبب انصرام حياته ولم يجن نابوليون منها سوى
القدح واللم في سياسته والمصاريف الباهظة على خزينة الملكة . وهكذا ما زال
طالع نابوليون وفرنسا سعيدا الى سنة ١٨٧٠ حين ثبت نيران الحرب الاخيرة
بينها وبين بروسيا والمانيا . ولا يخفى ان من جملة الاسباب التي سببت فح
الحرب هي اتحاد كائنة في الصدور من عهد طويل لانه كان ان انتصر
الفرنساويون في معركة بنا سنة ١٨٠٦ لليلاد صم البروسيون على اخذ النار
الى ان انتشبت نيران معركة ليبسيك ومعركة واترلو وها المعركتان اللتان
سببتا سقوط نابوليون الاول ودخول المنتصرين لاسيا البروسيين الى باريس
فهكذا تمكن البروسيون من ان يخذلوا بعض ما كان عندهم من الرغبة في
الانتقام . لان الدول المتحددة مع بروسيا كانت تمنعها عن تنفيذ كل ما ربهها وهكذا
كانت الامتان تنهزان كل فرصة للانتقام احدهما من الاخرى . وما زالت
الاتحاد كائنة في الصدور الى ان وقع ما وقع والذي هيج هذه الاتحاد ما حصل
سنة ١٨٦٧ من النزاع بين هاتين الدولتين بسبب اقامة بروسيا في لوكسمبرج
ولولا مداخله انكلترا لانتشبت الحرب بينها فان جمعية لندن الدولية اصلحت
الامر في تلك السنة وهكذا اخذت نيران الحرب التي كادت تشب في ذلك
الزمان اخذاً وقتياً . لان رماد السياسة سترها بدون ان يظن فيها

ومنذ حدوث الثورة في اسبانيا سنة ١٨٦٨ وخلع الملكة ايزابلا عن الملك
اخذا الاسبانيون يسعون في اقامة ملك لينبأ عرش ملك بلادهم وكان الجنرال
بريم الاسبانيولي قد صرف اقصى جهده بهذا الشأن الى انهم اخيراً طلبوا الامير

ليوبولد البروسي . فلما بلغ نابوليون ودولته بان الامير ليوبولد ارتضى بان
يصبر ملكاً على اسبانيا وراى في عين السياسة ان ذلك مما يحل بميزانية اوروبا
اذ يجعل اتحاداً قوياً بين دولتي اسبانيا وبروسيا . ويعرض فرانساً ايضاً الى
مخاوف عظيمة اذ يجعلها في مركز خطر نظراً لوضعها الجغرافي التزم ان يشهر
الحرب ضد بروسيا فتوسطت انكلترا لانهاء ذلك الخلاف بسياسة الاقلام ولكن
بدون فائدة . ولا ريب ان بروسيا كانت تعلم جيداً ان ساحها لامير الماني
ان يجلس على كرسي ملكة اسبانيا يسبب شوب نيران الحروب بينها وبين
فرانساً ولكنها نظاهرت بعدم مداخلتها في ذلك فيما كانت ترغبه وتعضده سراً
وفي ١٦ تموز سنة ١٨٧٠ اشهرت فرانساً رسمياً الحرب على بروسيا وخرج
نابوليون من باريس ومعه قيادة الجيش وخرج ملك بروسيا ايضاً من الطرف
الآخر قائداً جيوشه الجرارة وحدثت المعركة الاولى بين الفريقين في ٢ اب امام
مدينة ساريسوك وكان الفوز فيها للفرنساوين وحضر هذه المعركة نابوليون وابنه
وهي المعركة الاولى والاخيرة التي انتصر فيها الفرنسيون وكان سبب رجحانهم
فيها مدافعهم الرائدة التي كانت تحصد صفوف البروسيين ومن ذلك اليوم لم
يقم للفرنساوين قائم في جميع الحروب والمعارك التي حدثت بين الفريقين وما
زال الفرنسيون في تأخر والبروسيون في نجاح الى ان حدثت معركة سيدان
في ٤ ايلول وانهر الفرنسيون فيها اي انهار واحاط بهم الالمان من كل جهة
واخذوا يرمونهم بالكرات المشوة والمحرقه فاشتعل النسم الاعظم من المدينة وكادوا
بهم لكون جميعاً لولا طالب التسليم وذلك بعد ان بذلوا ارواحهم وكل ما هو في
طاقتهم للتخاص من الاسرايين فلم يجرهم نفعاً . فسلم الامبراطور نابوليون سجيناً
ملك بروسيا وكل جيوشه ايضاً واصبح اسيراً مع نحو ثمانين الفا من الجنود وبقي
اسيراً في قصر ويلهم شوه في فاستفاليا من اعمال المانيا الى ان انتهت الحرب
بين فرانساً وبروسيا

ولما بلغ ذلك الخبر الشعب والحكومة في باريس اضطربوا اضطراباً عظيماً

واخذوا في تحصين العاصمة والاستعداد للحصار واعلنوا سقوط الامبراطورية واقاموا حكومة مؤقتة تُعرف بحكومة الحماية عن الوطن وذلك في ٤ ايلول سنة ١٨٧٠ اما البروسيون فابرحوا يتصرفون في اكثر المعارك التي كانوا يقيمونها لابل في جميعها ويحاصرون القلع ويفتحونها وتدمروا وحاصروا باريس وفي اثناء ذلك سلم المارشال بازين في مينس مع نحو ١٥٠٠٠٠ جندي فسيقوا اسرى الى المانيا افواجاً افواجاً. وما زال الالمان يقيمون الحرب على قدم وساق ويشددون الحصار على باريس ويرمونها بالكرات المشوة الى ان سلمت اخيراً وعُقدت شروط الصلح بين الدولتين المتحاربتين تحت شروط لم يجر لها مثيل في كل القرون الماضية . ومن جللتها صلح ولاية الالزاس وخمس ولايات اللورين من فرنسا ودفع غرامة الحرب خمس مليارات من الفرنكات . وهذا المقدار يبلغ نحو نصف عشر مال العالم وابقاء خمسين الف جندي الماني في ولايات فرنسا الى ان تدفع التضمينات المذكورة فهذا ما جتته فرنسا من هذه الحرب الاخيرة اي هلاك عدد عظيم من الانفس والذل والهمان وفقد جانب عظيم من الفخر اراضيها وهكذا سقطت الامبراطورية الثالثة وعادت الجمهورية ثالثة ورئيسها ادولف تييرس

وبينا كانت هذه الامور جارية مع الاعداء في الخارج كانت القلاقل والاضطرابات آخذة كل مأخذ من داخل بين الفرنسيين انفسهم فان كثيرين من رؤساء الاحزاب ومحبي الثورات كانوا قد هيجوا واستألو كثيرين من الارباش وسفلة القوم طمعاً بالارتقاء الى المراتب السامية فاقاموا جمعية بباريس تعرف بالكومون واتخذوا من حزبهم بعض القواد والجنود واقاموا الثورة في باريس واخذوا يهيجون الشعب للقيام ضد الحكومة الجديدة فوضعوا ايديهم على مخازن الحكومة ومهاتها وتحصنوا في باريس حاسين ان حكومتهم هي الحكومة الرسمية وطاعين في حكومة تييرس واعوانه واذ لم تقدر الحكومة على توقيف الثورة والثائرين بقلم السياسة اضطرت ان تلجئ الى اخذ السلاح واشهار الحرب

عليهم فحاصرت باريس زماناً ليس بقليل ووقع بين الثنتين عدة وقائع الى ان فازت اخيراً حكومة تيريس بالفوز والغلبة والتت القبض على من كان له دخل في تلك الثورة وقبضت البعض ونمت البعض الاخر وهكذا اخذت الراحة تعود الى فرنسا . على ان اولئك القاترين لما رأوا عدم نجاحهم في ما طالما صوبوا اليه اخذوا يوقعون السلب والنهب في باريس واحرقوا اعظم قصورها وابجها وانقلوا كثيراً من الآثار النفيسة التي لا تعوض واحترق جانب عظيم من مكتبة اللوفر المعتبرة فكان ما انقله الفرنسيون انفسهم يقارب ما انقله الالمان في زمن الحرب بطوله

هذا وقد ظن أكثر الناس في اثناء الحرب بين فرنسا والمانيا وبعد نهايتها ان فرنسا لا تخرج من هذه القهقري التي قفلت اليها الا بعد زمان طويل جداً وظن البعض انها ربما لا تخرج منها الى ما شاء الله على اننا نرى انه لم يمض الا بعض السنين حتى رأينا هذه الامة العظيمة الشان قد نهضت نهوضاً عظيماً من سقطتها وقد وفيت غرامة الحرب الهائلة المقدار واخذت تتقدم سريعاً جداً وقد توطدت الامنية في داخلها واخذت دولاب الاعمال بدور تجاري عادي على محور جديد وفي ٢٤ شهر ايار سنة ١٨٧٣ استعفى تيريس من رئاسة الجمهورية وانتخب مكانه المارشال مكاهون الذي شهرته نفي عن ذكر صفاته وفي خلال سنة ١٨٧٨ تنازل المذكور عن الرئاسة وانتخب مكانه جول كريف في بداية سنة ١٨٧٩ وهو الرئيس الحالي . ومن اعمال الجمهورية الحاضرة اشهار سيادتها على تونس الغرب وذلك سنة ١٨٨٠ ثم استيلاؤها على تونسك ومحاربتها الصين سنة ١٨٨٤

الفصل الرابع

في تاريخ مملكة الانكليز

الباب الاول

في جغرافية انكلترا ووصفها الحالي

ان المملكة الانكليزية كائنه على جزيرتين منفصلتين فالاولى تدعى جزيرة بريطانيا الكبرى وتشتغل على انكلترا وويلس واسكوتسيا المعروفة باسكوتلاندا . والثانية جزيرة ايرلاندا ولذلك يسمي الانكليز ملكتهم مملكة بريطانيا الكبرى وايرلاندا . فجزيرة بريطانيا واقعة على شطوط اوروبا الغربية يفصلها عن فراسا الخليج الانكليزي الذي عرض مضيقه ٢٥ ميلاً . اما ايرلاندا فموقعها غربي جزيرة بريطانيا على مسافة نحو ٦٠ ميلاً ولكن جانباً منها اقرب جداً الى اسكوتسيا ومع ان هاتين الجزيرتين لاتُعَدَّان من البلاد المتسعة وبمعناها تُعتبر من الرتبة السابعة من ولايات اوروبا بالنظر الى المساحة فاهاليها ليسوا باقل من ٢٢ مليوناً ويتبعها ايضاً تملكات خارجة كثيرة في الفارات الاربع بحيث ان ملكة بريطانيا تحكم على اكثر من ٢٠٠ مليون تقريباً من الشعوب كما يظن من الجدول الآتي . هذا عما هي عليه من القوة البحرية واتساع التجارة والمعامل والصنائع والعلوم فلذلك تُعتبر الاولى على وجه الارض في الغنى والقوة والهبة الاجتماعية

عدد سكان بريطانيا الكبرى وما يتبعها

عدد

في بريطانيا

عدد

في انكلترا ووالس	٢٢٧٠٤١٠٨	
في اسكتلندا	٠٣٥٨٦١٣	
في ايرلندا	٠٠٤٠٢٧٥٩	
في جزيرة مان	٠٠٠٥٣٨٦٧	
في جزائر نورموندبار	٠٠٠٩٠٥٦٣	
عساكر وبحرية خارج البلاد	٠٠٢٠٧١٩٨	٢١٨١٧١٠٨
		١٥٩٦٦٦٤٢٨
في الهند الشرقية		
في املاكها الخارجية ما عدا الهند		

عدد

في اوروبا	١٦٠٣٦٩	
في اميركا	٥١٣٣٧٢٢	
في افريقية	١٨٦٠٠٠٠	
في استراليا	١٩٥٨٦٥٠	
في سيلان	٢٤٠٥٣٨٧	
في هونك كونك وغير اماكن	٤٢٦٠٤٧	١١٩٤٣٥٧٢
		٢٠٢٤٢٧١٠٨

اما اوصاف اهاليها فلا يمكننا اطالة الشرح بالتكلم عنها ولكن يجب القول بانهم شريفو النفس اصحاب حزم وعزم في الامور محبو الوطن وعمل الخير مستقيمون

السيرة والتصرف منعكون على التقدم في الصنائع والعلوم وعندهم الحرية الكاملة في اعمارهم وطبائعهم ومذاهبهم شديد الرزانة . والديانة العامة بينهم هي البرونستانية

وفي هذه البلاد انهر كثيرة منها نهر التاميس الذي تصعد فيه مراكب كثيرة الى لندن ونهر مرسي الذي يصب في بحر ايرلاندا وغيرها والهواء معتدل في هذه الولايات وارضها مخصصة واهلها يعتنون في امر الزراعة اكثر من غيرهم . وفي هذه البلاد معادن كثيرة من الفحم الحجري والحديد والنحاس والرصاص والتصدير . وفيها من المعامل العظيمة ما لا يوجد في مالک اوروبا

وقصة بريطانيا الكبرى مدينة لندن وهي اعظم مدن العالم وعدد سكانها مع ضواحيها بنوف عن ثلاثة ملايين نسمة واسواقها نحو عشرة آلاف سوق يخرقها نهر التاميس في الوسط فتعبر الناس من جانب الى اخر على جسور متقنة جتاً منها حديد ومنها حجر وليس لهذه المدينة سورٌ محيط بها كباريس وبرلين وباقي مدن اوروبا الكبيرة بل يحيطها خلا لا ظريف مبني بضيع صغيرة وقصور وابنية مستظرفة لسكن فصل الصيف وفي هذه المدينة كثيرٌ من الابنية العظيمة مثل كبسة وستمنستر وكبسة ماري بواس وسراي بوكينهام التي هي محل اقامة الملكة . وفي هذه المدينة سكك حديدية كثيرة جانب منها تحت الارض بين الاسواق يسير فيها الناس من جهة الى اخرى باسرع وقت

ومن مدن انكلترا مانشيستر حيث تعمل الاقمشة القطنية للعالم . وليشبول وهي ميناء تجاري لمراكب العالم . وبرمينكهام وشفيلد محل عمل الآلات والاسلحة الحديدية وغيرها . وفي الجهة الغربية من انكلترا مقاطعة ويلس يتكلم اهلها بلغة مخصوصة لانهمها الانكيز . وفيها جبال كثيرة يستخرج منها الفحم الحجري وغيره من المعادن ومع ان اهلها كانوا قديماً في غابة الوحش فالان يعيشون حسناً وهم اصحاب غير واجتهاد

اما اسكونلاندا فهي الى جهة الشمال من انكلترا وهي منسومة الى قسمين .

اعلى واسفل فالقسم الاعلى يشتمل على جبال عالية باردة وبعض سكانها يتكلمون
الغاليكي الذي يعسرفهمه . اما القسم الاسفل فهو لجهة الجنوب يعادل انكلترا
في الجودة واهله يعنون جداً في العلوم وبرغبون في اشاعة المعرفة وتكثر في
هذه البلاد معادن الفحم والحديد وفيها معامل عظيمة ومدارس كلية واشهر مدنها
ادنبرج وفيها مدرسة طبية لا نظير لها في كل بلاد الانكليز . وكلاسكو وهي
شہيرة في معاملها واتقنتها .

اما جزيرة ايرلاندا فيفصلها عن جزيرة بريطانيا الكبرى خليج مار جرجس
ومجر ايرلاندا وهي جيدة التربة وهوائها رطب معتدل واهاليها فقراء بسبب
عدم الثقات الحكومة . فكثير منهم يهاجرون بلادهم ويستوطنون في اميركا .
ولكن المأمول انه بواسطة التغييرات الجديدة التي احدثتها الحكومة ستتحسن
احوال هؤلاء الشعوب الذين اكثرهم باباويون . ومن اشهر مدن هذه الجزيرة
دوبلين ولفاست . وكانت هذه الجزيرة مستقلة قديماً لم يتغلب عليها الانكليز
الا سنة ١١٧٢ مسيحية ولم نصر جزءاً من الملكة الا سنة ١٨٠١ حين قبلت في
المعاهدة مع القسمين الاخرين

الباب الثاني

في اصل البريتانيين القدماء واوصافهم وديانتهم وتملك
الرومانيين على بلادهم الى سنة ٤٣٠ للميلاد

ان اصل البريتانيين لا يعرف بالتحقيق وتاريخهم القديم كباقي التواريخ
القديمة لا يوثق به والمرجح عند العامة ان بريطانيا تشعبت شيئاً بعد شيء من
محلات مختلفة من قارة اوربا غير انه لا يعلم في اي وقت دخلها الناس اولاً .
والخبر الوحيد الذي يوثق به من هنا القليل هو ان جماعة من الكلتيين وهم

فرع من الغالين اي الفرنسيين الذين مقر بلادهم بين نهر السين ونهر غارون
اتوا من شطوط فرنسا ونزلوا على شواطئ بريطانيا بشون مغالومة احد وكان
قصدهم في انتقام توسيع دائرة مفرهم وفنا لارادة ملكهم تيوتات الذي كان محبا
للتجارة وتقدمها حبا مفرطا . ثم بعد هولاء اتى ايضا قوم من البلج من شمالي
فرنسا وهم ايضا فرع من الغالين وسكنوا البلاد . فرما ينتسب الى هاتين القبتين
البريتانيون الاولون



كثيرون سكان بريطانيا الاقدمون

ولم يكن للبريتانيين القدماء شيء من المعرفة والدين فكانت ملابس
العامة من جلود الوحوش الضارية وكانت زيتهم صبغ اجسادهم بعصير بعض
النبات يظلون به ابدانهم واحيانا يفتشون عليها صور بعض الحيوانات . اما
المتقدمون فيهم فكانوا ينزرون بآزر من قماش حول وسطهم ويطوفون اعناقهم
بسلاسل من ذهب ونساوهم يلبسون اساور ذهبية . وكانت مساكنهم اكواخا خفية
ينموها تارة من اوراق الاشجار وطورا من طين وكان شغلهم الوحيد صيد
الحيوانات واشبهوا عرب البادية جائلين من مكان الى آخر بحسب فصول السنة

فكانوا في زمن الصيف يحملون غالباً في الاودية المخصصة حيث يجدون مرعى وماء لمواشيهم وفي الشتاء ينتقلون الى التلال والجبال لاجل النشاف للصحة . وكانت مأكلاهم لحوم الحيوانات والالبان ولكن بعد دخول البلجيين من غالبا علوا الاهالي ما كانوا يعرفونه من امر الزراعة ومن ذلك الوقت ابتدأوا ان يصطنعوا الخبز . اما احكامهم فكانت عائلية اعني ان كل رب عائلة كان مسئولاً لجيرانه عن عائلته

وكان الشعب ينقسم الى ثلاث رتب اشراف واكليروس وعامة وكان اهل هذه الرتبة الاخيرة من ادنياء الشعب يعاملون كالعبيد اما الاشراف فكانوا كالامراء كل منهم يحكم على مقاطعة مستقلة واما الكهنة فكانوا ينقسمون الى ثلاث رتب اخصها المعروفة بالدرويد . فكانوا معتبرين عند الشعب وكان لهم حق المناظرة ايضاً على كل اعمال الرعية وكان لرئيس هذه الرتبة السلطة والتصرف المطلق في كل الاشغال . فدام تسلط الدرويد على الشعب الى زمن نيمون امبراطور الرومانيين حين استولى على البلاد وامر بقتلهم . واما الرتبتان الاخرتان فاخصت احدهما بنظم الاشعار وانشادها على الهياكل والاخرى بالدرس العقلي للفلسفة والاعمال الطبيعية وفي كل علم او كار من شأنه ان يذهل الشعب ويجعل لهم حرمة عظيمة في عينيهم . وبناء على اعتبار الشعب اهل هذه الرتبة انضاف اليهم ممتازين بمواهب سواوية خصوصية . اما ديانة البريتانيين فكانت صنمية من النوع الارداء وكثيراً ما قدموا ذبائح انسانية لاهتهم الكاذبة وكانوا يجدون للصخور والحجارة وينابيع المياه واما ما كان في مزيد الاعتبار عندهم وكانوا يعبدونه بوقار غريب فهو شجر السديان ونبات آخر يفوق على قاعدته وهذه المعارف عن حالة البريتانيين القدماء وعقائدهم وعبادتهم انصلت للتاخرين بواسطة الاشعار التي نظموها وانتقلت من جيل الى آخر

وسنة ٥٥ ق م اتى بريتانيا يوليوس قيصر قائد جيش الرومانيين بقصد

افتتاحها فقاومة الاهالي وساعدهم على ذلك هيجان عظيم حدث في الجرشتم
كل الفرسان فاستصوب قيصر ان يؤخر المهاجمة الى وقت آخر . ففي الربيع
المقبل حضر ثاثة ومئة كاسيوس قائد فرقة من العساكر المشهورة في الحروب
ودخل البلاد ولكنه لم تغاب عليها تغلباً كاملاً . وسنة ٤٢ ب م ارسل كلوديوس
امبراطور الرومانيين الرابع بعض القواد ليملكوا الجزيرة فقاومهم كاراكتاكوس
رئيس قبيلة بريطانيا فانكسر وقبض عليه وأرسل اسيراً الى رومية غير ان
كلوديوس اطافه بعد ذلك . وسنة ٥٧ للمسيح اتى سويتونيوس بولنيوس من
قبل الامبراطور نيرون ليستلم زمام الاحكام فوجد بين كهنة الدورويد المار
ذكرهم روح العصاة وعجة الاستقلالية فعزم على ابادتهم واذ هربوا من امامه
لحنهم وفنك بهم فلم يسلم منهم الا طويل العمر

وكان بين البريتانيين قبيلة تدعى ايسني متراصة عليها الملكة
بواديكيا فنقضت هذه الملكة وحركت همة الاهالي على اخذ النار من الرومانيين
لاجل قتلهم الدورويد بن فاجابوها الى ذلك . وبينما كان سويتونيوس الساقف
ذكره منشغلاً في ملاحقة هؤلاء الكهنة نهض البريتانيون على الرومانيين القاطنين
بينهم وقتلوا منهم ٧٠ ألفاً واحرقوا مدينتهم . ولكن عند رجوع سويتونيوس من
سفره ونظرو الى ما حل بقومهم انتقم من البريتانيين وقتل منهم ٨٠ ألفاً على ما
قيل وضابن الملكة بواديكيا فاخنارت الموت على الوقوع في ايدي الاعداء
وشربت سمًا وماتت . ولم يكتف سويتونيوس بهذا الانتقام بل استمر على مضايقة
البريتانيين بفساوة شديدة حتى امرت الدولة الرومانية بعزله وارسلت مامورين
غيره كانت سياستهم مجانسة الاهالي وتوطيد السلام . ومن جملة هؤلاء القواد
يوليوس اغريكولا الذي بواسطة سياسته العاداة الحكمة اكمل اخضاع ولاية
بريتانيا وثبت سيادة رومية . وكان ذلك من سنة ٨١ الى سنة ٩١ للميلاد في
ايام دوميتيان امبراطور رومية الحمادي عشر

وفي اثناء تلك الرومانيين كانت بريطانيا مفسومة الى خمس ايلات يحكمها

مأمورون من طرف الحكم الأكبر. وكانت البلاد مضطربة على الدوام بسبب غزوات شعوب اسكونسيا المخوثة الذين كانت مساكنهم في جبال كاليدونيا. فالتزم اغريكولا ان يقيم سوراً كبيراً بين نهر فورث ونهر كلايد لاجل منع غزوات السكونسيين. وبعد ذلك أقيم سور آخر اعظم من الاول يمتد على مسافة ٨٠ ميلاً اطلق عليه اسم سور ادریان نسبة الى ادریان امبراطور رومية الرابع عشر سنة ١٢١ مسيحية. ثم بعد ذلك بجملة سنين صارت تقوية هذا السور بمعرفة الامبراطور سيئروس وهو سلطان رومية التاسع عشر الذي توفي في مدينة يورك من اعمال بريطانيا سنة ٢١١. وسنة ٢٨٧ عصى الملكة الرومانية احد قوادها الجربين المدعو كاروسوس فالتصق بالبريتانيين الذين كانوا يصبون الى خلع طاعة رومية فقبلوه وسموه عليهم ملكاً وبعاً. ذلك بسنين قليلة قام عليه احد اتباعه وقتله طمعاً بالولاية فعينت الدولة الرومانية قسطنطيوس القائد لاختضاع بريطانيا فسار اليها واخضعها عفواً لان الحروب الداخلية والانقسامات سهلت عليه الامر فرجعت بريطانيا الى حالتها الاولى ولاية رومانية بعد انفصال عشر سنوات ودامت على ذلك الى الجيل الخامس.

وفي مدة الاربعة الاجيال ونيف التي حكم بها الرومانيون البلاد البريطانية تقدم الاهالي تقدماً نشيطاً في بناء المنائن والنفان الصنائع والزراعة وغير ذلك حتى حصلت البلاد على نوع من الثروة والمدن. ولاسيما بواسطة دخول الديانة المسيحية التي لم تلبث الا زمناً قصيراً فقط لشدة الاضطهاد الذي اثير عليها في زمن نسطر الانكلوساكسونيين ولكنها ظهرت ثانية سنة ٥٩٦ كما سيأتي.

وفي الجيل الخامس قام على الملكة الرومانية بعض قبائل من برايرة الشمال وكانت احوال ايطاليا يومئذ في اضطراب فالتزم الرومانيون في ابام الامبراطور فالنتينيان ان يسحبوا قوتهم العسكرية من بريطانيا لاجل الهامة عن وطنهم فانسحبوا جميعاً تاركين البلاد بيد اهاليها. وكان حدوث ذلك سنة ٤٢٠.

الباب الثالث

في ذكر تلك الدولة السكسونية وحكم الدولة الدنماركية وذلك
من سنة ٤٢٠ الى ١٠٦٦

فلما ترك البريتانيون الى حالهم وجدوا انفسهم غير قادرين على مقاومة
غزوات جيرانهم البكتيين والاسكونسيين لانهم في مدة خضوعهم للرومانيين
فقدوا ذلك الروح الحربي الذي كان لم ياضحوا عرضة لغزاي اعدائهم الذين
كانوا يبتدون رويداً رويداً الى داخل البلاد حتى التزم اخيراً احد روساء
البريتانيين سنة ٤٤٩ ان يلتمس معونة السكسونيين (قبيلة جرمانية عند شواطئ
نهر الالب) لمساعدتهم على مقاومتهم. واذ كان بين القبيلتين مودة وصلة قديمتان
اتى البريتانيون فرقة من هؤلاء القوم تحت قيادة هنجيست وهورسا وساعدوهم
على طرد البكتيين والاسكونسيين من البلاد وارجعهم الى الجبال التي اتوا منها.
ولكن عوضاً عن ان يرجع السكسونيون بعد ذلك الى بلادهم طعموا في استيلاك
البلاد واستحسنوا ان يقيموا مكان المطرودين فانهم الامداد يومياً وانضم اليهم
فرق سكسونية وانكليية حتى صاروا عدداً كثيراً. فلما شعر البريتانيون بمقاصد
مساعدتهم نهضوا لطردهم ولكن لعدم اتحاد بعضهم مع البعض لم ينجحوا في مساعدتهم.
فدامت الخصومات والحروب بينهم ١٥٠ سنة حتى كاد ينقرض البريتانيون
جميعهم والذي سلم منهم ترحل الى جبال ولس وكورنوال وبعضهم جازوا
المائش وذهبوا الى ارموريكا من اعمال فرانسوا وسكنوا هناك وسمي ذلك المكان
باسم بريتانيا نسبة للبريتانيين

اما الانكليون والسكسونيون فقسموا البلاد الى سبع مقاطعات تُعرف

بالسبع ولايات السكسونية وهي كنت وسوسيكس وواسكس وإيسيكس ونورثمبريا
وانكليا الشرقية ومرسيا. واقاموا ملكاً على كلٍ من هذه المقاطعات وكان احد
هؤلاء السبعة رئيساً على السنة ثم حتى المناظرة العمومية والسيادة على البقية . فمن
جري ذلك وقعت بينهم منازعات عديدة آلت اخيراً لانفكاك ذلك النظام
وسنة ٥٩٦ دخلت الديانة المسيحية دخولاً حقيقياً بواسطة اوغسطينوس
وغيره من الرهبان المرسلين من طرف البابا غريغوريوس وذلك في زمن
اثلبرت ملك مقاطعة كنت حينما كان ملكاً عاماً على باقي المقاطعات المار
ذكرها. وكانت برثا زوجة الملك اثلبرت المذكور وابنة كاريبرت ملك باريس
قد اقبلت الايمان المسيحي قبل ذلك بقليل فسمعت في ارتداد زوجها فارتد
واعند هو وكثير من رعاياه بعده ومن ذلك الحين اخذت الديانة الاصنامية
تلاشي والديانة المسيحية تمتد شيئاً فشيئاً حتى انها في مدة احوال يسيرة غمت
البلاد جميعها

وكان كلما قام ملك عام على السبع المقاطعات يجتهد في توسيع دائرة ملكه
واخضاع الممالك الصغيرة اليه فاخذ هذا الامر يزداد شيئاً فشيئاً حتى انه في
سنة ٨٢٧ في زمن الملك اغبرت ملك ولاية واسيكس لم يبق ملك مستقل على
الولايات الست الاخر فغلب عليها الخراج وصارت جميعها تابعة اغبرت
المذكور وهو اول من استقل بالبلاد واول ملك من ملوك انكلترا من الدولة
الانكلوساكسونية . ولكن مع ذلك لم ترخ البلاد في ايامه لان من تاريخ ملكه
ابتدأت هجمات الدنياركيون التي انتهت اخيراً باستيلائهم على البلاد فكانوا
يضررون في البلاد ضرراً جسيماً وخاصة بالاديرة واماكن التسمية اذ وجبوا كل
قوام نحو خرابها . وسنة ٨٦٥ لما كان الملك اثلبرت وهو الثالث بعد اغبرت
ملكاً على انكلترا اتى الدنياركيون تحت قيادة رئيس عمارتهم الشهير المدعو
رغزلودبروك ونزلوا على شاطي نورثمبرلاند فتناوهم رئيس تلك الجهة واسر
فائدهم وطرحه في مغارة مملوءة من الحيات فاماته ورجع الدنياركيون

بدون فائدة ولكن بعد ذلك بقليل نهض اولاد رغنر المذكور واقاربته واخذوا
بشاره وانتقموا له من البريتانيين اشد الانتقام بعد ان افتتحو اطراف البلاد
واستولوا عليها

وبعد وفاة اغبرت تبوأ تحت الملك ابنه ثم اولاد ابنه الثلاثة وفي مدة حكمهم
كانت الحروب مع الدنياركيين متصلة وغزوات هولاء مستديرة حتى انه في
ايام الملك الفريد كانوا قد استولوا على ولايات نورثمبريا ومرتيا وانكليا الشرقية
فكان مركز الفريد من اصعب المراكز لانه من الجهة الواحدة اراد استخلاص
البلاد من المغتصبين ومن الجهة الأخرى خاف من اقتدارهم واستيلائهم على
باقي الجزيرة . فبينما كان متغيراً من هذا الامر وساعياً في تدبير منعه نهض احد
قواد الدنياركيين المدعو كنروم وهاجم البريتانيين في فصل الشتاء بمجموع
كثيرة فدهمهم وهم غير مستعدين وانتصر عليهم فحرب الفريد ملكهم واخيراً في
بيت احد الفلاحين وبقي هناك مدة متكرراً . قيل انه في اثناء اقامته في ذلك
البيت كان يخدم اهله وانه بينما كان يوماً ما واقفاً يخبز كعكاً تاه في البحر افكار
الندائير فاحترق الكعك ولم ينشبه فوثقته صاحبة البيت نوبتاً قاسياً على اهلها .
ولكن لم يطل الحال الا ونهض احد اشراف الانكليز وقاوم الدنياركيين وفتك
بهم وهم تحت رياسة ابن رغنر لودبروك المار ذكره . حينئذ نهض الفريد من
مخبئه وانضم اليه جمهور البريتانيين وحشر الدنياركيين في مراكزهم وظفر بهم
اي ظفر حتى اضطر كنروم رئيسهم ان يسلم . فاسترجع الفريد بلاده من
ايدي المغتصبين

واذ رأى الفريد ان استئصال الدنياركيين من البلاد امر مستعجل نظراً
لطول اقامتهم فيها وعددهم الغفير عقد مع كنروم معاهدة خصص له فيها ولبن
بمخلفه ولاية انكليا الشرقية وولاية نورثمبريا بشرط قبول جميع الدنياركيين
الدبانة المسيحية وان يكونوا ملثومين للقيام والاتحاد مع البريتانيين في محاربة
الاعداء لدى الحاجة . فعب عقد هذا الارتباط التفت الفريد الى اصلاح ما

كان التحق بالبلاد من جراء حروبها وأقام الفلح والتحصينات وشرع في ترقية العامة من دون أن يغض النظر عن أسباب ترقية حال الشعب بواسطة الصنائع والعلوم وإيجاد المدارس وتوسيع دائرة التنوير. ومع كل انشغاله في تدبير أمور المملكة كتب جملة مؤلفات وترجم عدة كتب إلى اللغة الانكليزية. منها تاريخ الكنيسة للعلامة بيد وكتاب في الفاسفة. وفي وصية هذا الملك وجدت عبارة طالما الانكليز يلهجون فيها وهي هذه يجب أن يكون الانكليز احراراً كافكارهم. ثم توفي هذا الفاضل سنة ٩٠٠ تاركاً لبلاده مثلاً شريفاً في كل امر ولقب بالفريد الكبير.

ثم جلس بعده ابنه ادورد وحكم الى سنة ٩٢٤. وقام بعده ابنه اثلستان فكان شجاعاً حارب الديناريين وكسره مراراً واستبد بالملكة وحده. فدأعت سطوة انكلترا في الخارج وصارت الدول الاجبية تطلب الاتحاد معها. وفي ايامه عقدت اول معاهدة مع فرانسوا وتزوجت اخته بكارلوس الثالث ملك فرانسوا واخرى بملك جرمانيا اوثر الكبير واخرى بأخر من الذوات الفرنساويين العظام ثم توفي سنة ٩٤٠.

ومن ملوك الدولة السكسونية ادغر نبأ سرير الملك سنة ٩٥٩ وكانت بريطانيا في ايامه حاصلة على تمام الراحة والسلام مهيبة من الجميع في الداخل والخارج. فكان حكيماً ونشطاً في سياسته يزور كل اقطار بلاده مرة في السنة وينتقد احوالها وكانت عمارته البحرية نحو ٤٠٠ قطعة. وما يذكر عنه انه فرض على رعيته ثلاث مئة راس ذئب في السنة لانها كانت كثيرة الوجود في تلك البراري. وبهذه الوسطة قرض الذئاب التي كانت مائة القطر.

وفي ايام الملك اثلريد اذ كان بغض الديناريين اخذ من قلوب الانكليز كل ماخذ نظراً لمفادهم في استملاك بلادهم اصدر الملك المذكور امراً عاماً سنة ١٠٠٢ بقتل كل الديناريين الفاطنين في انكلترا فقتل الانكليز منهم عدداً كبيراً وكانت اخت ملك الدينارك من جملة القتولين في تلك المذبحة. فهاج

الدينباركيون واتوا مع ملكهم سوين الى بريتانيا واقاموا المحروب على قدم وساق
وافتحوا البلاد . فالنم اثلريد ان يهرب مع زوجته وابنيه والتجأ الى نورمنديا
وهي ولاية فرنساوية كان اثلريد متزوجاً بابنة دوكا ريكاردوس الثاني واقام
هناك الى ان توفي . ولكن لم يستقر سوين في بريتانيا حتى توفي هو ايضاً تاركاً
فتوحاته وحقوقه لابنيه كانت الذي يُحسب اول ملوك العائلة الدينباركية في
انكلترا . وكان كانت عادلاً حكماً محسناً لطيفاً فسي في توسيع نطاق المملكة
واحدث جملة تحسينات في نظام الاحكام والسياسة وفرض جانباً من سطوة
الاشراف المضرة فاحبه جميع رعاياه لحسن تصرفه وخلوص نيته وفي ايامه كانت
البلاد في هدو وسلام والشعب منعكفاً على تحصيل المكاسب والفوائد الناجمين
من الهدو والسكينة . فانتهر كانت تلك الفرصة وذهب لزيارة الحبر الروماني
في رومية وبينما كان في ايطاليا التقى بكونراد امبراطور جرمانيا وزوج ابنته
بابنة هنري الثالث . وغلب رجوعه الى بلاد الدينبارك من زيارته في رومية
بعث كتاباً الى جميع قبائل انكلترا يتضمن العبارات الآتية وهي ليعلم جميعكم باني
قد كرست حياتي لله ونذرت باني احكم كل مالكي بالعدل وان افعل المستقيم
في كل امر . فان كنت في ما مضى وانا في مدة عنوان الشبوية وعدم المبالاة
خرقت مبادئ العدل والحفانية فاني عارم الآن بمعونة الله ان اعوض ذلك
تعويضاً كاملاً . فبناء عليه ارجو وأمر كل من سلمته زمام الاحكام ممن يريد
طاعتي وبود خلاص نفسه ان لا يظلم احداً فقيراً كان ام غنياً . ودعوا الاشراف
وغير الاشراف بنالون حقوقهم بالسوية وفقاً للشرائع التي لا ينبغي ايقاع الخلل
فيها لا خوفاً مني ولا حباً برضى خاطر الاقوياء ولا لاجل ملء صناديق خزيني
فاني لا اريد ما لا مجموعه بالظلم

وكان بعد توفي اثلريد في نورمنديا ان زوجته رجعت الى بريتانيا وتزوجت
بكانوت المذكور واما ولداها فبقيا في نورمنديا ولم يجاسرا على الذهاب الى هناك .
ففي سنة ١٠٢٦ الما توفي كانت وقام عوضاً عنه ابنه هارولد حضر من نورمنديا

ابن اثلريد الاكبر وكان اسمه الفريد وطلب استرجاع تاج ابيه . فنهض اعوان
 هارولد وقتلوه واستبد هارولد بالملك مدة ثلاث سنين ولم يحدث في ايامه شيء
 يستحق الذكر . وقام بعده اخوه هرديكانوت سنة ١٠٣٩ ولم تطل ايامه فتوفي
 بعد سنة من حكمه وبه انقضت الدولة الدنياركية ورجعت العائلة السكسونية
 فاول من نبواً تحت الملك من العائلة المذكورة بعد هرديكانوت المذكور
 ادورد احد اولاد اثلريد السالف ذكره وذلك سنة ١٠٤١ . وكان المذكور يميل
 الى اهل نورمندي لانه صرف بينهم ٢٧ سنة من حياته فاحضر منهم الى بريطانيا
 عدداً كبيراً ووظفهم الوظائف العليا فتأثر البريطانيون من ذلك وداخلهم الغيرة
 والحسد ونهض احد اشرفهم الامير غودوين وقاوم هذا المشروع وبواسطة ما
 كان له من النفوذ نجح باخراج النورمنديين من البلاد وتهدد بحفظ السلام والقيام
 بمتنصبات الملكة بدون احتياج الى الاجانب . ثم تزوج الملك ادورد بابنة
 غودوين المذكور واذ لم يرزق نسلاً ارسل فدعا ابن اخيه الاكبر (الذي كان
 له حق بالارث قبله) بناء على ان يخلعه بالملكة فحضر مع ابنه ادغر ولكن حالما
 وصل الى البلاد توفي ناركا ابنة في سن لا يليق بالسلطنة . وفي اثناء ذلك توفي
 الملك ادورد سنة ١٠٦٦ وهو اخر ملوك العائلة السكسونية . فبعد موت ادورد
 قام هارولد اخو زوجته اي ابن غودوين المار ذكره واغتصب لنفسه تاج
 الملك فقاومة اخوه في السنة ذاتها وهاجم عليه حراً غلب ان استنجد بالنورمنديين
 لمساعدته فقتل الاثنان في اثناء تلك المواقع الكبيرة وبموت هارولد انقض
 حكم الدولة السكسونية . فكان عدد ملوكها من سنة ٨٢٧ الى سنة ١٠٦٦ سبعة
 عشر ملكاً يفصلهم ثلاثة ملوك دنياركيين وهم كانوت وابناه من سنة ١٠١٦ الى
 سنة ١٠٣٩ كما مر

الباب الرابع

في ذكر تملك العائلة النورمندية والعائلة البلانتاجينية

من سنة ١٠٦٦ الى سنة ١٢٩٩

انه بعد انقراض الدولة السكسونية كما تقدم حكم انكلترا دولة نورمندية اعني حكام من بلاد نورمندية التي هي ولاية فرنساوية مجاورة للانكليز. فكان اول ملوك هذه الدولة ولیم الاول الملقب بالظافر. وكان قبل اسبلايو على تخت انكلترا حاكماً في ولاية نورمندية تحت يد فيليب الاول ملك فرنسا. فليسد ولیم كان فيليب وقتئذ صغير السن قصير المعرفة تحت وصاية بودوين احد اشراف الفرساويين وكان زمام فرنسا بيده. ومع ان بودوين المذكور كان عمّا لفيليب فكان ايضاً حمواً لولیم وبالضرورة كان يرغب صالح صهره وابنته. فانتهر ولیم تلك الفرصة المناسبة واغار على البريتانيين الذين كانوا مهتمين في اقامة ملك عليهم ولم يترك لهم وقتاً للمذاكرة في ذلك الامر وبواسطة تطهيره ومساعدته ازال كل الموانع والزم اشراف الانكليز ان يخضعوا لرياسته وتزوج عليهم ملكاً يوم عيد الميلاد سنة ١٠٦٦ في كيسة وستمينستر وشرع حالاً في بناء القلاع والحصون وملأها من حراس النورمنديين

ثم بعد تملك ولیم زمام البلاد بوقت وجيز ذهب لزيارة نورمندية بلاده وترك ادارة الاحكام في يد اخيه اودواسف بايو. واذ كان يخشى سطوة اشراف الانكليز ولا يامن خلوصهم اخذ معه عدداً كبيراً منهم خوفاً من حدوث فتنة في غيبته فلم يجد ذلك الاحتياط نفعاً لان تعديات النورمنديين وظلمهم الزمت البريتانيين ان يتظاهروا بالعصيان فاغتموا فرصة غياب ولیم وارسلوا يستدعون مالك الدينمارك لمساعدتهم واعديهم بتاج الملك واذ لم يات اتحدوا مع السكسونيين

الذين كانوا باقين في البلاد وإثاروا جملة فتن ومعارك قتلوا في احداها ٢٠٠٠ من عسكر النورمنديين ذبح السيف . فلما بلغ ذلك ولم حضر عاجلاً وفلتك بالعصاة وبعد ان اخذ الفتنة اجري قصاصات صارمة على المعتصين وانقم من الاهالي اشد انتقام وذبح منهم عدداً كبيراً بعد ان احرق بيوتهم واخرب مزروعاتهم فترح كثيرون من الانكليز والتجأوا الى اسكونلاندا المجاورة لهم وبسبب ذلك مع زمناً تنح عنه من عطل الارض وعمل المواسم حدث مجاعة عظيمة في انكلترا قيل انه هلك فيها فوق مئة الف نسمة من الجوع

وكان ولم المذكور عند قيامه من نورمندية لا فتاج انكلترا انه ترك زمام الاحكام في يد ابنه روبرتوس فبقيت في يده عدة سنين حتى بلغ فيليب الاول سن الكمال واستلم سلطنة فرانسا . فلما راي فيليب ما حصل عليه ولم من القدم والنجاح في انكلترا اخذته الغيرة والحسد وشرع بفصل نورمندية عنه وترك روبرتوس مستقلاً فيها بدون مداخله ابيه . واذا لم يراض ولم بذلك وقعت الحروب بين الاب والابن واستدامت جملة سنين حتى قيل انه في احدى المواقع بارز روبرتوس اياه واذا كانا في ملابسها الحربية بحسب عوائد تلك العصر لم يعرف احدهما الاخر حتى غلب الاب ففجّل الابن . ثم مات ولم من وقعة عن فرسو سنة ١٠٨٧ عندما كان ذاهباً لتخليص بعض اراضي نورمندية التي كان الفرنسيون قد اخلسوها وخلفه ابنه ولم الثاني الملقب روفوس اي الاحمر من احمرار شعره . وكان ولم روفوس المذكور يريد ان يتزع نورمندية عن اخيه روبرتوس ويضها الى مملكة انكلترا فتأهب لقتاله واشتبكت الحروب بينهما زماناً طويلاً ولم يحصل ولم على ما كان يبتغيه . وفي تلك الاثناء ظهرت المحروب الصليبية لتخليص الاراضي المقدسة وكان روبرتوس والي نورمندية من جملة الذين انضموا الى زمرة المحاربين ولكن اذ لم يكن عنده مال كافٍ للوازم الحرب استقرض من اخيه ولم مبلغاً وافراً وارهن عنده كل الولاية وتوجه . فاتي ذلك ولم طبق المرغوب وامل نوال المراد ولكن ما كل ما يتبني المرء

يدركه فانه بعد ذلك بقليل ذهب ولم ذات يوم بقصد الصيد الى الحرش الجديد الذي كان قد انشأه والده وبينما كان جائلاً فيه اصاب بنبلة انتهت حياته فانهم اعداموا الانكليز بهذا الفعل ولكن اذ لم يكن لوليم روفوس عند جماعة الانكليز قيمة ولا مقدار لقبائهم وجوره لم يتعن احدٌ لفحص سبب مبعثه

وسنة ١١٠٠ قام هنري الاول ملكاً على انكلترا وهو الابن الاصغر لوليم الظافر مع ان حق الارث كان لروبرتوس والي نورمندية ولكن اذ لم يكن قد رجع بعد من سفره الى الاراضي المقدسة اغتحم هنري الفرصة وسعى في لبس تاج المملكة وكانت سياسته مدوحة واجراءاته حسنة غير انه لم يمس على ذلك ثلاثون يوماً حتى رجع روبرتوس واذ وجد انه حزباً في انكلترا نهض لتخليص الملك من اخيه واتى بقوات كثيرة ونزل في ميناء بورتساوث . فوافاه رئيس اساقفة كنزبري وعقد بين الاخوين صلحاً . فتنازل روبرتوس لاخيه عن حقوقه بشرط ان يرتب له معاشاً سنوياً وان كل الذين تحالفوا معه ضده يكونون معافين مستامين على اراضيهم واموالهم . ولكن بعد قيام روبرتوس نكث هنري بشروط هذه المعاهدة واصل الضرر الى من كان تظاهروا في مقاومتهم . وسنة ١١٠٦ استفتح هنري بلاد نورمندية بعد قتال عظيم واسر اخاه وجمعه في قصر كريدف حيث توفي في سن الثمانين وضم البلاد الى تاج انكلترا . وسنة ١١١٩ قام ابن روبرتوس بمساعدة لويس السادس ملك فرنسا لاستخلاص ملكة ابيه فانقصر عليهما هنري في حرب برنيل ولم ينالا ارباباً . وبعد ذلك وقع النزاع بين هنري وبين البابا كما كان وقع مع ملوك اخرين ايضاً من جهة السبامات الاكليزيكية واعطاء الاساقفة العكاز والخاتم وتخليفهم بين الطاعة للملك . فان الملوك ارادوا ان يكون ذلك مختصاً بهم اما البابا فانكر عليهم هذا الحق . مؤكداً انه لا يستطيع السلطان الزمني ان يبخ المقاتلات الدينية المشار اليها بالعكاز والخاتم وقد دعي الملوك الذين يداومون استعمال ذلك بالسيمونيين نسبة الى سيمون الساحر الذي اراد ان يشتري موهبة الروح القدس بالمال

وكان هنري المذكور ولدان شرعيان فقط صبي وابنة فلاجل منع النزاع بعد وفاته اشتمس ان يسي ابنه ملكاً على انكلترا وعلى نورمندي في حياته فاخذ الى نورمندي ليعرفه بالاشراف وابناه هناك مدة وبما كان الولد راجعاً الى انكلترا غرق ومات. واما الابنة وهي ماتيلا فكانت قد تزوجت بهنري الخامس امبراطور جرمانيا ولكن حين وفاة اخيها كانت ارملة بدون اولاد فزوجها ابوها بامبرفرنساوي يدعى جوفروا بلانتاجينيت وهو كونت انجو (اسم مقاطعة في فرنسا) واقامها خليفة له على انكلترا ونورمندي ثم توفي سنة ١١٢٥ فبعد توفي هنري الاول تمض رجل من الاشراف في نورمندي يدعى اسطفان وهو ابن ابنة وليم الظافر التي كانت تزوجت بكونت بلوا واغتصب حكم انكلترا لذاته مع انه كان من جملة الذين اقرؤا وخضعوا لخلافة ماتيلا ابنة هنري الثاني. وكان اسطفان المذكور حسن الصفات لين الجانب فجعله ذلك محبوباً عند الجميع وساعده ايضا نفوذ اخيه اسقف انكلترا اذ جعل الكنيسة تعضده. واذ كانت البلاد وقتئذ مفسومة الى عشائر كان امر تولية امرأة على ملكة امراً جديداً عند روساء تلك العشائر فلم يصدر منهم مقاومة لمقاصد اسطفان المذكور فتزوج ملكاً على انكلترا وطلعه الجميع ولكن لم يرض عليه وقت طويل حتى تبدلت صفاته الحسنة بخسرة العظمة والاستكبار فاخذ يتعدى على حقوق الاهالي والاكليروس ويجري من المظالم ما لا يستطيع احد على حمله فتمتد الشعب ونمض بعضهم لخلعه فقاومهم اعوانه والمتحزون له ومن جرى ذلك انتشبت في البلاد حروب اهلية هرقت فيها دماء كثيرة. فانتحمت ماتيلا تلك الفرصة وانت لهاربته واستخلص البلاد من يده فلم تنجح في اول الامر ولكنها اخيراً اسرته سنة ١١٤١ وحبسته واستولت على زمام المملكة. ولكن بعد قليل اذ لم تحسن التصرف هاج عليها الشعب فالتمت ان يهرب ورجع اسطفان من سجنه الى تحت الملك. واذ كان ابنه الاكبر قد مات اجرى عهداً مع هنري ابن ماتيلا زوجة جوفروا بلانتاجينيت المار ذكره مآله ان اسطفان

يبقى ملكاً مدة حياته وان هنري يكون خليفته في الملك وقبل بذلك الجميع
 في السنة الثالثة اي سنة ١١٥٤ توفي اسطفان وجلس على تخت المملكة
 هنري المذكور وهو هنري الثاني من ملوك الانكليز والاول من العائلة
 البلانتاجينية^(١). وكان هذا الملك على جانب عظيم من الحماسة والشجاعة صاحباً
 ومتبهاً لكل ما يأول للحاج البلاد وكان مع ذلك غنياً جداً له جملة مقاطعات
 في فرانساً ورنها من ايبو. فشرع حالاً بازالة القلع والحصون التي كان انشاها
 روساء العشائر بقصد العصاة وقت الحاجة فقلت بذلك اسباب الحروب
 الكثيرة التي كانت تجري داخل البلاد. ثم قسم البلاد الى ست مقاطعات
 واقام قضاة مخصوصين للنهوض عن احوالها وراحة اهلها واصح الاعوجاجات
 القديمة ونكس سطوة الاشراف فانه ذلك بالمدح والشكر من الجميع. وحدث
 امران مهمان في مدة ولاية هذا الملك اولها مشاجرته مع توماس ابكيت رئيس
 اساقفة كاتدريري وثانيها انضمام ايرلاندا الى انكلترا اذ كانت قبل ذلك منسوبة
 الى خمس ولايات مستقلة. اما سبب مشاجرة هنري الثاني مع توماس ابكيت
 فهو ان المذكور كان وزيراً فيها حاذقاً في خدمة الملك واذا كان للكيسة في
 ذلك الوقت مدعيات سفسطية لم يوافق عليها هنري الثاني واراد تنكيس
 مداخلتها فانقلب وزيره توماس المذكور واقامه رئيس اساقفة املاً بنوال
 المرغوب بواسطته. ولكنه عوضاً عن الحصول على ذلك وجد في توماس مقاومة
 كلية جلبت عليه اكثاراً بليغة. فنهض اربعة من رجال الملك هنري وذهبوا
 الى كاتدريري وقتلوا توماس ابكيت على المذبح قاصدين بذلك رضى سيدهم
 فكان هذا العمل الفظيع سبباً لاضطرابات وانعاب كثيرة لان البابا تهدده
 بالحرم فالتزم هنري لاجل نسكين غضب البابا ان يذهب لزيارة قبر ابكيت
 ويظهر بذلك علامات الاسف على ما وقع. فلما وصل الى الدبر حيث كان

(١) ان هذه الكلمة هي اسم نبات اطلقت على هذه العائلة من حشيشة كان بعضها

اعضاؤها في برانيطهم

القبير قامت عليه زمرة الرهبان وهجموا عليه وضربوه فاحتل منهم هنري تلك
المعاملة بكل طول اناة ولم يذفع عن نفسه وبنائه على صبره واحتماله حصل على
ساج الحبر الروماني وغفرانه
ومن ملوك هذه الدولة ريكاردوس الملقب بقلب الاسد تنوج سنة ١١٨٩



ريكاردوس الملقب بقلب الاسد

وكان شجاعاً نشيطاً غريب القوة والسياسة محباً للحروب والمبارزات وهو الذي
ذكرناه في الحروب الصليبية حين ذهب مع فرقة من قومه لاجل مساعدة
الصليبيين واكتسب شهرة عظيمة في تلك المعارك ولكنه بينما كان راجعاً الى

بلادهم أسر في بلاد النمسا مدة سنتين ولم يخلص من أسر حتى فداء قومه بمبلغ جسيم. ثم توفي من نبله اصابته وهو يحاصر قلعة في نورمندي. ومنهم يوحنا اخو ريكاردوس السالف ذكره وهو اردأ ملك قام بين ملوك الانكليز. وفي ايامه خسر الانكليز نورمندي والاراضي التي تملكوها في فرانس. ومن اجراءاته الذميمة انه قتل ابن اخيه الذي كان وريث الملك عوضاً عنه فاستشاط اشراف الانكليز غضباً من هذه الافعال واجتمعوا في ١٩ حزيران سنة ١٢١٥ والزموا الملك ان يرضي تعهداً على نفسه وعلى من يخلفه مائة التنازل عن السلطة المطلقة وهذه المعاهدة تعتبر اساس حرية الانكليز. ثم توفي سنة ١٢١٦ وخلفه ابنه هنري الثالث وهو في سن التسع سنين. فاستبد بالملكة ٥٥ سنة وكان صاحب مقاصد حسنة لكنه غير كفوء للاحكام

وجلس بعده ادورد الاول سنة ١٢٧٢ ولقب بذي الساقين لطول ساقيه وكان فارساً مهيباً حارب ببسالة في فلمطين وفي الحروب الداخلية التي انتشرت في انكلترا. وهو الذي تغلب على ولاية ويس وضمها الى انكلترا اذ كانت قبل ذلك مستقلة. ثم انه شرع باخضاع اسكتلندا ايضاً ولكنه لم ينجح كثيراً وقاومه الاهلون المرة بعد الاخرى حتى توفي وخلفه ابنه ادورد الثاني سنة ١٣٠٧ فسلك مسلك ابيه من جهة اخضاع اسكتلندا ولكنه كان خالفاً من فروسية ابيه وسياسة ومع انه زحف اليها بمئة الف مقاتل لاقاه الاسكوتسيون تحت قيادة رئيسهم روبرت بروس بثلاثين الفا وقتلوا مجيشه فتكاً ذريعاً واهلكوا منهم عدداً غنياً ففعل ادورد راجعاً بالخيبة والفشل. ولم تكن مناقب ادورد الاخر احسن حالاً من التي ذكرناها فان الخفة وطيشة العقل كانتا من جملة مزايائه واخيراً قامت عليه امراته وحاربتة واسرته وبسبب وشايتها قتل اشنع قتله في الحبس

ثم قام بعده ابنه ادورد الثالث سنة ١٣٢٧ وهو في سن الثماني عشرة وحكم ببسالة خلافاً لايه فغلب الاسكوتسيين وفاز عليهم ثم زحف على فرانس مجيش عظيم واقام عليها القتال مدعياً بان له حقاً في ناحبها اكثر من فيليب فالوا الذي

كان وقتئذٍ على تخت ملكها وذلك لان والدته كانت ابنة فيليب الرابع احد ملوك فرانسا السالفين. فكان ذلك سبباً لفتوح الحروب المعروفة بحروب المئة سنة بين انكلترا وفرانسا التي هُزقت فيها دماء كثيرة وناسست بسببها العداوة الشديدة بين الامنين. وفي بداية هذه الحروب طلب ادورد الثالث من ملك فرانسا المبارزة الشخصية فابي فيليب واستخار ملاقاته بجيش من المقاتلين فوقع بينها قتال شديد في محل يدعى كريسي في فرانسا سنة ١٢٤٦ كانت الدائرة فيه على الفرنسيين وقتل منهم في تلك المعركة نحو ثلاثين الف شخص وجلة من كبار القوم واستولى البريتانيون على عدة اماكن فرنساوية . واذ كانت مدينة كالي التي على المانش هي محتاج فرانسا للانكليز حول ادورد الثالث التفتاه نحو افتتاح تلك المدينة وبعد حصار اثني عشر شهراً استنفجها وطلب من الاهالي ان ياتوا اليه بعمنة اشخاص من كبارهم لكي يقتلهم فدية عن اهل المدينة . فاول من قدم ذاته فدية عن بلاده على ما قيل رجل فاضل يدعى اوسفاك ثم تبعه خمسة آخرون والجمال في اعناقهم وهم حفاة الارجل . وفيما كان الملك مصمماً على قتلهم حضرت الملكة زوجته التي كانت في محاربة الاسكوتسيين وتوسلت اليه بان يعفو عنهم فاجابها الى ذلك واطلقهم . ومن ذلك الحين استولى الانكليز على مدينة كالي وبقيت في ايديهم نحو جيلين . وكان لادورد الثالث ابن وهو وريث عهده يلقب بالامير الاسود بسبب لون درعه واسلحه الحربية فارسله ابوه سنة ١٢٥٠ لمحاربة فرانسا . وكان ملكها وقتئذٍ يوحنا الصالح ابن فيليب قالوا السالف ذكره . فالتقاه بخمسين الف مقاتل ولم يكن مع الامير الاسود سوى عشرة الاف فقط فرمهم الانكليز بالنبال واتصروا عليهم واسروا ملكهم واخذوه الى مدينة لندن حيث بقي تحت الحفظ حتى مات . وسنة ١٢٧٦ توفي الامير الاسود وبعده بسنة لحقه ابوه . ومن كل هذه الحروب لم تكنسب انكلترا الا ثلاث مدن شهيرة وهي كالي وبوردو وبابون وقد ظهر في عصر هذا الملك رجل يقال له يوحنا ويكلف من اعمال

يورك ولد سنة ١٢٣٤ وكان متفناً في العلوم صاحب عقل ثاقب فانتخب رئيساً للمدرسة الكلية في كانتربري واذا كان له آراء دينية مخالفة للمعتقد الروماني لم يتوقف عن اشهارها فشرع ينادي ويعلم بها علانية منها عدم وجوب الرهبنة وانكار سلطة الباباوات الروحية والزمنية وانكار الاستخالة وعدم لزوم الاعتراف وعدم التسليم بهلاك الاطفال الذين يموتون بدون معمودية الى غير ذلك فوافقه كثير من الناس واصبحت تلك التعاليم موضوع المذاكرة والبحث عند البعض حتى صار له جملة تلامذة تابعين افكاره فكان ذلك اول صوت نودي بالاصلاح وبعده البرونستانت خميرة لتعاليم يوحنا هوس وجيروم دي براك ومرتينوس اوثيروس ولذلك يسمون ويكليف المذكور نجمة صبح الاصلاح. اما الكنيسة الرومانية فحسبت ويكليف المذكور من اعظم المجرمين بالهرطقة وبناء عليه صدر امر البابا غريغوريوس الحادي عشر الى اسقف لندن ورئيس اساقفة كانتربري بان يلقوا القبض على ويكليف وبطفتوا خبره فدعوه الى مجمع للتحاكم ولكنهم لم يستطيعوا ان يصدروا عليه حكماً لان احد امراء الانكليز تصدى لهما فاطلقوه من بعد ما حرصوه على حفظ السكوت. اما هو فازداد غيرة واخذ يعلم باكثر نشاط حتى التزم الباباويون ان يهتموا في اطفاء مفاعيل تلك التعاليم فمقدوا جميعاً في مدينة لندن سنة ١٢٨٢ وحكموا بالهرطقة على بعض تعاليمه واخرجوه من مدينة اوكسفورد خوفاً من ازدياد الشر. ولهذا العالم جملة مؤلفات وله ايضاً ترجمة انكليزية للتوراة

وفي ايام ريكاردوس الثاني ابن الامير الاسود الذي خلف جدّه ادورد الثالث تركت الاحكام في انكلترا لتهازل الملك وانهما كوا بالذات فنشأ عن ذلك ثورة كان رئيسها رجل حداد يدعى وات تابليز ومعه جملة رفقاء آخرين فشوا على لندن بمئة الف مقاتل واضروا بالبلاد ضرراً بليغاً. فالتفاهم الملك ومهد الامور بحسن سياسته بعد ان قتل رئيس تلك الفتنه فانفض النزاع مؤقتاً ولكن بعد ذلك بقليل اشتعلت نيرانه ثانية وزاد مفت الشعب ملكهم لتساوته

وسوء تدبيره فانزلوه عن الكرسي وحجزوا عليه في قلعة وهناك قتل او مات
جوعاً وبه انتهى تلك العائلة البلا تاجينية وكان عدد ملوكها ثمانية وعدد ملوك
نورمنديّة سلفائهم اربعة

الباب الخامس

في ذكر ملوك عائلة لانكستر وعائلة يورك من سنة ١٢٩٩
الى سنة ١٤٨٥

انه بعد انقراض العائلتين السالف ذكرها تناول تاج انكلترا عائلة لانكستر
وسميت هكذا نسبة الى دوك لانكستر اول ملوكها. وكان الدوك المذكور من
العائلة الملكية مشهوراً بين قومه ومقبولاً عند الاكثرين وهو المحرك للحادثة
المذكورة في الباب السابق التي بها قتل ريكاردوس السالف ذكره. فلما بلغ
دوك لانكستر ما كان يتمناه من قتل ريكاردوس اغضب تحت الملك لنفسه
سنة ١٤٠٠ وقبل به الجميع ودعي هنري الرابع وفي مدة حكمه هاج عليه فتنان
كان مناساً على واحدة منها رئيس اساقفة يورك ولم يبلغ منشأها من هنري
مأرباً فانه قهرها ومات بسلام بعدما حكم جملة سنين

وسنة ١٤١٣ نبأ سربر انكلترا هنري الخامس ابن السالف ذكره وكان
جسوراً مهيباً فبعد جلوسه بستين زحف لمحاربة فرنسا وبيت واضع بلادهم
ونكلمها وانتشرت في اطرافها الجنود الانكليزية واستولى زمامها الحكام البرمانيون
واضحى الاهلون في ضنك عظيم يكابدون الدل والجور العنيف. ولكن لم يزل
هنري ثمة انما به لانه في وسط انتصاراته توفي وهو في سن الرابع والثلاثين. وقام
بعده ابنه هنري السادس وهو في سن الثمعة اشهر فوضع على راسه تاجا فرانسا

وانكلترا وهو في حوض مرصعته في مدينة باريس وكانت فرنسا اذ ذاك دولة انكليزية ولكن لم يمس على ذلك الا بضع سنين حتى تخلص الفرنسيون من يدي الانكليز واخرجوهم من البلاد شيئاً فشيئاً بواسطة امرأة فرنساوية كما اوضحنا في الكلام عن فرنسا ولم يبق في ايديهم الا بعض الاماكن فقط فخلع حينئذ تاج فرنسا عن راس هنري السادس الذي لعدم اهليته للاحكام كان تاج انكلترا ايضاً سبباً لفقد حياته فيما بعد. والسبب في ذلك هو انه كان لطيف المزاج بسيط القلب لا يصلح للوظائف الملكية في تلك الاعصار فكان محفراً بين قومه وكانت امراته مرغريت انجو تحكم عليه حكم الام على ولدها . وفي ايام هذا الملك حدثت الحروب الاهلية المعروفة بحروب الورد التي دامت مدة ثلاثين سنة . وكان السبب في ذلك هو ان ورثة ريكاردوس الثاني الذين اغتصب منهم تاج الملك الدوك لانكستر بعد ان عمل على قتل الملك كما تقدم القول انتظروا فرصة مناسبة لخلع الطاعة واخذ الثأر فلم يستطيعوا على التظاهر في ايام تلك ولا في مدة تلك ابنة هنري الخامس لانها كانا جبارين عنيدين يخافهما الجميع ولكن عند تولي هنري السادس نهضوا لطلب استرجاع الملك الى العائلة السابقة وكان وقتئذ الدوك يورك هو الوريث الاقرب من تلك العائلة فقام سنة ١٤٥٥ وحمل السلاح ضد الملك ونحرب معه جمهور غفير ولولا مرغريت زوجة هنري السادس ونحرب القسم الاكبر من الاشراف لكان فاز الدوك يورك بمقاصده ورفع التاج عن راس خصمه . فمن ذلك الحين انقسمت انكلترا الى حزبين كبيرين يتنازرا على الواحد عن الاخر بلبس وردة من شريط مختلفة الالوان اما على برانيطهم او على صدورهم فكان حزب اليوركيين اي التابعين للدوك يورك يلبسون وردة من شريط ابيض والحزب الملكي بلبس وردة من شريط احمر ومن ذلك سمت تلك الحروب حروب الورد مع انه كانت الاولى تسميتها حروب الشوك لانها هشت عدداً كبيراً من الفريقين واقلقت البلاد زماناً طويلاً فضلاً عن الخسائر الجسيمة التي احدثتها . وفي سنة ١٤٦١ غلب حزب

الورد الايض تحت قيادة الامير وادوبك حزب الورد الاحمر بعدما قتل منه ٢٦ ألفا واسروا الملك فنودي باسم الدوك بورك ملكاً على بريتانيا العظمى وانسب ادورد الرابع ولكن بعد ذلك بقليل وقع الخصام بين الامير وادوبك وبين الملك ادورد فاخرج هنري السادس من السجن واجلسه على تخت الملك والتم ادورد ان يهرب الى فرنسا ولكنه لم يقدّر عن مداومة الحرب حتى انتصر مع حزبه على الحزب الملكي واسترجع تاج الملكة بعدما قتل هنري السادس وابنه سنة ١٤٦٤ وحكم الى سنة ١٤٨٢ واظهر من الفسادة ما لا مزيد عليه حتى انه امر بقتل احد اخوته ولكن اسناناً عليه خيرة بانه ميتة يريد ان يموت واذ كان اخوه من معي المسكرات اخذ ان يوضع في برميل مملوء من الزيت ويقتل عليه ففعل به كما طلب ومات على تلك الصورة

اما احوال الامة الانكليزية فكانت في ذلك الجيل آخذة في النجاس ولا سيما زراعتها حتى ان الفلاحين الذين من اوطأ درجة صاروا اصحاب اراضي وكان لم يحن الاشتراك في انتخاب وفاق المحامين . واذ كثر عدد الذين يتخبون وكان ذلك موجبا للارتباك اصدت الحكومة سنة بانه لا حق لاحد ان يكون من ذوي الاصوات في الانتخاب ما لم يكن صاحب ايراد لبرتين انكليزيتين من ملك خاص له وبما ان النفود في ذلك الجيل كانت قليلة انحصرت حتى اعطاء الصوت في ذوي الاقدار من اهل الفلاحة فانت تلك الشريعة بالغاية المطلوبة . وكان للنفود قيمة هذا مقدارها حتى انه من صرف ١٢ ليرة في السنة حسب من اصحاب الثروة العظيمة ومن المعلوم ان الايرادات كانت وقتئذ قليلة فان معاش النضاة الذين ياخذون الآن من الالفين الى الثلاثة الاف ليرة كانت في ذلك الوقت ٧٣ ليرة وكانت الالبسة ايضا ذات قيمة كبيرة حتى انه كان يوصى بها من سلف الى خلف كارث . وكانت ومناظ المواصلات عسرة جداً بحيث لم يرغب احد في التغرب عن بلاده فانه ما عدا السائح الذاهب لزيارة الاراضي المقدسة والتاجر الذي يقصد الموالد لاجل بيع

بضائعه بالكد كنت ترى رجلاً يتجاسر على ترك وطنه. وكانت الكتابة غير معروفة
الأ عند القليل الى ان اوجد فن الطبع رجل يدعى كاكستون فاخذت جيبتي
المعارف في الامتداد وطبعت الكتب المقدسة وانتشرت الانارة الحقيقية التي
كانت بلا شك واسطة للاصلاح

وسنة ١٤٨٢ توفي ادورد الرابع وترك ولدين اكبرها نسي ادورد الخامس
وكانا كلاهما تحت وصاية عمهما ريكاردوس الدوك غلوسستر الذي بالحال وضع
عينيه على تاج الملك واعتمد بان يقتضيه لنفسه فاخذ يستعمل الوسائط اللازمة
لذلك فازال كل ما رآه مانعاً لنوال مقصده وامات جملة من مقاوميه واخيراً
ارسل من خفي الاخوين معاً وهما في برج لندن واشهر ذاته ملكاً ونسي
ريكاردوس الثالث ولكن لم تطل عليه السنين حتى قتل في حرب اقامها عليه
هنري نيودر الوريث الوحيد لهنري السادس الملك السابق وكان ذلك بمساعدة
فرانسا التي قدمت له جميع مهام الحرب. وموت ريكاردوس الثالث انتهت
جروب الورد التي هلك فيها ١٠٠ الف نفس بعد ما دامت ٢٠ سنة. وانتهى
ايضاً حكم العائلة البوركية المتسلسلة من العائلة اليلانتاجينية

الباب السادس

في تملك العائلة التيودرية من سنة ١٤٨٥ الى سنة ١٦٠٢

ان الملوك الذين نبأوا تحت انكيتنا من هذه العائلة خمسة. اولهم هنري
تيودر المتقدم ذكره وهو هنري السابع قام سنة ١٤٨٥ وكان محباً للهدوكارها
الحروب والفتن وهو اول من شرع بما هو جار عليه الحال الى الآن في عدم
اشهار الحرب عاجلاً عند وقوع النزاع بين دولة ودولة واستعمال طول الاناة
لاجل التخابر وتعاطي وسائط السلم أولاً ثم توسط الغير لازالة الموانع اذا امكن
ذلك قبل المبادرة لسفك الدم. وهو نعم المشروع. ودلالة لكرهه الحروب

عقد تحالفاً دائماً مع جيس الرابع ملك اسكوتلاندا وازوجهُ بابتهِ مرغريت وازوج ابنة ارثور بكاترينا ابنة فرديناند وازابلاً ملك ومملكة اسبانيا ولكن اذ قُضي على ارثور بعد زواجه بوقتٍ وجيز اجهد ملك انكلترا ان يزوج كاترينا بابته الثاني هنري فاستحصل الرخصة اللازمة من البابا وعقد كتاب خطبتها وكانت سياسة هنري السابع متجهة بالاختصاص الى تخفيف سطوة العشائر في البلاد فادخل اواسط الشعب في الخدمات الاميرية وقدمهم حتى انه رفع الامتيازات التي كانت تُدعى بها اهل العشائر الى ذلك الوقت وفي ايامه قام رجلان دجالان ادعيا بحقيقتها لتاج الملك اكثر من هنري السابع فكان احدهما ابن رجل خباز قال عن نفسه انه ابن اخ ادورد الرابع والاخر ابن رجل جزار دعي بانه هو احد الاميرين الصغيرين اللذين امانهما الملك ريكاردوس في البرج كما سبقت الاشارة الى ذلك . فكانت هذه الفتنة سبباً لهيجان عظيم لان كثيراً من الناس ومن الاشراف تخربوا لهذين الرجلين ونظاهروا بالعصاة ولكن اخيراً نجحت الحكومة بالقضاء القبض عليهما فامرت بشنق ابن الخباز واما ابن الجزار فجعل خادماً يغسل الصعوب في مطبخ الملك . وقد خسرت انكلترا في ايامه مقاطعة بريتانبا وهي املاكها الوحيدة الباقية لها في فرانساً وذلك بدون حرب لانه اذ كان هنري السابع محباً للمال ومبغضاً للحروب قبل من كارلوس الثامن ملك فرانساً مبلغ ٤٠٠ الف ليرة لاجل تنازله عن تلك المقاطعة وكان داب هنري جمع المال فكان يخصص لنفسه كل ما وصلت اليه يده حتى انه بعد موته وجد في قصرة مبلغ عظيم بمحاكي العشرة ملايين ليرة انكليزية

ثانيهم هنري الثامن وهو ابن السالف ذكره . لبس التاج سنة ١٥٠٩ وهو ابن ثمانى عشرة سنة فكان بارعاً عالماً ولكنه كان ايضاً عنيداً فاسياً سريع الغضب كثيراً ما امر بقتل بعض الشعب وهو في حدة خلقه . وكان له ست زوجات احدهن ماتت موتاً طبيعياً واثنان طلقهما واثنان قتلها واما السادسة فحضرت دفنه . وكانت امراته الاولى كاترينا وزوجة اخيه ارثور . زُف عليها بعد

جلوسه ولبت معه ١٨ سنة وولدت له جلة اولاد ماتوا جميعاً في طفولتهم ما عدا ابنة يقال لها ماري. واذ كان هنري يشتهي اولاداً ذكوراً ليخلفوه في الملك وكان قد وقع في حب ابنة من الاشراف سعى في تخلية كاترينا وطلب من البابا اكيننضس الثاني ان ياذن له بذلك وكان البابا وقتئذ تحت الترسيم في قبضة كارلوس الخامس سلطان جرمانيا والمالك الغرية فخاف من اعطاء الرخصة في تخلية كاترينا اذ كانت ابنة اخ كارلوس الخامس السائد السلطة في اوروبا ولكنه لاجل عدم المظاهر في مقاومة ملك الانكليز ارسل قاصداً من طرفه لاستماع الدعوى في انكلترا فابت كاترينا الدخول في المرافعة ورفعت دعواها الى رومية فرجع القاصد كما اتى . حينئذ اجتمع روساء الدين في انكلترا واصدروا قراراً بان زواج هنري بكاترينا كان غير جائز من اولو لانها امرأة اخيه فطلعت. وقد حارب هذا الملك فرانسوا ثلاث مرات مرةً باتحاد عمه ملك اسبانيا ابي امراته حين استولت تلك الملكة على مقاطعة نافار الفرنسية ومرتين بالاتحاد مع شارل كان . وفي ايامه هاجم الاسكونسيون انكلترا مرتين ورجعوا خائبين بعد ان قُتل ملكهم جس الرابع في اثناء المعركة . وحدث في داخل البلاد جلة اصلاحات امت الشعب الانكليزي بفوائد جمّة . ومن اعظم ما اشتهر به هنري الثامن اعتناقه المذهب البروتستانتي من بعدما كان له عدواً ألد في اول الامر وكان كتب والف كتاباً ردّاً على لوثيروس سماه السبعة الاسرار الذي لاجله لقبه البابا ليون العاشر محامي الايمان . فعضد هنري الاصلاح الى درجة منكرة حتى انه كان يامر بقتل من لا يقبله وقد ترجمت وطبعت في ايامه الكتب المقدسة باللغة الانكليزية وانضمت مقاطعة ويلس الى انكلترا وصارت ترسل نواباً من طرفها الى المجلس الكبير ثم مات اخيراً سنة ١٥٤٧ وهو في سن الست والخمسين اما الملك الثالث فهو ادورد السادس ابن هنري الثامن وكان عمره عشر سنين عند جلوسه على كرسي الملكة فكان شاباً ظريفاً ذا معرفة وسياسة ولكنه لم يعيش زماناً طويلاً فتوفي بمرض السل وهو في سن الست عشرة

الرابع الملكة مريم شقيقة ادورد المذكور تبوأّت تخت الملك سنة ١٥٥٢ وتزوجت في السنة التالية بفيليب الثاني ملك اسبانيا وهو ابن شارلكان المشهور ولقيت بالدموية لانها اذ كانت تابعة المذهب الروماني اجتمعت ان تزيل المعتقد البروتستانتي فامرت بحرق من انكر سلطة البابا حتى ان كثيرين من الاساقفة والقسوس الانجيليين هلكوا في وسط لهيب النار في ابامها . وكان المجلس الكبير قد قاومها على هذه الاعمال الفظيعة فخلعت اعضاءه واقامت مكانهم اناساً اخرين ممن خضعوا لوامرها فوافقوها على هذا المشروع واصدروا امراً بابادة وملاشاة مسبي الهرطقة فكان عدد من قتل منهم ٢٧٧ نفرًا اكثرهم من اعيان الناس واكابرهم ثم قطعوا النفقات المعينة لمعاش الاكليروس المتزوج هذا ما عانا البلص والتعدي الذي جرى على كثيرين . وقد اشهرت هذه الملكة الحرب على فرانساً مساعدةً لزوجها فيليب ملك اسبانيا فلم يات ذاك انكثرا سوى خسارة مدينة كالي التي كان لها جيش ٢١١ سنة تحت تملكها . وكانت مدة ملك مريم المذكورة خمس سنين وماتت في حالة نعيسة من شدة الوسواس والغموم التي كانت قد تراكت عليها

الخامس الملكة اليصابات ابنة هنري الثامن واخت مريم المذكورة من امّ اخرى تتوجت سنة ١٥٥٨ وكانت بروتستانتية ولكنها لم تتعرض لاذية الكاثوليكيين وقد ساعدت الاسكوتسيين على طلب حريتهم في امر الدين فاخذت الاصلاح يمتد وينشر في تلك البلاد حتى عمّ اكثر اقاليمها وبلدانها وبالاجمال نقول ان انكثرا في ايام هذه الملكة العظيمة وصلت الى اعلى درجات المجد والفخار لان سياستها وحسن تديرها كانا احسن مما وجد الى ذلك الحين وكانت مع هذه الاوصاف على جانب عظيم من الحذاقة والحزم والجمال والعفة . وكان قد طلبها كثيرون من اشراف البلاد ليتزوجوا بها فلم تقبل واختارت ان تبقى حرة رئيسة على جسدها كما كانت على ملكتها وكانت بهذا المقدار تأنف من الزواج حتى انها كانت تظهر الاسف والحزن عندما يئتمن زواج من تعرضن من السيدات .

وكان قد خطبها لنفسه فيليب الثاني ملك اسبانيا فابت وامتنعت فاغناظ منها وصم على افتتاح بلادها فجهز عمارة بحرية وارسلها سراً لتلك الاطراف لاختضاع الولايات البريتانية فهاجت عليها عواصف شديدة اعدت جانباً منها واما ما سلم من العواصف فانلقته العارة الانكليزية

ولهذه الملكة بعض اعمال قاسية نحو اعيال ايها هنري الثامن منها انها امرت بقتل مريم ملكة اسكوتسيا التي انت الى انكلترا طالبة الحماية من مقاومتها بعد ان حجزت عليها نحو ١٩ سنة . ولكن نجاح الملكة وتقدمها سواء كان بحسن سياستها ام بواسطة الرجال العظام الذين اشتهروا في ذلك الوقت واعانوا على انتشار المعارف والصنائع اخفى نقائصها وزلاتها . وفي مدة تلك هذه الملكة حصلت مذبحة ماربرثالموس في فرانسا حيث قتل جمهور غفير من البروتستانت فكان امتداد المعتد البروتستانتى سبباً لمقاومات وحروب كثيرة في اوروبا وكان اكثرهم جرمانيين وفرنساويين وهولانديين فكانوا يتركون بلادهم ويذهبون للاختفاء في اماكن مختلفة اخصها انكلترا لان البصابات كانت تحي كل من استجار بها من هذا القبيل وادخلوا معهم جملة من الصنائع والفنون مما كان مجهولاً او غير متفن في انكلترا فكان ذلك من جملة اسباب التقدم والنجاح . وفي مدة حكم البصابات ادخل الهولنديون الشاي الى انكلترا والجرمانيون الساعات وادخل احداً من الانكليز التبغ والبطاطا سنة ١٥٨٠ عملت المركبات وفي سنة ١٦٠٠ تشكلت شراكة الهند الشرقية التي كانت سبباً لادخال كل تلك البلاد في طاعة بريتانيا الى الآن هذا ما عدا المؤلفات العديدة وترجمة الكتب الكثيرة التي اتي بها رجال ذاك العصر ثم توفيت هذه الملكة في سن السبعين وتركت الاسف والحزن لشعب الانكليز اذ لم يبق قط في انكلترا من يسوس البلاد مثل تلك الجليلة

الباب السابع

في تملك عائلة استوارت

ان اصل ملوك هذه الدولة من اسكونسيا وكانت أكثر ايامهم عديمة الراحة والانتظام من جرى النزاع والمشاجرات المستطيلة التي كانت تحدث من الشعب ضد السلطة المطلقة سواء كان من طرف المحكام ام من طرف الامراء العظام الامر الذي كان قد افاق الملكة وافقد المجلس نفوذه الهجري وفي اثناء تلك المشاجرات اتفقت الحكومة مدة من حالة الملكية الى حالة المشيخة تحت رئاسة اوليفر كروموويل كما ستقف عليه . وبعد موت البصابات خلفها جيمس استوارت وهو اول ملوك انكلترا بهذا الاسم والسادس في اسكونتلاندا وكان ابتداء حكمه سنة ١٦٠٣ وكان السبب في انتخابه ملكا هو ان البصابات عند موته كانت قد اقترنت له بالخلافة من بعدها لانه كان ابن ابن ابنة هنري السابع ملكة اسكونسيا التي قطعت البصابات راسها . ومن ذلك الوقت انضمت اسكونسيا الى بريطانيا العظمى وصارتا تحت حكم ملك واحد

وكان هذا الملك حاذقا اديبا نجيبا بارعا في العلوم والمعارف محبا للطاعات وقد ألف كتباً عديدة مفيدة وكان متمكنا في اللغة العبرانية واليونانية واللاتينية مغرما بالتكلم بها حتى ان وزراءه كان يصعب عليهم احيانا كثيرة ان يفهموا معنى كلامه واما هو فكان يحسب نفسه من درجة سليمان في الحكمة . وفي ايامه حاول بعض البياويين احراق مجلس البرلمان بن فيه بغضا للبروتستانت الذين كانوا يزددون ويتقدمون بمقدار ما كان اولئك ينقصون ويتأخرون فصنعوا كميناً وضعوا فيه ٢٥ برميلا من البارود وبينما كانوا يتربصون فرصة مناسبة لانفام هذا العمل اكتشف الملك جيمس على هذه المكيدة فبادر في الحال وارسل حراسا

يراقبون اعمال المشتركين في تلك الدسيسة فوقت يدهم على رجل اسمه كاي فوكس وهو في نفس المكان حيث كان البارود موضوعاً فقبضوا عليه واحضروه امام الملك واخذوا يستنطقونه فاعترف بحقيقة الحال واقر عن ثمانية رجلاً من رفقائه فاحضرهم الملك وحكم عليهم جميعاً بالموت . وكان لخمسة صفة حميدة نادرة الوجود عند الملوك بنوع الاجمال وهي انه كان مبعوضاً للحروب ولذلك قضى مدة حكمه في السلم وتحسين احوال الرعية ومات سنة ١٦٣٥ وخلفه ابنه كارلوس الاول

وكانت مدة كارلوس متعبة اكثر من زمان ابيه وذلك لانه كان وقتئذ كثير من البروتستانت يقاومون كنيسة الملكة والاساقفة لاجل تشبههم ونمساكهم بالاحتفالات والعوائد الرومانية التي بقيت من بعد خلع الاعتراف الكاثوليكي . وجانب اخر من الشعب كان يعتقد بان ملوك انكلترا لهم سطوة اكثر من اللازم ولذلك قصدوا ان يضعوا حداً لهذه السلطة وان يجعلوا الملك يملك لاجل مجرد انشراحه ومجده بل لاجل خير الشعب . واما كارلوس فلم يخضع لهذه الاعترافات والتصورات حاسباً ان عامة الناس خلّفوا لاجل تسلط الملوك عليهم فقط . ففي بداية حكمه اثار اضطرابات على الطائفة الانجليزية ولم يسمح لاحد من قسوسهم ان يباشر وعظاً ولا للشعب ان يحضروا الى الكنيسة لاجل استماع الوعظ وضايقهم كثيراً لكنه لم يجسر ان يامر بحرقهم بالنار كما فعلت الملكة مريم فسادفروا كثير من منهم الى اميركا طالين حرية الدين وكان يوحنا همدن وبوحنيم واوليفر كرومويل وغيرهم من الذوات المشهورين قد صمّموا على السفر الى اميركا فتمنعهم الملك فصاروا بعد حين اقوي اعدائهم

وكان البارليمنت (مجلس الامة) الى حين حكم كارلوس الاول لم يجسر اعضاؤه قط على مقاومة ارادة الملك واما الآن فوقع بينهم وبين كارلوس مشاجرات مستديمة واصروا على حفظ حقوقهم وكرامتهم وعدم اطلاق العنان للملك فكان ذلك سبباً لعزلهم من مناصبهم وتولية خلافهم وما يستحق الاستغراب

انه كلما اقام الملك مجلساً جديداً وجد مقاومة من اعضائه اشد من سلنائهم لان روح الحرية كان قد تمكن في صدور العامة والنور كشف عن بصيرتهم رداء الاستعباد لارادة شخص مطلق التصرف . وما زال الحال يزداد يوماً فيوماً حتى لم يبق وجه لصرف هذا المشكل بالكلام فتسلح الفريقان وبمضا الحاربة بعضهم بعضاً وكانت اكثرية عظماء انكلترا واسكوتلاندا واساقفة الكنيسة الانكليزية واكليسوسها مع جميع شبان الملكة اللطاحل متحيزين للملك كارلوس واما حزب المجلس فكان بعض الشرفاء والاكثرين كانوا من اهل الصنائع وعامة الشعب فعزم هؤلاء على مقاومة الملك وحزبه وصمموا انهم لا يشنون عن عزمهم ولو صرفوا جميع اموالهم فابتدأت الحرب بين الفريقين سنة ١٦٤٢ وحدثت مواقع كثيرة بينها جرت فيها الدماء كالغدران وكان من جملة المتحيزين للمجلس رجل يقال له اوليفر كرومويل من عائلة معتبرة موصوفاً بالشجاعة وعلو الهمة فتمض لمقاومة الملك واعوانه وعين على نفقة نفسه الآباء من العساكر الجهادية كان هو مديرها ورئيسها فنجح في اعماله واشتهر في مواقفه حتى ارتقى الى رتبة فريق ولامر بريدته الله انتصر في موقعين عظيمين احلاها في مارستين مور سنة ١٦٤٤ والآخرى في ناسي سنة ١٦٤٥ فالتزم الملك كارلوس ان يسلم نفسه لاحكام القضاء والقدر اذ لم يجد امكاناً للتخلص من ايدي مقاوميه فقبض عليه اوليفر كرومويل والقاه في قصره تحت الترسيم واخذ كرومويل من ذلك الحين بوجه افكاره وآماله الى المجلس على سرور الملكة فاستعمل لذلك الوسائط المناسبة واستمال اليه قلوب العساكر وقواد الجيوش ثم اشتغل في اقناع المجلس ان يحكم بقتل الملك كارلوس واذ راي كثيرين منهم لا يوافقونه في هذا الرأي وضع السيف في اعناق البعض ونفى البعض منهم ولم يبق في المجلس الا من كان موافقاً له ولما تم له ما اراد اقام محاكمة كارلوس بحضور اعضاء المجلس فوجد خائفاً مستغنى الموت فاضطرب الشعب من هذا الحكم واستعظوه ولكن لم يستطع احد ان يحرك ساكناً لان هيبه كرومويل وسطوته كانتا كافيتين لمنع

العصاة والشقاق . فعند ذلك امر باحضار الملك من قصره الى محل القتل فأُتي به في ٢٠ تشرين الثاني سنة ١٦٤٩ حيث كان موضوعاً قطعة من خشب والجلاد يبلطه واقفاً بالقرب منها وعساكر كرومويل وقوفاً بسلاحهم حوله فتقدم الملك نحوهم بكل ثبات وهدو وقال لقد نزعوا عني ناجي الذي يفتي ولكني ذاهب لانا ل ناجا لن يفتي ثم جثا على ركبتيه وصلى ثم التفت نحو الشعب وودعهم وبعد ذلك وضع عنقه على تلك الخشبة المذكورة فرقع الجلاد ببلطته وقطع بها راس الملك . وكان الملك قد ترك ولداً ذكراً يخاف كرومويل من عاقبة امره لئلا يهيج الشعب ثانية ويدعي بالارث فبادر في الحال باجراء التفتيش عليه ليهلكه فعثرت به الجنود وهو مع زمرة من المخزيين له فاحاطوا به وضابطوه ولكنه اخيراً تخلص من بين ايديهم وهرب

فلما خلت كرسي مملكة انكلترا من ملك او ولي عهد تجميع عظماء الشعب واکابر الاشراف واقاموا عليها مدبراً ورئيساً كرومويل المذكور واطلقوا عليه اسم محامي انكلترا وسموا حكومتهم الحالية بالجمهورية فكان كرومويل يتعاطى مهام الاحكام ورياسة الجيوش فارفع قدره وانتشر ذكره ووقعت هيئته في قلوب الناس وما زالت سطوته تمتد في البلاد حتى انه في اقرب وقت استولى على زمام المملكة فنفر اعضاء المجلس الكبير من هذا الامر واعترضوه على ذلك اما هو فلم يلتفت اليهم بل عزلم في الحال واقام اناساً غيرهم ممن كان يأنهم ويعتد عليهم الا انهم لم يقوموا بوظائفهم اكثر من خمسة اشهر حتى استغنوا جميعهم فقبل استغفائهم حالاً اذ كان ذلك اعز مشتهاه وغاية متمناه

وسنة ١٦٥٤ نودي به السيد المحامي لجمهورية انكلترا وبقي متقلداً ذلك المنصب مدة اربع سنوات وكان حاكماً حازماً ذا اقتدار وسطوة مهيبة مكرماً من اهل المملكة وسائر الدول وكان دائماً لابساً درعاً تحت ثيابه خوفاً من غدر اعدائه واستمر كذلك الى ان مات محموراً سنة ١٦٥٨ وهو في سن التسع والخمسين وخلفه ابنه ريكاردس في نفس المنصب ولكنه لم يكن كفواً له واذا لم

يمكنه ان يجعل اهل المملكة تنقاد لاوامره خلع نفسه من الوظيفة فاصبحت الحكومة في قلق واضطراب واشتاق الشعب الى ترجيع سليمة ملوكهم ظانين ان الحكومة لانجج ثانية الا تحت زمام احكامهم وكان الجنرال جورج منك اول رجل ذي سطوة وهبة في العسكرية بعد موت كرومويل المذكور فدعا بكر كارلوس الاول للرجوع الى بلاده ووعد بمساعدة العسكرية لاجل تسميته ملكا وكان هذا الامير المنفي قد صرف زمان غربته في اماكن مختلفة في اوروبا واتصل الى ادنى درجة من الفاقة فاسرع بالرجوع الى انكلترا ودخل مدينة لندن بكل عز واکرام ففرح الشعب بقوده وتوجوه سنة ١٦٦٠ ولقبوه بكارلوس الثاني ولما استبد بزمام الاحكام وصفت له الايام امر بشقي كثيرين من الاشخاص الذين تدخلوا بقتل ابيه الملك السابق ثم اخرج جثة اوليفر كرومويل من مدفنها وامر بعليقها على المشتقة ثم اعادها الى مكانها

وكان كارلوس الثاني هذا قد عاش عيشة رخية مدة نفية وعند جلوسه على كرسي المملكة استمر على ما كان عليه وصرف اكثر ايامه ولياليه في شرب الخمر وفي قضاء شهواته الدنية . واتفق سنة ١٦٦٥ ان انكلترا اقامت حربا على هولاندا مدعية انها تعرض لتعطيل تجارتها فارسلت عمارة بحرية تحتوي على ١١٤ قطعة حربية تحت رياسة الدوك بورك اخي الملك وعند وصولها الى تلك الاطراف اشتبك القتال بين الطرفين في ٢١ نيسان من السنة المذكورة كان النصر فيها للانكليز ثم في السنة نفسها حدث وباء عظيم في مدينة لندن اهلك تسعين الف نسمة من الاهالي في ستة احواء ثم اعقبه حريق مهول احرق ثلثة عشر الف بيت من المدينة ولم تؤثر هاتان الضربتان ادنى تاثير في الملك بل استمر على حاله المعهودة . وكان قد سلم زمام الاحكام بايدي اناس من اهل الشقاوة عديمي المعرفة والشفقة حتى ان الديانة والفضيلة حسبتا خيانة ورذيلة في مدة حكمه . وقد حدثت موفعتان اخريان بين انكلترا وهولاندا كانت الدائرة فيها على الانكليز واخيرا وقع الصلح بين الدولتين وصار امضاء المعاهدة

في بريدا في ١٠ نوز سنة ١٦٦٧ وفي تلك المعاهدة اعطت هولاندا لانكلترا مدينة نيويورك من تملكاتها في اميركا وكان مقصد انكلترا في اتحادها مع هولاندا ان تقاوم مطامع فرنسا في افتتاحها فارسلت قاصداً من طرفها الى هولاندا وعقدت معها صلحاً واشترك معها في هذا الاتحاد ملكة اسوج ونروج فسمي ذلك الاتحاد المثلث . ومن سياسة هذا الملك المفقونة انه ابطال بعض شرائع الملكة بدون مخامرة المجلس واقام خمسة نواب من اشراف الملكة للقيام بهام الملكة وتأييد سلطته المطلقة بدون التفات الى البرلمان فعقد هولاء عهداً مع لويس الرابع عشر ملك فرنسا على حرب هولاندا براً وبحراً ونهب اموالها واياة مشيختها فلم يصدق الهولنديون هذا الخبر ولكنهم تحققوه عندما اشهر الملك كارلوس الحرب عليهم سنة ١٦٧٢ باتحاد فرنسا فكان هذا الامر بعد من اعظم العيوب نظراً للمعاهدات التي كانوا قد اتفقوا عليها . ومن ثم انتشبت الحرب بحراً بين البحارة الانكليزية والبحارة الهولندية وكانت البحارة الفرنسية هناك فلم تات الانكليز بالمساعدة المطلوبة وبعد عدة وقائع السيت عمارة هولاندا من ميدان المعركة ولم تبعها عمارة الانكليز فكانت غلبة غير كاملة ثم بعد ذلك غزا الفرنسيون هولاندا براً واضروا باهلها ضرراً جسيماً كما سذكر ذلك منفصلاً في محله . واذ لم تحب انكلترا ثمرة من هذه الحروب الا هلاك رجالها وصرف اموالها ونهب المجلس اعمال الملك على سوء تصرفه بتلك السياسة وعلى ابطاله شريعة قصاص مخالف في الاصلاح الديني فان العامة اعتبرته مغتة للباباوين وتعدياً على حقوق المجلس في ابطال شيء كان قد عنده فلم الملك لدعوى المجلس وابطل مجلس النواب المذكور ثم عند الصلح مع هولاندا وزوج ابنة مريم بالبرنس وليم اورانج الهولاندي لتوطيد روابط المحبة والاتحاد . وكان قد حدث جملة اضطرابات في داخلية البلاد من جهة الدين والدنيا لم يتصرف بها كارلوس بالتصرف الحسن واستمر على حاله الى ان مات سنة ١٦٨٥ وخلفه اخوه جيمس الثاني

وكان جسس المذكور كاثوليكيًا في اعتناده ولم يكن اهتمامه إلا في كيفية ارجاع شعب بريطانيا العظمى ثانية تحت سلطة بابا رومية وبهذا العمل جلب على نفسه بغض رعاياه حتى رذلوه واحرقوه وحقدوا عليه وصمموا على عزله ليتخلصوا منه ثم هاجت منهم العظاء والاشراف ودعوا ولم يبرنس اورانج لياني من هولاندا ويصير ملكًا عليهم ولم يكن لهذا البرنس حق بالملك غير انه كان قد تزوج بابنة اخي هذا الملك كما سبقت الاشارة فحضر وعند وصوله الى انكلترا باذر الناس لاستقباله وجاءوا به الى القصر الملكي بموكب عظيم فبايعوه بالملك وتوجوه مع امراته سنة ١٦٨٩ تحت لقب الملك ولیم الثالث والملكة ماري . واما جسس فكان قد فرّ هاربًا الى فرانسسا وكان بعض احزائه يحاولون ان يعيدوه ثانية الى كرسي المملكة ولكنهم لم ينجحوا في ذلك فهذا التغيير الذي حدث في المملكة يسمي اعنيادًا بشورة سنة ١٦٨٨ الهجدة . ومن ذلك اليوم صار وضع بعض المنظمات والقوانين لاجل تنقيد السلطة الملكية وثبتت الشرائع المسنونة والتي تُسن ومن جملة تلك القوانين انه لا يباح بالتاج الملكي لاحد الا لمن كان برونستانتيا . وفي تلك الاثناء اضطرت الملكة الى قرضه دراهم لاصلاح لوازمها فتناولت من اغنياء بلادها وكان ذلك اول دين على الدولة فتشكل لاجله سنة ١٦٩٤ البنك المعروف بينك انكلترا وهو البنك الباقي الى يومنا هذا . اما ولیم فانكب على اصلاح داخلية البلاد واخماد الفتن فتمت في ايامه الاقاليم البريتانية وزهت ومن ذلك الحين اخذت تجارتها تمتد من خارج وصنائعها من داخل . وما ساعد ايضا على هذا التقدم هو ما حدث في فرانسسا في مثل ذلك الوقت في ايام ملكها لويس الرابع عشر عند الغائو المنحة المعطاة للبرونستانت من جده هنري الرابع في ممارسة امور ديانتهم بلا معارض فانه عند ذاك اتى واستوطن في انكلترا خمسون الفا من المهاجرين الفرنسيين وكان اغليهم من ارباب الصنائع والهن فاقاموا فيها الاشغال معلمين ما كان مجهولا ومساعدين في ما كان جاريا فامتدت بواسطتهم دائرة الاعمال والفنون والتقدم انكلترا اسباب

اخر كثيرة لا يسعنا ذكرها . واذ كان هذا الملك الفاضل مغرمًا في الصيد كان ذلك سببًا لتعجيل موته فانه وقع عن جواده يومًا ما في سنة ١٧٠٢ وهو بصطاد ومات بعد ذلك بشهر وكانت الملكة قد توفيت قبله بعدة سنين
ثم نبأ بعده تخت الملكة حنة ابنة جنس الثاني وكان حكمها حكمًا مجيدًا لانكترا وفي ايامها انتصر الدوك المبروك الشهير في وقائع مشهورة على الفرنسيين وكان ذلك بالانحداد مع هولاندا والنمسا لاجل تنكيس سطوة فرانس التي ارادت ان تقيم ملكًا على اسبانيا احد اعضاء ملوكها . وكان اشهر تلك الوقائع حرب بلينهم حيث كانت خسارة الفرنسيين مع حلفائهم اهل بافاريا ٢٥ ألفًا وفقد الماريشال نالار واما خسائر الانكليز وحلفائهم فكانت ١٢ ألفًا . وفي ايام هذه الملكة أخذ حصن جبل طارق سنة ١٧٠٤ من الاسبانيوليين وهو اعظم حصن في العالم ويعتبر مفتاحًا للبحر المتوسط وقد اجهد الاسبانيوليون والفرنساويون مرارًا عديدة على اخذه من ايدي الانكليز فلم يستطيعوا . واشهر عصر الملكة حنة بوجود العلماء والفلاسفة المشهورين مثل نيوتون ولوك وميلتون وبنيان ودريدن الذين عاشوا وقتئذٍ والقوا مؤلفات عديدة في الفلك والهندسة والشعر والديانة وغير ذلك وبواسطتهم امتدت العلوم والفنون في اقطار الملكة وفي العالم اجمع . واسنبتت الملكة حنة بالتصرف الملكي مدة ١٢ سنة وماتت سنة ١٧١٤ ولها من العمر ٤٩ سنة وكانت هي آخر من ملك على انكترا من عائلة استوارت الذين كانت بداية احكامهم على مملكة الانكليز سنة ١٦٠٢

الباب الثامن

في ملوك بريتانيا العظمى من عائلة هانوفر

وكان الملك جنس المنفي قد توفي في فرانس سنة ١٧٠١ وخلف ابنا هناك

فذهب له لويس الرابع عشر ملك فرنسا وتوجه ملكاً على انكلترا فلقه شعب
الانكليز بالمدعي اذ كانوا مصممين على عدم قبولهم ملكاً كاثوليكيًا عليهم . وكان
اقرب ورث بروتستانتى للملكة حنة امير الماني من آل هانوفر امه ابنة جيس
الاول وعمره يومئذ ٥٥ سنة فنودي بهذا الامير ملكاً على انكلترا تحت لقب
جورج الاول وهو اول ملك من العائلة الهانوفرية ولم يكن يعرف اللغة الانكليزية
ولاشيئاً عن احوال الملكة التي كان مزماً ان يتقلد زمامها . فصرف اكثر اوقاته
في هانوفر لانه احب وطنه محبة شديدة ولم يكن له ميل ورغبة في السكن في قصر
ملوك الانكليز . وفي ايام هذا الملك حدث جملة حروب مع اسبانيا لانها ارادت
ان تمنع اتصال التجارة الانكليزية مع مملكتها الاميركانية وان تستخلص منها جبل
طارق فلم تنجح ولا في واحدة منها ثم مات سنة ١٧٢٧

وخلفه ابنه جورج الثاني الذي ولد ايضاً في جرمانيا وكان في حياة ابيه
مقلداً لرياسة العساكر الانكليزية . وفي ايامه كانت الحرب مع اسبانيا لا تزال
سائرة على قدم الاسراع فانصر جورج في موقعة ديتنجن ولكنه خسر في موقعة
فونطينوي ثم حارب الفرنسيين لاتحادهم مع اسبانيا وانتصر عليهم . وسنة
١٧٤٥ حاول ابن جيس الثاني ان يعيد اليه تاج آباءه فجهز بجيش قليل
مؤلف من فلاحى اسكتلندا وتقدم الى نحو انكلترا ولكنه لم ينجح في مشروعه
واضطر اخيراً الى الفرار ووقعت جموعة في ايدي الانكليز فقتلوه عن اخرهم .
ثم في سنة ١٧٤٥ انشبت الحروب ثانية بين الفرنسيين والانكليز بسبب
مملكتهم الاميركانية فان كلاً من الدولتين ارادت استخلاص مملكات الدولة
ال اخرى والسيادة في تلك الاقطار . وكان وقتئذ في وزارة انكلترا ولم يت الشهير
بالسياسة وحسن التدبير فجعل انكلترا تحدد مع بروسيا ونساعدها في الحروب
القائمة وقتئذ بينها وبين اوستريا وروسيا بسبب بولونيا وبعض املاك جرمانية
واذ كانت فرنسا من المتحالفين ضد بروسيا التزمت عندما رأت معاضدة انكلترا
لفريدريكوس الكبير ان تزيد قوتها العسكرية في اوروبا لمقاومة المتحالفين ففتح

عن ذاك ضعفتها في اميركا وكان ذلك غاية مراد ولم يت فاعظم الانكليز
الفرصة المناسبة وجرى بين الطرفين عدة وقائع مهولة في اميركا انتصرت فيها
الانكليز واستولت عساكرها على مدينة كويك تحت قيادة الجنرال ولف وعلى
مقاطعتي كندا اللتين كانتا من تملكات فرنسا وبين واضافنها الى املاكها
الكثيرة فصارت كل البلاد المتحدة تملكات انكليزية . وبعد نهاية هذه الحروب
بعدة وجيزة توفي جورج الثاني وله من العمر ٧٧ سنة

ثم قام بعده ابنه جورج الثالث سنة ١٧٦٠ وله من العمر نحو ٢٣ سنة
وكانت احوال المملكة وقتئذ جيدة جداً فترأى عليها مصائب شتى حتى انه
كان خيراً له لو مات يوم تويجه . وكان عاقلاً حكماً ذا سيرة حسنة يعد من
افضل عموم الملوك ولكنه كان عنيداً بهذا المقدار حتى انه كان احياناً كثيرة يرفض
مشورة من كانوا احكم منه . وفي ايامه حدثت الثورة الاميركانية واستغلت تلك
المملكة العظيمة وخضعت طاعة الانكليز كما سيأتي تفصيل ذلك عند ذكر اخبار
دولة اميركا وتظاهرت فرنسا بمساعدة الاميركان ومقاومة الانكليز واغتنمت
اسبانيا ايضاً تلك الفرصة لاستخلاص جبل طارق من ايدي الانكليز فلم ياتها
ذلك بادنى فائدة لمهارة وبراعة واليها اليوت الشجاع المشهور الذي دفع عنها
مصادمة العدو بشرف جليل . وبسبب بعض تعصبات دينية في مدينة لندن
بين الكاثوليكين والبروتستانت حصل نوع من الهيجان بواسطة الحزب فاخذ
البعض يحرق بيوت البعض فكانت ٢٦ حريقاً في وقت واحد في كل اطراف
المدينة . وسنة ١٧٩٨ تظاهرت ايرلاندا بالعصاة وكان السبب في ذلك
استقلالية اميركا وجمهورية فرنسا فهيجنا فيها الرغبة والاشتياق الى الاقتداء بها
ولكن اذ لم يكن بين شعبها روح الحزم والانضمام بسبب اختلاف المذهب ولم
يوافق البروتستانت الكاثوليكين على مشروعهم تحولت تلك السياسة الى قضية
دينية بين الطرفين

وقد اشتهر في ذاك العصر الاميرال نيلسون احد رؤساء العارة الانكليزية

بانتصاراته الكثيرة منها غلبته في ابي قير على العمارة الفرنسية التي جاءت بنابوليون وجيوشه لافتح الديار المصرية والتقدم على الولايات الانكليزية الهندية فوافاهما في ٢١ آب سنة ١٧٩٨ واصطلت نيران الحرب بين الطرفين وكانت القوة متساوية وفي اقل من ست ساعات انتصر عليهم انتصاراً كاملاً ولم يسلم من سفن الفرنسيين التي كانت سبع عشرة قطعة غير اربع فقط فانها فازت بالفرار والبقية أسرت وحُرقت وكان من جلنها مركب الاوربان المعروف بمركب نصف الدنيا فان لهيبه حوّل ظلام الليل الى نهار واذ كانت رجاله في اشد الضحك والخطر ارسل لهم نيلسون القوارب وخلصهم . وفي اثناء هذه المعركة أصيب نيلسون برصاصة في جبهته ولكنها لم تكن قاتلة . وكان هذا الاميرال المذكور من عجائب الدهر ذكاء وفهماً وشجاعة لا يبالي بالخطر ولا يقدر العواقب وقد ارتقى الى هذا المنصب الرفيع بمهارته ودرايته لانه كان من عائلة خاملة الذكر . وما يستحق ان يحكى انه كان بعين واحدة ويد واحدة فتدها في بعض وقائع السابقة وكان من اشد الناس بغضاً للفرنساويين حتى انه اصطنع لنفسه تابوتاً من خشب السفينة المدعوة بنصف الدنيا ووصى ان يدفن به عند موته وهذا من اغرب الامور

وسنة ١٨٠١ اتحدت دولة الدنيارك مع دولة اسوج وبروج على حرب الانكليز مجراً وكان ذلك باتفاق وراي روسيا وفرنسا فجهزت انكلترا عمارة بحرية وارسلتها الى بحر البلطيك تحت رئاسة سارميد پاركر وكان نيلسون حيثئلاً منتقلاً الى الرئاسة الثانية فلما اشرفا على خليج مدينة كوبنهاجن عاصمة الدنيارك وجدا تحصينات قوية جداً برّاً وبحراً تمنعها عن العبور في ذلك الخليج نظراً لكثرة حصونه وقلة مائه فوج سارميد پاركر الاميرال نيلسون ان يتعاطى امر الهجوم فامر نيلسون بفتح البناجر واطلاق النار من بعد ما قسم مراكبه الى فرق ورتب كيفية المعركة فاشتبك القتال بين الفريقين واضطربت نيران الحرب وصعد لهيبها على نوع مهول جداً حتى ان نيلسون عند اجتماعه بولي العهد بعد هذه

الواقعة قال انه في المئة وخمس مواقع التي حضرها لم يشاهد قتالاً مريئاً مثل ذلك القتال نظراً لعدم وجود عمق كافٍ وللتزام المراكب ان تتقدم الى قدام لكي تتمكن من العدو. وما زالت الحرب قائمة على قدم وساق حتى مسّت بعض سفن القاع ولم يعد يمكنها الحركة فحسرت نيلسون في اثناء ذلك ربع قوته ووقع في خطر عظيم فحينئذ رفع له سارهيد ياركر علامة الرجوع خوفاً من حلول الاذى عليه واما نيلسون فلما اخبر بان الرئيس الاول يدعو للانسحاب انتزع النظارة ووضعها على عينه العوراء ووجهها نحو الاشارة وقال اني لا ارى شيئاً مما نقولون فابقوا راية الحرب منتشرة وواظبوا على اشغالك ثم رجع الى ما كان عليه من تشديد الحرب والهجوم على الاعداء حتى اعدم جملة من مراكب الاعداء ونكس راياتهم وضعه احوالهم وبعد انتصاره هذا عليهم عقد معهم صلحاً تحت شروط معلومة. ومن ذلك الوقت ارتفعت منزلة نيلسون ووقعت محبته في قلوب رجال الدولة الانكليزية فسموه لوردًا وقلدوه رياسة الجبر العومية. ثم توفي هذا البطل سنة ١٨٠٥ في حرب ترافلكار الشهيرة عند ما تعاضدت فرانس واسبانيا ضد انكلترا فالتقاهما نيلسون بسبع وعشرين قطعة حربية بينما كانت عمارة العدو ٤٠ قطعة. وكان نيلسون قبل وقوع الحرب قد دخل الى غرفته فكسب وصيته ثم صعد الى ظهر المراكب واعطى اشارة لباقي ضباط المراكب بمجئهم على الحرب ويعلمهم بان انكلترا تنتظر في ذلك اليوم من كل رجل من رجالها ان يقوم بحق خدمته ويعمل ما يتوجب عليه ثم امر باطلاق القنابر والمدافع فاطلقت في الحال واشتد بين الفريقين القتال وكان نيلسون لسوء حظ لا يلبس كل نياشينه فجلب عليه ذلك مراقبة خصوصية من طرف الاعداء. وكان بجانبه بارجيه سفينة فرساوية على مسافة عشرين ذراعاً فقط فاطلق عليه احد جنودها رصاصة اصابت ظهره فكسرت العظم وجرحته جرحاً بليغاً فوقع مغشياً عليه فنقلوه الى غرفته ثم افاق وهو على اخر رمق فاستدعى القبطان اليه فلم يحضر الا بعد خمسين دقيقة لانه كان منهمكاً في ادارة الحرب ولم يمكنه ان يترك مركزه الا بعد نهاية المعركة

فدخل عليه ليهبته على الانتصار التام الذي انتصرته انكلترا في ذلك اليوم
فسأله نيلسون ان يعلمه عن عدد المراكب الماخوذة من الاعداء واذ لم يكن
بعد واقفاً على حقيقة عددها قال ليست هي باقل من ١٤ او ١٥ فاجاب
نيلسون جيداً ولكنني كنت اشترطت على نفسي عشرين مركباً وبعد ذلك الوقت
بساعتين اسلم الروح وهو يقول اني لمرضى ومسرور ان تمت ما علي . ومن
ذلك الوقت تلاشت قوة نابوليون البحرية ولم يبق لها قائم بعد

ولكن مع ذلك لم تنزل انكلترا في خوف واحساب من سطوة ذلك الجبار
العنيد فكانت تراقب خطواته وتنهر كل فرصة لتضعفه وتكسر شوكة فصاعدت
ملك نابولي عليه براً وخوفاً من ان نابوليون يستعين عليها بمراكب الديمارك
ارسلت عمارة قوية فضربت كوتنهاجن واخذت مراكبها الحربية رهينة بشرط
انها ترجعها لها عند ما يتم الصلح العام في اوروبا

فبينما كانت انكلترا تكتسب مجداً وفخراً من خارج بواسطة انتصاراتها
العديدة وتوسيع ملكاتها ونوطيد قواعد حكمها في الهند كانت من داخل تزداد
نموً ونجاحاً وغنى بواسطة تقدم المعامل وسائر الصنائع فصار يمكنها غزل القطن
وبعده باثمان بخسة اذ لم يمكن لاحد غيرها ان يسابقها على ذلك فصارت رئيسة
سوق العالم في السطوة والتجارة هذا فضلاً عن تقدمها بالاختراعات الميكانيكية
وبالاستخراجات الكيماوية وفي اصلاح الطرق الكثيرة وايجاد العربات العموية
لتسهيل منقولاتها في داخل البلاد وفي فتح الترع الكثيرة حتى انه في ظرف
اربعين سنة فتحت مئة وخمسة وستين ترعة هذا فضلاً عن عزمها الشديد في
امتداد علومها واكتشافاتها الجديدة فانها اكتشفت شطوط اوستراليا وزيلاندا
الجديدة التي قصدها كثير من الناس سنة ١٧٨٨ وسكوها وغير ذلك من
البلاد . واما العلوم والفنون فكانت سوقها في رواج لا مزيد عليه ولا سيما علم
الهيئة الذي بواسطة نظارة الفيلسوف هرشل تقدم تقدماً بليغاً وكذلك علم
الكيمياء بواسطة بريستلي وكافنديش . واما النقش والتصوير والشعر فقد بلغت

درجة سامية وما يستحق الذكر أكثر من كل ذلك ابطالها التجارة بالعبيد
ولنرجع الآن الى ما كنا بصدد من اخبار الملك جورج المذكور فنقول انه
كان قد اعتراه اخلال في عقله ابتداءً في سنة ١٧٨٨ ودام معه عدة شهور ثم
اشتد عليه الحال سنة ١٨٠٤ وما زال في ازدياد حتى اخل بالكلية ولم يعد يعلم
ما هو جارٍ في المملكة فتولج ادارة الملك ابنه الأكبر . وفي زمن وكاؤه كسرت
انكلترا شوكة بوناپارت باتحاد بعض دول اوروبا ولا سيما في واقعة واترلو
الشهيرة التي بها افرض حكم نابوليون الاول وكان وقتئذ قائد جيوش الانكليز
الدوك وليبتون الشهير الذي ذاع صيته واشهر في اقطار العالم بالبسالة والادارة
الحريية والانتصارات العديدة في بلاد الهند واوروبا ولا سيما في واقعة واترلو
المذكورة . ثم توج هذا الملك سنة ١٨٣٠ تحت اسم جورج الرابع ولم يحدث في
ايامه من الامور المهمة سوى مداخلة انكلترا مع فرنسا وروسيا في اطفاء نيران
الحرب التي كانت متقدة بين الدولة العثمانية والدولة اليونانية عندما نهضت
طالبة استقلالها . وسنة ١٨٣٠ توفي هذا الملك وخلفه ولم الرابع وفي ايامه
اتسعت دائرة المعاملات التجارية وتحسنت احكام المملكة وصدرت نظمات
جديدة مستحسنة اوقت الحكومة من الثورات الداخلية . وفي السنة الاولى من
حكمه صار انشاء السكة الحديدية الاولى بين ليڤربول ومانشستر . وسنة ١٨٣٤
صدر قرار المجلس الكبير باعناق عبيد الهند الغربية واعطاء ساداتهم على سبيل
التمويض مبلغاً قدره ٢٠ مليوناً من الليرات الانكليزية

ثم خلف ولم الرابع فيكتوريا الملكة الحالية وذلك سنة ١٨٣٧ وهي ابنة
الدوك كيت الان الرابع لجورج الثالث تزوجت في ١٠ شباط سنة ١٨٤٠
بالبرنس البرت من جرمانيا . وفي ايامها حدث حيلة حركات في تملكات انكلترا
لا سيما في الهند لم تنل اصحاب المقاصد والغايات فيها ما رجا بل اخذت هذه
الملكة نيرانها بالنفوة الفاتكة وامدت سطونها وهبتها في كل جهاتها . وكذلك
اشهرت الحرب على بلاد افغانستان واستولت عليها بعد وقائع هائلة . وقد

اشتركت أيضاً في محاربة الدولة المصرية وإخراجها من الديار الشامية سنة ١٨٤٠. وفي سني ١٨٤٠ و ١٨٤١ حاربت بلاد الصين وفُتحت الباب لدخول التجارة الانكليزية اليها. ثم حاربت الروسيين في الفرم سنة ١٨٥٤ واستظهرت عليهم كما ذكرنا ذلك بأكثر تطويل في اخبار الدولة العثمانية. واخضعت بلاد الهند عندما عصت عليها سنة ١٨٥٧ واستلمت زمام حكمها من ايدي الشراكة التي كان قد صار لها فوق المئة سنة مسئولية زمامها وبذلك انتظمت الاحوال نظاماً لا يشوبه فساد ونودي باسم فيكتوريا سلطانة الهند. ثم حاربت ثانية ملك الصين واجرت معه معاهدات افضل من الاولى يمكنها بواسطتها ان توصل تجارتها الى اقصى تلك البلاد وتزيد غناها. ثم حاربت المصريين وقت الثورة العراقية خوفاً على طريق الهند ودخلت مصر سنة ١٨٨٢ وما زالت فيها الى الآن ساعية في اصلاح شؤونها ولكن سنيارحها مجال ايجاد الراحة فيها وبالاجمال ان احوال انكلترا في ايام هذه المملكة في غاية النجاح والاقبال من داخل ومن خارج ولذلك ترى رعاياها يحبونها ويعتبرونها وبشون عليها وهي في الواقع تستحق ان تنظم في سلك اكابر الملوك العظام نظراً لحكمتها وجودة رايها وحسن سياستها

الباب التاسع

في ذكر مقاطعة ويلس اي غال

ان الذي يزور هذه المقاطعة ويختلط مع شعبها لا يخطر في باله قط انه موجود في قسم من بريطانيا العظمى نظراً لاختلاف اسماء سكانها ولغتها عن اسماء الانكليز ولغتهم ولكن اكثرهم في هذه الايام صاروا يتكلمون اللغة الانكليزية حتي ان لغتهم الاصلية كادت الآن تزول وتصحل وهي اشبه باللغتين الايرلاندية

والغالية فهذا أكبر دليل وبرهان بان اهلها واهل ايرلاندا او جبال اسكتلاندا هم من جنس واحد . واما تاريخ ويلس القديم فهو مجهول غير معروف . ولما دخل الرومانيون الى بريطانيا كان سكان جبال ويلس اناسا اشداء غلاظ الرقاب ماهرين في استعمال ضرب النبت فدافعوا عن جبالهم ومواطنهم بشجاعة وبسالة لا مزيد عليها فلم يتمكن الرومانيون من الاستيلاء عليهم . ولما اتى السكسونيون للحرب انكلترا اخضعوها باسرها ما عدا ويلس فانهم لم يتمكنوا منها الا على جانب صغير فقط وبقي القسم الأكبر منها مستقلاً تحت حكم امراءهم واشراقيهم كما فعل سلفاؤهم في زمن الرومانيين فيظهر ان اولئك الامراء كانوا ساكنين في قصور منيعة وحصينة كان الاهالي يحامون ويدافعون عن انفسهم فيها في زمن الحرب . ولم يزل اثار بعضها باقية الى الآن . وجاء الى ويلس في تلك الازمنة قوم من الغرباء فتوطنوا فيها واذ كانوا من الشعراء نظمو اشعاراً نفيسة وقصصاً قصصاً تضمن غارات ووقائع امراء وابطال ويلس فكان عامة الشعب يسر ويضطرب من استماعها لتضمنها اخبار وحروب قوادهم ومواقعهم المهولة الدموية . وكانوا يدعون اولئك الشعراء الى قصور الامراء فيعيشون بكل رفاهية وسرور . وقد توصل اهل ويلس الى درجة قبيحة بهذا المقدار حتى انهم كانوا يدعون النبوة نظراً لسطوتهم وقوة بأسهم وشجاعته

ولا يخفى ان وجود عشيرة صغيرة مستقلة في جوار مملكة ذات شوكة عظيمة ما يصعب احتمالها عليها فلذلك رأت ملوك انكلترا ان السكوت عن هذه المقاطعة وعدم ادخالها تحت الطاعة والانتباد ما يشين شرفها ويحط مقام عظمها فصممت على محاربتها وارسلت جيشاً عرمرماً لتناولها واخضاعها فلم تتمكن منها الى سنة ١٢٥٨ حين كان ادورد الاول ملكاً على انكلترا ولوين اميراً على ويلس . فجهز ادورد عسكرياً جراراً للحرب وويلس واذ كانت شعراء ويلس يحبون الحروب الشديدة هيجوا امراء البلاد ليظهروا نشاطهم وشجاعته في تلك الوقائع وكان احد الشعراء قد اخبر لوين المذكور بانه سوف يسود ويملك على

جزيرة بريطانيا ولذلك عندما اشرفت مواكب الملك ادورد على تلك الاطراف خرج للفناء الامير لوبن بعسكر قليل فانكسر وقتل ثم قام مكانه اخوه داود فدافع عن وطنه بكل بسالة وبعد عدة وقائع انهزمت جموعه وتفرقت اما هو فوقع في اسر الملك ادورد فامر بشنقه . وبموته انقرضت سلالة امراء ويلس وزالت استقلاليتها وصارت ابالة انكليزية من ذلك اليوم . وكان الملك ادورد قد غضب على اوائك الشعراء بسبب تهيجهم الشعب ضده فامر بجمعهم وقتلهم على ما قبل . واما الملك الذي قام بعده فكان مواده في ويلس واعطي لقب برنس اوف ويلس المعروف بفرنس دي غال ومن ذلك الوقت الى الان صار هذا الاسم لقباً لاهبار ملوك انكلترا . واهل ويلس الآن يعتنون بزراعة ارضهم وبالصنائع المختلفة وفي بلادهم بعض معادن ثمينة من الفحم والحديد

الباب العاشر

في تلميح اخبار اسكوتلاندا اي اسكوتسيا

ان سكان اسكوتلاندا على ما يستفاد من التواريخ كانوا من الامة الغالية والمظنون انهم من نفس الشعب الذي سكن بريطانيا وويلس وارلاندا في الازمنة القديمة وكانوا اصحاب سطوة وبأس حتى انهم قاوموا الرومانيين وحاربوهم عند هجومهم على بلادهم ولما تغلبت الرومان عليهم لم يتمكن قط من اخضاع اهالي الجبال وكانوا مضايقون الرومانيين بهذا المقدار حتى انهم التزموا باقامة سور من نواحي صلوى فريث الى نهر التين ليتخلصوا من مضايقتهم ومع كل هذه الاحياطات لم يكن ذلك القوم كافياً لمنع تعديات احدهم على الآخر . وفي الجبل الثالث او الرابع اتى قوم من الغوثيين من اوروبا واستوطنوا في اسكوتلاندا في الاراضي الواطئة واستعملوا الزراعة وكانوا يعيشون منها . واما

الاسكونسيون فكانت مساكنهم في الجبال وكانت معيشتهم بواسطة القنص وهكذا
انقسم الشعب الى اهالي الجبل واهالي الوطا وكثيراً ما وقع بينهما حروب
ومنازعات ولم يزالوا على هذه الحالة نوداً الى يومنا هذا

فقبل انه سنة ٨٢٩ نهض كيث الثاني الذي كان من قواد اهل الجبال
وحارب عشيرة البكت واخضعها وصار ملكاً على اسكونلاندا وكان هو اول من
استولى على تلك المملكة ومن ذلك الوقت الى زمن ادورد الاول ملك انكلترا
قام ملوك كثيرون ولكن ليس في تاريخهم شيء مهم

وقد تقدم القول في تاريخ انكلترا ان ملكها ادورد اندي اخضع ويلس
اثار حرباً على الاسكونسيين وجهز جيشاً لاختضاع ما بقي من الابالات العاصية
في اسكونلاندا وكيف مات قبل انام قصده وذكرنا ايضاً عن كسرة ابنه ادورد
الثاني في موقعة بانوكبرن على يد روبرت بروس سنة ١٢١٣ وكانت تلك
المحادثة سبباً لتحرير اسكونلاندا التي كانت ملوك انكلترا تهددها . فن ذلك
العصر الى زمن جمس الخامس ليس في تاريخ اسكونلاندا سوى حوادث حروب
اهلية ومقاتلات شديدة مع انكلترا . اما جلوس جمس المذكور على كرسي المملكة
فكان سنة ١٥١٢ وله من العمر ١٢ سنة . وفي اخرايامه مقنة الشعب ورذلة حتى لم
يعد احد بطمع له امراً . فشقى ذلك عليه وانتهت به الحال الى انه امارت نفسه
جوعاً وعطشاً وهو ابن ٢١ سنة . وكان للذكور ابنة اسمها ماري ولدت قبل
موته بايام يسيرة فسميت بعد ابيها ملكة نحت وكالة امها التي كانت قد ارسلتها
الى فرانساً للتهديب والتعليم . فانهت العلوم والاداب وبرعت فيها وفضلاً عن
ذلك كانت على جانب عظيم من الجمال حتى قبل انها كانت اجمل نساء
عصرها . ولما بلغت سن الست عشرة تزوجت بامير فرنساوي صار ملكاً على
فرانساً بعد زواجها به بسنة واحدة وهو المعروف بفرنسيس الثاني واسوء حظها
لم تطل حياة زوجها اكثر من ثمانية عشر شهراً حتى توفي فالتزمت ان ترجع الى
اسكونلاندا حيث لبست تاج ايها المحفوظ لها

ثم تزوجت برجل من اقاربها يدعى لورد هنري دارنلي فغار عليها وانتمها
 برجل ايطالياني يسمي دافيد رينسيو كان مستخدماً عندها بوظيفة معتمد وكان
 اسرار فاستدعى به ذات يوم وقتله بحضورها . وانفق بعد ذلك بايام قليلة انه
 مرض مرضاً شديداً فنقلته من سرايتها الى قصر منفرد خارج المدينة كان ملغوماً
 بالبارود ففي صباح ٩ شباط سنة ١٥٦٧ اشتعل ذلك القصر بالنار فالتهب
 البارود واقتلع ذلك البيت من فيه فكانت جنة الملك تمزقة ومطروحة في احد
 المحمول . فاستعظم الشعب ذلك الامر وانتموا به اللورد بوثريل الذي كان
 تزوج بماري بعد تلك الحادثة بثلاثة اشهر وانه لم يقتل الملك الا بسعيه . فقام
 عليه البعض وارادوا ان يقتلوه فهرب الى نورمنديا حيث مات بعد عشرين سنين .
 ومن ذلك اليوم وقعت بغضة ماري في قلوب الناس ولا سيما لتسكها بالمذهب
 الكاثوليكي بينما كان الاصلاح قد امتد بين الاهالي فقاموا عليها وانفقوا على خلعيها
 ولما علمت منهم ذلك بادرت في الحال وقصدت انكلترا خوفاً على نفسها من
 القتل والتجات الى الملكة اليزابات قريبتها ولسوء حظها عاملتها اليزابات
 بنس المعاملة فانها قبضت عليها واقتنها تحت الترسيم نحو ١٩ سنة ثم قتلها
 بعد ذلك

وكان لماري ولد من اللورد دارنلي خلفها على ملك اسكوتلاندا تحت اسم
 جس السادس . وبعد وفاة الملكة اليزابات صار ملكاً على انكلترا ايضاً تحت
 اسم جس الاول فكان محباً للعلوم وانتشار المعارف واقام عدة مدارس في
 اسكوتلاندا لم تزل آخذة في التقدم الى عهدنا هذا . واستمرت اسكوتلاندا من
 سنة ١٦٠٢ الى هذه الايام خاضعة لاحكام انكلترا مع انها عصت احياناً وحاربت
 حروباً عديدة لاسترجاع الملك الى عائلة استوارت ولكنها لم تنجح

الباب الحادي عشر

في تلخيص اخبار ايرلندا

ان تاريخ ايرلندا او ايرن الخضراء كما تسمى احياناً هو مملوء من الحوادث
 اللأدة . ولكننا نقول بوجه الاختصار ان سكانها الاولين كانوا من الكلتيين
 الأشداء نظير البريطانيين الذين كانوا يقاتلون بالنباييت ويميلون الى القتال
 اكثر من التعم والرفاهية . وكانوا ينقسمون الى عشائر عديدة ويدعون رؤسائهم
 ملوكاً وكانت ملوكهم في نفور ومشاجرات مستديمة بعضهم مع بعض . اما ديانتهم
 الاصلية فنظير بقية العشائر الكلتية كديانة الدرويد ولكن سنة ٥٥٠ اناهم
 رسول مسيحي اسمه پتريك وكان رجلاً نقياً حكماً فاجبوه واشفقوه واقبلوا منه
 الديانة المسيحية وابتدوا يتدينون بالتدرج وعاش پتريك المذكور عمراً طويلاً
 ومات عندهم وبعد مائة شرع الناس ينسبون اليه اعمالاً عجائبية الى انهم اخيراً
 حسبه قديساً ويزعمون حتى الآن انه يجاي عن صواح بلادهم في السماء
 ويفرزون يوماً في كل سنة لاجل تقديم الصلاة والاکرام له فيذهبون الى الكنيسة
 ويشربون الخمر ويقتلون بعضهم مع بعض بالنباييت . ومن جملة توهاتهم الغربية
 الباقية الى هذا اليوم اعتقادهم بان القديس المذكور قد اهلك واباد جميع
 الافاعي والدبابات المضرّة التي كانت في ايرلندا واما السبب الذي جعلهم
 يعتقدون بذلك فهو عدم وجود شيء من تلك الحيوانات عندهم حتى ان
 الفلاحين الناطقين بقرب بحيرة كلآرني يعتقدون بخرافة مضحكة عن هذا القديس
 وهي انه في اواخر حياة پتريك هذا وجدت حبة عظيمة في تلك البلاد تمنعت
 عن النزاع مع باقي الدبابات المذكورة فحاولها پتريك زمناً طويلاً ولم يقدر عليها .
 وكانت تلك الحبة تتردد كثيراً الى شواطئ بحيرة كلآرني فلما اعياه امرها احضر

صندوقاً كبيراً من خشب السديان ذا اقفال قوية وجاء به الى تلك البحيرة ولما اقترب من تلك الحية حباها بالسلام ولاطمها بالكلام وقال لها قد اتيتك بهذا البيت الجميل لتسكني فيه وتعيشي باقي عمرك في ارغد عيش واحسن حال واما الحية فلم تسلك عليها تلك الحيلة ولكنها اذ لم ترد ان تهينه وتصدّه نظراً لصدقه المظاهرة اعذرت قائلة ان الصندوق لا يسعها فأكد لها بأنه كافٍ لسكنها ثم خاطبها قائلاً ان كان عندك يا عزيزتي ادنى شبهة في كلامي فادخلي وجربي واما هي فلكي تغش وتظهر خضوعها له دخلت ذاك الصندوق ناركة فبراطاً واكثر من ذنبها خارج الصندوق وقالت ألم اقل لك انه لا يسعني فقال لها احترصي على ذنبك يا عزيزتي ثم اطبق الغطاء عليها فاضطرت ان تجذب ذنبها الى داخل الصندوق فعند ذلك قفله وحمله على كتفه فصرخت الحية اطلقني فقال لها ملاً اني ساطلقك غداً ثم القى الصندوق في البحيرة ففرق وذهب القديس الى حال سبيله . ومن العجب ان الصيادين المقيمين بقرب تلك البحيرة ينفلون هذه الخرافة الغريبة ويعتقدونها ويؤكدون بانهم ما زالوا يسمعون صوت الحية الى هذه الايام وهي تقول ألم يأت الغد بعد ألم يأت الغد بعد

وكان هنري الثامن ملك انكلترا قد حارب ايرلاندا واخضعها ولم تنزل الى الآن تحت حكم الانكليز ولكنهم لم يلتفتوا اليها كما يجب الى زمن جيمس الاول فانه شرع في اصلاح حاله شعبها وارباب الشرائع والحكام في ايامنا هذه قد اجتهدوا ايضاً في تمدنها وتحسين حالها

الفصل العاشر

في وصف مملكة البلجيك وتاريخها

هذه المملكة يحدها شمالاً مملكة هولاندا . وشرقاً بلاد جرمانيا . وجنوباً
فرانسا . وغرباً البحر الشمالي . اما ارض هذه البلاد فمتبسطة وهادئة معتدل
وفيها كثير من الاشجار المتنوعة والرياض والمزارع المخصبة وبها عدة اودية
وجبال وفي ارضها كثير من معادن الرصاص والحديد وحجر الفحم والزنك .
ومناطق البلاط الاسود والرخام وغير ذلك . ومن حواصلها القمح والشعير
والكتان . والصنائع فيها رائجة من ذلك الاقمشة الجميدة والجوخ والصوف . وعدد
اهل هذه المملكة خمسة ملايين اكثرهم لاتينيون . وبالنسبة الى مساحة البلاد
لا يوجد مملكة في العالم مزدهجة بالناس مثل هذه المملكة . وحكمها من نوع الملكي
المفيد . ولاهها شهرة عظيمة في التجارة وصنع الاقمشة المتنوعة واستخراج السكر
وعمل البيرة وهم اشداء الباس لطفاء الطباع يميلون الى اكتساب العلوم واتقان
الصنائع ويعتنون بالفلاحة والزراعة

واعظم مدن هذه المملكة مدينة بروكسيل وهي قاعدة البلاد وعدد اهلها
نحو مئة الف نسمة وفيها مكتبة عظيمة تحتوي على جميع انواع العلوم والفنون
تنيف عن ١٠٠ الف مجلد . وعلى اربعة فرائخ الى الجنوب الشرقي منها قرية
واترلو التي انهزم فيها نابوليون الاول وكسره المتعاهدون مجنودهم بعد موقعة
سنة ١٨١٥ كما مر

اما تاريخ هذه البلاد فلا يحتاج الى التطويل لنصر عهده وقلة اهميته لان
المملكة لم تناس وتستقل الا من سنة ١٨٣٠ فقط . وكانت قبل ذلك المهد

تابعة ممالك اخرى . فان يوليوس قيصر كان قد ضمها الى احد الاقسام التي قسم فرانسوا اليها عند اسبيلانو عليها ومكنت في ايدي الرومانيين الى سنة ٤٠٩ . ولما دخلت الافرنك الى فرانسوا كانت بلجيكا وقتئذ تابعة سلطنتهم التي كانت ممتدة في ايام الملك كلوفيس من حدود الرين الى اللوار . وعقب توفي هذا الملك سنة ٥١١ تقاسمها بنوه الاربعة وتناولها خلفاؤهم الى سنة ٨٠٠ حين ضمها شارلمان وجعلها قسما من سلطنته . وبعد انفراض سلطنته انقسمت بلاد البلجيك الى جملة امريات اخصها امرية برابان فانها كانت اعظم الجميع ثم اخذت في التمزق والامتداد يوما بعد يوم حتى ابتلعت باقي الامريات وانحصرت البلاد فيها . وبسبب الوراثة انتقلت سنة ١٤٠٦ الى العائلة البورغونية ومنها سنة ١٤٧٧ الى عائلة اوستريا الملكية بسبب الزواج وبعد ذلك بقليل صارت من املاك سلطنة شارلكان الذي قسمها الى ١٧ ولاية متحدة تعرف بدائرة بورغونيا

وبعد شارلكان تناول البلجيك ورثته ملوك اسبانيا وبقيت في ايديهم الى سنة ١٧١٤ ثم رجعت الى اوستريا . واستمرت تحت احكامها الى سنة ١٧٩٣ حين دخلت اليها جيوش الجمهورية الفرنسية وامتلكتها وقسمتها الى ٩ مقاطعات ولبثت في يدها الى زمن سقوط نابوليون الاول سنة ١٨١٥ عند ما انتقلت الدول المتحدة على ضم بلجيكا وهولاندا معا . فانضمنا تحت رئاسة غليوم الاول ملك هولاندا وصارتا دولة واحدة معروفة بمملكة البلاد الواطية ولكن اذ لم يحصل الاتفاق في ذلك الاتحاد بين الفريقين انتهز اهالي بلجيكا فرصة طرد البوربونيين من فرانسوا سنة ١٨٣٠ فرفعوا راية العصيان على الحكومة الهولاندية وحاربوها وجرى بين الطرفين عدة وقائع مهلكة افضت اخيرا الى انفصال احداها عن الاخرى . ومن ذلك الوقت صارت البلجيك دولة مستقلة بذاتها وكان اول من تولى عليها ملكا ليوبولد الاول امير ساكس كوبورج سنة ١٨٣١ ثم خلفه ابنه ليوبولد الثاني سنة ١٨٦٥ وهو الملك الحالي

الفصل الحادي عشر

في وصف هولاندا المعروفة ببلاد الفلمنك وتاريخها

هذه البلاد مجدها شمالاً وغرباً بحر جرمانيا وشرقاً هانوفر وبروسيا الرينية وجنوباً مملكة بلجيكا. ويقال لهذه المملكة ايضاً البلاد الواطية سميت بذلك لوطوا أرضها عن مساحة البحر. ويخترقها نهر الرين في عدة أماكن وفيها انهر عظيمة ومجاري كثيرة تسلك فيها السفن الصغيرة في أيام الصيف ولكنها تجلد في فصل الشتاء. أما هواء هذه البلاد فردي على الغلب لكثرة الجبرات والانهر التي تمر فيها ولولا مجاورتها البحر ونظافة سكانها لكان مضرًا للبدن. وفيها كثير من المروج والودية المستظرفة البهجة والمراعي الخصبة للمواشي التي يتخذون من البانها السم والجبن والزبدة. ومن محصولاتها القمح والشعير والقوة والدخان. وفي أرضها كثير من معادن الحديد وغيره. وفيها كراخين ومعامل كثيرة يصنع بها قماش الكتان والصوف والحريز والجوخ والقطن والورق. وعدد أهلها بحسب تعداد سنة ١٨٧٠ بلغ ٣ ملايين و٦١٨ ألفاً أكثرهم من البروتستانت. ولهذه المملكة املاك خارجية كثيرة في اسيا وجزائر البحر وافريقية وامبركا اخصها في الهند الشرقية يبلغ عدد سكانها نحو ٢٢ مليوناً ونصفاً

وأهل هذه المملكة بوجه الاحمال من اهل النخاء والكرم وأكثرهم مغرمون بشرب الدخان وموصوفون بالشجاعة والظنونة وعمل الخير. ولهم رغبة كاثية في المطالعات والتعليم حتى ان أكثر شبانهم على جانب عظيم من التهذيب والمعرفة لاجتهادهم وكثرة مدارسهم. وحكمهم من نوع الملكي المتبدد. ومن اعظم مدن هذه المملكة مدينة امستردام وهي مدينة ظريفة ذات ميناء حسن واسواق جميلة مبنية

على راس خليج وعدد سكانها ٢٢٠ ألف نسمة وكانت قديماً من اشهر مدائن الارض في التجارة . ومدينة هاي وهي قاعدة البلاد ومقر كرسي الملك واهلها يبلغون نحو ٧٠ ألف نفس

اما تاريخ هولندا فهو سهل المناولة لعدم قدميته واهميته وكان الرومانيون يسمون بلاد الفلنك بجزائر الباناتيين نسبة الى قبيلة جاءت قديماً اليها وسكنت فيها حتى انه في ايام يوليوس قيصر اشتهرت وصارت امة عظيمة . وكانت قبل دخول الناس اليها مهجورة تغطيها المياه ستة اشهر في السنة وفي السنة الاخرى يكثر فيها العشب والنبات فتصير اراضيها رطبة ومضرة الى الغاية . فعند دخول الناس اليها شرعوا في بناء سدود عظيمة في بعض الاماكن لوقاية ارضها من الفيضان عند علو المد فاخذوا بها بصطح بهذه الواسطة ثم قصدها بعد ذلك قبائل اخر كالفريزانيين والبروكناريين وانضموا الى الباناتيين اي الهولانديين واتخذوها لهم مسكناً . ففي الجيل الثامن لما كانت امة الافرنك مستولية على فرانساً حارب ملكها شارل مارتل هولاندا فاتصر عليها واخضعها . وفي ايام شارلمان صارت جزءاً من املاك سلطنة الفرنجة وادخل اليها الديانة النصرانية . ولكن لضعف خلفاء شارلمان ولازدياد سطوة الاشراف حسب روح ذلك العصر انقسمت هولندا الى ١٧ قسماً كل قسم منها تناولة امير واستقل به . ففيها كانت امرية الفلدرين وامريات برابان ولوكرمبورج ولينبورج واسقفينا غرونينجين واوترخت وغيرها . واستمر حال البلاد على هذا المنوال الى الجيل الخامس عشر حين ضمها معاً فيليب الثالث الملقب بالصالح احد امراء بورغونيا وتناولها بعده ابنه كارلوس الملقب بالجسور

وفي سنة ١٤٧٧ تناول امرية بورغونيا ماريا ابنة كارلوس الجسور وورثت جميع املاك ايها . وكان لويس الحادي عشر ملك فرانساً قد صم يومئذ على ان يغلب على تلك الامرية ويضمها الى مملكته واذ كانت رعايا ماريا المذكورة غير متفادة اليها ورافعة راية الخروج عن طاعتها خافت من عواقب الامور

وطلبت ان تزوج بن يقدر على حمايتها فتزوجت بمكسميليان اريشودوك
 اوستريا وبسبب هذا الاتحاد انتقل الى عائلة اوستريا الملكية جميع املاك وحقوق
 امراء بورغونيا ومن جراء ذلك وقعت بينها وبين فرانسا الخصومات والفتن
 التي لم تخمد نارها الا بعد عدة اجيال . ولكن بعد توفي الامبراطور شرككان
 انتقلت هولاندا الى ورثته في اسبانيا واستمرت تحت تسلطهم مدة طويلة . ولما
 عول فيليب الثاني ملك اسبانيا ان يلاشي مذهب البروتستانت الذي كان
 منشرا وممتدا في بلاد الفلمنك ساء ذلك الاهالي وصمموا على خلع طاعة
 الاسبانول فاتحد سبع من ولاياتها سنة ١٥٧٩ ونادوا بالمشيخة وقاموا
 الاسبانوليون ببسالة لا مزيد عليها وحرروا انفسهم واستقلوا ببلادهم . ولما كان
 الاسبانوليون لا يفترون عن مقاومة الفلمنكيين طمعا باخضاعهم والانتقام منهم
 كانت الحروب بين الطرفين متصلة فالتزم الهولانديون ان يستنجدوا بالانكليز
 ويطلبوا مساعدتهم في ايام المأساة البصابت فارسلت لمعونتهم عارة بحرية
 مشحونة بالمهمات والعاكر الحربية فالتفت بالعاراة الاسبانولية في بوغاز قادس
 فحاربتها وانتصرت عليها واستولت على المدينة عنوة سنة ١٥٩٧ . وسنة ١٦٠٠
 حاربوا النمساويين وفازوا عليهم في نيوبورت وغنموا منهم غنائم جسيمة ومع انهم
 كابدوا مشقات واهوالا شديدة وفقدوا رئيسهم وليم برنس اورانج نجحوا في نوال
 مقاصدهم حتى التزمت اسبانيا والنمسا ان تقررا لهم باستقلاليتهم اقرارا نهائيا في
 مصالحة وستفاليا سنة ١٦٤٨

وكان يومئذ الهولانديون في رفاهية وعيش رغيد وتجارهم في اتساع ونجاح
 حتى ان مدينة انتورب كانت تعد في ذلك الوقت كاعظم مدائن العالم في
 التجارة والشهرة ولكن بسبب الحروب المار ذكرها التزم تجار هذه المدينة ان
 ينتقلوا الى امستردام ويجعلوها مركزا لهم فكان ذلك سببا لتقدمها . وكان
 للهولانديين عزم واقدام غريبان في جميع اعالمهم . وقوة وشجاعة عظيمتان في
 حروبهم . فكانوا اعظم دولة اوروبية في النجاح والاقبال وتقدم التجارة اذ اقتنوا

اثار البورتوغاليين في اسفارهم الى الصين والهند واستولوا على جملة اراضي فيها ثم تبعوهم ايضاً الى افطار قارة اميركا وكادوا يستخلصون منهم مملكة برازيل . وكانت احوالهم الداخلية مع كل ذلك في تقدم وارتقاء وعمارتهم البحرية في ازدياد واقتدار فحسدتهم اكثر الدول وخافهم بعض الملوك وقد وقع بينهم وبين الانكليز عدة وقائع بحرية فكانوا يصادمونهم بنوع غريب حتى كان الانكليز بكل صعوبة يستظهرون عليهم في بعض الاحيان

ولما نشأت حروب الوراثة الاسبانيولية في اوروبا وكانت فرنسا ساعية في توسيع دائرة اراضيها عند الهولنديون مع الانكليز والاسوجيين اتحاداً على مقاومتها وهو المعروف بالاتحاد الثلاثي فالتزم لويس الرابع عشر ملك فرنسا ان يتوقف عن عزمه ويجري مخابرة الصلح مع باقي الدول فتمت شروطه في اكنسلاشابل سنة ١٦٦٨ وبموجبها ترك لفرنسا جميع الاراضي التي كانت امتلكها الى ذلك الوقت واشترط عليها ان تتنازل عن كل دعاويها بالولايات الاسبانيولية . ولكن اذ كانت بغية الملك لويس الانتقام من هولندا على ما بدا منها في مقاومتها له سعى في حل ذلك الاتحاد المذكور واخذ يستميل انكلترا اليه حتى استجلب خاطر ملكها كارلوس الثاني نحوه بعدما غره بالدرهم الجزيلة فنهض لمعونه وحارب معه الفلمنكيين براً وبحراً واضروا بهم ضرراً جسيماً وربما كانوا ابادوهم لو لم يتصر لهم امبراطور جرمانيا ومنتخب براندنبورج وملك اسبانيا . ولكن اذ لم يكن شعب انكلترا راضياً باعمال الملك كارلوس باتحاده مع فرنسا على حرب الهولنديين نهض المجلس الكبير في السنة التالية وقاوم الملك على صنيعه المذموم والزمه ان ينحجب عن ساحة القتال فانحجب من يومه واعتزل وبعد ذلك انسحبت فرنسا ايضاً

وسنة ١٧٩٥ استولى على هولندا المشيخة الفرنسية وقلبها بمشيخة باناف .

ولما جلس نابوليون الاول امبراطوراً على كرسي مملكة فرنسا اطلق عليها لقب مملكة سنة ١٨٠٦ بعد ما اقام اخاه لويس بوناپارت ملكاً على كرسيها .

وسنة ١٨١٠ انضمت الى فرنسا وصارت قسماً من املاكها فتعطل منجرها ونوقنت حركتها فانتهزت الانكليز تلك الفرصة واستولت على املاكها الخارجية ولكن عند سقوط نابليون سنة ١٨١٤ حصل لهولاندا الفرج من ذلك الاسر ورجع اليها براس اورانج الذي هرب منها سنة ١٨٠٥ فضم اليه بلاد البليج ونسي على المملكتين ملكاً فحت لقب غلبوم الاول ودُعيت البلاد من ذلك اليوم مملكة البلاد الواطية . فارجع الانكليز حينئذٍ للهولانديين كل املاكهم الخارجية التي كانوا استولوا عليها ما عدا راس الرجاء الصالح وسيلان وغيانا

وسنة ١٨٢١ حدث ثورة عظيمة في بلاد البليج لم تستطع حكومة هولاندا على اخماد نارها فالتزموا ان يعترفوا عن البليجيين وجعلوا بينهم حداً فاصلاً بمعاهدة جرت سنة ١٨٢٢ . وسنة ١٨٤٩ نبواً سرير مملكة هولاندا الملك غلبوم الثالث وهو الملك الحالي ولم تنزل هذه المملكة حتى الآن تدعى مملكة البلاد الواطية

الفصل الثاني عشر

في الممالك الجرمانية او السلطنة الالمانية

الباب الاول

في وصف هذه البلاد واقسامها

ان بلاد جرمانيا وتعرف ايضا بالمانيا يحدها شمالاً البحر الجرمني وتخوم دنمارك وبحر البلتيك وشرقاً بروسيا واوستريا وجنوباً اوستريا وسويسرا وغرباً فرنسا ولجيكسا وهولاندا واهلها يبلغون نحو ٤١ مليوناً ونصف بما فيه بروسيا وملحقاتها الجديدة. واذ كانت جرمانيا تنصن ممالك وامريات عديدة وليس لنا محل هنا ان نصف كلاً منها على حدها ونحدد وضعها ونذكر حالة شعوبها واوليادهم اقتصرنا على وضع الجدول الآتي لتبيين منه اسماء وعدد الممالك والدول التي تتكون منها السلطنة الجرمانية واية منها مملكة واية امرية وعدد شعوب كل منها لتكون الفائدة نامة

جدول الدول الجرمانية وعدد شعوبها

اسماء	عدد
١ مملكة بروسيا وملحقاتها	٢٤٧٠٠٠٠٠
٢ " بافاريا	٤٨٦٥٠٠٠
٣ " ساكس	٢٥٦٠٠٠٠
٤ " ورتنبرج	١٨٢٠٠٠٠

كراندوكات بادن	٥	١٤٦٥٠٠٠
هس "	٦	٨٥٥٠٠٠
مكلنبورغ سويرين	٧	٨٦٠٠٠٠
ساكس وايمر	٨	٢٧٠٠٠٠
مكلنبورغ استريلينس	٩	١٠٠٠٠٠
اولدنبورغ	١٠	٢١٧٠٠٠
دوكات بروترويك	١١	٢١٢٠٠٠
ساكس مينينجن	١٢	١٨٨٠٠٠
ساكس الثنبورغ	١٣	١٤٢٠٠٠
ساكس كوبورغ غوطا	١٤	١٧٥٠٠٠
دانيهالت	١٥	٢٠٥٠٠٠
امرية شوارسبورغ رودولستاد	١٦	٧٦٠٠٠
شوارسبورغ سوندرسهاوزن	١٧	٦٨٠٠٠
والديك	١٨	٥٧٠٠٠
روس (في سلاله الابهكار)	١٩	٤٦٠٠٠
روس	٢٠	٩٠٠٠٠
شواببورغ ليب	٢١	٢٢٠٠٠
ليب ديثولد	٢٢	١١٢٠٠٠
مدائن حرة لويك	٢٣	٥٢٠٠٠
برم	٢٤	١٢٢٠٠٠
هيمبورغ	٢٥	٢٤٠٠٠٠
مكتسبات جرمانيا من قرانسا الانزاس واللورين	٢٦	١٥٥٠٠٠٠

ومن اعظم مدائن الممالك الجرمانية هبورج وهي مدينة شهيرة لتجاريتها . ثم مونيخ قصة مملكة بافاريا . ودريسدن عاصمة ساكسونيا وهي من اطرف مدن اوروبا . وايسيك وكالسروخ عاصمة امرية بادن حيث يجتمع بها كثير من عطاء واغنياء العالم في كل سنة للنتزة في زمن الصيف ويصرفون اكثر اوقاتهم في الملاهي ولعب القمار وهذه الواسطة يتبعهم جمهور غفير من الناس المتوسطي الحال من ذوي المطامع في المكاسب السريعة فكثير منهم يفقدون اموالهم وبعضهم الحجة بسبب خسائرهم الباهظة . وما عدا مدائن جرمانيا الطريقة فيها انهر عديدة اكثر من خمسين اكثرها عظيمة وكبيرة بحيث تجري فيها السفن واشهرها الدانوب والرن والالب والادور والمين

واكثر اهالي جرمانيا على مذهب البروتستانت والحرية مطلقة لجميع المذاهب . وهم موصوفون بالحزم والثبات في الاعمال والحرص والامانة . وهم الذين اخترعوا البارود وعمل النظارات وصناعة الطبع التي هي افضلها اخترعها غوتنبرج الشهير في اواسط الجيل الخامس عشر بمساعدة رفيقيه بطرس شافر ويوحنا فاوست . ولهم اليد الطولى في اصطناع الآلات الموسيقية والالعاب المتنوعة للاولاد . وعلماءهم مشهورون بالغيرة في تاليف الكتب والتدقيق في اللغات الاجنبية . ولهم انصباب غريب على المباحث في العلوم والفنون والتدقيق في الامور البعيدة فلا يكونون عن الاجتهاد في تحصيل المعارف واليجاد الفوائد للبشر . وبينهم انتشار الاصلاح الديني في الجيل السادس عشر . وقد تقدم الجرمانيون تقدماً عظيماً في معرفة فنون الحرب فيعدون الان من اعظم الدول واشدها قوة في اوروبا وما ساعدتهم في تقدمهم انما هو انضمامهم بعضهم لبعض وانقيادهم لروسائهم

وانقسمت بلاد جرمانيا قديماً الى ٢٩ قسماً وكل قسم منها له حاكم مخصوص اما من رتبة الامراء او من رتبة القواد المشهورين ثم جرت العادة بين اهالي تلك الولايات من بداعة سنة ١٨١٢ ان ينتخبوا ملكاً من اولئك الامراء ويسمونه امبراطوراً

يوحنا غوتنبيرج وفاوست مختبرا فن الطبع



على كل أعمال جرمانيا فيكون مطلق التصرف ورئيساً على الجميع وبعد موته يتخون آخر واستمر الحال كذلك الى سنة ١٤٣٨ حين انتهت هذه العادة وصار ناج الملكة ورائة في عائلة هابسبورج الى سنة ١٨٠٦ عند ما انحلت السلطنة الجرمانية واتحدت ممالكها الغربية وأنشئت المعاهدة المعروفة بمعاهدة الرين تحت حماية نابليون الاول. ولكن بعد سقوط المذكور سنة ١٨١٥ تبدلت تلك المعاهدة باخرى جديدة بين اربع وثلاثين دولة وتلتب بالمعاهدة الجرمانية تحت رئاسة امبراطور النمسا. اما الخمس ممالك الاخر تمة التسع والثلاثين فالتحقت بمالك اخرى اما بالارث او بانقراض سلالة الملك. وكانت كل مملكة من الاربع والثلاثين المذكورة مستقلة في داخليتها الا انها خاضعة الى مجلس عام منظم من وكلاء كثيرين يرسلون من طرف المقاطعات المختلة الى مدينة فرانكفورت لاجل الحماية عن حقوق المالك الداخلية وتحسين حالة الامة وسن الترايب والقوانين العمومية. وبسبب ذلك الاتحاد والارتباط كانت الممالك الجرمانية ملتزمة ان تساعد بعضها البعض وقت الحاجة حتى ان جميع رجالها كانت تخرج الى الحرب عند الطلب بدون استثناء وليس ذلك الا احتياطاً من مهاجمات الاعداء على بلادها وحقراً من سطوة فرانس التي كانت قد اضررت بها ضرراً عظيماً في ايام نابليون الاول. فدام هذا الترتيب الى سنة ١٨٦٦ حين اضطرت نيران الحرب بين بروسيا والنمسا واتصرت فيها الاولى بعد حرب وجيزة فانفصلت دولة النمسا من المعاهدة الجرمانية واسست دولة بروسيا معاهدة تعرف بمعاهدة المانيا الشمالية فتحالف معها احدى وعشرون دولة من الدول الجرمانية واما البقية فعقدت معها معاهدة تحت رئاسة دولة بافاريا تعرف بالمعاهدة الجنوبية وستضمها بروسيا الى املاكها واثنان بقيتا تحت تسلط ملك هولندا وهما دوكانو لوكزيمبورج ودوكانو ليمبورج

الباب الثاني

في اخبار الجرمانيين القدماء وما حدث في ايام سلاطينهم من
سنة ٩١٢ مسجحة الى ظهور مرتينوس لوثيروس

ان قبائل جرمانيا الاولى كان يقال لها برابرة منها قبيلة الغوثيين
والفريزغوثيين والفندالين والسويثيين والكمبريين والتوطونيين والهروليين
والاليمايين وغير ذلك من القبائل والطوائف التي جاءت من اسيا وسكنت
تلك البلاد . وكانوا على جانب عظيم من الوحش والتمرد يلبسون جلود
الوحوش الضارية ويشنون الغارات في كل جهات اوروبا حتى انهم استولوا
على عدة مدائن واستخلصوا جملة ممالك واضروا باكثر السلطنات العظيمة
واقبلوا الارض بحروهم ووفائهم المتصلة حتى ان السلطنة الرومانية مع كل
سطوتها وقوة بطشها وشوكتها كانت تنهار ونحسب حسابهم وما زالوا كذلك الى
زمن قبصر فخارهم واخضعهم بعد حرب شديدة ووفائع عديدة

فبواسطة دخول الرومانيين الى جرمانيا تحسنت احوال هؤلاء البرابرة
فانهم اقتبسوا عنهم جملة صنائع وعوائد مفيدة جعلتهم متقدمين نوعاً سواء كان
في معيشتهم ورفاهيتهم ام في امورهم وسياستهم الحربية واصطناع السخنة . وازدادوا
يوماً في التقدم والنجاح بينما كان الرومانيون يضعفون ويمسكون ولم يضر عليهم
اربع مئة سنة حتى اغتلم الجرمانيون تلك الفرصة فاستعدوا ونمضوا لاقتناح
البلاد التي كانت خاضعة لرومية فدخلوا اسبانيا واطاليا وبلاد اليونان وغيرها
من الممالك واستوطنوا بين تلك المداين الزاهرة الغنية حيث جمعت روية غناها

ومعجدها . وإما ما بقي من أولئك البرابرة في بلاد جرمانيا الذين لم يخرجوا مع
 القوم للغزو فآخذوا يتقدمون ويمنون حتى انهم في أيام شارلمان ملك فرنسا
 الشهير صاروا أمة عظيمة ذات شوكة وبأس . ولكن مع كل ذلك استظهر عليهم
 هذا الملك فآخضعهم في الجبل الثامن واستولى على بلادهم وتسمى سلطاناً عليها
 وأقام فيها وأصلح شأنها وتناولها خلافة من بعده وبقيت متحدة بالسلطنة الغربية
 الجديدة التي أسسها شارلمان المذكور الى سنة ٨١٧ نهاية امبراطورية كارلوس
 السمين . فمن ذلك الوقت اخذ بنين الامبراطورية في ارتجاج واعقب ذلك
 سقوطها التام فاضطربت وتلاشت كائنها اضطرابات احلام وانفصل تاج المانيا عن
 تاج فرنسا وصارتا دولتين متنازعتين عدوين لبعضهما الى هذا اليوم . وبعد ذلك
 بقايل انحد بعض مالك جرمانيا وبطلوا حقوق الوراثة الملكية واستقر الراي على
 قيام الملوك بالانتخاب

ولم يكن الاتحاد الالماني في اول الامر عاماً بين كل مالك جرمانيا بل
 كان منحصراً بين خمس مالك فقط وهي فرانكونيا وساكسونيا وسوابيا وبافاريا
 ولورين . وكان القصد في ذلك الانضمام ليكونوا بداً واحدة للمحاربة والمدافعة
 عن بلادهم من غزو الهونيين الذين كانوا منششرين في كل جهات بانونيا التي
 اقيمت بهونيكاريا نسبة لهم وهي بلاد الجر . فتعالت شعب هذه الممالك وامراؤها
 واقاموا عليهم ملكاً يدعى كونراد امير فرانكونيا وذلك سنة ٩١٢ وهو الاول من
 ملوك جرمانيا فاستبد بالسلطنة العامة الى سنة ٩٣٠ واذا رأى نفسه متعباً من مهام
 السياسة والحروب تنازل عن تاج الملك الى خصمه هنري الاول امير ساكسونيا
 الذي به ابتدأت عائلة ملكية جديدة فآظهر مزيد الشعبية والبسالة في محاربة
 الجر اذ كسر شوكتهم ودفع ضررهم عن بلاده

وكانت جرمانيا وقتئذ بعد سقوط سلطنة شارلمان رئيسة السياسة في اوروبا
 ولها التقدم العام على باقي الممالك في اهم الامور والاعمال ولا سيما في ايام اوthon
 الكبير الذي خلف ابيه هنري الاول سنة ٩٣٦ فانه كان ملكاً مهيباً ذا سطوة

وشوكة فاجرد للسلطنة رونقا جديداً وبهجة غريبة فعظم بأسها وخيف بطشها في اوروبا. ولكن لم تكن الراحة تامة داخل البلاد لانه اذ كان الاشراف يشتغلون في توطيد شوكتهم التي اكتسبوها في ما مضى كان الامبراطور اوثنون وخلفاؤه بعده يسعون في كسر تلك الشوكة فنشأ عن ذلك منازعات اهلية اوجبت اشهار السلاح بين الامبراطور وبعض الاشراف المذكورين

وكان السبب في اكتساب اشراف المانيا الشوكة والامتنعالات هو انه بعد موت الامبراطور كارلومان (احد خلفاء شارلمان في السلطنة الغربية) حصل لبعض خلفائه عجز وعسر عظيمان . فانهز تلك الفرصة الاشراف ومن هو اقل منهم ايضاً وادعوا لانفسهم حقوقاً وامتيازات جديدة فحصلوا عليها لعدم وجود من يقاومهم . وكان ايضاً البعض الآخر من اولئك السلاطين مشغولين بحروب دائمة من داخل فاضطروا ان يطلبوا مساعدة الاكابر واحزابهم فذلك كانوا يراعون خاطرهم ويتغافلون عن تعدياتهم الكثيرة ويمخونهم حقوقاً فوق العادة . فبهذه الوسيلة صار للاشراف مقام كبير وشوكة عظيمة وبالندرج صارت الالتزامات وراثية في العائلة يطلبها ويتناولها الوارثون كحقوق شرعية . وفضلاً عن ذلك كان هؤلاء الاشراف يرتبون في اراضيهم قوانين واحكاماً خصوصية مخالفة لنظام الملكة حسب استحسنهم . وكان السلاطين يرون ذلك ويفضون النظر عنه لاحتياجهم اليهم ولكي يطمئن اوثنون من ثورات اولئك الاشراف وهياجهم ارأى ان يقيم في البلاد حزباً اخر يوازي ويعادل حزب الاشراف ليقع به شوكتهم عند اللزوم فاخذ ينشط حزب الاكليسوس ومنهم حقوق الامراء المدنيين وامتيازاتهم وغرمهم بالانعامات وسأواهم بالصف الآخر فكان ذلك من بس السياسات لانه وان اتى هذا التدبير موفقاً ببعض الفوائد واوقف سير شوكة الاشراف ولكنه عاد اخيراً بنتائج ردية لانه لما تقوى حزب الاكليسوس واغتنى رجاله وجد ملوك المانيا فيهم عداوة مرة ومقاومة شديدة لما صدمهم فعوض العدو الواحد صار لهم اثنان وكان الاخيرا ضرراً من الاول

وقد قهر اوثنون ملكة بوهيميا و اضافها الى احكام جرمانيا وضرب عليها المال . ثم حارب المجر في اوكسبرج وانتصر عليهم وحارب الدينمارك و فرانسا وقهرها وبالمجمل كان رجلاً مسعوداً ومنصوراً في جميع حروبه ومغازيه . وقد تزوج بعد لايد ارملة لوثير ملك لومبارديا واذ صار له بسبب هذا الزواج حق المداخلة في امور ايطاليا دعاه البابا يوحنا الثاني عشر ليلخذه من جوريرنجر ملك ايطاليا فذهب اوثنون اليه وخلعه عن كرسي الملكة وضم ايطاليا الى امبراطورية المانيا بعد ان تزوج ملكاً عليها سنة ٩٦٣ . فلما راي اوثنون ما هو فيه من النجاج والظفر عمت بصائرُه واغتدّ بفتوحاته ولقب نفسه اوغسطس قيصر زاعماً انه خليفة امبراطرة الرومانيين القدماء وانه وريثهم في حقوقهم وسلطنتهم فلم يسر البابا يوحنا الثاني عشر من انتصار اوثنون الغريب ومن دعواه بالامبراطورية الرومانية وخاف ان يفقد رياسته الزمنية فجاهر ضده وحرك الآخرين ايضاً فانفض اوثنون عليه وخلعه عن كرسيه ونصب مكانه ليون الثامن وصم من ذلك الوقت ان يجعل السلطة المدنية نسود على السلطة الكنائسية وان تسمية الباباوات وتفويض الاساقفة يختصران فيه وفي خلفائه من بعده . ولكن بعد رجوع اوثنون الى بلاده وتوفي البابا ليون انكر اهل رومية على اوثنون حتى تسمية الخليفة الجديد فالتزم ان يحاربهم فوافاهم بالجنود والرجال واخضعهم واقام من اراد ثم مات هذا الملك الشبير سنة ٩٧٣ مكلاً بالجد والظفر

وخلف اوثنون الكبير ابنه اوثنون الثاني الذي كان قد تسمى خليفة في حياة ابيه وكان قد قام له خصم من اقاربه وهو امير ملكة بافاريا فاظهر له العداوة والعصاة طمعا بالملك ولكنه لم يقدر عليه . واذ كان قد صم لوثير ملك فرانسا على امتلاك مقاطعة اللورين ارسل جيشاً واستولى على مينس وغيرها من الولايات التابعة لاحكام جرمانيا فزحف اليه اوثنون وحاربه ودخل بجنده الى وسط مدينة باريس قوة وجبراً والزم فرانسا على التباءد والسكوت عن تلك

الدعوى ثم زحف من هناك الى ايطاليا واخضع بعض البلاد التي اظهرت العصاة. وكان يومئذ شعب عظيم بين اهالي رومية بسبب انتخاب ثلاثة باباوات في وقت واحد وكان كل واحد منهم محرم ويلعن الآخر فاعاد اوثنون بنديكتوس السابع الى كرسي الحرية وبعد ذلك بمدة يسيرة توفي في رومية وعمره ٢٨ سنة وخلفه ابنه اوثنون الثالث سنة ٩٨٢ فكانت بداية ايام متعبة بسبب غرد الايطاليين لانه كان قد ظهر يومئذ في رومية رجل يقال له كريستوس لقب نفسه قنصلاً وشرع بارجاع المشيخة الى رومية بعدما خلع البابا غريغوريوس عن كرسيه فوافقه عامة الشعب على هذا المشروع ولكنه لم يتمكن من اتمام مقاصده اذ لم يجد بين الشعب الروماني محبة الحرية. فوافاه اوثنون الثالث وحاربه في مدينة ميلان وقبض عليه وقتله بعدما استولى على المدينة ثم اعاد البابا غريغوريوس الى كرسيه. وقد استظهر هذا الامبراطور على الدينمارك وعند معاهدة مع ملكها ابريك الذي كان ملكاً ايضاً على اسوج ونروج ومن جملة الشروط المدرجة فيها ان يسمح الملك ابريك للرسلين المسيحيين بالدخول الى بلاده وتكون لهم الحرية في تعليم الشعب فاني ذلك بنوائذ جليلة. ومن جملة اعماله ايضاً انه طرد المسلمين من جنوبي ايطاليا حيث كان صار لهم ٤ سنة يغزون البلاد

وبعد موت اوثنون الثالث وقع الانتخاب على هنري الثاني حفيد اوثنون الثاني فاقاموه امبراطوراً عليهم وكان المذكور على جانب عظيم من التواضع والزهد حتى قيل انه نزع تاج السلطنة عن راسه وذهب الى بعض الاديرة قاصداً ان يصرف باقي عمره في العيشة المنفردة. فقال له رئيس الدير ذات يوم وكان قد قبله كاحد الرهبان اعلم ايها الاخ انه من شروط الرهبنة الطاعة والخضوع لوامر الرئيس فحسب كوني رئيسك امرك الآن ان ترجع الى كرسيك فان ذلك افضل جداً من انسحابك فاجاب هنري سؤاله ورجع الى سريره ملكه واستمر امبراطوراً الى ان توفي سنة ١٠٢٤. فاجتمع امراء جرمانيا

للمفاوضة والمذاكرة في انتخاب خليفة له وبعد مرور ستة اسابيع اتفق رايهم على كونراد الثاني امير مقاطعة فرانكونيا فبايعوه بالملك والبسوه التاج وفي مدة حكمه الحقت برغونيا بالسلطنة الجرمانية . وبعد موته خلفه هنري الثالث فكانت ابامه في بداية الامر مشتبكة بحروب متصلة مع الجر واهالي بوهيميا وبولونيا فانتصر في جميع وقائعه . وكانت سطوته مطلقة اكثر من جميع سلفائه من سلاطين جرمانيا فنذر اشراف الشعب من صنيعه وخذلوا عليه ولكنهم لم يستطيعوا التظاهر بالعداوة الى ايام ابنه هنري الرابع الذي نبأ سرير السلطنة سنة ١٠٥٦

واشتهر حكم هنري الرابع بالحروب والفتن التي وقعت بينه وبين بابا رومية بسبب حق تسمية وتقليد الاكليروس وظائفهم . وقد ذكرنا فيما تقدم ان اوثنون الكبير ومن خلفه قد جعلوا هذا الامر تحت سلطة كرسي السلطنة ولكن في ايام هنري الثالث انكر عليهم هذا الحق البابا اسكندر الثاني واصدر منشورا يصرح به انه بما ان السلطنة الروحية هي اعظم من السلطنة العالمية فلا يليق للاكليروس ان ياخذوا اسميتهم وحتى التصرف بوظائفهم من رؤساء عالميين بل انهم ينالون ذلك راساً من الله وبناء عليه ينبغي ان الامبراطور يخضع للسلطة الكنائسية ولا يكون له حق ان يتصرف بملكه الا برخصة من البابا . ففي ايام هنري الرابع الذي نحن بصدده ارسل اليه البابا غريغوريوس السابع رسولا يبعثه عن التثبيت في دعواه بحق السيامات الاكيريكية ويطلب اليه ان يجتنب التعدي على ما هو من وظائف الباباوات فلم يقبل هنري ترك هذه الحقوق لانها كانت ثابتة لاسلافه فرفض مداخله البابا في ذلك واحقر رسوله وردده خائباً . فغضب غريغوريوس من معاندة هنري واذ كان يعلم ما في قلوب اشراف الجرمانيين من البغضة والعداوة المتسلسلة من ايام هنري الثالث وما قبل اشهر حرماً ضد هذا السلطان مانعاً اياه عن التصرف بحكمه ومحرضاً الشعب للخروج عن طاعته فنشأ عن ذلك منازعات شديدة افضت لاخذ

الاسلحة وسفك الدماء زمناً طويلاً . وتُعرف تلك الحروب بحروب السيامات
 الاكبريكية . وكان من جملة من خرج عن طاعة هنري الرابع امراء المانيا
 واعيانها واكثر قسوسها فاخذوا في قتاله وحرصوا عليه امه وزوجته واولاده
 حتى ابغضوه وتبرأوا منه وانضموا الى حزب اعدائه . فاصبح هذا الامبراطور
 محاطاً بالاختار من جميع قومه ومنوگاً من اهله ولم يجد سبيلاً للتخلص من
 تلك الورطة الا بواسطة تهديد غضب الحبر الروماني فذهب اليه سنة ١٠٧٦
 الى ايطاليا ليطلب العفو والساج على ما صدر منه فلم يقبله البابا في اول الامر
 بل ابقاه ثلاثة ايام داخل الدار الخارجية ملفوفاً بعباءة وحافي الرجلين في شهر
 كانون الثاني ثم بعد ذلك اذن له بالدخول عليه . وبعد ما اخذ عليه
 عهد الطاعة واشترط عليه شروطاً منضحة حله من الحرم واطلقه . ولكن بعد
 ذلك بسنتين نهض هنري للانتقام من البابا وكان قد انخرط معه جمهور غدير
 من اللومباردين وبينما كان مشغلاً في محاربتهم عصته رعاياه فخره البابا ثانية
 ونادى بتزليه بعد ان عين مكانه رودولف امير الصوابيين فلم يثن عزم
 هنري عن الاستمرار في سبيل تنميم مقاصده فاخذ عاجلاً في تقوية قوته الحربية
 وكان قد استمال اليه بعض الاساقفة الذين لم يسروا من صنيع غريغوريوس
 فانزل البابا عن كرسي الحبرية بالقوة الجبرية واقام مكانه اكليمينوس
 الثالث . ثم ان هنري بعد ما اخذ الفتن الداخلية في جرمانيا وقتل رودولف
 اثنى على ايطاليا واقام الحصار على رومية حتى افتتحها بعد سنتين متواليتين
 اما غريغوريوس فهرب والتجأ الى روبرتوس ملك نورمنديا ومات هناك .
 وبعد رجوع الامبراطور الى جرمانيا نهض جماعة من اهل رومية ممن كانوا
 يعادون هنري المذكور فانزلوا البابا اكليمينوس الذي كان قد اقامه واقاموا
 مكانه البابا فيكتور الا انه لم تطل ايامه حتى توفي وموته فتح الباب لدخول
 اوربانوس الثاني

اما هنري فكانت مصائبه الاخيرة اشر من الاولى لان البابا اوربانوس

هجم عليه الحروب من كل جهة وجعل ابنه كونراد يقوم عليه وبعضه ويتحد مع باقي أعدائه فاستخلص أكثر ولايات ايطاليا بمساعدة البابا المذكور واقام عليها ملكاً ولكن لم يصف الزمان لا للبابا اوربانوس ولا لكونراد لان الموت فاجأها في وقت قريب . فخلّف اوربانوس البابا باسكال الثاني وقد حذا حذو سالفه فانه عند جلوسه على كرسي البحيرة اشهر حرماً ضد هنري الرابع واغرى هنري ابنه الاصغر ان يعصي ابيه ويجلس مكانه كما اغرى اوربانوس كونراد فقباه ففجّ الابن بهنا المشروع وخلع والده عن سربر السلطنة واذله وجلس مكانه تحت اسم هنري الخامس فهرب هنري الرابع الى بلاد البلجيك وهناك صرف باقي عمره باحتياج شديد

وقد نشأ عن المناجزة التي حصلت بين هنري المذكور وبين البابا غريغوريوس عداوة مّرة وحروب كثيرة بين حزين عظيمين احدهما يقال له حزب الغوالف والاخر حزب الجبيلين . فمكثت نيران تلك الحروب مضطربة بين المانيا وايطاليا ثلاثة قرون من غير خمود فكان حزب الغوالف يعصد الباباوات ومدعيانهم وحزب الجبيلين يحامي عن شوكة الامبراطورية ولا محل هنا لذكر الوقائع والخسائر التي حدثت بسبب تلك الحروب

اما هنري الخامس فلم يستقرّ زماناً طويلاً مكان ابيه حتى اخذ يسلك سلوكه في مقاومة الكيسة وروسائها وذلك لان البابا باسكال كان لا يزال مصراً على رفض حقوق السلاطين والملوك في المداخلة بمسئلة السيامات الاكبريكية . فاستمر هنري الخامس في تلك المنازعات عدة سنوات يغزو ايطاليا ويضرب بها حتى اضعف شوكة البابا بتكرار مغازيه وحروبه واخيراً اسره والزمه فها ان يقر له بتلك الحقوق وينحضع لسلطانه غير ان البابا بعد تخلصه من قبضة الاسرا اقام الحجة على تلك المعاملة الاغصائية التي اجراها معه الامبراطور هنري وحرمة فاستشاط هنري غيظاً وقصد مدينة رومية بالعساكر والابطال فاضرّ بها وباملاكها ضرراً جسيماً وطرده البابا منها واقام حبراً اخر مكانه وكسر شوكة

المعانددين. واستمرت تلك المنازعات مدة ليست يسيرة حتى قام البابا كاليكتوس الثاني واصلى الامور بواسطة مجمع عقد في مدينة وُرس حيث تنازل الامبراطور هنري الخامس لكرسي رومية في حق التصرف الديني للاكليسوس . وكان هذا الامبراطور قد اقام حروباً كثيرة مع الجر واهل بولونيا وفرنسا وغيرها فعُدَّت مدة احكامه من جملة الاحكام الدموية التي جرت في ممالك اوربا ثم توفي سنة ١١٢٥ ولم يترك نسلًا

وجلس بعده على سرير السلطنة لوثير امير سويابنبرج سنة ١١٢٥ بانتخاب الشعب فحارب البوهيميين واخضعهم ثم انتصر للبابا اينوسنت الثاني ضد اناكليتوس الذي ادعى بالباباوية وزحف على ايطاليا لاجل توطيد سلطنة البابا في رومية . وكان روجير امير مملكة ابوليا متعصبًا لاناكليتوس فوقع بينها حربٌ بهذا السبب الجأت روجير ان يترك املاكه في ايطاليا ويقصد سيسيليا التي كان قد تملكها مؤخرًا من المسلمين واما اناكليتوس فكان قد قبض عليه ومُجِن

وتبوأ تحت السلطنة بعد لوثير المذكور كونراد الثالث سنة ١١٤١ وفي ايامه وقعت حروب اهلية كان سببها امير ولاية بافاريا الذي انكر على كونراد حق السلطنة فهضما لمحاربة بعضها بعضًا واستمرت بينها الحروب زمناً طويلاً . وبعد نهايتها اشترك كونراد في الحروب الصليبية فسار بجيش عديد الى بيت المقدس ولكنه رجع بالخيبة كما مرَّ ذلك في تاريخ الصليبيين . ثم تولى بعده زمام السلطنة فريدريك بارباروسا سنة ١١٥٢ بانتخاب الشعب وكان شجاعاً مقداماً وبطلاً هاماً حارب البولونيين واخضعهم ووقع الرعب في قلوب البوهيميين الذين كانوا لا يفترون عن التظاهر بالعصاة والتمرد . ثم حارب ملك الدنيارك واذله . وكان وقتئذ اللومبارديون يصبون لاستنشاق نسيم الحرية والتخلص من جور جرمانيا فنجهم على ذلك البابا اسكندر الثالث فخلعوا الطاعة ورفعوا راية العصيان على السلطنة فحاربهم فريدريك ولم يفر منهم بطائل ثم

زحف الى ايطاليا بحش جرار لاختذ الثار والاشغام من اهلها لانهم كانوا سبياً
لهذه الحروب فحاصر بعض مدن تلك البلاد وهدمها ولاسيما ميلان فانه على ما
قيل محاربا بالكلية وزرعها ملحا

ثم خلفه ابنه هنري السادس سنة ١١٩٠ وكان كايه موصوفاً بالشجاعة
وقوة البأس فادعى بتاج ملك صقلية بعد موت وليم ملكها لان زوجته كانت
أخت الامبراطور المذكور فانكرت عليه بما لك ايطاليا هذا الحق واذ اعترضه
في هذا الامر جرد عسكرياً وزحف به على ايطاليا واستولى تقريباً على كل كامبانيا
وكالابريا وابوليا ثم افتتح في تجريدة اخرى ملكي صقلية ونابولي ونال ما كان
يرمائه. وكانت مقاصد هذا الملك متجهة الى ابطال عادة انتخاب السلاطين وان
يجعلها وراثية في عائلته فسمحوا له بعد مشاجرات طويلة بتسمية ابنه فريدريك
الثاني امبراطوراً من بعده. وكان فريدريك المذكور صغير السن عند موت
ابيه فاقبم عمه فيليب وصياً عليه الى ان بلغ العمر اللائق فاستلم زمام السلطنة.
وكانت وقتئذ الحروب الصليبية متشرة في بلاد الشرق واذ رغب البابا في ان
يستميل هذا الامبراطور لمعاودة الصليبيين ازوجه بابنة يوحنا بريان ملك
القدس بعد ان وهبها ابوها تلك الملكة في مقابلة جهازها وكان البابا يلح عليه
للقيام الى تلك الجهات فوعد فريدريك بالذهاب ولم يذهب. ولما طال
الوقت وانقطع الامل لم يعد الخبر الروماني يحد سبيلاً سوى اشهار الحرم على
فريدريك الامر الذي دعى هذا الامبراطور الى اشهار الحرب على ايطاليا.
فرحبت اليها وضبت عليها فالتزم البابا ان يهرب من رومية ووضع فريدريك يده
على كل املاك الكرمي الروماني. ثم وفي بعد ذلك نذره وذهب الى الاراضي
المنقوسة ففتح في سفرته اكثر من سلفائه اذ عند صلحا بدون حرب على عشر سنوات
مع الملك الكامل الايوبي تحت شروط معلومة منها استرجاع مدينة القدس مع
بعض البلاد المجاورة. ولما صم فريدريك ان يتوج نفسه ملكاً على مدينة القدس
اعترضه البابا غريغوريوس التاسع في ذلك ومنع الاكبروس عن تنويجه

فالتزم فريدريك ان يتناول التاج عن المذبح ويتوج نفسه بيده. فخرمة البابا
ثانيةً وبهذا السبب انتشبت الحروب مرة اخرى بينه وبين ايطاليا واشتدت بهذا
المقدار حتى جرت فيها الدماء كسواقي الماء . وبينما كانت جرمانيا في تلك
الايام مضطربة الاحوال وعديمة الانتظام من جرى الحروب والوقائع نهضت
بعض الممالك المخالفة مع السلطنة الجرمانية وهي دنياك وهولندا وهنكاريا
وخلفت الطاعة واستقلت

وسنة ١٤١١ جرى الاتحاد المعروف بالاتحاد الانسياتيكي بين اكثر مدائن
جرمانيا الجنوبية مثل هامبورج ولوبيك وبرونزويك وغيرها قصداً لحفظ حريتهم
ورددع سطوة امراء الولايات واهل الطمع عن اذنيهم . وقد سميت تلك المدن
بمدائن الهانس التي معناها باللغة الجرمانية المدائن المشتركة واتى هذا الاتحاد
بنتائج مفيدة للتجارة بهذا المقدار حتى انه دخل تحت لوائه ثمانون مدينة من اعظم
المدائن الكاثنة على بحر البلتيك ونهر الرين واقتطف اهلها اثار المكاسب
والسلم والقوة الناتجة من ضرورة من التوافق والتعاقد . وكانت المعاهدة
الانسياتيكية مكرمة ومهابة عند الجميع حتى ان اعظم الملوك كانوا يودون
مصاحبتها ويخشون بأسها ويحافظون على علاقاتها الحية معها . ولكن عند
اكتشاف اميركا وافتتاح باب جديد للتجارة اخذت صوالمح المدن الانسياتيكية
ترجع الى الوراء فانحل عند ذلك الاتحاد سنة ١٦٣٠ ولم يبق مشتركاً فيه سوى
ثلاث مدن فقط وهي هامبورج وبريم ولوبيك وانضمت هذه ايضاً الى بروسيا
سنة ١٨٦٧ ولم يبق للحكومة الانسياتيكية اسم الآن

ثم بعد موت فريدريك الثاني حدث اضطراب عظيم بسبب انتخاب خليفة
له فتسمى جملة اشخاص ولكنه لم يقع اتفاق عام على احدٍ منهم حتى قام اخيراً
رودولف هابسبورج احد الامراء المشاهير من عائلة الغوالف القديمة وكان ذا
ثروة واملاك كثيرة في بلاد السويس فبايعوه بالسلطنة سنة ١٢٧٣ ومنه نبعت

ملوك النسا وكثير من ملوك جرمانيا ضربنا صفحا عن ذكرهم لعدم اهمية اخبارهم في مختصر كهذا الى حين ظهور الامبراطور كارلوس الخامس المعروف بشارلكان

الباب الثالث

في بعض اخبار مرتينوس لوثيروس والاضطراب الذي
حدث في جرمانيا بسبب آرائه الدينية

ان اول من تظاهر في اراء دينية مخالفة للمعتقد الروماني الكاثوليكي بعد
ويكيلف الانكليزي رجل يقال له يوحنا هس من مدينة براك في بوهيميا في
اواخر الجيل الثالث عشر وبسبب اذاعته تلك الراء ومنااداته بها بين الشعب
حدث مجلس عظيم في الكنيسة. ولما عظم الامر واشتد قصد سيجيسموند سلطان
جرمانيا ان يزيل تلك الاسباب ويصلح حال الكنيسة فانفق مع الحبر الروماني
على عقد مجلس للنظر في تلك الامور فعقد مجمع في مدينة قسطنسية التابعة
امرية بادن سنة ١٥١٤ وأحضر يوحنا هس للرافعة فحكم عليه بالهرطقة ومن ثم
بالموت فحرق ولم يرتد عن آرائه. وكان ليوحنا هس صديق عالم يقال له
جيروم فوافقه في آرائه وعلم بها فاصابه ما اصاب صديقه ومات حرقا بالنار
بعد رفيقه بستين ولكن لم تمت تلك التعاليم بموت دينك الرجلين فانها امتدت
اكثر فأكثر واشغلت افكار الشعوب حتى انفجرت اخيرا في الجيل السادس
عشر بمناذاة مرتينوس لوثيروس

وكان لوثيروس المذكور من مدينة اسلابان من اعمال سكسونيا وُلد سنة

١٤٨٢ ومع ان اهله كانوا من ذوي الفهم والفاقة تربى تربية جيدة وتمكن من العلوم وكان له صفات خصوصية تدل على نباهته وندور قريحته وكانت نفسه تميل طبعاً الى معرفة الامور الصعبة التي تقتصر دونها هم الرجال وكان زاهداً في امور الدنيا يحب الوحدة والانفراد . فدخل الى دير من اديرة الرتبة الاوغسطينية وترهب واشتهر بالقوى والصلاح والاجتهاد الغريب في المطالعات والعلوم اللاهوتية وعثريوماً على نسخة من الكتاب المقدس في مكتبة الدير فاخذها وبذل جهده في تصحيحها ومراجعتها المرة بعد الاخرى حتى تمكن من تعاليمها ومعانيها فاقبس منها ايات كثيرة لم يكن اقرانه قد اعتادوا على استعمالها فحصل على تقدم عظيم وشهرة فائقة حتى ان فريدرىك امير ساكسونيا انتخبت ان يكون معلماً للفلسفة واللاهوت في مدرسة انشأها في مدينة وتيرج . وكان وقتئذ البابا لاون العاشر حبراً في رومية فتوسع سنة ١٥١٧ في مخ الغفرانات التي كان سلفاؤه قد شرعوا فيها لمن يذهب ويساعد في الحروب الصليبية او لمن يبذل شيئاً من الدراهم لبناء كنائس او مقاصد اخرى دينية وولج اناساً مخصوصين لبيع تلك الغفرانات بالدراهم وفاء عن ذنوبهم ومعاصيهم من جملتهم احدرهبان الدومينيكيين البلغاء اسمه تنزل فكان يجول مع رفقاءه بين شعوب جرمانيا منادياً بالبركات الروحية التي تعقب الغفرانات الممنوحة من راس الكنيسة المنظور يبيعونها للعامة بائعاً الاثمان . فنشرت قلوب الملوك والامراء من ذلك الصنيع اذ راوا اموال رعاياهم ذاهبة الى خزينة البابا لاون لينفقها في الاسراف والتبذير . وكان كثيرون من اتقياء الناس يتأسفون على ضلال العامة في تصديق ذلك التعليم والاعتماد عليه في خلاص الانفس من جملتهم مرتينوس لوثيروس الذي نحن في صدده فانه لم يتوقف عن المناداة علناً في الكنائس والمحافل بفساد ذلك التعليم وغيره من العقائد التي حسبها من البدع المضرة بالديانة والآداب فاستولى كلامه على قلوب الناس وجمحت العامة على استماع مقالاته . فاقترح ٩٥ مسألة تضمن فحوى افكاره واراته في

شان للفرانج ونشرها على العامة وطرحها امام العلماء ليحجوا ويثبتوا منها ما
استحسنوه وعين اياما معلومة لاجتماعهم لاجل المذاكرة والمفاوضة فيها وكان مع
ذلك مظهرا غاية الطاعة والانقياد للكنيسة الرومانية

فمضت الايام المعينة ولم يات احد بل تصدى لمعارضته بعض العلماء فكتبوا
ردا على تلك المسائل ونشروها مشعين بحجوه كل الشنيع . وكانت استناداتهم في
اجتهادهم مبنية على اراء العلماء والاحبار والقوانين الكنائسية اما هو فكان
قدحه ببيع الفرانجات مبنيا على نصوص وبراهين قاطعة مقتبسة من الكتاب
المقدس ومن العقل السليم . فظهر للعامة ان مجادلة اولئك اللاهوتين
واختصاصاتهم انما كانت مبنية على اغراض نفسانية لا ثقة فيها نظرا لركابها
ومخالفتها للعقل والنصوص الالهية

ولما لم يقدر لوثيروس عن المكوث في تخطيط تلك الاقوال اخذ اخضاعه
ليجون على ديوان رومية بتأديبه ومماقبيه لان تعاليمه كانت قد اثرت تأثيرا
عظيما في جميع الافطار الالمانية وصارت من الامور المحظرة المتقضي مداركتها .
فارسل البابا لاون بستدعي لوثيروس الى رومية للحكمة . فاي التوجه خوفا من
الفدر والحياة والتبس فحس دعواه في نفس المانيا وساء له على ذلك اصدقاؤه
وامير سكسونيا وكتب هو كتابا في ذلك الشأن الى الحبر الروماني يظهر به
طاعته وامتناله لاوامر ديوان رومية فعناه البابا لاون من التوجه الى رومية
وامر نائيه في المانيا الكردينال كاتيجان ان يفحص تلك الشكايات ويحكم بها
يستحسنه فذهب اليه لوثيروس الى مدينة اوجسبرج وجرى بينها مباحثات
ومجادلات كثيرة فسلك كاتيجان معه مسلك الكبر والعنفوان لا مسلك الحق
والاعتدال ونهده بالغضب والقصاص عندما رآه متشبها بارائه وغير مثني
عن عزيمته فخاف عليه اصحابه وعملوا على ارجاعه لوطيه فقبل لوثيروس النصيحة
ورجع . اما كاتيجان فلما بلغه هرب لوثيروس غضب وكتب الى فريدريك
امير سكسونيا يطلب منه ان يتبض عليه ويرسله اسيرا الى رومية فاي

فريدريك اجابة ذلك للطلب . ولكن مع كل هذه المساعدة كان لوثيروس في ريب وخوف من جهة دوام حماية فريدريك له نظراً للابطال من سطوة الكنيسة في ذلك الوقت

واذ كانت حالة السياسة يومئذ في اربناك بسبب موت الامبراطور ماكسيميليان وانتخاب خليفة له والكنيسة مهوكة في ذلك لم يلتفت كما ينبغي الى لوثيروس ومفالاته فكان على نوع ما في هدوء وسكون وتمكنت نقابية في قلوب كثيرين في سكسونيا وباقي جرمانيا واتصلت الى بلاد السويس حيث كانت تباع الغفرانات بدون عائق ولا اعتراض بعرفة رهبان الفرنسيسكانيين . وعندما كانوا يعرضون هذه البضاعة على الشعب للبيع في مدينة زوريخ نهض لقاومتهم زوينكليروس العالم الشهير وبمساعدة غربية اعترضهم وصدهم ولم يقبل بدخول هذا الامر الى وطنه ولم يحسب ذلك مضراً فقط بالعباد بل عدّه سلباً واختلاساً لحقوق الرابطة ايضاً وساعده على المجاهرة والفصدي لقاومة تلك الاعمال حرية البلاد وحكومتها الجمهورية غير المنقبة براس مخصوص فكان مطلق التصرف في حركاته . فسر لوثيروس بذلك اذ وجد له مساعداً يؤيد رايه في تلك المسئلة المهمة وابتدأ حينئذ يتظاهر باكثر جسارة في فساد اعتقادات الكنيسة الرومانية حتى زلزل بمبادئه واعتراضاته اركان قواعد ديوان رومية . حينئذ امتلأ البابا لاون وجميع اساقفة الكنيسة ومناصبها غيظاً وحنأ على لوثيروس فعقدوا مجلساً للبحث والمشورة في تلك التعاليم التي كان قد صار لها ثلاث سنوات تنتشر وتمتد بين قبائل المانيا واصدروا منشوراً بجرمون به لوثيروس ومولفاته وكل من يطالها ويبحثون العامة على حرق كتبه ورسائله وعينوا له مهلة ٦٠ يوماً للتوبة والرجوع الى حضن الكنيسة وانه بعد مضي المدة المذكورة ان لم يرجع ويعترف بخطائه على رؤوس الاشهاد يكون منقطعاً ومخذولاً وضالاً

فلم تقتره لوثيروس من هذا الحرم لانه كان منتظرة من قبل بل زاد تشبهاً بما عدّه واخذ يذم البابا وظلمه وتعديه مسمياً اياه المسيح الدجال ويحرض

الملك على الخروج عن طاعته وعدم الانقياد لامره وانفخر بكونه استوجب
غضبه حبا بجرمة البشر والصالح العمومي. ومع انه الى ذلك الوقت لم يتبع احد
من الامراء وعظماء الناس مذهب لوثيروس ولم يكن قد حصل تغيير في صورة
الدين ولكنه تقرر في عقول الاكثرين مجادلات لوثيروس واعتراضاته وادركوا
ضعف احتجاجات الاكليموس واستحسنوا التخلص من اسر ديوان رومية وفرحوا
بالفرصة التي اتتهم للهرب من تحت ذلك النير. على انه يجب ان نذكر ان
الطريق التي سلك فيها لوثيروس لاجل انتشار تعاليمه ومذمته من لم يوافقه عليها
اوجبت له اللوم في العصر المتأخرة وحسبت من المثالب غير الثلاثة ولكن لم
تفر منها القلوب في عصره بل تلقاها الجميع بفرح وقبول لان الناس كانوا
في قلق وكرب من جور رومية وتعديها

ولما نبأ شارلكان سربرسلطنة جرمانيا ورأى انه لا بد له من استقالة البابا
اليه لاجل مصالحه في بلاده الخارجة عن سلطنة جرمانيا ولا سيما لاجل مقاومة
عدوه الاكبر فرنسيس الاول ملك فرنسا لم يجسر على الحمامة عن لوثيروس
فالزمه ان ينحصر الى مدينة ورمس امام الجمعية المتعقدة فيها تحت رئاسة
الامبراطور نفسه لكي يجاوب عن التشنكات والدعاوي القائمة عليه. فذهب
بكل جسارة وتلقاه الاهالي بالاكرام والاحترام وكان عدد المحدثين به من الناس
اكثر من اجتمع حول شارلكان وقت دخوله المدينة بالاحتفال. ولما وقف
لوثيروس امام ذلك المجلس اظهر من الشجاعة والبسالة ما يدل على ثبات جنانه
ومع انه اعترف بكونه تجاوز الحد في طعنه وذمه الكنيسة قال اني لا اريد
عن معتقدي الا اذا اقنعتموني بالبراهين القاطعة والادلة الواضحة من كلام الله
عن بطلانه

واذ لم تنفع معه المحاورات والتهديدات اشار بعض القسوس على ارباب
المجلس ان يسلكوا معه سلوك جمعية قسطنطينية مع يوحنا هس ويريجوا الكنيسة
من هرطقة هذا المبتدع. فلم يقبل ذلك الراي لانه كان حضر تحت الاستئمان

وُجسب الغدر به على تلك الصورة من الامور المنكرة ففضى لوثيروس آمناً .
ولكن بعد ذهابه بايام يسيرة صدر امر من البابا باسم شارل كان وعموم مجلس
وُرس بتاريخ ٢٦ نيسان سنة ١٥٢١ مضمونه ان لوثيروس قد استوجب القتل
وانه لا يجوز لاحد من الامراء والاعيان ان يدخله تحت ظل حماه بعد نهاية المدة
المعينة في ورقة الامان

واذ كان فريدريك امير ساكسونيا محباً للوثيروس وعرف انه لا بد من
قتله اذا بقي جاثلاً حسب عادته ارسل له جماعة من الفرسان قبضوا عليه في
الطريق وهو راجع من وُرس وجاءوا به الى قلعة ورنبورج حيث بقي تسعة
اشهر تحت الحفظ في مكان خفي لا يطلع احد عليه صارفاً اوقاته في الكتابات
والتأليفات الدينية لاجل احياء عزم اصحابه التابعين آراؤه وبواسطة صديقه
ملانكثون العالم البليغ كانت تلك المؤلفات تُطبع وتُشرى الناس . وبينما كان
لوثيروس في ذلك المنفى اخذ يترجم بعض الكتاب المقدس الى اللغة الجرمانية
مسمياً سجنه باسم بطرس اشارة الى الجزيرة التي بُني اليها يوحنا اللاهوتي . فكان
المذهب اللوثيري في تقدم وانتشار مع كل المقاومات والاضطهادات التي
هاجت عايه ليس فقط في جرمانيا واطاليا بل في فرانسوا وانكلترا ايضاً لان
جمعية العلوم في باريس (اونيفرسيتيه) اصدرت حكماً قاطعاً ببطالان مذهب
لوثيروس واعلنت ذلك بكتابات رسمية لمعرفة الجميع وكذلك هنري الثامن
ملك انكلترا فانه كتب ردّاً على لوثيروس سماه بالاسرار السبعة مدافعة عن
الكنيسة الرومانية ولكن مع ذلك كله لم يثن عزم لوثيروس ولم يكثرث بجمعية
احبار باريس ولم يخش سطوة هنري الثامن بل بادر حالاً بنشر ردّه على حكم
جمعية باريس وعلى كتاب الملك هنري وسلك في نصّه مسلك الخشونة والفتوح
ولم يُجسب ذلك وقاحة منه في ذلك العصر بل كان برهاناً ودليلاً على جسارته
وثباته . وبعد مضي تسعة اشهر من سجنه خرج من قلعة ورنبورج ورجع الى مدينة
وتبرج حيث قبله الجميع فرحين

واذ كان الامبراطور شارل كان يومئذ مهتماً بأمور أخرى أهم من امر
 لوثيروس تسندعي كل الالتفات اليها لاجل خير سلطنته اشتهرت تعاليم
 لوثيروس وامتدت أكثر فأكثر في مدة الثمان سنوات التي عيّنت مشورة ورّس
 فانصلت الى فرنسا وانكلترا وهولاندا. ولكن لما هدأت حروب شارل كان مع
 فرنسا امر بالشام مجمع في سياريس لاجل فض الجدل الديني الذي اوجب
 الفاق فصدر حكم المجلس المذكور بتثبيت حكم مجمع ورّس ورفض التعاليم المستجدة.
 فاجتمع حينئذ امير ساكسونيا مع بعض الامراء والوكلاء الى مدينة من مدائن
 جرمانيا واقاموا الحجة على ذلك الحكم ومن ذلك اليوم غلب عليهم وعلى تابعي
 الاصلاح لقب بروتستانت اي محاجين. ثم امر شارل كان بعقد مجلس آخر في
 اوجسبورج لم يسمح البروتستانت للوثيروس ان يحضره خوفاً عليه من العذر
 فحضر مكانه ملاكثون وقدم للمجلس صورة الايمان البروتستانتى واجتهد ان
 يصلح الحال بين الطرفين فلم يأت ذلك بادنى فائدة واصدر المجلس حكماً
 صارماً ضد البروتستانت حينئذ اجتمع البروتستانت وعقدوا تحالفاً بعضهم مع
 بعض سنة ١٥٢١ وهو المعروف بمحاذة سالكاالد (اسم مدينة في جرمانيا) اتحد
 بها جميع البروتستانت واتحدوا على مقاومة من يقاومهم واجروا ايضاً اتحاداً سرّياً
 مع هنري الثامن ملك انكلترا وفرنسيس الاول ملك فرنسا - وشارل كان
 الاكبر. فمن ذلك الوقت الى سنة ١٥٤٤ كانت جماعة البروتستانت في المانيا
 في راحة وهدوء بسبب انشغال شارل كان بحاربة فرنسا والاتراك فكانوا يبنون
 ويزدادون في كل اقطارها وفي البلاد الخارجية ايضاً. وسنة ١٥٤٦ توفي
 مرنينوس لوثيروس تاركاً الاسف لجميع اصحابه

الباب الرابع

في اخبار الامبراطور كارلوس الخامس المعروف بشارلكان

ان اخبار هذا الامبراطور وسيادته على اوروبا ما تستحق ان نتخذ في بطون التواريخ نظراً لشهرته وكثرة وفاته وحروبه ومما قصدنا ان نطيل الكلام في ذكر اخباره وحالة اوروبا في عصره لا نستطيع ان نستوفي الشرح اللازم عنها في هذه الصحف ولذلك نختصر ونقول . ان شارلكان هو الابن الاكبر لفيليب ارشيدوك النمسا وملكة ابناءة فرديند ملك اسبانيا وايزابله ملكة اسبانيا . ولد سنة ١٥٠٠ للبلاد وترى في بلاد الهنك التي ورثها عن ابيه وتزوج ملكاً على اسبانيا ونابولي سنة ١٥١٦ بعد موت جده فرديند . وكان مكسيميليان الاول امبراطور جرمانيا جده ابا ابيه . فلما توفي هذا الامبراطور انتخب الشعب شارلكان خليفة له سنة ١٥١٩ وكان من افراد رجال الدهر ذا سطوة وشوكة فتمكنت احوال الساطنة في ايامه ووقعت هيبتها في قلوب ملوك اوروبا لان الدولة الجرمانية وقتئذ كان لها التقدم ونفوذ الكثرة على سائر الدول الاخرى لاسيما اذا كان امبراطورها من اصحاب الذكاء والمهارة

ولكن قبل جلوس شارلكان على سرير سلطنة جرمانيا نهض فرنسيس الاول ملك فرنسا وزاحمة على لبس الناج اذ ارسل رسلاً الى بلاد المانيا لالئاء الوساوس بين الشعب وعدم قبولهم شارلكان امبراطوراً مظهرًا لهم انه صغير السن وليس فيه اباقة واهلية لمكافحة المسلمين الذين كانوا يهددون ممالك اوروبا وان السلطنة تحتاج الى رئيس خير صاحب دراية وسياسة لكي يتخذ بحكمته نيران الاضطرابات الممتدة في داخلها بسبب المنازعات الدينية التي اشغلت عقول الاكثريين . وكان مع تلك النصائح يذل المال والهدايا لمن

بيده زمام المحل والربط ليستقيم اليه ولكن كل تلك الوسائط لم تنفع لان
الالمانيين بوجه العموم رفضوا سؤاله ولم يرتضوا باقامة امبراطور اجنبي عليهم
فبحسب عادتهم في اوقات كهذه اجتمع رؤساء الممالك وعقدوا مجلساً عاماً في
مدينة فرانكفورت حيث استقر رأي السبعة الذين لهم حق الانتخاب بمبايعة
شارلكان بعد ما اخبروا اولاً فريدرىك امير ساكسونيا ولم يقبل

فلما اشهر في ممالك اوربا وقوع الانتخاب على شارلكان غضب فرنسيس
الاول غضباً شديداً وداخله من الحقد والحسد ما يداخل كل من كان طامعاً
وصهم من ذلك الوقت على معاكسته ومقاومته كما كان شارلكان ايضاً عند حصوله
على ما كان يصبو اليه صم ايضاً على الانتقام من عدوه ومن ثم نشأت العداوة
التي نتجت نيرانها في كل مدة هذين الملكين . على انه كان يوجد اسباب آخر
موجبة للنزاع والخصام بين الطرفين . منها ان ملكة نابولي كانت في ايدي
الفرنساويين فاستخلصها منهم فرديند ظلماً وعدواناً وضمها الى اسبانيا فكان
فرنسيس يسعى لاسترجاع تاجها . ومنها ان اميرة ميلان كانت وقتئذ في ايدي
فرانسا وكان شارلكان يطلبها كإراضي امبراطورينه وحسب اميرة بورغونيا
ايضاً من متروكات اجداده وان وضع يد فرانسا عليها هو من باب التعدي
والاغتصاب . فهذه الاسباب مع ما تقدم ذكره من العداوة هيئت الفتن بين فرانسا
والمانيا زمناً طويلاً واشترك فيها اكثر الدول الاوروبية

واذ كانت انكلترا وقتئذ ذات صولة وشوكة تحت حكم ملكها هنري الثامن
اخذ كل من شارلكان وفرنسيس في استعمال الوسائط لاستجلاب خاطر هذا
الملك اليه ففجج شارلكان بنوال غاييه بواسطة الكردينال واسي وزير هنري
الثامن واعداً اياه بالكرسي الحبري . فانضم هنري الى الامبراطور شارلكان
وكان سنداً عظيماً له ضد فرانسا . اما البابا لاون فكان يتردد في اول الامر
بين الحزبين محناراً في سياسته لان الخصمين كانا قويين ولا بد للمتصر منهما من
الاستيلاء على كل ممالك ايطاليا مع ان غاية العظمى كانت ابعاد الاثنين عن

ايطاليا واستخلاصها من ايدي الاجانب فكث مدة وهو يتردد ولكنه اخيراً عقد معاهدة مع الملك فرنسيس ووعده بمساعدة الايطاليين بشرط ان يقتسمها بينهما مملكة نابولي التي كانت تحت تسلط شارلكان . ولكن بعد ذلك بقليل نفي البابا لاون عن فرنسيس وانضم الى حزب شارلكان وعقد معه شروطاً ضد فرنسا فكانت تلك المعاهدة اساساً لشوكة شارلكان في ايطاليا

فبناء على هذه المعاهدة نشر المعاهدان راية الحرب على فرنسا وبها كانا مستعدين على مهاجمة امريّة ميلان اشتبكت الحرب في مملكة نافار التابعة اسبانيا . وسبب ذلك ان هذه المملكة كانت في ايدي عائلة والبرت على نوع من الاستقلال واستخلصها منهم الاسبانيولون . في زمن ملكها حنا والبرت . وطلب اولاد هذا الملك مراراً عديدة من شارلكان ان يردهم لمملكة ابهم فكان يحاول من وقت الى آخر فاتهصر لهم فرنسيس ملك فرنسا وامدهم بالجيوش الفرنسية فدخلوا المملكة وغلبوا عليها اذ لم يجدوا فيها من يقاومهم ثم تقدموا على مملكة كاستيل واماموا الحصار على بعض مدنها فوافقتهم جيشة العساكر الاسبانيولية وانضمت الى عساكر كاستيل وهجمت عليها وقتلتهم واذ كان قائد الجيوش الفرنسية الامير لسيار لايجس ادارة العساكر انهزم ثم أسر مع جملة من أسرى اعيان الضباط واسترجع الاسبانيولون مملكة نافار في وقت اقل مما لزم للفرنساوية لافتتاحها

واذ رأى فرنسيس ما حل بجنوده ازداد حنقاً واخذ يبحث عن علة يتعلل بها ليهم على اراضي شارلكان فاخذ يهجم الامير روبرت دي لامرك ملتزم اقليبي بولون وشبانيا ليخرج عن طاعة شارلكان فقبل روبرت النصيحة وبعت اليه بعلة بما قد صم عليه وبعد ماضٍ جيوشة الى الجيوش التي جمعها سرا من فرنسا زحف على اوكرمبورج وحاصر قلعة ورتون فتعجب شارلكان من وقاحة ذلك الامير وعرف باطن الطوية فاخذ يشكو من مداخله فرنسيس الاول المغيرة العهود بينهما . فادعى فرنسيس بان ليس له مداخله في ذلك الامر وان

الجيش الفرنسي التي مع روبرت لم يرسلها هو برضا بل انضمت اليه بدون علمه. واذ كان ذلك عذراً غير مقبول ارسل شارلكان من ساعته يطلب من هنري الثامن ملك انكلترا ان يوجه جنوده لمحاربة الفرنسيين فخاف فرنسيس من عواقب الامر وامر روبرت ان يطلق سبيل العساكر الفرنسية. اما شارلكان فلم يكنف بذلك بل جهز الجنود وارسلها للانتقام من روبرت فتغلبت على سائر مدنه واقاليم ثم بعثها الى فرانسوا فاستولت على مدينة موزون وامدت من هناك الى محاصرة ميونخ فلم تنجح هناك بل رجعت مدبرة بالفشل والخيبة

حينئذ امر ملك انكلترا بانعقاد جمعية في مدينة كاليب لاجل المذاكرة في امر الصلح بين الطرفين فاجتمع الوزراء واخذوا يتخاطبون ويتداولون ولكن بدون فائدة لان كلا من الدولتين كانت تطلب من الاخرى مطالب باهظة. وفي اثناء المذاكرة ذهب الكردينال ولسي وزير انكلترا لمناظرة الامبراطور شارلكان في جرمانيا بقصد اقناعه للمساهلة في شروط الصلح ولكن لما اجتمعا تخابرا واعتصما على حرب الملك فرنسيس وتوافقا على ان شارلكان يعهم عليه من جهة اسبانيا وهنري الثامن من جهة بيكارديا

وكان البابا لاون العاشر بناء على عهده مع شارلكان وبناء على مخاصمته مع فرنسيس ملك فرانسوا بحجة تعدي حكومة ميلان الفرنسية عليه وهتكها حرمة الكنيسة في اغارتها على بعض اراضيها قد تجهز واستعد لمحاربة فرانسوا واستاجر عسكرياً من بلاد سويسرا وضمه الى جيوش الامبراطور فهاجموا الفرنسيين في ارض ميلان وانتظروا عليهم واخيراً فتحوا مدينة ميلان واستولوا على باقي المدن وفر الجنرال لوتريك الفرنسي الى ارض البندقية وانضمت مدينة بارما ومدينة بليرنسا الى الكنيسة وخسر الفرنسيون جميع املاكهم في البندقية ما عدا مدينة كريبون وبعض القلاع والحصون. فلما بلغ البابا لاون اخبار تلك النصر العظيمة كاد يطير فرحاً ولانط سروره أصيب بحمى شديدة

لم يتدارك امرها في مبدأها فتمكن منه ومات بها على زعم بعض المؤرخين .
وقبل الانتقال من هذا الموضوع لا بد من ذكر الحادثة الغريبة التي اوجبت
انكسار العساكر الفرنسية في هذه الحرب فنقول انه كان قد تعين بين العساكر
الفرنساوية جمهور من اهالي سويسرا اما حباً بالكسب او لغاية اخرى . وكان
ايضاً البابا لاون قد استاجر منهم ١٢ ألفاً وضمهم الى عساكر شارل كان . فلما رأت
جمهورية سويسرا ان شعبها قد انضم مع الدولتين المتحاربتين وانهم سوف
يدمرون بعضهم البعض فضلاً عن العار الذي يجلبونه على بلادهم بعثت
تطلب من قومها تخليص صفوف المعسكرين والعودة الى الوطن . فأخفي الامر
الذي باسم العساكر التي من جهة البابا والامبراطور ولم يدل الى محله لان
الكردينال روسيون كان ارشى الرسل خايمي تلك الرسالة . اما الامر الآخر
الذي باسم اولئك الذين في صفوف الفرنسيين فوصل وكان السويسيون
قد ضجروا من الحروب ولا سيما من عدم صرف اجورهم فبادروا حالاً للانتقال
الى امر حكومتهم وخرجوا من المعسكر ومن ذلك الوقت اخذ الفرنسيون
ينحسرون ويتأخرون

وبعد توفي البابا لاون اقيم مكانه ادريان السادس وكان ادريان هذا
كردينالاً نائباً للامبراطور شارل كان في اسبانيا فعظمت شوكة الامبراطورية من
ذلك اليوم وصفت لما الايام وفارت نفوذاً على باقي دول اوروبا ولا سيما على
فرانسا التي كادت حروبها معها تكون بلا انقطاع وعلى الخصوص في واقعة باويا
حيث انتصر جيش الامبراطور وأسر الملك فرنسيس وبقي نحو سنة في الاعتقال
ولم يطلق الا في بداية سنة ١٥٢٦ تحت شروط مهينة

ومن اعمال هذا الامبراطور انه تغلب على رومية وافتتحها سنة ١٥٢٧ في
ايام البابا اكليمندوس وذلك بسبب اتحاده مع فرانسا ضد السلطنة الجرمانية
فأسره وابقاه تحت الحفظ مدة من الزمان ولم يطلقه الا خشية من زيادة التعصب
ضده في اوروبا . ومنها انه ذهب الى افريقية سنة ١٥٣٥ بعارة عظيمة وجيش

كثير فاستخلص تونس من يد مقتصبها ببربروس واعادها الى ملكها الاصلي
المولى حسن الذي استجار به فكان هذا المشروع من اعظم اعماله واكثرها فائدة
لانه خلّص من الاعتقال نحو ٢٠ ألف نفس من اسرى النصارى في تونس
ومراكش من كان المغاربة قد قبضوا عليهم في مغازبهم البحرية

وكان قد داخل هذا السلطان الباهر الشان الزهد والورع بعد تلك
الوفائع والانتصارات العظيمة التي جرت على يده فتزع ناج السلطنة عن راسه
ووضعه على راس ابنه فيليب وانقطع عن العالم واضطرباته وقصد دبراً في احدى
مقاطعات اسبانيا فصرف فيه نحو ستين منعكفاً على النسك والعبادة. وكان في
اوقات تفرغه بقصد الجنبنة ويلي نفسه في شغلها وزرع النباتات. وكان له رغبة
عظيمة في اصطناع الساعات وفي فن الآلات الميكانيكية فصرف فيها اوقافاً
ولكن دأبه الاكبر كان الصلاة والعبادة والناهب للرحيل الى ديار الاخرة. ثم
هجر كل نسليه واتبع الطرق المتعبة الشاقة بقصد التكفير عن ذنوبه وجرائمه فكان
يجلد نفسه احياناً جازاً مؤلماً حتى كانت دماؤه تسيل على الارض ومن جرى
ذلك اعتراه الفلق والخوف وتراكت عليه الالوهام والاحزان حتى انسلبت
راحته واضطرب ذهنه. ومن اغرب ما فعل انه صم يوماً ما على ان يعمل له
جنازة في حياته اكي يكون له سيباً قوياً فعلاً لعدم نسيان الموت فلف نفسه
بلفائف الكفن وامر اتباعه ان يحاوه الى القبر الذي كان قد اعده لدفنه فخلوه
على نعش ويدهم الشموع وهم يلقون امامه صلاة الاموات فكان هو يتلو معهم
وينوح ويندب كما لو كانت جنازة حقيقية وعند نهاية الجنازة تركوه في الكنيسة
وانصرفوا. فبعد انصرفهم قام وذهب الى مخدعه وهو في حالة الاضطراب
الشديد متأسفاً على نفسه ومناثراً من صورة الموت فاعتراه عيب ذلك حتى
شدبده انتهت بها حياته وكان موته في ٢٠ ايلول سنة ١٨٥٥

ومن سلاطين جرمانيا بعد شارلكان المذكور فردينند الثاني قام سنة
١٦٦٩ وكان عدواً مرّاً للبرونستانت في كل الاقطار الجرمانية حتى دعاه

الكاثوليكيون الامبراطور الرسولي ولما كثر جورُهُ وتعديه على البروتستانت انتصر لهم فريدريك الخامس منتخب امريه الياليتين واشهر السلاح ضد فردينند فلم ينجح في مساعيه . ثم انتصر لهم ايضا كريستيان الرابع ملك الدنمارك ولم ينجح ايضا فالتزم البروتستانت ان يستغيثوا بغوستاف ادولفوس ملك اسوج فاعانهم وزحف على جرمانيا وحاربها فانتصر في عدة وقائع فاغشيت فرانساً تلك الفرصة واتحدت مع اسوج ضد المانيا واستمرت تلك الحروب عدة سنين وهي المعروفة بحروب الثلاثين سنة الى ان انتهت سنة ١٦٤٨ في معاهدة وستاليا التي عادت بالخسران على بيت اوستريا وعلى الحبر الروماني . اما على الاولين فلانها انزلتهم عن حقوق وارياضي كثيرة تابعة السلطنة الالمانية الى فرانساً واسوج وغيرها واما على الثاني فلانها اضعفت شوكة ديوان رومية ومدعيات قسوسها من جهة محو الهرطقة عن وجه الارض وجعلت للبروتستانت الحرية التامة في استعمال شعائر دينهم . وقام بعد فردينند المذكور جملة سلاطين ضرباً صغماً عن ذكرهم لعدم اهمية ما حدث في ايامهم

وسنة ١٧٩٢ نساظن على جرمانيا فرنسيس الثاني وفي ايامه حدثت حروب نابوليون الاول فكان المذكور من جملة الملوك والسلاطين الذين خضعوا لبطشه واقباله فالتزم في سنة ١٨٠٦ ان يتنازل عن سلطنة جرمانيا واقتصر على ان يكون امبراطوراً على اوستريا واستمر سلطاناً الى ان توفي سنة ١٨٣٦ وكانت سلطنة النمسا في اواخر ايامه من اعظم مالكة اوروبا . ومن سنة ١٨٠٦ لم يعد يتم امبراطور على البلاد الجرمانية الى سنة ١٨٧١ حين تغلب حضرة ولم الاول ملك بروسيا على فرانساً فعرض عليه الالمان لقب امبراطور فقبله وبهذه الوساطة اتحدت جرمانيا ثانية تحت سلطنة واحدة

الفصل الثالث عشر

في وصف سويسرا اي بلاد السويس وتاريخها

يحد هذه البلاد شمالاً اماره بادن وشرقاً اوستريا وجنوباً ايطاليا وغرباً
فرانسا وسنة ١٨٧٠ بلغ عدد اهلها ٢٦٧٠٠٠٠ وهو اؤها جيد وترتبطها مخرصة
وبها جبال الالب او البيا وهي اعلى جبال اوروبا لا ينقطع عنها الثلج من سنة الى
سنة وفيها من الاماكن البهجة المكتسبة بالنبات ما يسر عيون الناظرين. ويخرجها
عدة بحيرات عذبة وانهر كبيرة والمراعي فيها عظيمة مشبعة فيخرج منها احسن
انواع السمن والزبدة والجبن ولذلك يعتني اهلها بتربية الحيوانات والمواشي ومن
معادن هذه البلاد الحديد والحاس والرخام والكبريت وفيها كثير من المياه
المعدنية التي تقصدها الناس للعلاج. ولاهلها رغبة عظيمة في اكتساب العلوم
والمعارف ولهم اليد الطولى في جميع الصنائع ولا سيما في عمل الآتشة النطية
والحريرية وفي اصطناع الساعات ودفع الجلود. اما ديانة هذه البلاد فهي بين
اللاتينية والبروتستانتية مناصفة وحكمها من نوع المشيخة الجمهورية ولها رئيس
ينتخبه الشعب كل سنة. وتنقسم هذه المملكة الى ٢٢ مقاطعة كل واحدة منها مسئلة
بنفسها في مصالحها الداخلية ولها مجلس ورئيس وجميع هذه المقاطعات متحدة اتحاداً
عاماً كدولة جمهورية كبيرة. ومن اعظم مدنها زيورخ وورن وولسون وجنية.
ومع ان وسائل المعيشة في هذه البلاد كثيرة يوجد بين اهلها فقر كثير فلذلك
يضطرون الى ترك اوطانهم ويقصدون ممالك اوروبا في طلب معاشهم فتم
من يجند بين عساكر الاجانب ومنهم من يحول في البلاد الغربية متعاطياً اسباب

التجارة والغناء والموسيقى بحيث لا يكاد يوجد قطر في العالم خالياً منهم وكانت بلاد سويسرا تُعرف قديماً عند الرومانيين باسم هولوجيا وشعبها من جملة قبائل برابرة الشمال استولى عليها الرومانيون سنة ٥٨ قبل الميلاد وبقيت تحت تسلطهم الى القرن الخامس حين انقضت سلطنتهم الغربية فانضمت الى جرمانيا ما عدا بعض ولايات منها. ثم بعد ذلك صارت قسماً من مملكة بورغونيا (التي هي الآن ولاية فرنساوية) فتسلط عليها تارةً الفرنساويون وتارةً الالمانيون. وفي زمن الالتزامات في اوروبا دخلت في ايدي عدة عشائر اخصها عائلة هابسبورج التي منها رودولف هابسبورج سلطان جرمانيا. فكانوا يحكمون البلاد ويتصرفون فيها كيفما ارادوا. ولما جلس رودولف المذكور على سرير سلطنة جرمانيا وكان ذا ثروة وشوكة عظمتين في بلاد سويسرا ضم القسم الاكبر من هذه البلاد الى سلطنته فصارت تابعة لها فاحسن معاملتهم وكان محبوباً منهم. ولكن لما قام بعده ابنه البرث سنة ١٢٩٨ اساء التصرف معهم وجار عليهم وارسل لهم عمالاً قساة فكانوا يظلمونهم ويتعدون عليهم بحيث نفرت قلوب الناس منهم فابغضوهم واخذوا يسعون في التخلص من حكمهم

ومن هؤلاء العمال رجلٌ قبيح الخصال يقال له جسرل نصب ذات يوم عموداً في احدى ساحات المدينة ووضع على راس ذلك العمود برنيطنة وامر بان كل الذين يمرون من هناك يخضعون امامها ويقدمون لها مزيد الاحترام. فامثل الناس امره خوفاً من العقاب والاهانة الا رجلاً حرّاً يقال له ولم تلّ فانه لم يخضع لامر جسرل ولم يحترم برنيطنة. فلما بلغ جسرل عدم انقياد تلّ الى امره غضب وصم على فتاك فارسل واستدعى باين تلّ. ثم التفت وقال لايه اني اشتاقاً عليك اريد ان اعطيك فرصة لتنجو من الموت فها اني ساضع على راس ابنك تناحةً فانت بقوسك وارم هذه التناحة بنيلة من بعيد فان اصبتها عفوت عنك والا فلا بد من قتلك. وكان تلّ المذكور من ارى الناس بالشاب فجاء بقوسه ورمى تلك التناحة فاصابها وحصل على العفو. وكان مع تلّ نيلة اخرى مخبأة

بين ثيابه فابصرها جسر وسأله عنها فقال هي لكي أربيك بها وأريح الناس من
شرك وإذاك . فاستعظم خطابه فامر قبضه وقبده وصم على نفيه ثم القاه في
بعض القوارب وعبر به قاصداً القاطع الثاني من بحيرة لوسرن لينيه هناك .
وبينا كان الملاحون يقذفون هبت عليهم ريحٌ عاصفة حتى كاد القارب يغرق
بهم . وإذا كان تل نوتياً ماهراً حلوه من وثاقه ليعينهم ويساعدهم في تدبير ما يلزم
لنجاة القارب فعند وصولهم إلى الشاطئ خرج تل أولاً من القارب وجلس على
بعض الصخور وبينا كان جسر ساعياً في الخروج رماةً بنبله القاه قتيلاً ثم أخذ
في الهرب واجتمع باصحابه في إقليم شونيز حيث كانوا جميعاً ساعين في استخلاص
بلادهم والحصول على حريتهم

وكان للسويسيين ثلاثة رؤساء من محبي الوطن قد اجمع رأيهم على العصاة
وخلع طاعة السلطنة الجرمانية وكانوا مترقين الفرص المناسبة لذلك . ولما بلغهم
ما فعله ولیم تل سرواً جيداً وحسبوا تلك الحادثة فرصة مناسبة للعمل فاقاموه
عليهم رئيساً وانتقلوا من ذلك اليوم على حرب القوم وجرت بينهم حروب عديدة
ابتدأت سنة ١٢٠٤ وانتهت بانتصارهم على الجرمانيين سنة ١٢١٥ فطردوهم من
بلادهم واستخلصوا المملكة من أيديهم

وما يستحق التعجب منه أنه لم يزل إلى الآن بعض جماعة من السويسيين
يعتقدون بأن ولیم تل لم يميت إلى الآن لكنه راقد في مغارة بالقرب من بحيرة
لوسرن مع رفيقين له من المساعدين في تأسيس الجمهورية للحفاظة والحاماة
عن بلادهم حتى إذا دخلت سويسرا مرة أخرى في قبضة الأسر ينهض هؤلاء
الرجال من رقادهم ويتفقدون اسلحتهم القديمة ويخونون الشعب على القيام
وطلب الحرية

وبعد استقلال سويسرا لم تفتقر الحروب بين أهلها وبين ملوك جرمانيا
الذين صولوا إلى استرجاعها ليس فقط لأجل توسيع دائرة سلطتهم وثروتها

ولكن لاجل الاستعانة بهم على الاعداء لانهم كانوا من الشجعان والفرسان
المعدودين. فدامت تلك الحروب بين الطرفين الى الجيل الخامس عشر وكان
الاتصار فيها غالباً للسويسيين. فالتزمت حينئذ جرمانيا ان تقر باستقلاليتهم
بعد ان انسحبت عن محاربتهم. وسنة ١٦٤٨ انعقدت الشروط الهومية بين
الدول الأوروبية المعروفة بصلح وستفاليا وقرر الجميع باستقلاليتها ودامت
كذلك الى سنة ١٧٩٢ حين استولت عليها الجمهورية الفرنسية ونظمت لها
ترانيب وقوانين جديدة ولكن بعد سقوط نابليون الاول سنة ١٨١٥ رفضوا
تلك التنظيمات ورجعوا الى قوانينهم الاصلية من بعد ما حسنوها وهذبوها. وسنة
١٨٤٨ نظمو ترتيبات جديدة لاتحادهم واحكامهم وهي التي اشرنا اليها في اول
الفصل

اول من نادى بالمذهب البروتستانتي في هذه البلاد زوينكليوس سنة
١٥١٩ في مدينة زوريج ثم كلثينوس في مدينة جينيف في الجيل نفسه وهو
فرنساوي الاصل من اعمال بيكارديا وكان من فطاحل العلماء واعيان
اللاهوتيين وله عدة مؤلفات مشهورة واكثر الفرنسيين البروتستانت يلقبون
كلثينيين باسمه

الفصل الرابع عشر

في بلاد النمسا اي اوستريا

الباب الاول

في وصف هذه البلاد

ان مقر سلطنة النمسا واقع في اواسط اوروبا ومجدها شمالاً روسيا وبروسيا
وساكسونيا وشرقاً روسيا ايضاً ومولدافيا وجنوباً ايطاليا وبحر البندقية ونوركا
في اوروبا وغرباً بافاريا وورتمبرج وسويسرا . وسنة ١٨٦٩ بلغ عدد سكانها
نحو ٢٦ مليوناً بما فيه اهالي بلاد المجر الذين يبلغ عددهم ١٥ مليوناً ونصفاً . والديانة
الغالبة في اوستريا هي اللاتينية وعاصمة البلاد مدينة فيانا بخرقها نهر الدانوب
المسمى نهر طونة الذي كثيراً ما يجمد ماؤه في فصل الشتاء وتجتازهُ الناس على
الجليد . وفي هذه المدينة كثير من الابنية الفاخرة والمعابد المستظرفة والساحات
الجميلة وعدد سكانها بلغ سنة ١٨٦٤ نحو ٦٠٠ ألف نفس بما فيه العساكر المقيمون
فيها . ومن هذه السلطنة ايضاً مدينة تريسته الواقعة على شاطئ بحر البندقية وهي
ميناؤ للمنجر واهلها نحو ٧٥ ألفاً

اما هواء هذه البلاد فعلى الاغلب بارد وتربتها جيدة سواء للزرع ام للمرعى
وهي تُعد من اغنى الممالك الاوروبية من جهة المعادن فان فيها معادن الذهب
والفضة والنحاس والزئبق والرصاص والحديد والملح والتونا والانتيمون والزاج
والزرنج وفي بعض المواضع من بلاد النمسا بعض الاحجار الثمينة كالياقوت الاحمر

وغيره واثرة جيدة لعمل الخزف الفاخر وغير ذلك . وفيها كثير من الصناعات المعدنية فان في بلاد المجر ما يتوف عن الالف عين . اما الصنائع في اوستريا فهي في رواج وفيها عدة معامل معتبرة ولاهها الاعناء في انتان صناعة الجوخ والاقمشة الحريرية والفطنية والكتان والقرطاس والزجاج الصيني وعمل امتعة البيوت وصناعة الفراء ولكن ليس لهم خبرة كافية في الفلاحة والزراعة فلذلك الحرثة قليلة عندهم بالنسبة الى غيرها من البلاد . وفي هذه البلاد عدد عظيم من الحيوانات النافعة مثل البقر والخيول والحديد والضأن والخنزير وقد اخذ تعديلا فبلغت نحو ٥٥ مليوناً . وفيها ايضا عدة جمعيات لتقدم صناعة الفلاحة وجملة شركات لاعانة الفلاحين وامدادهم بالمال بفوائد قليلة لانتان مشروعاتهم . وللتساويين اعناء بالعلم والتعلم وعندهم مدارس كثيرة يبلغ عدد تلامذتها مليونين ونصفاً بين ذكور وإناث ولهم مكاتب لسائر العلوم الرياضية وعدة مكاتب مخصوصة بالصنائع وغيرها من المدارس الخاصة بالفنون البحرية والعسكرية والاحكام وغيرها

وتنقسم هذه السلطنة الآن الى قسمين كبيرين القسم الاول مملكة النمسا وما يتبعها من البلاد الالمانية والسلافية كامرية سالسبورج وكارينول وستيريا والتيرول النمساوي ومملكة بوهيميا ومورافيا وغيرها من كانت مرتبطة بالانحد الالمانى وانفصلت عنه . والقسم الثاني مملكة المجر اثني ولتن كانت تعتبر قسماً من دولة النمسا منذ سنة ١٥٦٢ لم يلبس تاجها الامبراطور فرنسيس يوسف الا سنة ١٨٦٧ وتعد هذه الدولة من الدول الاولى مادياً وادبياً

الباب الثاني

في تاريخ بلاد النمسا

ان هذه المملكة كانت في اول الامر ولاية من ولايات الرومانيين المسماة

نوركاو بانونيا العليا انضمت للسلطنة الرومانية سنة ٢٣ للميلاد في ايام طيباريوس قيصر. وفي الجيل الخامس بعد انقراض تلك السلطنة استولت عليها برايرة الشمال كجماعة الهون والستروغوث والاندال واللونغوبارد. ثم اقتسمتها اهل باقاريا والتدر الى ان استولى عليها شارلمان ملك فرانسا سنة ٧٩١ للميلاد وأطلق عليها اسم اوستريا وبقيت في ايدي الفرنساويين الى سنة ٩٨٢ حين استولى عليها اوثنون الثاني سلطان جرمانيا وولى عليها ايوبولد الاول من عائلة بامبرج ونوارثها نسله من بعده تحت لقب مرغراف اي ولاة ثم نجت لقب مركز ودوك. وكان عدد من تولى اوستريا تحت هذه الالقاب من هذه العائلة اثني عشر رجلاً. ثم بعد انقراض هذه العائلة سنة ١٢٤٦ دخلت اوستريا في ايدي فريدرىك الثاني امبراطور جرمانيا ثم انتقلت بعد سنين الى اوتوكاد ملك بوهيميا ثم انضمت الى المانيا سنة ١٢٧٦ في زمن الامبراطور رودولف هابسبورج الذي ولى عليها ابنة البرث سنة ١٢٨٢ وبقيت تحت تسلط تلك العائلة يتداولها الخفاف عن السلف تحت لقب دوك الى سنة ١٤٥٣. ثم بعد ذلك العهد أطلق عليها لقب ارشيدوك بدون ان تفصل عن السلطنة الجرمانية وقد قام من ارشيدوكاتها الذين هم من عائلة هابسبورج عدة اشخاص نبواً وسربر السلطنة الالمانية ولكن لم يستقر لهم حق الوراثة فيها الا الى سنة ١٤٣٨ حين انتخب لسربرها البرث الخامس ارشيدوك اوستريا تحت اسم البرث الثاني وفي ذلك الوقت كانت اوستريا قد تعاظمت جداً أولاً بانضمام ستيريا والانراس والصواب المعطاة اليها من الامبراطور رودولف وثانياً بسبب اقتران الامبراطور مكسيميليان بماريا من عائلة بورغونيا سنة ١٤٧٧ فأضيف اليها بلاد هولاندا وقسم كبير من بورغونيا اي برغنديا. ولما استولى شارلكان على السلطنة الجرمانية واوستريا اضاف اليها مملكة اسبانيا مع كل تملكاتها الخارجية ولكن بالقسمة التي جرت بينه وبين اخيه الارشيدوك فردينند سنة ١٥٢١ وقعت هولاندا ودائرة بورغونيا في سهم شارلكان وارشيدوكانو اوستريا مع نوابها في

سهم فردينند الذي في سنة ١٥٢٦ سَي ملكاً على بوهيميا عتب موت ملكها لوبس
فضمها الى اوستريا مع ولايات مورافيا وسيليزيا ولوزاس مع الاسقفيات الثلاث
التي كانت تحت حكم المطارين وهي نول ومتس وفردون . ولما تنازل شارلمان
عن الاحكام سنة ١٥٥٦ وجلس اخوه فردينند مكانه على تخت السلطنة
الجرمانية قاومة البابا بولس الرابع تحت حجة ان تنازل الواحد وانتخاب الثاني
بدون مصادقة مجلس رومية لا يصح فلم يعباُ فردينند بهذا الكلام ورفض لزوم
الثبيت من الكرسي الروماني كما كانت العادة جارية في تلك الايام . وكانت
احكامه في غاية من الهدو والسلم حتى انه صرف اكثر ايامه الاخيرة في الاجتهاد
بان يصلح الكاثوليك مع البروتستانت ولم يخرج

وسنة ١٦٤٨ في ايام سلطنة فردينند الثالث عند انعقاد صلح وستفاليا
الذي هو نهاية حروب الثلاثين سنة بين المانيا وفرنسا واسوج انتزعت من
اوستريا ولايتا اللوزاس والالزاس والاسقفيات الثلاث ولكنها استعاضت تلك
الخسارة فيما بعد باسنيلائها على ترانسلفانيا اي الاردل في ايام الامبراطور
ليوبولد الاول سنة ١٦٩٩ وعلى كرواتيا . وفي سنة ١٧١٢ ورثت اوستريا من
كارلوس الثاني ملك اسبانيا اراضي بورغونيا وامرية ماتو ومملكتي نابولي
وسردينيا ولكنها استبدلت سردينيا بمملكة صقلية سنة ١٧١٢ ثم بعد ذلك ببضع
سنين ارجعت الصقليتين اي نابولي وصقلية الى دون كارلوس الاسبانيولي
واخذت عوضاً عنها امرية يارما وبلاشفسا وكواستالا

وعند موت كارلوس السادس ارشيدوك اوستريا وامبراطور المانيا ورثته
ابنة ماريا تريزا في السلطنة سنة ١٧٤٠ اذ لم يترك نسلًا من الذكور فتزوجت
بفرنسيس دوك لورين وجعلته شريكاً بالاحكام . وكان وقتئذٍ منتخب امرية
بافاريا يصبو للحصول على السدة الامبراطورية وعرضته فرنسا فتقاومة فرنسيس
اشد مقاومة وبعد منازعات ومناعب كثيرة نودي باسم فرنسيس الاول
امبراطوراً سنة ١٧٤٥ وهو جد العائلة المعروفة بعائلة اوستريالورين المستولية

الآن . ثم توفي بعد ان حكم ٢٠ سنة وخلف ستة عشر ولداً منهم يوسف الثاني الذي خلفه على الكرسي من بعد موت امه ماريا تريزا سنة ١٧٨٠ ومنهم ماري انتوانيت المنكودة المحظ التي تزوجت بلويس السادس عشر ملك فرنسا وقتها الشعب اشنع قتلة

ثم ان حروب الجمهورية الفرنسية مع المانيا في اخر الجيل الثامن عشر وحروب نابليون الاول في اوائل الجيل التاسع عشر حين فاز على النمساويين ودخل مدينة فيانا بالقوة والافتدار سلبت من اوستريا قسماً كبيراً من املاكها في المانيا وايطاليا مع جانب عظيم من سطوتها وسيادتها وانزلت فرنسيس الثاني عن سلطته الجرمانية وحصرته حكمة في المالك التي له فيها حق الوراثة فقط . فمن ذلك الوقت نبغت الامبراطورية النمساوية وكُفّ فرنسيس الثاني بفرنسيس الاول وانحلت السلطنة الجرمانية . ولكن عند سقوط نابليون ووقوع حوادث سنة ١٨١٥ استرجعت اوستريا ولاياتها القديمة ما عدا دائرة بورغونيا فانها استعاضتها بمملكة لومبارديا وفنيس اي البندقية

وسنة ١٨٤٨ عقب الثورة الفرنسية نبغ في اوستريا ثورة تعرف بثورة اللومباردية والبندقية كان المقصود فيها خلع سلطة النمسا والالذاق بايطاليا لانها فرعان منها . واذ كان النمساويون غير مرتضين من سياسة مترنيخ الوزير قاموا هم ايضاً في مدينة فيانا واطروا العصيان . فالتزمت العائلة الامبراطورية مترنيخ ان يتنازل عن وظيفته فتنازل وهرب الى انكترا . اما الامبراطور فردينند الاول فاذ لم يقدر على تهدئة الشعب ترك هو ايضاً فيانا وذهب الى اينسبروك حيث اقام نحو ثلاثة اشهر . ثم رجع الى العاصمة بطلب من الاهالي ولكن اذ رأى ان روح الثورة لم يزل متفناً في قلوب الشعب اخذ عائلته ووزرائه وذهب الى اولوتر واقام الحصار على فيانا وبعد قتال شديد دخلتها جنوده واخضع اصحاب القنن . ولما حصلت الراحة في البلاد تنازل فردينند الاول عن تاج السلطنة لابن اخيه فرنسيس يوسف في ٢ كانون اول من سنة

١٨٤٨ وهو الامبراطور المستولي الآن

وسنة ١٨٥٩ نبغ النزاع بين سردينيا والنمسا بسبب بعض املاك ايطاليا البانية واغراض سياسية افضى بهم الى القتال رغما عن كل الوسائط التي اسعملتها الدول المتحابة لحفظ السلام. واذ كانت فرنسا تريد مساعدة الايطاليين في حصولهم على حريتهم نهض نابوليون الثالث لمساعدة سردينيا واستظهرت الدولتان المتحلفتان على اوستريا في واقعي ماجنتا وسولفرينو ثم عقد نابوليون صلحا مع امبراطور النمسا بعد ما حصل منه على تنازل عن الجانب الاكبر من لومبارديا الى ايطاليا وانسحب عساكر الفريين بعد ما نودي باسم فيكتور عمانوئيل ملكا على لومبارديا. اما قسيس فع انها بقيت تحت تسلط اوستريا اشترط بدخولها في الاتحاد الايطالياني

ولما كانت العداوة بين دولتي النمسا وبروسيا مناسنة من قديم الزمان بسبب الرياسة على الممالك الجرمانية. وكانت ايطاليا ترغب استخلاص عمالة البندقية من النمسا وقعت المعاهدة بين ايطاليا وبروسيا على محاربة النمسا فاصطلت نيرانها سنة ١٨٦٦ وانتصر البروسيون على النمساويين في معركة شهيرة في سادوفا واستخلصوا منهم جملة اماكن انضمت الى بلادهم وصار الخنازل لايطاليا عن البندقية وباقي لومبارديا. وبسبب الحروب المار ذكرها ترتب على النمسا ديون كثيرة ووقعت في الارتباك ولكن لحسن الفئات امبراطورها وتدابيره الحكيمة اخذت البلاد تتخلص من ذلك الارتباك وتقدم في سيرها ونموها في الثروة والافتقار. وفي ٨ حزيران سنة ١٨٦٧ توج هذا الامبراطور ملكا على بلاد المجر فصار لقبه سلطان النمسا وملك المجر فازداد بسبب ذلك دخل الدولة وسطوتها

الفصل الخامس عشر

في مملكة بروسيا

الباب الاول

في وصف هذه البلاد واهلها

هذه المملكة مجدها شمالاً ببحر بلتيك ومملكة الدنمارك وشرقاً بروسيا وجنوباً ببلاد النمسا وبعض الممالك الجرمانية وغرباً بمملكة الهولنديين ودوقاوتو لوكزامبورج الكبرى وفرنسا. وكان عدد اهلها قبل حربها مع النمسا سنة ١٨٦٦ تسعة عشر مليوناً ولكن بعد ان انضمت اليها مملكة هانوفر واراضي شليسويك هولستين ولاونبرج وهس كاسيل وهس هامبورج وامرية ناسو ومدينة فرانكفورت وبعض اقسام بافاريا وغير ذلك من الولايات والاقاليم اتسعت املأها وزاد عدد سكانها فصارت تُحسب نحو ٣٥ مليوناً. اما انهرها وجبالها فتوسطة وهوائها بارد رطب ولكن في النواحي الجنوبية معتدل وتربتها بالاجمال قليلة الخصب وانما ما يخرج من زرعها يكفي لوازم اهلها وابد اقليمها نقل بها زراعة العنب. ولكن الاقاليم التي على شاطئ نهر الرين تكثر فيها الكروم ويخرج منها العنب الجيد. ومن محاصيلها البطاطا واللفت والدخان وقصب السكر والعسل والتمب والزعفران وفيها ايضاً الخيل والحديد والكمرباء. ومن معادنها النحاس والرصاص والشب وملح البارود والزاج والحديد والملح. والصناعات في بلاد بروسيا عظيمة متقدمة حتى انها تضاهي تقريباً صناعات فرنسا وانكلترا خصوصاً

قماش الكتان والصوف والحبر والظن واصطناع الاسلحة المتنوعة والقرطاس والساعات والبلور والحرف . والمطابع فيها عديدة والعلوم ناجحة والمدارس كثيرة بحيث قوانين البلاد تلزم الاهالي ان يرسلوا اولادهم للمدارس عتب بلوغهم سن الست سنين وقد بلغ عدد التلامذة سنة ١٨٦١ ثلاثة ملايين والديانة العامة هي البروتستانتية

ومن امهات مدن بروسيا مدينة برلين عاصمة المملكة وهي من المدن الظريفة ذات ابنية وقصور جميلة واسواق واسعة يحيطها سور له ستة عشر باباً واهلها يبلغون ٥٠٠ ألفاً . ثم مدينة برسلو وهي ثانية برلين في الاتساع وكثرة الاهالي وبها معامل وصنائع عديدة وتجارها كثيرة . ومدينة كونيسبرج وهي مدينة ظريفة وعدد اهلها نحو ٨٠ ألف نفس وبها قصر جميل للملك وكنيسة عظيمة جيدة البناء

اما الحكم فمن نوع المكي المتبد . وعساكرها كثيرة العدد نظراً لقوانينها وشرائعها لان كل رجل من الاهالي عند بلوغه السبع عشرة سنة يجب ان يدخل في العسكرية ثلاث سنوات وبعد ذلك يبقى رديفاً الى سن الثلاثين سنة وفي اثناء هذه المدة يلتزم ان يتعلم مرة واحدة في كل اسبوع وهذه الواسطة ترى اكثر رجالها عسكرياً عند اللزوم والاحتياج وبالمجمل ان عساكر هذه البلاد وشهرة قوادها وخبرتهم في امور الحرب تفوق باقي جنود اوروبا كما انضج من حروبها الاخيرة مع النمسا وفرنسا . ولكن بمقدار ما قوتها البرية عظيمة ومنظمة بعكس ذلك عمارتها البحرية . اما الآن فهي مجتهدة في تكثير مراكبها الحربية وقد خصصت مبلغاً جسيماً لبناء سفن جديدة مدرعة افتداء بياقي الدول

وتنقسم هذه المملكة الآن الى تسع ايلات وهي بروسيا وبوزن وبرندابورج وبوميرانيا وسيليزيا وساكسونيا ووستفاليا والريف وهو هنرولرن . ولغة هذه المملكة هي اللغة الجرمانية ولكنه يوجد في اطرافها اقوام من الصقالبة الذين لم يزالوا يتكلمون بلغتهم الاصلية

الباب الثاني

في تاريخ مملكة بروسيا

انه في القرن الاول من الميلاد جاء قوم من اللومباردين وجماعة من قبائل الصواب والفندال واستوطنوا اباله براندبورج التي هي من جملة ايلات بروسيا المار ذكرها ومكثوا سوية الى القرن الخامس حينما نهض الفنداليون وطردها تلك الشعوب من بينهم واستقروا في تلك الابالاة واخذوها لانفسهم الا انهم لم يمكثوا بها زماناً طويلاً حتى دهمهم الرومانيون فاخذوهم واستولوا عليهم . ثم جاء بعد ذلك شارلمان ملك فرنسا وضم تلك البلاد الى سلطته ومن بعده اخذت تناولها بعض امراء المقاطعات الجرمانية الى ان دخلت في ايدي البرت الملقب بالثدب ففي ايامه تهدبت اخلاق اهلها واعتنقوا الديانة النصرانية بعد ان كانوا وثنيين ثم في الجيل الخامس عشر لما كان سيجرموند امبراطوراً على المانيا اقام فريدريك السادس من عائلة هوهنتوارن حاكماً على اباله براندبورج فاشتراها منه بمبلغ ٢٠٠ الف فيوريني واخذ لقب البكتور حسب العادة الجارية في تلك الايام ونسى فريدريك الاول من براندبورج وجميع حكام بروسيا وملوكها من ذلك الوقت الى الآن هم من ذرية هذا الامير وكانت يومئذ اباله براندبورج منقسمة الى ثلاثة اقسام وهي المارش القديمة الكائنة غربي وادي الالب والمارش المتوسطة بين وادي الالب ونهر الاودر . واما المارش الجديدة فلم تنضم اليها الا سنة ١٤٤٥ في ايام فريدريك الثاني الملقب بسن الحديد عندما استخلصها من الكفار لارية التوطنيين الذين كانوا مسئولين على اباله بروسيا المنفصلة عن باقي الايلات الجرمانية واما السبب في تسمية هذه الايالة ببروسيا فهو انه بعد خروج الامم الغوثية

منها اغار عليها جماعة من السلاف الذين كانوا يسكنون وادي القيسنول وكان يقال لهم بروسي فامتلكوها ونسبت باسمهم وكانوا من البرابرة عابدي الاوثان . وفي اواخر الجيل الثالث عشر اخضع هؤلاء القوم قبيلة التوطينيين التي كانت في محاربة المسلمين في فلسطين واستولوا على بلدانهم وحكموها . وكان قائدهم يسمى هيرمن سالزا فجعل دار اقامته في مرينبورج سنة ١٢٠٩ . ثم تواردت عليهم طوائف الالمان التي في جوارهم فسكنت بينهم وفي مدة قصيرة تحسنت احوالهم وكثر عددهم ونمو قوتهم وغنى وابتنوا لهم مدناً وقرى . ولكن اذ كانوا لا يحسنون التصرف مع الرعايا ويكثرون في ظلمهم نهض الاهالي للتخلص منهم واستعانوا باهل بولونيا عليهم فساعدوهم على قتالهم حتى ظفروا بهم وتخلصوا من حكمهم سنة ١٤١٠ . وبعد محاربات اخرى بينهم وبين باقي طوائف البلاد المختلفة انقسمت بروسيا الى قسمين غربي وشرقي فالاول تبع مملكة بولونيا والثاني بقي بيد ولايتهم باسم بروس التوطيني تحت حماية بولونيا

وسنة ١٢٥٠ استولى زمام القسم الشرقي الامير البرت من عائلة براندبورج السالف ذكرها فاستقل به واورثه لذريته ومن ذلك الوقت صارت تلك الايالة معروفة بدوكانو بروس . يتناوهاحكام ايالة براندبورج الذين اتفقوا ادارتها وسعوا في تقويتها حتى صارت من الامريات المتسعة ذات سطوة وشوكة يتبعها جملة ملحقات . ففي سنة ١٦٨٢ لما كان فريدريك الثالث اميراً على امرية بروسيا وليوبولد امبراطوراً على السلطنة الجرمانية اعان فريدريك ليوبولد على محاربة الاتراك وتحالف معه سنة ١٧٠٠ ضد لويس الرابع عشر ملك فرنسا في حروب وراثية اسبانيا فمقابلته لتلك الخدمة طلب من الامبراطور ان يلقبه ملكاً فاجاب طلبه سنة ١٧٠١ لقبه ملكاً تحت اسم فريدريك الاول فصارت بلاده مملكة مستقلة من ذلك اليوم واعترف بتتويجه جميع دول اوربا بحكم وعدل واتن احوال المملكة وسعى في ترقية اسباب تقدمها ثم توفي سنة ١٧١٢

وجلس بعده على كرسي المملكة ابنة فريدريك غليوم الاول ولم يكن ميلة كاييه الى امتداد المدن والمعرفة بل انجذبت امياله الى الامور الحربية والتراتيب العسكرية والاعمال الجسدية . وكان دابة التفتيش على من كانت ابدانهم واجسادهم قوية وقاماتهم طويلة فياتي بهم ويدخلهم في سلك عسكره . وكان لهذا الملك الاني مخصوص للخدمة من نخب الرجال واطولهم قامه يبلغ طول الرجل ثلاثة اذرع ونصفا . ومن جملة مزاياه انه كان محبا للمال لا يطبق ان يرى انسانا كسلانا بدون شغل وكثيرا ما كان يحمل عصاه ويدور في اسواق برلين وحيثما وجد شخصا بلا شغل ضربه ضربا مؤلما

وبعد موت فريدريك غليوم الاول خلفه ابنة فريدريك الثاني الملقب بالكبير سنة ١٧٤٠ وكان شديد الباس عالي الهمة وفي السنة الاولى من حكمه توفي الامبراطور كارلوس السادس من عائلة اوستريا نازكا السلطنة لابنته ماريا تريزا واذ كانت المذكورة في ارتباك عظيم من جهة احوال المملكة وسياستها انتهز الملك فريدريك تلك الفرصة وادعى بحقوقه في ايلالة سيليزيا فزحف اليها بالعاكر وامتلكها وضمها الى مملكته . واذ نهضت المملكة المذكورة لتتأله واسترجاع تلك الايالة حاربها واتصر على جيوشها في فريدبرج سنة ١٧٤٥ ثم عقد معها شروطا في مدينة دريسد تتضمن تنازها له عن الايالة المذكورة . وكانت همه فريدريك لا تقتصر عن اصلاح حال المملكة طرفه عين فبذل غاية جهده في ترقية التجارة والصنائع المختلفة والفنون والعلوم خصوصا في التنظيمات والترتيبات العسكرية . فاصبحت البلاد في ايامه في اعلى درجة من المجد والعز والشوكة والغنى فاحدقت بها اعين الجميع وحسدها الحاسدون وخافها اكثر الملوك وتظاهروا ضدها ولاجل تنكيس سطوتها اتحد على حربها ومقاومتها فرانسوا والنمسا وروسيا ثم ساكسونيا واسوج فانضمت جيوشهم بعضها مع بعض واشتهروا على فريدريك الحرب وهي المعروفة بحرب السبع سنين وقاتلوه فانتصر عليهم في بعض الوقائع ولكنهم اخيرا استظهروا عايه واستخلصوا منه عدة اماكن ومدائن

حتى اوشكت مملكة نفع فريسة في ايدي المتحدين ولكنه شمر اخيراً عن ساعد العزم والثبات واقنع صفوف النمساويين والفرنساويين سنة ١٧٥٧ في روسباخ فتتكت بهم فتكاً عظيماً واخذ في استرجاع املاكه شيئاً فشيئاً سنة ١٧٦٣ عند صلح مع الدول المذكورة واقرؤا له بايانه سيليزيا التي كانت في اول الامر سبباً لهذه المنازعة . وبعد خروج فريدريك من هذه الحرب المستطيلة حول الثغاة الى داخلية بلاده ورجع الى ما كان عليه من الاصلاح والتحسين فاجدد فيها السعة والنجاح وضم اليها سنة ١٧٢٢ القسم الغربي من بروسيا وبعض الاقاليم والمخفات وذلك عند انقسام اراضي بولونيا . وما يستحق الذكر انه كان قد شرع يوماً في بناء قصر عظيم للترفيه في بستان كثير الاشجار والزهور وكان بجانب ذلك البستان طاحون تدور بالهواء لرجل من عامة الناس وكان يضرب نظارة القصر لفرجها منه فارسل فريدريك بعض غلاته ليشتريها له من صاحبها بالثمن فاي ولم يقبل فضاغف له في ثمنها فامتنع ايضاً ولما بلغ فريدريك ذلك استعظم الامر واستدعى الرجل اليه وقال له ماذا يمنعك عن بيعها وقد ضاعفت لك في ثمنها فاجابه يا سيدي انها عزيزة علي وهي عندي بمنزلة قصرك يونسد . فازداد الملك تعجباً من جسارته وقال له يا جاهل الانعم اني قادر على اخذها منك غصباً وقهراً . فاجابه الرجل نعم كان يمكنك ذلك لو لم يكن عندنا قضاة في برلين . فتبسم الملك وانفتحت الى من حوله من الوزراء والاعيان قائلاً لقد صدق الرجل في كل كلامه ثم اطلقه وبقيت الطاحون كما كانت الى هذا العصر شاهدة على حلم هذا الملك وعدلو واستمر فريدريك المذكور بالملك الى ان مات سنة ١٧٨٦ في عزٍ واقبال

ثم خلفه ابن اخيه فريدريك غليوم الثاني وكان منعكفاً على الملاهي واللذات غير ملتفت لصالح البلاد وراحة العباد وفي ايامه انشبت بولونيا ثانياً سنة ١٧٩٣ وحازت بروسيا على جميع اقاليم بولونيا الكبرى وغيرها من الاراضي . وكان هذا الملك قد عول على محاربة الجمهورية الفرنسية ولكنه عدل اخيراً عن

قصده وتوفي سنة ١٧٩٧ بعد ما حكم ١١ سنة. وخلفه ابنه فريدريك غليوم الثالث الذي في ايامه وقعت حروب نابوليون الشهيرة وخسرت بروسيا خسائر جسيمة اذ قتل من جيشها في معركة ياته سنة ١٨٠٦ نحو عشرين الف نسمة وكانت الاسرى اضعاف هذا العدد ودخل الفرنسيون برلين فاستولوا عليها وعلى غيرها من المدن. وسنة ١٨٠٧ فقدت بروسيا جميع املاكها في ايا التي وستفاليا وفرانكونيا ثم خسرت ايضا بواونيا الكبرى التي اعطاها نابوليون للملك ساكسونيا بعد ان جعلها اميرية ولفيها بامرية قرسوفيا ولكنها الغيت سنة ١٨١٥ واقتسمتها بروسيا وروسيا. وفي سنة ١٨١٢ وسنة ١٨١٤ وقع ايضا بين بروسيا وفرنسا حروب مهلكة خسرت فيها بروسيا خسائر ليست بقليلة فقل اعتبارها وسقط رونق مجدها غير انها في السنة التالية بعد انتصارها مع باقي الدول المتحدة على الفرنسيين في واقعة واترلوا وسقوط نابوليون اخذت بثارها ودخلت عساكرها مدينة باريس واسترجعت اراضيها واملاكها. وشرع ملكها فريدريك المذكور من ذلك اليوم باصلاح حال المملكة وبذل غاية الجهد في ارجاعها الى ما كانت عليه. وكان غيوراً ومحباً لرعاياه لا يبتز عن خيرهم الروحي حتى انه كان يوزع عليهم الكتب المقدسة. ثم توفي سنة ١٨٥١ تاركا الملك لابنه فريدريك غليوم الرابع

فحكم هذا الملك الى سنة ١٨٥٨ واضاف الى ملكته امارتي هوهنولرن سنة ١٨٥٨ ثم اعتراه مرض في دماغه واشتد عليه حتى انه لم يعد بمكة الانتباه الى مهام المملكة فتولج اخوه مكانه نائباً وما زال الحال يشتد على الملك الى ان توفي في ٢ كانون الثاني سنة ١٨٦١ واستبد اخوه بالملك بعده تحت اسم غليوم الاول وهو الملك الحالي. وكان قبل جلوسه على سرير الملك ازوج ابنه البكر وريث عهده البرنس فريدريك غليوم بابنة ملكة انكلترا في بداية سنة ١٨٥٨ فكان ذلك من جملة اسباب التحالف والتعاضد بين الدولتين وقد اشتهر هذا الملك بين الناس في حسن السيرة والسريرة ولا سيما في

انصباؤه على ترقية اسباب تقدم شعبه ونجاحهم . ولكن لما كانت البواطن غير راتقة بين دولتي النمسا وبروسيا بسبب خصومتها واختلافها على السيادة والرياسة في قيادة الممالك الجرمانية انفجرت بينهما منازعات شديدة سنة ١٨٦٦ افضت بهما الى اشهار السلاح ومحاربة بعضها بعضاً فكانت الدائرة في ذلك على النمسا في واقعة سادوا فارفع شان بروسيا في ذلك الاستظهار وازاغت الى املاكها جملة اراضي واماكن كما لمعنا عن ذلك في جغرافية هذه المملكة وعقدت اتحاداً عاماً مع ممالك وامريات ومدائن جرمانيا الشمالية وابطلت من ذلك الوقت اسم بروسيا واطلقت على ذاتها اسم اتحاد شمالي المانيا

فلما حصل البروسيون على هذه الشهرة والنفوذ والقوة تحرك فهم روح اخذ الفار من اعدائهم الفرنسيين الذين طالما اضروا بهم في ايام نابوليون الاول . فكان هذا الروح عاماً في بروسيا وباقي البلاد الجرمانية وكان الجميع ساعين ومتظرين الفرصة المناسبة ليس لفتح الحرب ولكن لمقاومة فرانس التي كانت ترشهم بنظر عكر غير سارة في نجاحهم وتقدمهم . فاستمرت هذه الاحساسات مكنونة في صدور الامتين الى ان نبغت قضية انتخاب البرنس ليوبولد هوتهولرن الجرمانى لتخت مملكة اسبانيا . فنهضت فرانساً لمقاومة هذا المشروع الذي من شأنه ان يزيد جرمانيا سطوة ونفوذاً ويعرض فرانساً الى عواقب ردية اذ يجعلها بين امتين قويتين متحدين في سياسة واحدة فوق حيز النزاع بين فرانساً وبروسيا واعلنت هذه الاخبار عدم مداخلتها في ذلك الامر واخيراً اذ رأى البرنس ليوبولد ما وقع من الخصومة بين الدولتين بسببه رفض انتخاب الاسبانيولين له وحرر لهم بعدم قبوله وكان يُظن ان المشكل قد انقضى . ولكن لم تكتف فرانساً بهذا التنازل وكانت تريد ان بروسيا تعهد لها بمنع امراء الجرمانيين ان يقبلوا تاج اسبانيا في المستقبل فلم تقبل بروسيا ان تعطي تعهداً عليها في ذلك واذا نشبت فرانساً بطلب التعهد المذكور بواسطة سفيرها في برلين موسيو بنيدني الح المذكور على الملك غليوم الاول الحاحاً يفوق حدود

اللياقة فزجره الملك رافضاً ذلك الطلب . حيثئذ نادى فرنسا بالحرب ونهض
القوم للقتال واصطلت بينهم نيرانه سنة ١٨٧٠ فاستظهر البروسيون في
اغلب وقائعهم وكانوا يتقدمون على الاراضي الفرنسية ويستولون على قلاعهم
وحصونهم الى ان استولوا في ٢ ايلول على امبراطورهم نابوليون الثالث في واقعة
سيدان المهلكة مع عدد عظيم من الاسرى . ثم تقدموا بمجموعهم الى باريس وبعد
حصار ١٢١ يوماً افتتحوها في ٢٧ كانون الثاني سنة ١٨٧١ . حيثئذ عقد صلح
بين الدولتين تحت شروط معلومة اخصها ان فرنسا تسلم بروسيا ولايتي
الانزاس وخمس اللورين وتدفع لها فوق ذلك مبلغاً مقداره خمسة الاف مليون
من الفرنكات في مقابلة مصاريفها . ومن يجب ذكرهم من مشاهير رجال
بروسيا في الجيل التاسع عشر الجنرال مولك قائد الجيوش والبرنس
بيزمارك قائد السياسة الفريد

الفصل السادس عشر

في تاريخ روسيا

الباب الاول

في جغرافية هذه المملكة

انه لا يمكن تعيين حدود هذه المملكة في الازمنة القديمة اذ لم يكن لها حدود
طبيعية كما في الازمنة المتأخرة نظراً لما كانت عليه من الانقسامات والتقدم

والثأخر. اما حدودها الآن فمن الشمال البحر المتجمد الشمالي ومن الجنوب البحر الاسود واوكرانيا وساطنة آل عثمان ومن الشرق بحر قزوين او الخزر وجبال اورال الفاصلة بينها وبين املاكها في اسيا ونهر دون ومن الغرب بحر بلتيك واسوج وبروسيا واوكرانيا وبعض البلاد العثمانية وهي اوسع ممالك الارض لامتدادها في اوروبا واسيا ويحدها في اسيا بعض المملكة العثمانية والفرس وتركستان والصين وعدد شعوب هذه السلطنة بحسب تعداد سنة ١٨٦٧ بلغ نحو ٨٢ مليوناً وهذا بيانه

الف	مليون	
٢٧٠	٦٩	في روسيا في اوروبا بما فيه يولونيا
٨٣٥	١	امرية فينلاندا
٦٦٢	٤	حكمداربة القوقاس
٢٣٠	٣	سيبيريا
٧٤٠	٢	اواسط اسيا
٩٣٧	٨١	

واكثر اهالي هذه البلاد من طائفة الروم وفيها ايضاً من جميع طوائف العالم . والحكم فيها من نوع الملكي المطلق وكانت اكثر الرعية بهزلة العبيد للاشراف واعيان البلاد الذين كانوا يجورون عليهم ويستعبدونهم ولا يرغبون في تهذيبهم ونجاحهم اما الامبراطور الحالي فقد اعتنهم من نير هذه العبودية العنيفة بالامر الذي اصدره في التاسع عشر من شهر شباط سنة ١٨٦١ ومن جرى هذا العمل المحسن المهم الذي اجراه الامبراطور اسكندر الثاني امسى في خطر من مطامع الاشراف الذين لم يرفضوا بهذا الاصلاح لانهم لم يكونوا يهتمون سوى في صوالحهم الخصوصية قاطعين النظر عن صوالح البلاد وتقدم الرعايا وكثيراً ما تهددوا امبراطورهم وصمموا على قتله من هذا القبيل فنجوا مراراً من اشراك المنية التي نصبوها له

ثم ان اهلالي روسيا منقسمون الى خمس طبقات وهي الاشراف وخدمة الدين
والبورجوا اي اهل الحضرة واهل البادية والقرى وهم قسما ن احرار ومستعبدون
واما الآن فجميعهم احرار كما تقدم آنفا . والامبراطور عندهم هو رئيس الكنيسة
من عهد بطرس الاكبر ويعينه في ادارة مهامها السينيدوس اي المجلس الديني
ويختلف المدن في هذه الملكة باختلاف البلدان ومواقعها وعاداتها اما
العلوم والفنون والآداب وسائر الحرف والصناعات فليست بنامية الا في مدن
مخصوصة

اما اراضي هذه البلاد فواسعة جدا وذات سهول عظيمة جدا تصلح للزراع
وكثير منها مكنسية بالعشب ترعاه المواشي ومنها مقفر لانبات فيه وغير صالح
للزراع وفي اراضيها كثير من انواع المعادن والحيوانات المختلفة وحواصلها كثيرة
جيدة على ان كثرة الظلم هناك اخرت الناس عن التقدم والاتساع في الغنى .
واشهر هذه البلاد كثيرة وعظيمة وجبالها ايضا لكنها قليلة بالنسبة الى اتساع البلاد .
اما هوائها فيختلف بحسب مواقع اجزائها فهو بارد جدا في الشمال ويعتدل في
الجنوب ويشتد البرد في ثلاثة ارباع السلطنة في الاقل مدة تسعة شهور من
السنة ويعقبها صيف في غاية الحر والفصر . وفيها الان عدة مدارس كلية وجزئية
ولم يزل امبراطورها مجتهدا في تحرير ادارة لائحة في ما يخص بتعليم العامة اما
الصنائع فيها فلم تزل متنازلة عن باقي الممالك الاوروبية بمراحل وفي هذه الملكة
عدة مدن معتبرة قاعدتها مدينة بطرسبرج وكانت عاصمتها اولاً مدينة موسكو
القائمة في وسط سهل وسيع جدا في قلب الملكة . ولم يزل الجانب الاعظم من
الروسيين الى يومنا في حالة الخشونة ما عدا سكان بعض المدن المعتبرة

الباب الثاني

في اصل الروسين وبتدأة مملكتهم وديانتهم وعوائدهم من قبل
الميلاد الى سنة ١٤٦٢ للميلاد

ان هذه المملكة الواسعة العظيمة كانت في العصور القديمة مقراً لجملة قبائل
رُحَل مختلفة الاجناس والمذاهب والعوائد وافوا من اماكن مختلفة بعد تفرق
بني نوح وقيل ان بعضهم متسلسلون من جومر بن يافث بن نوح الذي سكن
نسلة عند شطوط بحر بلتيك واقدم تلك القبائل قبيلة السلاف ولم يُعرف قديماً
من اهل هذه المملكة الا سكان الاقاليم الجنوبية وكان القدماء يسمون هذه الجهة
باسي سكتيا وسرمانيا من دون تحديد معلوم والقبائل المستوطنة بها كثيرة منها
الروكسلان والسرمان والكيريس واليازيج والغاتريس وغير ذلك ومن ثم
واقام لفيف من طوائف مختلفة كاللينية والثر والقلمون والمغول والاتراك
 وغيرهم ولنا قبل هذه البلاد روسيا اي القبائل المشتتة . وكانوا قديماً على
مذاهب مختلفة فمنهم من عبد الاصنام ومنهم من عبد النار وغير ذلك من
العبادات الخسنة واما عوائدهم فكانت من هذا القبيل ايضاً فكان الوالدون
يقتلون بناتهم خوف الفضيحة والعار والاولاد يقتلون والديهم متي . شاخوا وعجزوا
لكي يتخلصوا من الاهتمام بالقيام في امر معيشتهم . وكانوا يحرقون جثث موتاهم الى
غير ذلك من الامور المنكرة وكان الروسيون القدماء على جانب عظيم من البسالة
والشجاعة ودايم الصيد والغزو وشن الغارة على ما جاورهم من الامم والقبائل
ثم انه في القرون الاول من السلطنة الرومانية اغارت قبيلة السرمان
(وهم فرع من السلاف سكان شمال روسيا الاصليين) على الجهات الجنوبية
المتقدم ذكرها واستولوا عليها واستمرت خاضعة لهم الى القرن الثالث للميلاد

حين هجمت عليهم ام الغوثيين وتغلبت على اكثر القبائل النازلة بين بحر بلتيك والبحر الاسود وتكون من ذلك بين انهار الفولكا والدينير والنيمن والدون ملكة عظيمة شملت جميع ما يُعرف اليوم بروسيا في اوروبا واستمرت الى سنة ٢٧٦ للميلاد الى ان خرجت عليها امة الهونيين واسقطوها فاستمرت بعد ذلك مدة اربعة اجيال ممراً للام الواردة من الشرق الى اوروبا ومرسماً للقلقل والاضطرابات الدائمة بين الامم المتنازعة فيها . ومع تلك القلقل والاضطرابات المتعاقبة قد تأسست فيها في القرن السادس مدن معتبرة واشهرها نوفوغرود الكبرى وكيف وكانت الاولى اشهر من الثانية حتى كان يقال من ذا الذي يتجاسر على الله ونوفوغرود الكبرى . ولما آل امر الروسيين الى تلك الحالة من تزيق سلطنتهم وتنازع الامم الاجنبية فيها فلكي يتخلصوا من تلك المشاق والمضار اجمعوا على ان يقيموا لهم ملكاً ليسوس احوالهم ويدبر امورهم فارسلوا وفدًا الى امة القاراك وهي من القبائل الجرمانية الساكنين عند شواطئ بحر بلتيك وطلبوا اليها ان تعطيهم ملكاً ليملك عليهم . فاناهم ثلاثة اخوة اسم احدهم روريك والثاني سيناوس والثالث تروفور وذلك سنة ٨٦٠ للميلاد ومن هذا الوقت بيندي لروسيا تاريخ حقيقي متتابع اما المؤرخون فلا يحسبون بداية التاريخ الروسي الا من اواخر القرن العاشر للميلاد حين تنصر ملكها فلاديمير الاول

فاقام الاخوة الثلاثة المذكورون كلٌ منهم على مقاطعة وكان روريك احذقهم واعظمهم سطوة فاستولى على نوفوغرود بقلب الدوك الاكبر وسنة ٨٦٤ توفي اخوه المتقدم ذكرها واسند بالحكم وحده واتحدت جميع القبائل الشمالية تحت سلطته واستولى على مدينة كيف ومن ثم اهتم في اصلاح حال بلاده وتحصينها وقاية من هجمات الامم المتبربرة وغاراتهم الى ان مات سنة ٨٧٩ وهو بعد اول مؤسس لدولة روسيا وبقي الملك بيد ذريته من بعده زماناً طويلاً وامتدت سلطنتهم في وقت قريب حتى استولوا على القسم الجنوبي من روسيا واستمرت حكومتهم في كيف ولم يزلوا على العبادة الوثنية الى ايام

فلاديمير الاول الملقب بالكبير الذي استولى عليهم سنة ٩٨٠ فازدادت شوكتهم وعظمت سطوتهم وقد غزا فلاديمير المذكور بعض املاك السلطنة الرومانية الشرقية وضايف على مدينة القسطنطينية فخاف اهلها وساعدته القنادير ففتح بعض املاكها وعند الصلح مع الامبراطورين باسيليوس وقسطنطين بشرط ان يتزوج بشقيقتها الاميرة حنة فتم ذلك ورد الى اخويها ما كان قد استولى عليه من اراضيها ولما عاد الى مدينة كييف تنصر في محل حافل واقتدى به الجانب الاعظم من رعاياه ومن ثم شرع في سحق وملاشاة الاصنام التي كان يعيدها سابقاً

وكان يومئذ على القسطنطينية بطريرك يدعى فونبوس فطلب اليه فلاديمير ان يرسل الى بلاده كهنة من ادته لتبصير الاهالي وتعليمهم فبعث البطريرك المشار اليه استفا يدعى ميخائيل سيرا واردفه ببعض الكهنة لينذروا الروسيين ويلفوا التعاليم الارثوذكسية في كنائسهم ويضموها الى بطريركية القسطنطينية فكان كذلك وخضعت كنائس روسيا الى بطاركة القسطنطينية الى سنة ١٥٨٨ ولذا استعمل الروسيون في لغتهم حروفاً هجائية من اللغة اليونانية الا ان اساس لغتهم السلافية بقي على ما كان عليه ما عدا بعض كلمات تتعلق بامورهم الدينية الكهنوتية ومن التاريخ السالف ذكره اي من سنة ١٥٨٨ انفصلت كنائس روسيا عن الخضوع لبطاركة القسطنطينية واستقلت بنفسها وأقيم عليها بطريرك خصوصي من نفس البلاد فمن ذلك الوقت اخذ بطاركتها السيادة على باقي البطاركة

وبعد ان استقلت بطاركة هذه الدولة واغتنوا خامرهم طلب المجد والسطوة ورفعوا الشأن فصاروا يتدخلون في الامور السياسية التي ليست من تعلقاتهم ويشاركون ملوكهم في احكامهم لا بل تطلبوا السيادة عليهم تحت برقع الديانة حتى كان الملك يمشي يوماً في السنة يعف يدي البطريرك متراجلاً مكشوف الرأس قائداً فرسة الى الكنيسة. واتصل بهم الحال الى ان ادعى احد هؤلاء

البطارقة المدعو نيفون بان تحت البطريركية هو اعلى مقاماً من تحت الملك وزعم انه لا يجوز فتح حرب او عقد صلح الا برايه فتج عن ذلك فتن وتعكيرات كثيرة كما حصل في مالک اخرى من جرى مطامع خدمة الدين . ودام حال هؤلاء البطارقة على هذا المنوال الى عهد بطرس الاكبر حين ابطال وظيفة البطريركية وابدلها بالاسقفية وجعلها خاضعة للحكم المدني كسائر الرعية الامر الجاري الى هذا اليوم

ولم تنزل شوكة الروسيين تزداد في مدة فلاديمير الكبير الى ان توفي سنة ١٠١٥ وهو ذاهب لاختضاع احد بنيه الذي كان قد عصي عليه . وكان فلاديمير اثنا عشر ولداً فوق وقع بينهم الشقاق بعد موت ابيهم وبعد ما كانت البلاد قد اخذت في الاتحاد والتقدم في عهد ابيهم امست بعد موته في حالة الارتباك ومع ذلك ارتفع شان روسيا وازدادت شوكتها زماناً قليلاً في مدة الامير الاكبر ياروزلاف الاول صاحب شرائعهم واحكامهم وذلك من سنة ١٠١٩ الى سنة ١٠٥٤ ب م ثم بعد ذلك بانت في اسوأ حال فاقدة ما كانت قد حصلت من السطوة ورفعة الشان وثبت فيها نيران الحروب الاهلية التي اهرق فيها انهر من الدماء وذلك بسبب عاداتهم السيئة من تقسيم المملكة بين امراء العائلة الملكية . فان كل امير منهم كان يستولي على اقليم بما فيه ويستبد فيه على نوع ما وهكذا كان يعطى ايضاً للاناث عند زواجهن فكان ذلك داعياً لشبوب نيران الحروب الاهلية التي انقسمت بها المملكة الى اقسام عديدة يعذر بسببها اتحاد السلطنة فبقيت مدينة كييف مقراً للدوك الاكبر وبقية الاقسام تحت سلطة امراء من تلك العائلة ومع هذا الاضطراب الذي كان داخل المملكة كانت الغارات المشرقية تزدول عليها . ولكن بينما كانت اخذة ثانية في الاتحاد والنمو وسائرة في طريق النجاج دهما من سنة ١٢٢٤ وصاعداً ما لم تكن ترصده من البلايا والمصائب العظيمة التي انت البلاد بالويل والهوان وذلك انه كان في تلك الاثناء قد ظهر في العالم الشرقي جبار عظيم يقال

له تموتشين الذي تلقب فيها بعد باسم جنكيزخان اي الامير العظيم فهذا الجبار المغولي الذي كان قد نشأ من حالة بسيطة بعد ان تغلب على الجانب الاعظم من العالم الشرقي حوّل افكاره ونظره ووجه سهامه نحو الامصار المغربية وارسل جيشاً سنة ١٢٢٣ للميلاد تحت امره اثنين من عظماء رجاله لغزو بعض الاقاليم الروسية الشرقية . فتقدم القائدان المذكوران بجيوشهما ولما صارا على الحدود ارسلوا وفداً الى بعض القبائل الروسية به يطلبان منهم الخضوع والانتقال الى بعض الشروط فغضب الروسيون من وقاحة التمر وتنعلوا من قبول مطالبهم وقتلوا الرسل . فلما بلغ ذلك القائدين المتقدم ذكرهما غضباً غضباً لا مزيد عليه ونهضا من ساعتها وزحنا بجيوشهما الجمرارة فاتشروا كالجراد في تلك البلاد واخذوا في تدمير الاماكن التي يطأونها خاربين وناهيين وقاتلين ما وجدته ايديهم غير محترمين لا شيخاً عاجزاً ولا طفلاً قاصراً ولا صبياً ولا امرأة وافسدوا مدناً كثيرة واضرموا فيها النيران وبعد ان غنموا غنائم جسيمة فنلوا راجعين الى سيدهم جنكيزخان فالتفاهم احسن ملقى وانعم على القائدين وهبهما هبات كثيرة ووهب العساكر الجانب الاعظم من السائب

اما الروسيون فظنوا ان ما جرى كان نهاية البلايا التي حاقت بهم وان التمر لا يعودون الى عمل ما قد عملوه فلم ياخذوا الاحتياطات اللازمة من هذا القبيل لاسيما في الاماكن التي لم تطأها ارجل التمر وحسبوا ان ذلك امر لا يعتد به . ولكن جاء الامر بخلاف ما توهموا اذ لم تطل مدة غياب اولئك القوم الفاتكين حتى وافوهم ثانية وعملوا من القطائع والخراب والتدمير وانزلوا بالروسيين من البلايا ما يعجز القلم عن حق وصفه واسس باتوخان بن جنكيزخان في القسم الجنوبي من روسيا السلطنة العظيمة المعروفة بسلطنة كوجاك وصار الروسيون يجامون الخراج الى التمر . ثم في سنة ١٢٤٠ استولى باتو بن توشي احد امراء المغول على امرية كيف فامست روسيا على نوع ما من ملكة قارية ولم يبق منها مستقل بامر الا موسكو التي تأسست سنة ١١٤٧ والتي لقب صاحبها سنة

١٢٢٨ باسم الدوك الكبير هذا ودامت حال روسيا على هذا المنوال يؤدي
امراؤها الطاعة والخراج الى خانات التتر مدة أكثر من قرنين وذلك من
سنة ١٢٤٠ الى سنة ١٤٨١ بعد ان قام فيها ايثان الثالث فحررها من ثقل تلك
العبودية المجاعة

الباب الثالث

في ما جرى منذ تولي ايثان الثالث من سنة ١٤٦٢
الى سنة ١٥٨٤

قد ذكرنا في ما تقدم ان ملكة روسيا انقادت للتتر واستعبدت لم زمانا
طويلا ثم تغير حالها بالكلية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر باسنيلائها
على عدة امريات وجمهوريات وذلك ان خاتة هوردة الكبرى المم بها الضعف
لما وقع فيها من الشقاق والحروب الداخلية ثم بوقوع حروب اهلية في المغول
والتتر واسنيلاء تيمورلنك على بلادهم ارتفعت عن روسيا ربة العبودية وعظم
شان دوكاتها الذين كانوا يحملون الخراج لتلك الحكومة وقويت شوكتهم حيث
انضم اليهم عدة امريات خصوصية كانت متحدة تحت حكومة روسيا الشمالية منذ
مدة مستطيلة . ثم ان ايثان الثالث ابن باسيلوس الثالث وولي عهده الذي
كان من اشهر امراء دولة روريك اخذ بزمام دوكية موسكو الكبرى سنة ١٤٦٢
للمسح وله من العمر ٢٢ سنة فاقبل عليه الدهر وسالته الايام فانهز الفرصة من
ذاك الوقت وسعى في تمكين حكومته وتوطيدها في داخل المملكة واخذ في
توسيع دائرتها بالحروب والغارات وبعد عدة غزوات تغلب على نوفوغرود
التي كانت يومئذ جمهورية قوية الشوكة تنظاها بالاستقلال نظاهرا كليا
فادخلها ايثان المذكور تحت الطاعة سنة ١٤٧١ ثم خرجت عن طاعته سنة
١٤٧٨ فلحق حكومتها من الظلم والعسف ما لا مزيد عليه وفقدت مجدها

ومزايها واملاكها وسقط رونق فخارها واخذت في الانحطاط والخمول يوماً بعد يوم حتى انه في اقل من مئة سنة اضمحلت بالكلية وصارت لا تعد من المدائن العظيمة

وكان ايقان الثالث اول من ابطل من حكام روسيا ما كان جارياً عندهم من العادة الموجبة للمذلة اذ كان يجب على الدوقات الكبار ان يخرجوا الى مقابلة سفراء خانات هورده التي لقيت هورده الذهب مشاة على اقدامهم بل رفض حكومتهم بالكلية وامتنع عن دفع الجزية التي كان يدفعها سلفاؤه الى حكومة كيوچاك منذ بضعة قرون . ففي سنة ١٤٨٠ بعث اليه احمد خان سفراء من لدنه ومعهم رسالة مخنومة بالختم الملكي يطلب بها مئة الجزية فرمى ايقان بالرسالة الى الارض ووطنها بقدميه وقتل الرسل جميعهم الا واحداً رده الى مولاه فكبر ذلك على الخان المار ذكره وعزم على الانتقام من ايقان في نظير هذه الاساءة فشن الغارة على روسيا وما زال يتقدم فيها حتى الى شواطئ نهر اوغرا فوقع هناك في ايدي الروسيين وقتلوه بعد ان كان هرب من ايديهم وامسكوه ثانياً وبموت طئنت بهجة هورده وفخارها ولم يبق من سلطنة كيوچاك ذات الشوكة والسطوة الا بعض القبائل وهي قازان وازدراهان والقرم . وصار لايقان الثالث مهابة وحرمة عظيمة عند هؤلاء التتر لاسيما تتر قازان الذين اخضعهم بعد مقاتلات كثيرة وضرب عليهم المال واستولى اخيراً على بلادهم ومن ذلك الوقت صارت قازان تابعة لروسيا وصار الدوك الكبير يولي عليها حكاماً من طريقه وكان ذلك سنة ١٤٨٦ . ثم ان ايقان فتح ايضاً جملة امريات وضماها الى مملكته ولم تات سنة ١٤٩٩ حتى تمت وحدة الحكومة الروسية في عهد ايقان الثالث فصار يحكمها امير واحد واكتسب ايقان شهرة عظيمة بما بذله من الجهد في جلب المدن الى بلاده وبما صدر عنه من الفتوحات وبما انشأه من التنظيمات والابنية الفاخرة منها صرح كريلين وهو قصر عظيم في مدينة موسكو سكنه القياصرة الروسيون الى عهد بطرس الكبير واحدث في سائر مواضع ادارته

نظاماً جديداً وترتيباً عسكرياً وبالجمله هو اول من اسس لمملكة روسيا اركان
عظيها وفخارها ثم ادركنه الوفاة سنة ١٥٠٥

ولا يخفى ان ملوك روسيا يسمون كزار او تزار ولعل ذلك مأخوذ من
لفظة جار التي هي لقب لكل من تملك على مقاطعة قازان واول من تلتب بهذا
اللقب ايّان الثالث بعد ان تغلب على قازان في القرن السادس عشر ثم صار
يلقب به من خلفه في الحكم وربما ان كلمة تزار مأخوذة عن لفظة تراس التي
يلقب بها ملوك الفرس او عن لفظة قبصر التي يلقب بها ملوك الرومان والروم .
ولم يكن ابراد دولة روسيا في القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد الا
٢٥ مليوناً من الفرنكات فثمان بين الحالة التي كانت عليها حينئذ وبين حالتها
الآن من الثروة والشوكة

وقد خلف ايّان الثالث ابنه باسيلوس او باسيل الرابع وفي السنة الثالثة
من ملكه التجأ اليه امير بلاد بولونيا الذي اراد الاستقلال بالحكومة واستغاث
به فانهصر له باسيل وشبت نيران الحرب ودامت مدة طويلة وانتهت سنة
١٥٢٢ بانقصار الروسيين في اكثر المواطن وعما قليل ادخل باسيل تحت
طاعته نذر قازان الذين كانوا قد تظاهروا بالعصيان ثم ادركنه الوفاة سنة
١٥٢٤ وفي ايامه ازدادت مملكة روسيا انشاءً حيث انضمت اليها اميرة ريزان .
وبعد موت باسيل الرابع خلفه ابنه ايّان الرابع الملقب بالهائل تيمت وكالة امه
هيلانة اذ لم يكن له من العمر الا اربع سنين . وكان الروسيون قد اعتادوا على
ان اراهم ملوكهم يعتزلن في الاديرة ويتنازلن عن اية المنصب الذي فقدنه
بموت ازواجهن فاعتاضوا من استيلاء امرأة ولي صغير فتعكرت ايام نيابة هيلانة
ولكنها فازت بالصعوبات التي حالت قليلاً دون المرغوب الا انها لم تمتع مدة
طويلة باجناء ثمة تعيها اذ ماتت بعد ذلك بربع سنوات . واذا كان ايّان
لا يزال حديثاً وغير كفوء للقيام بادارة المملكة بانت الدولة في اختلال عظيم
ولكن لما بلغ ايّان السنة الرابعة عشرة من العمر اظهر من الدراية والذكاء

والثبات ما يفوق طاقة سنيه فتولى ادارة المملكة وسعى في قتل ونفي ظلمته وقع
تعصبات اهل البغي والفساد وهكذا لما كان مضطراً منذ حادثته على اجراء
الانتقام وإيقاع الرعب في قلوب رعاياه تعود قساوة الاخلاق التي استحال الى
الظلم وحب سفك الدماء ولذا لُقب بالقاسي والمائل

وكان نذر قازان يتخلون مع الفجر ريشة الخضوع التي الزهم بها ايقان
الثالث فنبذوها عنهم سنة ١٥٥١ فرح ايقان الرابع في جيش كبير لاختضاعهم
ثانية وبعد ان كسرهم في حملة مواطن فتح مدينتهم عنوة واباد حكومتهم . وسنة
١٥٥٤ جارب ايورغي امير استرخان واستولى على بلاده سنة ١٥٥٥ وقعت
حرب بينه وبين خان القرم فكانت الذائرة فيها على الاخير . وسنة ١٥٥٦ اشهر
غوستاف واصا ملك اسوج الحرب على روسيا اجابة لتوسل اهل ليثونيا الذين
باتوا هدفاً لتهديدات الروسيين فارسل ايقان جيشاً الى فينلاندا فانتصر على جيش
الاسوجيين بفرب وبربرج واذ لم يات الاسوجيين الامدادات التي كان الليثونيون
قد وعدوا بها عقدوا مع ايقان الصلح سنة ١٥٥٧ على ٤٠ سنة . ثم تغلب ايقان
على ليثونيا في السنة التي بعدها واستولى سنة ١٥٦٢ على جملة اماكن من ليثوانيا
واكنه انهزم في السنة التالية امام حاكم ويلنا عند سواحل نهر دنيبير . وكان
نذر القرم قد اغاروا على روسيا بغريض البولونييت وتوغلوا فيها حتى باغوا
ابواب موسكو واحرقوا ضواحيها سنة ١٥٧١ فدفعهم ايقان وعقد معهم صلحاً
وعقد مع ملك بولونيا هدنة اجلها ثلاث سنين ثم وجه سهامه نحو الاسوجيين
وانتصر عليهم وعقد سنة ١٥٧٥ مع ملكهم كريستيان الثالث هدنة اجلها ستان
وكان ايقان قاسياً جداً سريع الغضب يفعل افعالا تنفر منها الوحوش
وتتشعر منها الابدان فانه كثيراً ما اطلق الوحوش الضاربة على جماهير الناس
الذين كانوا يقفون احياناً للمكاملة في الشوارع فكانت تلك الوحوش تهجم عليهم
وتوقع بهم اضراراً عظيمة وبذلك بعضهم وهو جالس عند احدى نوافذ قصره
ينظر اليهم ضاحكاً على القوم الذين كانوا بولولون ويتراكضون من امام

الوحوش . واذ كان يوماً تناول الطعام زارهُ احد خواصهِ فبشَّ في وجهه متبسمًا فدنا ذلك المسكين من كرسيه وانحنى امامه بكل وقار فاخذ ايّان سكينًا وقطع اذنه وهو يتفهقه ضاحكًا . وكثيرًا ما كان يُابس بعض المنكودي المحظ جلود الادياب ويطلق عليهم الكلاب الانكليزية الكبيرة فتهم عليهم ونهش اجسادهم وهو ينظر اليهم ضاحكًا حتي يستلقي على قفاهُ وفظائمه اكثر من ان تذكر . فان كانت هذه افعاله في اوقات نعيمه وحظه فكم بالحري تكون في اوقات بؤسه وغيبظه ومع ان ايّان كان قاسيًا بهذا المقدار بعد من مشاهير ملوك روسيا بسبب التجهينات والتنظيمات الكلية التي اوجدها لترقية اسباب التجارة والعلم والصنائع

ومن ثم ينسب الى ايامه استكشاف بلاد سيبيريا . وذلك ان تاجرًا من اصحاب الثروة كان مقيمًا في حكومة اركانكل اخبر اولًا بوجود هذا القطر ونم استكشافه رئيس من روساء الكرك يُسَي بورماك فان هذا الرئيس كان مولعًا بالغزو وشن الغارات وابقاع السلب والنهب في سواحل نهر قولكا وفي اكفاف بحر الخزر فطردته فرقة من جيش روسيا ودفعته الى ما وراء الحدود . فتوجه الى نواحي سيبيريا وتجاسر على الشروع في فتحها مع فرقة قدرها ٧٠٠٠ الاف نفس من الكوزك . وبعد ان هجم بضع مرار على نهر سيبيريا وعلى خانهم كوتشوم تغلب ايضًا على مدينة سيبيريا التي كانت اعظم حصونهم سنة ١٥٨١ الا ان معظم اصحابه هلكوا . فلما لم تبسره الاقامة بها مع العدد القليل من الرجال الباقين معه اشترى من الكزار ايّان العفو عن ذنوبه القديمة بالتنازل عن فتوحه هذا . فتملكت العساكر الروسية بلاد سيبيريا سنة ١٥٨٣ ومع ذلك لم يتم انقياد هذه البلاد تمامًا الا في ايام الكزار فيودور ايّان نوقينش ابن ايّان ووليّ عهده وبنى سنة ١٥٨٧ مدينة نوبولسك التي صارت من ذلك الوقت تحت سيبيريا للولاة الروسيين

الباب الرابع

في ما حدث منذ وفاة ايثان الرابع وانقراض سلالة روريك

الى ظهور بطرس الاكبر من سنة ١٥٨٤

الى سنة ١٦٨٢

وبعد وفاة ايثان الملقب بالهائل خلفه في الملك ولده فيودور وكان عمره اذ ذاك سبع عشرة سنة غير انه كان فاجر الهمة قليل النشاط والصحة لا يصلح لادارة زمام مملكة عظيمة متسعة تكثر فيها التغيرات والانقلابات . ولما كان والده ايثان عالماً بعدم لياقة ولده المذكور اقام ثلاثة وكلاء مساعدين له فكان زمام المملكة بيدهم ولم يكن ليفودور من الملك الا مجرد الاسم فقط .

وان بوريس غودونوف اخا زوجة ايثان وخال فيودور لما رأى ما كان من ضعف ابن شقيقته وعدم صلاحيته الملك وانحلال جسمه طمع بالاستيلاء على الملك من بعده واخذ بزرع الفساد والشقاق بين الوكلاء المذكورين وغيرهم من الاعيان واخيراً بمساعدة اعدائه اقام الحجة على الواحد بعد الآخر فقتل البعض ونفى البعض الآخر واصبح ذا سطوة وهيبة عظيمة . ثم قتل سنة ١٥٩٧ الامير ديمتري ابن ايثان من زوجته الاولى الذي كان له الحق في اراث تخت الملك . وكانت صحة فيودور تزداد انحلالاً وامال بوريس تزداد انتعاشاً . وفي تلك الاثناء ولد ليفودور ابنة وتعلقت آمال الناس بها وايس بوريس من بلوغ الاربع على انه لم تطل حياة تلك الابنة بل ماتت بعد ولادتها بسنة . ثم مات اخيراً فيودور سنة ١٥٩٨ وبه انتهت دولة روريك

فاستولى بوريس على المملكة زوراً وتعدياً وتزوج بتاج الملك باحتفال

عظيم وبعد ما ارتكب كثيراً من الجرائم والفظائع لنزال مرغويه اخذ يستميل
قلوب الاهالي لنوطيد اركان دولته الجديدة . وفي غضون ذلك ظهر شاب
يقال له غريغوري بورييف كان قد دخل في زمرة الرهبان فوسوس له بعضهم
انه شبيه بالامير ديمتري الذي قتله بورييس . وكان هذا الراهب على جانب
عظيم من الدراية والذكاء فحدثه عقله انه سينبأ يوماً ما عرش امبراطورية
روسيا فسي نفسه ديمتري واخذ يستميل بكثيرين اليه زاعماً انه هو الامير
ديمتري الذي شاع عنه انه قُتل وانه هو الملك الشرعي للمملكة وانه لم يقتل بل
فر من ايدي الذين ارادوا قتله . ولما شاع امره اخبراً عند بورييس خاف ان
يفعل به ما فعله بغيره ففر هارباً والتجأ الى بولونيا . فعضد دعواه ملك بولونيا
مع خلق كثير من كانوا بكرهون بورييس وامده بجيش لمحاربة بورييس وتزايده
عن الملك . ولما بلغ الامر الى بورييس خاف وارعد وارسل جيشاً لمحاربة ديمتري
الكاذب فكسر ديمتري جيشه فارسل بورييس جيشاً ثانياً فانكسر ديمتري وعاد
الى بولونيا

فاجتهد بورييس ان يثبته ملك بولونيا ان دعوى ديمتري كاذبة فلم يجده
نفعاً . واتفق ذات يوم بعد الغذاء انه اصاب بورييس ألم شديد في احشائه
فات بعد ساعتين فانهز ديمتري هذه الفرصة وقام بالعساكر البولونية وتقدم
ودخل روسيا ولبس تاج الملك بالقبو زوراً وعدواناً . ولكن لم يطل الحال حتى
انكشف امره فقام عليه الاهالي وقتلوه واحرقوا جثته بالنار فتعاقب بعده كرسي
الملك ثلاثة ملوك زعم كل منهم انه الامير ديمتري الوريث الحقيقي . وهذه الامور
المخله تدل على الاختلال الذي كان في هذه الدولة وعدم انتظام احوالها ولا
عجب من ذلك فان كل امة كسدت فيها بضاعة العلم والنور سهل اغراؤها
لان من طالع مطولات الاسفار لا يخفى عليه ما ترهب على دعاوي اولئك المدّعين
المرورين من ازدياد اختلال دولة روسيا

ان البولونيين الذين هم اول من عضدوا دعوى المزور الاول واضرموا

نيران الفتن والشفاق اوشكوا اخيراً ان يستولوا على دولة روسيا . وتقاسم اهل اسوج جزءاً من بلادها في فينلاند وزعموا ان لم حثاً في تاج المملكة المذكورة فتطلبوا فأتى ذلك الدولة بالخراب والدمار مدة طويلة وكادت تسقط الى حضض الاضمحلال . ولما كانت الدولة غارقة في وسط هذه الانواء والشدائد عقد اخيراً كبار الروسيين جمعية سنة ١٦١٢ واستقرّ الراي فيها على انتخاب شاب عمره خمس عشرة سنة يقال له ميخائيل رومانوف وهو جد بطرس الكبير وقتلوه المنصب الملكي . وكان هذا الشاب من عائلة اكليريكية وهو ابن مطران يقال له فيلاريت وامه راهبة لها قرابة من جهة نساء ملوك روسيا الاقدمين

ولعل البعض يستغربون كيف ان مطراناً يكون ذا اولاد من راهبة فالسبب في ذلك هو ان المطران المذكور كان من اعيان البلاد المتزوجين اصحاب الصولة فخبه بوريس غودونوف على التهرب كما جبر زوجته على ذلك ايضاً . وكان بعد ذلك ان دبيري الكاذب جملة مطراناً وارسله سفيراً الى بولونيا فسمجة البولونيون لانهم كانوا يومئذ في حرب مع الروسيين . وكان انتخاب ميخائيل المذكور ملكاً في مدة سجن ابيه في بولونيا فندى والده باسرى البولونيين ورفاه الى منصب البطركية فكان في الواقع هو صاحب الامر والنهي وكان الملوك الروسيين من سنة ١٤٦٠ لليلاد لايتزوجون بينات الدول الاجنبية وربما اقتبسوا ذلك عن العوائد الشرقية منذ اسبلائهم على امارتي قازان واسترخان . فكان اذا اراد الملك الزواج اتوا الى قصره باجمل بنات البلاد حسناً فتستقبلن كيرة نساء القصر وتجعل كلاً منهن في مكان على حدها ثم يجتمعن ساعة الاكل على مائدة واحدة فيشاهدن ويتنخب منهن من ارادها . وكان يُعين للزفاف يوماً قبل الانتخاب فاذا جاء اليوم المعين خلع على التي وقع عليها الانتخاب سراً خالعة العرس ثم يوزع خلعة اخرى على باقي البنات وينصرفن الى حيث اتين وعلى هذا الوجه كان زواج الكزار ميخائيل بابنة رجل فقير الحال بحرث الارض

هذا ولم يكن تنصيب الملوك في روسيا بطريقة الانتخاب ولكن لما لم يبق احد من ذرية ملوكها القدماء اقتضى انتخاب ملك جديد وتبع بمسبب هذا الانتخاب حروب جديدة مع الاسوجيين والبولونيين فان كلا من الثنتين زعمت ان لما حقا في الاستيلاء على كرسي مملكة روسيا . ودامت الحرب بينهم زمنا طويلا ثم عقد الصلح فاخذ اهل بولونيا امرية سمولانسك والاسوجيون اخذوا اقليم اينغريا . وبعد هذا الصلح سكنت احوال دولة روسيا ولم يعرض عليها من التغييرات ما يفسد ادارتها او يصلح حالها

وسنة ١٦٤٥ توفي ميخائيل وخلفه ولده الكسيس وهو ابو بطرس الكبير وله من العمر ست عشرة سنة وقد سلك الكسيس في الزواج مسلك ابيه سنة ١٦٤٧ ثم تزوج ثانية سنة ١٦٧١ . وفي عهد الكسيس حدثت منازعات وفتن داخلية وخارجية سفكت فيها دماء كثيرة ووقع ايضا بينه وبين اهل اسوج واهل بولونيا حروب جديدة ففاز على الفئة الثانية واسترجع منها بعض الاقاليم ولكنه لم ينجح مع الفئة الاولى . وكان الكسيس من افاضل ملوك الروسيين فانه اول من وضع دستوراً للشرائع والقوانين وادخل في ممالكه التسعة صنائع الانشطة والحرب . وكانت العادة في تلك الايام ان الاسرى يكونون ارقاء لمن وقعوا في اسره فجمعهم الكسيس في خدمة الفلاحة وزراعة الاراضي وبذل غاية جهده لادخال النظام والترية العسكرية بين عساكره غير ان الدهر لم يسلمه الى النهاية لكي يتم مقاصده اذ ادركته المنية سنة ١٦٧٧ وبموته وقع الاختلال بنظام الامور كلها

وكان الكسيس قد اعقب من زوجته الاولى ولدين ذكرين وست بنات وكان اسم البكر منها فيودور والثاني ايفان وكان الاثنان نجفي الجسم لاسبيا ايفان . وكان عمر فيودور اذ ذاك خمس عشرة سنة وكان شابا فاضلا محبوبا فتبوا تحت الملك بعد موت ابيه . وكان الكسيس قد اعقب ايضا من زوجته الثانية ولدين بطرس وهو المعروف بالكبير وابنة يقال لها نانالي واما البنات

الست اللواتي من زوجته الاولى فكان اشهرهن الاميرة صوفية التي امتازت على شقيقاتها بذكائها ووفور عقلها . وكانت ولدها من زوجها الثانية غير محبوبين من الاهالي فلم يكن احد يظن ان بطرس سيبوا يوماً تحت مملكة روسيا . ولما كانت عادة ملوك روسيا ان يتزوجوا بنات رعيهم كانت هناك عادة اخرى وهي ان بناتهم كانت يندرن في تلك الايام زواجهن فينضي اغليهن حياتهن في الاديرة . وكان فيودور يزداد جسمة من يوم الى اخر نحولاً وسقماً . وسنة ١٦٨٢ لما احس بقرب حلول اجله وكان يعلم ان اخاه الثاني ايثنان لا يصلح لمنصب الملكية اوصى بوراثته الملك لاختيه بطرس ولم يكن لهذا الاخير اذ ذاك من العمر الا عشر سنين لكنه كانت تلوح على وجهه دلائل النشاط ووفور العقل

وقد سبقت الاشارة ان الاميرة صوفية كانت على جانب عظيم من الدراية وجودة العقل وكانت شاعرة كاتبة فصحة جميلة المنظر غير ان طمعها كان سبباً في خسران بعثتها . فلما احس ان اخاها فيودور صار على همة مفارقة الحياة وراثت ان اخويها ايثنان وبطرس لا يصلحان اذ ذاك للحكم لعدم صلاحية احدهما له ولصغر سن الثاني خرجت من عالم المنفى ابي الدبر الى عالم الشهرة وعزمت على ان تاخذ بزمام الدولة وقصدت ان تضر باخيها بطرس لكي تسلب منه حق الملك . فاخذت تضرم نيران الدسائس والفتن بقصد الوصول الى مرغوبها فوقع في وفاق عساكر السترابنس فتنة كبيرة سنك بسببها دماء كثيرة واصبحت البلاد كأنها قبر مفتوح لا يتلأع الناس فكثرت التعدي والاضطراب ووقعت الحكومة في ارتباك لا مزيد عليه . وكانت الاميرة صوفية تحرض اولادك الطفلة سراً على الازدياد في الفواحش والتبائح طمعاً بنوال المرغوب ففعلوا من الامور ما يحجز القلم عن وصفه فانهم فاقوا على الانكشارية من هذا القبيل . هذا وما زال الهرج والفلأقل آخذة كل مأخذ الى ان انتهت اخيراً في شهر حزيران سنة ١٦٨٢ واستقر الراي بتصيب الاميرين ايثنان وبطرس ملكين سوية واختهما صوفية شريكة لهما في الملك بطريق الوكالة

الباب الخامس

في استيلاء بطرس الكبير وأعماله العظيمة وما حصل من
المشاجرات والفتن في أيامه والحروب الى غير ذلك
من سنة ١٦٨٢ الى سنة ١٧٢٥

وحدث أيضاً بعد ذلك فلاقا واضطرابات كثيرة وكانت الاميرة صوفية
تحاول الاستبداد بالحكم وحدها وعزمت على اهلاك اخيها بطرس املاً بالوصول
الى المرغوب . على ان مساعيها لم تات بفائدة فان اخاها بطرس تقوى وصار
له حرب عظيم فاتصر على كل الموانع التي كانت تحول بينه وبين توطيد
سلطونه فكشف عن دسائس اخيه صوفية واعادها الى عالم المنفى في دبرها
بمدينة موسكو . ومن ثم تولى الملك بطرس ولم يعد لاختيه ايثار بد في مهام
السولة ولم تطل حياته بل مات سنة ١٦٩٦ للميلاد . فاستبد بطرس بالامر
وحده ولم يعد له معارض ولا منازع على انه كان يخشى عليه من بعض الاحزاب
نظراً لحدائه . وكان اول امر حاول اصلاحه في مملكته فقع شوكة عساكر
السزليين وردعهم عن العصيان . وكان عازماً على محاربة ندرالفرم وشن عليهم
الغارة ولكن من دون ان يبلغ اربعة منهم وانتهى اخيراً الحال بينهم بعقد هدنة
لم يجر العمل بموجبها الا مدة وجيزة

وفي اثناء ذلك اخذ بطرس في تحصين بلاده من داخل ومن خارج
فاصداً بذلك ردع مهاجمات الاعداء لكي يتفرغ لادخال المدن والفتن
والمعارف الى مملكته اذ كان الروسون لم يزالوا الى ذلك العصر في غابة الافتقار
الى ذلك ولم يكن عندهم منه الا القليل بالنسبة الى ما كانت عند غيرهم من

دول أوروبا المتقدمة . وكانت افكارهُ تنصبو الى الفتوحات وتوسيع مملكته من جهة بحر بلتيك شمالاً والبحر الاسود جنوباً . وكانت مملكة آل عثمان يومئذٍ في ارتباك فانتهر بطرس هذه الفرصة واخذ في تمرين جيوشه استعداداً للحرب وجهز سنة ١٦٩٤ جيشاً كبيراً تحت قيادة الجنرال شرمتوف وسار هو بنفسه مع هذا الجيش بصفة جندي طوعي وحاصروا في اوائل فصل صيف سنة ١٦٩٥ مدينة ازوف وفتحوها بعد حروبٍ وحصارٍ طويل وفازوا على التتر والأتراك وغلب هذا النصر امر بتحصين البحر عند ازوف واقام فيه عدة سنين حربية احتياطاً . ثم عاد الى موسكو باحتفالٍ عظيم وكان دخوله اليها بهذا الاحتفال شبيهاً باحتفالات قدماء الرومانيين عند رجوعهم من حروبهم وانتصاراتهم وغلب هذا الفوز عمل في روسيا اول نشان للافتخار اذ لم يصنع قبل هذا العهد

ولما رأى في اثناء غزواته المار ذكرها ان سفته لم تكن عمل اهل مملكته تأسف كثيراً فاخذته الحمية من ذلك وارسل سنة ١٦٩٧ جملة من شبان الروسين الى هولاندا واطاليا وروسيا ليقبسوا العلوم والفنون من كل نوع ولم يكتف بذلك بل عزم على ان يتغرب هو بنفسه في الممالك الأوروبية المتقدمة يومئذٍ في الاصلاح والتمدن لكي يتعلم منها حسن الادارة والتدبير وليدرس بعض العلوم والفنون . فبعد ان مهد ووطد سطوته في بلاده واناط بامر ادارتها وتدبير مهامها بعض اعيان وكبار دولته خرج متنكراً وبصحبة خادم واحد وندية واتوا جميعاً مدينة امستردام قاعدة هولاندا . فاتخذ له هناك منزلاً صغيراً في الترسانة البحرية وتربى بزي رئيس مركب ثم اتى قرية هناك يقال لها ساردم حيث كان يصنع بها كثير من السفن فتعجب من كثرة ارباب المهن والاشغال التجارية بها فابتاع لنفسه سفينةً وكان قلعها مكسوراً فاصالحه هو ثم اخذ يتعلم صناعة بناء السفن وسلك في معيشته مستلك اهل تلك الحرفة في اللبس والمأكل والمشرب كواحد منهم الامر الذي لم يسبق له نظير من انسان في مقامه ورتبته .

وكان يشتغل مع أولئك الفعلة في معامل الحديد والنجال والطواحين وغير ذلك وقيد نفسه في دفتر الترسانة من جملة الفعلة باسم بطرس ميخائيلوف . ثم رجع الى امستردام ثانية وتعلم فيها فن التشريح وبعض عمليات جراحة وتعلم علم الطبيعيات والمواليد وغير ذلك . وبعد ما جال في اماكن اخرى رجع الى امستردام وعاد الى ما كان عليه من الاشغال وتم بنفسه بناء سفينة حربية تحمل ستين مدفعا كان قد شرع في عملها قبل سفره واستمر على تلك الحال منعكفا على الدروس والاعمال الى ان سافر في اول سنة ١٦٠٨ الى انكلترا في اثر سفارة كان قد بعث بها قبل خروجه من مملكته للطوائف في الممالك الاوروبية الاكثر تمدنا . فاقبله الملك وليم ورعاياه بالترحاب . فاقام بطرس مدة في انكلترا وهو على حالة البساطة واتخذ له منزلا قرب الترسانة الكبرى وصرف معظم وقته في المشغل والتعلم . فاتفق هناك صناعة عمار السفن على طريقة اكل ما هي في بلاد هولاندا وتعلم ايضا فن المساعات واتقنه غاية الاتقان . وبالحيلة انه لم يدع شيئا من الفنون البحرية من عظيمها وخفيها من سبك المدافع الى قتل النجال الا وباشره بيده . وبعد ان اقام مدة طويلة في انكلترا رجع الى هولاندا ومنها اتى فيينا عاصمة اوستريا واقام فيها مدة . وبينما كان يستعد للسفر الى ايطاليا والبندقية لتتميم مشروعه ورد اليه خبر وقوع بعض قلاقل في مملكته فعدل عن مشروعه وقفل راجعا سرا في شهر ايلول سنة ١٦٩٨ الى مدينة موسكو . ولما دخل موسكو تعجب الاهالي غاية العجب من مشاهدته على حين غفلة فاخذ حالا في ملافاة الامر واصلاح ما قد فسد وقاصص المذنبين باشد واصرم العنابات وكافا الذين يستحقون المكافاة . ثم ابطال وجاق عساكر السترليتس ولم يبق منهم الا نفر قليل . واقام سنة ١٦٩٩ عوضا عن هذا الوجاق جنودا منتظمة اشبه بالعساكر النمساوية وحدث ايضا عدة اصلاحات في العوائد الخشنة وفي نظام الدولة والديانة الى غير ذلك ما يستحق الاعتبار . وكنا نود ان نذكر امورا كثيرة منها على ان ضيق المقام لا يسمح بذلك

وحدث في اثناء غياب هذا الملك أن الدولة الروسية كانت قد انتصرت على تتر القرم وتغلبت على مدينة بريكوب المعروفة بمدينة الذهب ولم يكن بينها وبين الدولة العثمانية سلم فبحرجوع بطرس الى دياره عند هدنة بينه وبين الدولة المشار اليها وخوفاً من النشل لم يجسر على ما طالما كان يصبوا اليه لجهة توسيع حدود مملكته من ناحية المملكة العثمانية . واذ رأى ان بحر الخزر لا يصلح للمعارات البحرية انتهر فرصة الهدنة المذكورة ووجه مقاصده نحو بحر بلتيك ليكون له موانئ في تلك الاطراف . وكان للدولة روسيا في الناحية المذكورة اقليمان قد فتحتهما بالحرب ثم خسرتهما ثانية في عهد الدولة الديمتري الكاذبة واستولى عليها الاسوجيون . فتماهد بطرس مع فريدريك ملك دنمارك واوغسطس ملك بولونيا وتحزبوا جميعاً على كارلوس الثاني عشر ملك اسوج الذي مع صغر سنه كان يعد من افراد ابطال القرن السابع عشر . فاشتبكت الحرب بين التحالفين والاسوجيين وجاء الامر بخلاف المظنون فان كارلوس المذكور فاز عليهم جميعاً في وقائع عديدة حتى ايس بطرس من الغلبة . ولكن مع ذلك لم يثن عن عزمه واستمر على محاربة كارلوس مدة أكثر من تسع سنوات يرمح في جهة ويخسر في الاخرى الى ان ظفريه اخيراً سنة ١٧٠٩ في واقعة بيلتوفا . ففر كارلوس والتجأ الى الدولة العثمانية واستولى بطرس على جملة اقاليم في الجهات الشمالية واعاد اوغسطس ملك بولونيا الى ملكه بعد ان كان قد عزله عنه كارلوس ومع انشغال بطرس في هذه الحروب لم ينفك عن الالتفات الى صوالح مملكته وتحسينها . وسنة ١٧٠٢ وضع اساسات مدينة بطرسبرج التي صارت من ذلك الحين قاعدة السلطنة الروسية الى الآن

وسنة ١٧١٠ اشهر السلطان احمد الثالث حرباً على روسيا وكانت فيها الواقعة المعروفة بواقعة نهر پروث فدارت فيها الدائرة على الروسيين ولولا تدارك كاترينا زوجة بطرس الثانية الا تي ذكرها لاوشك بطرس ان بيات اسيراً في قبضة الفريق العثماني فانها ألزمت زوجها على عقد الصلح الذي تقررت

شروطه بين الدولتين كما مر في تاريخ الدولة العثمانية

أما كاترينا زوجة بطرس المذكورة فكانت ابنة أحد الفقراء من قرية
رنجان ولما بلغت سن الأربع عشرة سنة خدمت عند قسيس برونستاني في
مدينة مريانبورغ ولما صار عمرها ثمان عشرة سنة تزوجت بعسكري اسوجي سنة
١٧٠٢ وفي غد عرسها هزم الروسيون شزيمة من جيش الاسوجيين كان زوجها
من جندهم ولم تقف له على خبر وبعد ذلك مدة يسيرة اسرها القائد الروسي
بوبر فخدمت عنده ثم انتقلت لخدمة السرعسكر كزرمتوف ثم اعطاها للامير
متريكوف فاتفق ان بطرس الأكبر رآها يوماً عنده فاحبها وتزوج بها خفية سنة
١٧٠٧. وكان منذ مدة طويلة قد طلق امرأته الاولى لأنها كانت تعارضة في ما
يريد اجراءه بما لكو. ولما تزوجت كاترينا ببطرس تركت الديانة البرونستانية
التي تربت فيها واعتمدت الديانة الروسية فعمدوها ثانية وبدلوا اسمها من مرثا
الى كاترينا

وبعد ان رجع كارلوس الثاني عشر من بلاد آل عثمان في اواخر سنة
١٧١٤ حدثت وقائع جديدة بين الروسيين وبينه كان التوز فيها لهم. فانسعت
حدود دولتهم من الشمال والغرب. ولما كانت سنة ١٧١٧ جدد الامبراطور
بطرس سياحته في الممالك التي كان قد زارها قبلاً ليقبس منها العلوم والفنون
وذلك لاغراض سياسية ولشاهدة ما كان متولماً بمشاهدته في الممالك الاجنبية
وإني اخيراً فرانساً وهناك حصل له مزيد الاعتبار والاحترام ثم عاد راجعاً منها
الى بلاده.

وكا بين بطرس وولده وولي عهده ألكسيس تفور من زمان طويل من
جملة اوجهه وكان يومئذ هذا الامير في مدينة نابولي هارباً من وجه ابيه فاستدعاه
والده وأعداً اباه اذا حضر بالغنو والساج. فلما اتى مدينة موسكو عقد مجلساً
من الامراء والاعيان وخدمة الدين واشهر امام هذا المحفل حرمان ولده المذكور
من وراثته الملك بعده وفي هذا المعنى كلام طويل لا نقدر على استيفائه في هذا

الباب المختصر. على اننا نقول ان الامبراطور بطرس بعد حرمانه ولده من الملك امر اخيراً بقتله ايضاً لاسباب لا تستدعي هذا الامر المائل زاعماً ان الذي حمله على ذلك الاتم حبه للوطن والملكة لانه كان يخشى بعد موته من ان ابنه ذا السيرة المنهورة يلاشي ويهدم كل ما بناه والده وعمله في مدة طويلة ويرجع بالملكة المنهورة والتاخر وكان ذلك سنة ١٧١٨



بطرس الأكبر

ثم ان ما بقي من ايام الامبراطور بطرس بعد قتل والده لم يصرفها الا في

تكميل اغراضه وآماره العظيمة . وسنة ١٧٢٢ وقع بينه وبين دولة الفرس نزاع
افضى الى فتح الحرب فسار في ١٥ من ايار سنة ١٧٢٢ مع زوجته كاترينا وجيش
عظيم وفي ١٤ ايلول من السنة المذكورة وصل بجيوشه الى مدينة دريند وحدث
بينهم وبين الفرس بعض مواقع كان الفوز فيها للروسين . غير انهم لم يستطعوا
وقتيذ ان يتقدموا في فتوحاتهم لان سفنهم الحربية ومهاتهم وخيلهم وجيش نجدتهم
غرقت جميعاً بقرب مدينة ازدرهاان فقتلوا راجعين الى موسكو ثم جددت
الحرب ثانية في السنة التالية وفاز الروسيون واخذوا من الفرس بعض الاقاليم
الواقعة عند بحر الخزر وهي جيلان واستراياد ومازندان . وكان بطرس سنة
١٧٢١ قد عقد صلحاً مع دولة اسوج يعرف بصلح الشمال اورث دولته فخراً عظيماً
اذ بموجبه استولى على اقاليم ليونيا واستونيا وبنغرمانيا ونصف كاريليا وويربورج .
فلقبه عقب ذلك الصلح كبار دولته ووكلاؤها الاكبر بابا الوطن وامبراطوراً
وما زال الدهر مسالماً له الى ان توفي في ٢٨ كانون الثاني سنة ١٧٢٥ . وعند ما
احس بفرب حلول اجله اراد ان يكتب وصيته لكنه لم يستطع ولم يكتب الا
بعض كلمات غير ظاهرة عسرة القراءة جداً فلم يمكن ان يُقرأ منها الا ما معناه
اعطوا كل شيء الا

الباب الخامس

في ذكر ما حدث بعد موت بطرس الكبير وانقطاع سلالة
رومانوف وقيام الدولة الهولستينية من سنة ١٧٢٥
الى سنة ١٨٨٤

قد سبق في ما تقدم ان بطرس عند موته لم يعين خليفة له وقد مات عن

حفيد بطرس الثاني وهو ابن الكسيس المقتول وعن ابنة البكر زوجة دوك
 هولستين غوترب . وكان هناك حزب كبير لابن الكسيس غير ان الامير
 منتريكوف الذي كان يميل الى الامبراطورة كاترينا زوجة بطرس الاكبر
 تدارك امر اخاد نفوذ المتعصبين لابن الكسيس واثبت حق الوراثة لكاترينا
 فتبوأت تخت الملك بعد زوجها وكانت امرأة عاقلة وعلى جانب عظيم
 من الدراية ووفور العقل ولئن كانت لاتعرف القراءة والكتابة على ما قيل .
 وكانت ذات مقاصد عالية سامية كزوجها غير ان الدهر لم يسمح لها بابرارها
 من حيز القوة الى الفعل اذ ماتت بعد استيلائها الملك بستين فخلعها سنة ١٧٣٧
 بموجب وصيتها بطرس الثاني ابن حفيد زوجها وهو في سن الاثني عشرة سنة
 تحت وكالة ابنتها حنة واليصابات ودوك هولستين والامير منتريكوف وخمسة
 اشخاص من اعضاء المجلس العالي الى ان يبلغ سن الست عشرة سنة من العمر .
 غير ان ايامه كانت قصيرة اذ أصيب سنة ١٧٣٠ بمرض الجدري فمات سريعاً
 فكان يقتضي بموجب وصية كاترينا الاولى ان يخلف بطرس الثاني ابنتها
 البكر حنة زوجة دوك هولستين وذريتها ولكنها اذ توفيت تولت الملك الاميرة
 حنة ابنة ايفان الخامس اخي بطرس الاكبر ودام ملكها الى سنة ١٧٤٠ ولم
 يحدث في ايامها امر مهم يستحق الاعتبار فخلعها الاميرة اليصابات ابنة بطرس
 الكبير . سنة ١٧٤٢ لما استقرت بالملك ارسلت وانت باين شقيقتها حنة الدوك
 هولستين لان له حقاً بالوراثة قبلها واعلنت بانها يكون وريثاً لها فاعتنى المذهب
 الرومي ودعي باسم بطرس الثالث . ثم زوجته في اول شهر ايلول سنة ١٧٤٤
 بصوفيا اوغسطين ابنة كريستيان اوغسطين التي اعتنقت المذهب الرومي ايضاً
 ودُعيت كاترينا . وبعد عشر سنين من هذا الاقتران وُلد لها ولد سمي بولس
 تولي في ما بعد تحت اسم بولس الاول . اما اليصابات فماتت في ٢٩ كانون
 الاول سنة ١٧٦١ بعد ان حكمت عشرين سنة وكانت حاذقة عاقلة محبة للعلم
 والآداب وانشأت داراً للعلوم في موسكو وأكاديمية للفنون

وبعد موتها خلفها بطرس الثالث وهو دوك هولستين المذكور آنفا فلما انتقل الملك سنة ١٧٦٢ الى العائلة الهولستينية بموت اخر ورث لدولة رومانوف وقف تقدم الدولة الروسية هنيئة ولم يعش بطرس الثالث الا سنة واحدة ومات مخنوقا قبل ان زوجته كاترينا اشركت بهذا الفعل . فتبوأ عرش الملك سنة ١٧٦٢ واشهرت جدا هذه الملكة بوفور عنفها وبجس التدبير والسياسة وعادت الدولة في ايامها الى التقدم وارتقت الى اعلى درجات الغز والفخار حتى بلغت ما بلغت من السطوة والشهرة الى ان صارت تعد من اعظم دول اوربا ووقعت الرعب في ما جاورها من الممالك . وحدث في زمن استيلاء كاترينا الثانية جملة حروب بين روسيا والدولة العثمانية وبولونيا واسوج كان الفوز والغلبة لها في جميعها ففتحت بلاد التتر الصغرى مع اقليم القرم واخذت ليشوانيا من البولونيين واستولت على كورلاد والشركس وظفرت سنة ١٧٧٢ بنصف مملكة بولونيا ودام ملكها معززا الى سنة ١٧٩٦ وهي تعد من مشاهير هذه الدولة مع بطرس الكبير وقد فضلها بعضهم عليه

وخلف كاترينا وادها بولس الاول فكان فاتر الهمة ضعيف الراي بينه وبين امه بون عظيم وكانت بومثل الحروب قائمة في اوربا على قدم وساق بين دولة فرنسا ودول اوستريا واطاليا وانكلترا . فدخل بولس المذكور في الحزب الاوروي على فرنسا وجيز سنة ١٧٩٩ جيشا وارسله تحت قيادة القائد سوفاروف الى نواحي ايطاليا وبلاد السويس لمحاربة الفرنسيين . وسنة ١٨٠٠ لما عاد بونا بارت من مصر تحالف معه على انه مات في السنة التالية والمظنون ان موته كان اغتصابا . فخلع سنة ١٨٠١ ولده اسكندر الاول وكان شابا نجيبا شجاعا سافر العزم . فتجدد التنور في ايامه بين دولته ودولة فرنسا الى سنة ١٨٠٥ وتحزب مع دولة اوستريا بمداخلات انكلترا فانتصر نابليون الاول عليه وعلى اوستريا في واقعة اوسترلينز الشهيرة وكانت واقعة دائلة حضرها كل من امبراطوري روسيا واوستريا وفرنسا ولذلك دُعيت بوقعة الثلاثة

امبراطورين . فعقدت اوستريا مع نابوليون صلح بريسبورج واما اسكندر فانسحب بباقى جيشه من دون ان يعقد صلحا . وسنة ١٨٠٦ بينا كان نابوليون الاول يحارب بروسيا انتصر لها اسكندر ففهره نابوليون بعد ان قهر بروسيا في حملة معارك عظيمة اخضاها معركة فريدلند التي دامت اثني عشرة ساعة وهلك فيها من الطرفين ٥٠٠٠٠ نفس . فطالب اسكندر الصلح فاجابة نابوليون اليه وعقدت شروطه عند نهر النيامين المعروفة بشروط نيلسبت وقد سبقت الاشارة عنها في تاريخ فرانس

ولما كان في شروط هذا الصلح ما يصعب النيام به نكث اخيرا اسكندر ببعضها فتجددت الحرب سنة ١٨١٢ بينه وبين فرانس ودخل نابوليون الاول روسيا بجيش جرار . فكان الروسيون يخلون البلاد ويحرقونها فاضر ذلك بالفرنساوين كثيرا ولما دخلوا موسكو وظنوا ان المصاعب قد زالت حرق الروسيون عاصمتهم حتى لا يكون لاعداهم مأوى بها ولا واسطة للزود فكاد يهلك نابوليون مع جيشه وانهمزوا جميعا على اسوأ حال من جرى شدة البرد القاسي ولحق بهم الروسيون واعملوا فيهم السيف والنار فهلك منهم مئات الوف وقد مر ذلك في تاريخ فرانس . ومع ما نجلته روسيا في هذه الحرب من الخسائر الجسيمة لم تكف عن اظهار البسالة في اعمالها فانها اخذت في تلك الاثناء اقليم فينلاندا واقليم الكرج وبوشيا الشرقية وحاربت فرانس سنة ١٨١٢ وسنة ١٨١٤ مع الدول المتحدة ودخل الامبراطور اسكندر باريس حين حدث نثريل نابوليون الاول عن الملك المرة الاولى وسنة ١٨١٥ استولت على اكثر من ثلثي بولونيا التي كان نابوليون الاول قبل ذلك بثمان سنين غلب صلح نيلسبت انشاها دولة مستقلة فجعل لها اسكندر حكومة ذات كونستيتوشيون تحت اسم مملكة بولونيا . وكانت روسيا وقتئذ من اعظم دول اوروبا في السطوة والنفوذ ورئيسة للاتحاد المعروف بالاتحاد المقدس المنعقد بينها وبين دول اوستريا وانكلترا وبروسيا وبعض دول اوروبا الثانوية الى محاربة فرانس ونابوليون

وسنة ١٨٢٥ توفي اسكندر الاول وخلفه ولده نكولا ولما ربحتم قدمه واستبد
بالسلطنة تتبع خطوات سلفائه في محبة الافتتاح ونوسيع دائرة ممالكه فتسلطت
روسيا في ايامه على القسم الاعظم من ارمينيا واخذته من يد الفرس واخذت
ايضاً ابالة اخالسكي ومصب نهر دانيوب من الدولة العثمانية وتظاهرت في
مساعدة تحرير اليونان من سنة ١٨٢١ الى سنة ١٨٢٧. وسنة ١٨٢٩ وقع خلاف
بينها وبين الدولة العلية وبلغت الجيوش الروسية الى نواحي القسطنطينية
فتدخلت الدول الاولى في اوروبا وفصلت الخلاف الواقع بين الطرفين بدون
قتال . ثم سعت روسيا في تحرير اهل السرب والنالاخ والبغدان ولكهما لم تنجح
يومئذ بان تجعلهم تحت حمايتها على نوع رسمي . وفي سنة ١٨٣٠ اثار اديل بولونيا
ثورة عظيمة فنهزم الامبراطور نكولا وادخلهم في الطاعة ثانياً بعد صعوبات كثة
ومن ذاك الحين امست بولونيا قسماً من مملكة روسيا بعد ان كانت حاضرة قبل
ذلك على نوع من الاستقلال ومراعاة المخاطر . وما زالت روسيا متقدمة في
طرق النجاج والفلاح الى سنة ١٨٥٢ . ولما رأى الامبراطور نكولا ان الظفر
سائر في مقدمة اعلامه في كل صقع وناد وان الدهر قد صفا له وسالمته الايام
عزم في السنة المذكورة على محاربة الدولة العثمانية لاسباب ذكرناها في تاريخ
الدولة العلية فاصطلت نيران الحرب بين الدولتين واشترك فيها بعض دول
اوروبا ضد روسيا فاستدامت اكثر من سنتين وسفك فيها دماً كثيرة وانكسر
الجيش الروسي في اغلب المواطن وفي غضون هذا الحرب توفي الامبراطور
نكولا وخلفه ابنه اسكندر الثاني وبعد ان تبوأ زمام السلطنة ببضعة اشهر بعث
الى الدول المتحدة يطلب الصلح بعد فقد مدينة سيباستبول في القرم فعقدت
جمعية دولية في باريس تمت فيها شروط الصلح في اواخر شهر اذار سنة ١٨٥٦
وقد استوفينا ذلك في تاريخ آل عثمان

وبعد اتمام شروط المصالحة المذكورة اخذ اسكندر في ملافاة واصلاح ما
فسد في الحروب المشار اليها وارجاع السلم والراحة الداخلية وتوطيد وتنويم

حال سلطنته وشرع في مشروعات حستمرجنا لم يسبته اليها احد من سلفائه فابتدا بتحرير الرعايا العامة من ثقل نير سلطة الاعيان المجائرة ووضع نظم جديدة من هذا القليل ونظم كيفية تعليمهم فامسى من جرى اجراءاته هذه المدوحة في خطر ميين من مطامع الاشراف لان تلك الاصلاحات كانت تبين مقاصدهم ومآربهم كل الميابة وكثيرا ما تهددوه بالقتل فنجما من اشراك المنية التي نصبوها له . وبينما كان في اثر هذه المشروعات والاصلاحات متفقدًا حال بلاده تجددت الثورة في بولونيا سنة ١٨٦٣ فتلافى الامر حالاً غير انه لم يتمكن من ارجاع الدائرين الى حيز الطاعة الا بعد الثورة بستين فسفكت فيها دماء كثيرة وادخلهم اخيراً في الطاعة واقام اخاه فسطنطين نائب ملك عليها فهدأت الاحوال واستنكت . وفي هذا الوقت تقدمت فتوحات روسيا في الشرق الاعلى من قارة اسيا فاستولت على اغلب خانات تركستان كنجارى وسمرقند والكشغار وغيرها . ولما كانت شروط معاهدة باريس ثقل على روسيا انتهزت فرصة انشغال فرنسا بالحروب الاخيرة مع بروسيا سنة ١٨٧٠ وطلبت ابطال بعض شروط المعاهدة فعقدت جمعية دولية في مدينة لندن حيث صار نسوية الخلاف في تنقيح بعض الشروط ايجاباً لطلب روسيا

وفي سنة ١٨٧٦ اذ كانت نار الفتن مشتعلة في بعض ولايات الدولة العثمانية الكائنة في اوربا كالمهرسك والبشناق وجبل الاسود اتخذ المالك اسكندر تلك الحوادث وسيلة لاشهار الحرب على آل عثمان بغية تحرير تلك البلاد الثائرة من سلطان المسلمين فامد الاهلين اولاً بالذخائر والمون الحربية ثم بالمال ثم بالرجال فاصطلت نيران الحرب في كل تلك الانحاء واستدامت نحواً من ستين وكان الظفر بها للروس بعد ان كابدوا خسائر يكل عن وصفها القلم ووصلت عساكرهم الى ابواب القسطنطينية ولولا نظاهر الانكليز لمقاومتهم وادخال بوارجم الى مرفاء المدينة لدخلوها وفي اثناء ذلك وقع الصلح بين الدولتين وقررت شروطه بين الطرفين ونهدت الدولة بدفع غرامة الحرب وقدرها

نحو ٢٠ مليون ليرا واما كيفية حل تحرير تلك البلاد النائرة وما يتعلق بادارتها المستقبلية فقد ترك لراي الدول الكبيرة التي اجتمعت نوابها في برلين سنة ١٨٧٨ ويمتضى ما تقرر في ذلك المؤتمر صار الاجراء بموجب وحيث قامت العساكر الروسية من امام القسطنطينية ورجعت الى الاوطان وفي تاريخ نوركيا ذكرنا شيئاً عن قرارات مؤتمر برلين . وقد عاش الملك اسكندر الثاني بعد ذلك الى سنة ١٨٨١ ومات قتلاً من جماعة النيهيلست اصداده الذين كانوا يطلبون حرية الشعب وتغيير نظمات البلاد وجلس مكانه ابنه اسكندر الثالث في ١٢ اذار سنة ١٨٨١ والله اعلم ماذا يكون من امره واجراءاته

الفصل السابع عشر

في وصف بلاد اسوج ونروج وتاريخها

ان مملكة اسوج ونروج ويقال لها سويد ونورويج ويحدها شمالاً البحر المتجمد الشمالي . وشرقاً مملكة روسيا وبحر البلتيك وخليج بوثنيا . وجنوباً بحر البلتيك المذكور وبوغازا كاتينات وسكاجيراك . وغرباً البحر الشمالي . وعدد اهلها اربعة ملايين ومئتا الف في اسوج ومليون و٧٥٠ الفاً في نروج . وقد كانت المملكتان منفصلتين احدهما عن الاخرى ثم اتحدتا معاً وصارتا تحت حكم ملك واحد سنة ١٨١٤ ولكلٍ منهما لغة وعوائد واصطلاحات تخالف الاخرى . وفي هذه المملكة كثير من الجبرات والانهر والجبال الشائخة التي لا ينقطع عنها الثلج . وفيها ايضاً معادن الحديد والفضة والنحاس والكبريت والرصاص . وهواؤها بارد والشتاء بها قاس الى الغاية ويدوم ستة اشهر بحيث لا يوجد وقت

للرياح والخريف وصيفها قصير جداً لا تزيد مدته أكثر من خمسين يوماً . وأما تربتها فقليلة الخصب ولا يصلح للزراعة إلا القليل منها . وفي أحرشها وجبالها اجناس كثيرة من الحيوانات يتخذون جلودها للفراء . وهناك حيوان يسمى الرنة وهو عظيم الخلفة على قدر الثور الكبير اشبه بالابل يستعمله الاهالي لنقل الامتعة وجر العربات . وفي مجرياتها كثير من انواع السمك خصوصاً النوع المسمى مورو اي الحوت فانهم يصطادون منه مقادير وافرة ويستخرجون منه اللحم والزيت المعروف بزيت كبد الحوت المفيد لبعض الامراض

اما الصنائع في هذه البلاد فرائجة وفيها كثير من المعامل لاصطناع اقشة الصوف والقطن والحديد وغير ذلك . وتنقسم اسوج الى ٢٤ مقاطعة . ونروج الى ١٧ مقاطعة . ومن مدن اسوج استوكهلم وهي من امهات مدن المملكة ومقر كرسي الملك واهلها نحو ١٢٠ الف نفس وهي مدينة نظيفة ذات مباني حسن ومعامل كثيرة . ومدينة غوتنبرج وهي بعد استوكهلم في التجارة والصنائع . ثم مدينة كريستيانيا وهي قصبة بلاد نروج واهلها نحو ٢٥ الف نسمة وهي مدينة حسنة ذات تجارة عظيمة في الحديد والخشب والسمك وبها مقر كرسي نائب الملك . وايس لهذه المملكة من الولايات خارج اوربا الا جزيرة مار برثولماوس في اطراف الهند الغربي وهي جزيرة صغيرة يبلغ عدد اهلها نحو خمسة الاف نسمة

واكثر اهالي هذه البلاد من طائفة البروتستانت . وحكما من نوع الملكي المقيد . وبما ان بردها قاس جداً تجد اهلها من ذوي الشجاعة والباس وهم ايضاً حسان الخلفة اصحاب خفة ونشاط يتجدون على الاشغال الشاقة ويميلون للحرب طبعاً ولكنهم مع ذلك موصوفون بالانس والدعة ولم رغبة شديدة في العلوم والمطالعات حتى يقال انه لا يوجد بينهم واحد في الالف من يجمل القراءة والكتابة

اما تاريخ هذه المملكة فلا يعلم عنه شيء في الازمنة القديمة سوى ان اهلها

كان اصلهم من الجرمانيين قاتوا واستوطنوا فيها منذ القدم وتنصروا في الجبل التاسع بواسطة مرسلين انكليز وفرنساويين وكان يقال لهم القبائل السكندنافية. وكانت هذه البلاد خاضعة للملك دنيبارك واول من اخضعها الملكة مرغريته والديمار اذ تغلبت عليها بقوتها وحيلتها وصيرتها مع نروج ودنيبارك ملكة واحدة. ولكن بعد موت هذه الملكة هاج الاسوجيون على طلب الحرية وبعد قتال يذكر تخلصوا من اسر الدنيباركيين ثم رجعوا اليهم ثانية واتخذوا لهم منهم ملوكا ومدبرين. ولما كانت سنة ١٥٢٠ اذ كان كريستيان الثاني ملكا على دنيبارك ومطران اويسال رئيسا على مطارنة الملكة وكانا كلاهما كثيري العيوب قاسي القلب متنفذين على ظلم الرعايا وبهم لم يعد ممكنا للاسوجيين تحمل ذلك الجور العنيف فاخذوا يسعون في ايجاد طريقة لتخلصهم. فلما شتم الملك راحة ذلك اتفق مع المطران على ضبط اكابر مدينة استوكهلم وحكامها فالتى القبض على ٩٤ رجلا من ارباب المشورة وامر بقتلهم محتمجا بان البابا قد حكم بكفرهم واخرجهم من دين النصرانية لعدم طاعتهم للمطران. فحينئذ نفر الاهالي من هذا العمل التظلم ولم تعد الصعوبات تمنعهم عن طلب الاستخلاص من عبودية الدنيباركيين فاقاموا عليهم قائدا يسمى غوستاف واصا. وهو شاب من نسل الملوك القدماء كان مختبئا في وسط الغابات وكان شجاعا مشهورا فصيحاً اديبا محبا لوطنه وجاهدا في الجهاد الحسن في مقاومة ظالمهم وبعد عدة وقائع يطول شرحها انتصروا عليهم وقبض غوستاف واصا على الملك كريستيان والمطران وطردها من اسوج فاتخذوا الاهالي ملكا عليهم سنة ١٥٢٣ وحالما استامن على مركزه اخذ يتهم من الاساقفة والقسس ممن اعتقد انهم مستولون على اموال اسوج وينفقونها في ظلم الناس ومحاربة الملوك فعاقبهم ما امكن وفي مدة وجيزة نزع من البلاد الديانة اللاتينية الغالبة وجعل رعاياه يتمسكون بالمذهب البروتستانتي ثم توفي في عزٍ ونحر وله من العمر ٧٠ سنة

وخلعه في الملكة احد اولاده المسي غوستاف ادولف فتبوا تاجها سنة

١٦١١ وكان من اشجع ابناء زمانه موصوفاً بالحزم والقهم سعيًا في مغازبه فاخذت البلاد في ايامه تقدم حتى اكتسبت شهرة عظيمة لاسيا بواسطة انتصاراته الكثيرة وافتتاحاته العديدة . وكانت الملكة بومثذ مشتبكة في حرب مع روسيا ودينبارك وبولونيا فبعد ما عقد صلحًا مع الدولتين الاوليين استظهر على بولونيا في موقعين عظيمتين والزمها ان تنازل له عن كل حصون ليفونيا وبولونيا البروسية . وبعد نهاية هذه الحروب اتحد مع امراء المانيا البرونستانت ونحزب للطائفة البرونستانتية ضد الامبراطور فرديند الثاني الذي كان يعاملهم بالقسوة والجنا فاشهر عليه حربًا واقتم جيوشه سنة ١٦٢١ في واقعة ليبسبك التي كانت تحت قيادة الجنرال تلي فنك بها وانتصر عليها انتصارًا عظيمًا بعدما قتل منهم عددًا وافرًا . ثم في سنة ١٦٢٢ فلك ثانية بمجوش فرديند في لوتسين ولكنه قُتل في وسط المعركة . وخلاصة الكلام انه اضعف سلطنة فرديند الثاني وفتح نحو مئة محل في بلاد المانيا أرجعت بعد موته

وجاس على سرير الملكة بعد ادولف المذكور ابنة كريستينا وكانت كاثوليكية المذهب فريدة في جودة العقل والفتنة محبة للعلوم والعلماء غير ان بعضهم اتهمها بفتح السيرة فبعد ان استبدت بالملك بعض سنين تنازلت عن الكرسي لقرينها كارلوس العاشر من العائلة المسماة بالفتنيتين ففتح حجة فتوحات وانتصر على الدينباركيين مرارًا واشهر بانتصاره في واقعة وارسوا عند محاربتيه في بولونيا وازاد اقليم ايسكانيا الى اسوج

ومن اعظم ملوك العائلة المذكورة الملك كارلوس الثاني عشر وُلد في ٢٧ حزيران سنة ١٦٨٢ وكان منذ صغره فريدًا بين الناس ذاهمة عالية وصفات مستحكمة محبًا لركوب الخيل ولرياضات العنيفة ومحبًا لانعاب الشاقة وكان مع ذلك غير ناقص في العلوم والفضائل الادبية فتشأ شابًا حكيمًا وجبارًا متينًا . ولما كان له من العمر خمس عشرة سنة جاس على سرير الملك مكان ابيه كارلوس الحادي عشر وقام باعباء الملكة اتم قيام ففتح فتوحات كثيرة وفعل افعالًا عجيبة

بقصر اللسان عن وصفها وتجز الاقلام عن شرحها . وكان بطرس الكبير ملك روسيا قد اتحد مع فريدريك ملك دنمارك واوغسطس ملك بولونيا على حربه فالتفاهم كارلوس وحاربه وانتصر عليهم في عدة وقائع بعدما فرّق جوعهم ومزقها وانزل اوغسطس عن تخت بولونيا قوة واقتداراً واقام مكانه ملكاً اخر يدعى اسنايسلاس . ثم حدث بينه وبين بطرس المذكور مواقع اخرى انتصر فيها عليه لاسيما في واقعة نرفا المشهورة سنة ١٧٠١ فانه كسر فيها جيوش الروسيين اشأم كسرة فذاع صيته وانتشرين ممالك الارض حتى امست أكثر دول اوروبا في خوف وحذر من سطوته وبطشه . وما زالت الحروب بينه وبين بطرس المذكور متصلة بدون انقطاع مدة تسع سنين الى ان حدثت بينهما اخيراً واقعة ييلتوفا المشهورة سنة ١٧٠٩ وكانت قد كلت وضعت جيوش كارلوس من كثرة الحروب والمشقات المتتابعة وهلك أكثرها من الجوع والبرد فاتصر بطرس عليه بعد موقعتين عظيمتين وانجرح كارلوس فيها جرحاً بليغاً ونشنت مثل جيشه كل التشنج واسر منه جانب فخر هارباً وهو على اسوأ حال والتجأ الى الدولة العثمانية واقام في بلادها مدة طويلة بعدما فقد أكثر فتوحاته وضاعت على مملكة اسوج اقاليم وولايات معتبرة . وبعد رجوع كارلوس الى بلاده نهض سنة ١٧١٨ لمحاربة نروج واسترجاع الاقاليم التي كانت قد استولت عليها من بلاده وفي اثناء محاصرته مدينة فردريكها ل اصابته رصاصة في صدغه مات منها على الفور . ولم يبق لاسوج قائم بعد كارلوس الثاني عشر واخذت من بعده المملكة في الانحطاط شيئاً فشيئاً وغيّرت الامة نظمات البلاد ورفعت من ايدي ملوكها التصرف المطلق واودعته مجالس شورية فكان ذلك سبباً لاطفاء نيران كثيرة على ان البلاد لم تخل من الفتن والمناسد

وسنة ١٧٥١ نبأ سربير مملكة اسوج ادولف فريدريك من عائلة هولستين غونورب ثم تناول المملكة بعده كارلوس الثالث عشر واذا لم يكن له من يورثه من ذريته تبنى المارشال برندوت الفرنساوي ليكون وريثاً وفي ايامه انضمت

مملكة نروج الى اسوج سنة ١٨١٤ . وبعد توفي كارلوس المذكور قام بالملك بعده المارشال برندوت المذكورة سنة ١٨١٨ نحت اسم كارلوس الرابع عشر وقام بعده باعباء الملكة اوسكار الاول سنة ١٨٤٤ ثم خلفه اوسكار الثاني سنة ١٨٧٢ وهو الملك الحالي

الفصل الثامن عشر

في وصف مملكة الدنيارك وتاريخها

هذه المملكة هي احدى الممالك الاسكندنافية الثلاث واصغرهن مجدها شمالاً مضيق سكاجيرك الناصل بينها وبين نروج وشرقاً اسوج وجنوباً هامبورج ونهر الالب اللذان يفصلانها عن هانوفر وغرباً بحر جرمانيا اي بحر الشمال . وهي على شبه جزيرة يتبعها ارخيل للشرق وبعض جزائر صغيرة وعدد سكانها قبل سنة ١٨٦٦ كان مليونين ونصفاً ولكن بعد انفصال الثلاث امريات التي ضمنها بروسيا اليها وهي شليسويك وهولستين ولاونبرج تنازل عدد اهلها الى مليون . ويتبع هذه المملكة بعض املاك في الخارج منها جزيرة ايسلاندا في اميركا الشمالية اكتشفها احد فرسان نروج سنة ١٤٦٠ ومن ذلك الوقت اخذ النرويجيون يستوطنون فيها . وبها جبل مهول بدعي هكلا وهو بركان يتصاعد منه احياناً نار ودخان ومواد ملتهبة فتهتز الجزيرة من هيجانه . وعدد سكان هذه الجزيرة ٦٥ ألفاً . ومن املاكها جزيرة كريتلاندا وهي ايضاً في اميركا الشمالية اكتشفت في الجبل التاسع وعدد اهلها نحو عشرة الاف نسمة يسكنون في القسم الغربي الجنوبي من الجزيرة . ومن املاكها ايضاً جزائر فارو في شمال اسكوتلاندا يبلغ عدد سكانها نحو ٩٠٠٠ نفس وثلاث جزائر صغيرة في الهند الغربية اهلها نحو ٢٨ ألفاً .

وكانت بلاد فنلندا أيضاً تابعة لاسوج قديماً اخضعها الاسوجيون في واسط الجبل الثاني عشر وادخلوا اليها الديانة المسيحية بعد ان كان اهلها عبدة اوثان ولكن في معاهدة نيسناد الواقعة سنة ١٧٢١ استولت روسيا على ما كان يعرف باقليم فيبورج وسنة ١٨٠٩ استخلصت باقي البلاد من الاسوجيين قهراً بحيث لم يبق لهم عتقة في تلك الناحية . ومن مدن هذه المملكة مدينة كوبنهاغن فصة البلاد وهي مدينة حصينة جميلة ذات ميناء حسن وتجارة عظيمة ممتدة في غالب بلاد اوروبا واهلها نحو ١٥٠ ألفاً . ثم مدينة السبنور موقعها على البوغاز الداخل الى بحر بلتيك المسمى سند وفي هذه المدينة كانت تؤخذ قديماً الخفارة للملك من جميع السفن التي تدخل في البحر المذكور

اما هواء هذه البلاد فرطب لان الجانب الاكبر منها محاط بالمياه وبردها معتدل بالنسبة الى موقعها . وفيها بقصر النهار وبطول بخلاف العادة المألوفة فيكون في بعض شهور الشتاء ست ساعات ونصفاً وفي بعض شهور الصيف سبع عشرة ساعة ونصفاً

اما محصولات هذه البلاد فتكاد لا تذكر بالاجمال واشهرها القمح والشعير والذرة . ومع انهم يستخرجون من الشعير البيرا التي هي مشروب عموم الاهالي وبصطنعون من الذرة اكثر خبز البلاد يرسلون من هذين الصنفين مقادير وافرة الى الخارج برسم التجارة . ولاهل دنبارك البلد الطولى في اصطناع اقمشة الصوف والكتان والفخار والساعات الخشبية والوجاقات . وفي هذه البلاد معامل كثيرة لصب الحديد والقرطاس وعمل البلور والعريبات والاث الموسيقى والصابون والشع والسكر . واكثر هذه المعامل تختص بالحكومة منها معمل عظيم في مدينة كوبنهاغن لعمل الترفوري وكرخانة جوخ في ارسرود

اما الحكم فيها فهو من نوع الملكي المقيّد يجري بواسطة مجالس ودواوين . والديانة العامة هي البروتستانتية والعلوم فيها ناجحة . وقد اشتهر فيها جملة افاضل مثل نخبو براهي وثورسوالدسن واندرسن وغيرهم

اما تاريخ هذه البلاد فهو كباقي تاريخ الممالك الصغيرة لا يحاط باهمية عظيمة وكانت قديماً تنقسم الى عدة مقاطعات صغيرة يسكنها شعوب مختلفة الاجناس كالغوثيين والكبريين والانغليين وكانوا قبائل متبررة يحبون الحرب وشن الغارات براً وبحراً . ولكن بعاشرتهم الرومانيين تحسنت احوالهم واكتسبوا منهم فوائد كثيرة واشتهروا في الزراعة والثبات في الوقائع والمغازي حتى انهم قاوموا شارلمان واضروا بالسلطنة الكارلوفنجية وبالمانيا واسبانيا ضرراً جسيماً وبنوع خصوصي بانكثرتا حينما افتتحوها في الجيل التاسع وامتلكوها مرتين لاسيما في ايام كانت الذي ادخل اليها الديانة النصرانية في الجيل الحادي عشر كما سبقت الاشارة في الكلام على انكثرتا

وسنة ١٢٩٧ انضم الى مملكة الدنيارك ملكتنا اسوج ونروج فمحت رئاسة الملكة مرغريته ابنة والديمار الثاني التي كانت على جانب عظيم من الذكاء والبطش حتى انهم يسمونها سميراميس الشمال تشيياً لها بسميراميس ملكة المشرق . والاتحاد المذكور يعرف باتحاد كلمار ولكن لم يكن له من الفائدة سوى الاسم فقط لان الاضطراب والاختلال كانا متصلين وانتهى الحال بانفكاكه سنة ١٤٤٩ . وسنة ١٤٢٨ انتخب الدنياركيون ملكاً عليهم كريستيان الاول امير اولدنبورج الذي دام الملك في عهده الى سنة ١٤٦٣ ومن اعماله انه كان قد ضم امرتي شليسويك وهولستين . وسنة ١٥١٣ نبأ فمحت الملكة كريستيان الثاني حينئذ الاول وكانت قاسياً ظالماً اطلق عليه لقب نيمون الشمال . واذ كانت اسوج يومئذ منقسمة الى حزين حرك رئيس اساقفة اويسال كريستيان على افتتاح تلك الملكة فزحف اليها وجارها وقتل ملكها . وبعدما استولى عليها عمل واية دعا اليها الاشراف والاساقفة فلما اجتمع الجميع وكان عددهم اربعة وتسعين شخصاً قتلهم عن بكرة ابيهم ثم اطلق العساكر على الاهالي فانقضوا عليهم كالبواشق وقتلوا من وقع بين ايديهم فكانت الدماء تجري من كل اطراف المملكة . فالتزم حينئذ الاسوجيون ان يفروا بالرياسة وتوجوه ملكاً عليهم سنة

١٥٢٠ فدام كريستيان متسلطاً عليهم الى سنة ١٥٢٢ حين قام غوستاف واصا احد اشراف الاسوجيين مع جمهور من ابناء وطنه وخلعوه عن كرسي مملكتهم . ثم خلع ايضاً عن تخت ملكة الدنيارك ومات محبوباً سنة ١٥٢٩ ومن ذلك الوقت انفصلت اسوج عن دنيارك انفصالاً نهائياً واما نروج فبقيت منضمة اليها الى سنة ١٨١٤

ومن ملوك هذه الدولة فريدريك الثاني تلك سنة ١٥٥٩ وكان اول امر شرعيه اشهار الحرب على الاسوجيين طعناً باخضاعهم الى ملكية فجارهم مدة سبع سنين بدون نتيجة . وهو الذي وهب تيغوراهي الفلكي الشهير جزيرة هون لبناء مرصد سلطاني لرصد الاجرام السماوية باقى الى هذا اليوم . ومن ملوكهم ايضاً كريستيان السابع جلس على كرسي الملكة سنة ١٧٦٦ وتزوج بكارولين ماتيلد اخت جورج الثالث ملك الانكليز . وبما ان حكومة الدنيارك كانت من حزب فرانساً في زمن حروب نابوليون الاول هاجمت الانكليز عاصمتها سنة ١٨٠٧ واطلقت عليها القنابر واستولت عليها فهرب الملك الى هولستين ومات هناك في السنة التالية . وخلفه ابنه فريدريك السادس فاصح ما دمره الانكليز في الملكة . ثم حارب الاسوجيين الذين كانوا مصممين على استخلاص بلاد نروج فاستظهر عليهم والزمهم في طلب المصالحة . وسلك مسلك ايو في التحزب والميل الى فرانساً ولكنه سنة ١٨١٤ اعتمد مع انكلترا واسوج صلحاً بعد ان تنازل عن نروج الى اسوج وعن جزيرة هليكولاند^(١) الى انكلترا . وسنة ١٨١٥ تنازل الى بروسيا عن بوميرانيا الاسوجية وعن روغن الماخوذتين من اسوج بدلاً عن بروج واستعاضها بامرية لاونبرج التي استرجعتها بروسيا مع غيرها فيما بعد كما

١ ان جزيرة هايكولاند ومعناها الارض المقدسة كائنه في البحر الشمالي وهي ذات فائدة عظيمة لانكلترا في وقت الحرب لانها تستخدمها اذ ذاك كمخزن لوضع مهابها واورها البحرية . وعدد سكانها ٢٨٠١ ويقصدها كثيرون في هذه الايام المنتزه والاستحمام في البحر

نقدم القول . وكان آخر ملوك عائلة اولدنبورج الملك فريدريك السابع تولى
سنة ١٨٤٨ وتوفي سنة ١٨٦٣ واذا لم يترك وارثاً تولى بعده الامير
كريستيان غلوسبورج وفقاً لمعاهدة لندن سنة ١٨٥٢
وتلقب بكريستيان التاسع
وهو المتولي
الآن